مِنـهاج النبوّة

في تحقيق الغاية من الرسالة الخاتمة

" التبـيان لسـور القـرآن "

(الجزء الرابع)

الباحثان :

علي أحمد السعود

جواد عيسى العدرة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

" منهاج النبوّة " [1] في تحقيق الغاية من الرســالة الخاتمة ؛ هو الطريقة التي التزمها رســول الله الخاتم في تلقّى الرســالة والســير بها ، تبليغاً وبياناً وتطبيقاً ، حتى أصـبحت حقيقة في الواقع الإنســاني ، متمثّلة في الأمّة المســلمة الخاتمة ، كما كانت يوم انتقل - صلّى الله عليه وآله وسلّم - إلى الرفيق الأعلى وقد أكملت دينها ، أي أكملت عبوديتها لله ، فكانت خير أمّة أُخرجت للناس ..

وهو المنهاج نفســه الذي ينبغي أن يلتزمه المســلمون في تلقي الرســالة والقيام بها ، إذا أرادوا أن يكونوا دائماً خير أمّة أخرجت للناس، في كل زمان ومكان، بإذن الله تعالى..

وبيان " منهاج النبوّة " في تحقيق غاية الرســالة الخاتمة ، ســيكون من خلال عملٍ مكوّنٍ من مجموعة أبحاث رئيســـة ، كل واحد منها يشـــكّل جزءاً من البحث الأصـــل ، وعددها ستة ، وهي :

الجزء الأول : فكرة الرسالة .

الجزء الثاني : الغاية من الرسالة .

الجزء الثالث : المنهج .

الجزء الرابع : التبيان لسور القرآن . *(وهو البحث الذي بين يدي القارئ الكريم)*

الجزء الخامس : التنزيل على الواقع .

الجزء السادس : مفاهيم ومصطلحات رسالية .

---

1 - أصل هذا الإصطلاح ورد في التعبير القرآني في قوله تعالى : (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً **وَمِنْهَاجًا** وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً . . (48)) المائدة . و ورد عن رسول الله صلّى الله عليه آله وسلّم : (.. ثم تكون خلافة على **منهاج النبوة** ..) صحيح الجامع للألباني . فالأمّة المسلمة الخاتمة ، لها " شرعتها " و " منهاجها " الخاصان بها .
[وللمنهاج ، ثلاثة ألفاظ تستعمل فيه : " النهج " و " المنهج " و " المنهاج "، وكلها يقصد بها الطريق ، لكن " المنهج " أغلب استعماله في الطريق الفكري . وأغلب استعمال " النهج " في الطريق مطلقا . وأغلب استعمال " المنهاج " في الطريق العملي الذي له أصل فكري . ولكن الذي هو في البؤرة في لفظة " المنهج " هو الطريق الفكري ، أي الكيفية النظرية التي يتم وفقها الوصول إلى حقائق معينة . وأما " المنهاج " فهو الطريقة العملية التي يُسار عليها للوصول إلى مقصد بعينه] .

مقدمـة

بســم الله الرحمن الرحيم ، وبه نســتعين . والصـلاة والســلام على المبعوث رحمة للعالمين ، وآله الطيبين الطاهرين ، وأصحابه الغـــرّ الميامين ، ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدّين ، أما بعد :

بحث " **التبيان لســـور القرآن** " : هو دراســـة تطبيقية لما جاء في بحث " **المنهج** " من أصــــول وضــوابط ، حيث نقوم بتطبيقها على ســور القرآن الحكيم والنظر فيها لفهم كيف كان رســول الله يتلقاها كمنهاج للسير، من أجل تحقيق الغاية منها في الواقع الإنساني .

ففي " التبيان لسور القرآن " البيان العملي المفصّل ، لـــ " منهاج النبوّة " في تلقي رسول الله محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم الرسالة ، وسيره بها على بصيرة حتى تحققت الغاية منها .. ذلك أن القرآن الحكيم هو نفسه قِوام [1] " المنهاج "، ولا نقول إنه دليل عليه أو يتضمنه فقط .. بل إن القرآن نفسه ، بآياته وسوره .. هو قِوام " المنهاج " ومادته ، خطاباً وأعمالاً :

- ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ **يَهْدِى** لِلَّتِى هِىَ **أَقْوَمُ**... ﴿٩﴾ ﴾ الإسراء

أي ، يهدي للتي هي " أعدل وأعلى" ، "هكذا على وجْه الإطلاق **فيمَن** يهديهم ، **وفيما** يهديهم " .

- ﴿ **وَنَزَّلْنَا** عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ **تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ** وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ النحل

أي ، وآتيناك القرآن مفرقاً على مكث ، من أجل البيان الواضح الذي لا لبس فيه (التبيان) لكل شيء متعلّق بتحقيق الغاية التي من أجلها نزّلناه ؛ وهي إكمال العبودية (الدين) لله تبارك وتعالى :

﴿ ..فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا **يَتْلُوا۟** عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ **لِّيُخْرِجَ** ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ.. ﴿١١﴾ ﴾ الطلاق

وعند النظر إلى القرآن الكريم – آياته وســـوره – وتلقيه على أنه قوام " المنهاج "، عند ذلك ، يعود القرآن ليـــتبوأ مكانته التي جعلها الله تعالى له ، شرعاً وقدراً ، وهي قيادة وتوجيه الجماعة المسلمة ومن ثم الأمّة المســلمة ، في الســير من أجل إكمال الدين لله ، وحمله رســالة من الله للناس كافة.. كما كان حال الجيل الأول من هذه الأمّة .

ويسير البحث على النحو التالي :

1- والقِوام : أسم لما يقوم به الشيء، أي يثبت ، كالعِماد والسِّناد لما يُعمد ويُسند به. (المفردات لـ الراغب الأصفهاني).

1- **تمهيد** ، وفيه أربعة مطالب :

الأول : التذكير بأهم الأســس والحيثيات العامة التي لا بد من اعتبارها عند النظر في ســور القرآن الكريم لنتمكن من فهمها فهماً منهاجياً ، أي كمنهاج . بمعنى بيان كيفية النظر في ســـور القرآن الحكيم لمعرفة دور كل سـورة وموقعها في السـير من أجل تحقيق الغاية من الرسـالة .. الأمر الذي يقتضــي فهم طبيعة ذلك السير بداية .

الثاني : بيان طبيعة وحقيقة سير رسول الله محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم ، بالرسـالة الخاتمة من أجل تحقيق الغاية منها ، وبيان الترتيب السُـننيّ العام لأحداثه ومواقفه ، وأنه – بشـكل عام – كان على ثمانية أطوار وفي مرحلتين رئيستين .

الثالث : بيان كيفية توزيع سور القرآن الحكيم على تلك الأطوار من سير الرسول الكريم بالرسالة، ومعرفة أي السور التي تتعلّق بالطور المعين في المرحلة المعينة . وذلك ، بدايةً ، من خلال البحث عن الأدلة أو القرائن أو الإشارات .. التي تبيّن موقع السورة في خط السير بالرسالة لتحقيق الغاية منها، وحسب ترتيبه السننيّ العام . ثم يكون تحديد " مناط السورة ".. وهو الحالة أو الموقف الذي يواجهه المؤمنون، جماعة أو أمّة ، في ذلك الموقع (المستوى) من السير بالرسالة لتحقيق الغاية منها . وبعد ذلك ، وفي نظرة مجملة وشاملة لآيات السورة ، نستعرض ما ورد فيها من معالجات شرعية وسننيّة لذلك المناط..

الرابع : نشير إلى بعض القضايا والأفكار، ونذكّر بها بشكل مجمل.. والتي تبيّن خصائص هذا " التبيان " وتميّزه عن غيره من أساليب وطرق تفسير وبيان القرآن الأخرى ؛ مثل التفسير التحليلي ، والتفسير الموضوعي ..

2- المباشرة في : " **تبيان سور القرآن** "

وسـنتناول سـور القرآن الكريم حسـب ترتيب النزول المعروف ، وليس حسـب ترتيب المصـحف ، وذلك لاعتبارات فنيّة إجرائية (أسلوب) سنذكرها في مكانها .

والحمد لله رب العالمين .

اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت السميع العليم ..

اللهم انفعنا بما علمتنا ، وعلمنا ما ينفعنا ، وزدنا علماً ..

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تمهيـد

المطلب الأول : أما وقد فصّلنا القول في الجزء الثالث " المنهج " ، نُـــــذكّر هنا وبإجمال ، بأهم الأسس والحيثيات التي لا بد من اعتبارها عند النظر في سور القرآن الكريم لنتمكن من فهمها فهماً منهاجياً :

1- معالجة " **مناط السورة** " [(1)] هي " **مقصد السور** " أو " **سياق السورة** " ، أي الغرض الذي من أجله ورد كل ما في " **محتوى السورة** ". فلا بد من التمييز عند تدبّر السورة ، بين " **محتوى السورة** " من حيث الموضوع – الأفكار والأحكام – ومن حيث أساليب البيان و وسائل العرض والتأثير . وبين " **مقصد السورة** " ؛ وأنه بيان المعالجة لـ " **مناط السورة** " ، فيُفهم المحتوى في إطار تلك المعالجة . فكل ما ورد في " محتوى السورة " ، سواء من حيث الموضوع أم من حيث الأسلوب ، إنما جاء ليُحقق المعالجة لمناطها ، أي ليحقق " مقصد السورة " . وهذا هو " **الفهم المنهاجي** " للسورة .

2- " **مناط السورة** " هو حالة أو موقف مما يواجهه المؤمنون حَمَلة الرسالة – جماعة أو أمّة – أثناء السير لتحقيق الغاية من الرسالة ، وقد جاءت السورة كوحدة واحدة لمعالجته . فيُعتبر ما يواجهه المؤمنون حَمَلة الرسالة على طول خط السير، من البداية حتى تحقيق الغاية ، من مواقف وأحوال هو " المناط " الذي جاءت سور القرآن الكريم – بمجموعها – لمعالجته ، سواء كان ذلك في إطار " عملية البناء " ؛ أي تعليم وتزكية المؤمنين وإعدادهم .. حتى يصبحوا أمّة تُكمل دينها لله عزّ وجلّ . أم في إطار " عملية الهدم والإزالة " ؛ أي مواجهة الكافرين – بأشكالهم المختلفة – وإبطال مكرهم وكيدهم .. كمعوّقات تحول دون وصول المؤمنين إلى تلك الغاية .

3- ومن ثَمّ ، فـ " **الفهم المنهاجي** " للسورة ، يقتضي معرفة موقعها في أي طور من أطوار السير ومعرفة " **المناط** " الذي جاءت لمعالجته في ذلك الطور المعين .. مما يعني ، أنه لا بد بدايةً فهم طبيعة السير بالرسالة لإكمال الدين لله تعالى في **الواقع الإنساني** ، بمعرفة السنن التي تحكم السير ، ومعرفة مراحله وأطواره وخطواته . ذلك أن الرسالة والشريعة ما جاءت إلا لمعالجة الواقع الإنساني وتغييره وصياغته حسب مراد الله تعالى حتى يكون الدين كله لله وحده . وهذا لا بدّ له من فهمِ طبيعة الواقع الإنساني وفهمِ سننه الإلهية التي تحكمه ، وفهمِ طبيعة السير بالرسالة فيه .. فهماً يُمَكّن حملة الرسالة من تحقيق تلك الصياغة للواقع حتى تحقيق الغاية من الرسالة فيه .

---

1 - المناط هو : ما أناط ، أي علّق ، الشارع الحكم عليه . فهو الواقع الذي جيء بالحكم له ، فالحكم متعلق به . أنظر (الواضح في أصول الفقه) - محمّد حسين عبدالله .

ومن هنا ، كانت تلك العلاقة المتبادلة والمتلازمة بين فهْم طبيعة **الواقع الإنساني** الذي تعمل فيه الرسالة (المناط) ، وبين فهم مراد الله تعالى من كلامه فهماً صحيحاً ، يعني فهم **المعالجات** .. سواء عند فهم " المنهاج " ؛ من حيث المعالجات الشرعية وكيفية السير ، أم عند تنزيل ذلك الفهم على الواقع المعيّن ، وما يلزمه من " **تحقيق المناط** " (1) كما ذكرنا سابقاً ..

ومن هنا جاء القول بأن من أراد أن يفهم مراد الله تعالى من كلامه فهماً صحيحاً ، وأن يكون قادراً على تنزيله على الواقع المعين .. لا بد له من السير على منهج رئيس في الفهم لا يمكن إغفاله وهو " السياق " أو " المقام " أو " الحال " الذي نزل **النص لمعالجته** ؛ لأن العلم بخلفيات النصوص وبالأسباب وبالأحوال التي وردت فيها ، وسننها الإلهية الضابطة لها .. يورث العلم **بالمناط** الذي جاء الوحي لمعالجته ، **وبكيفية** معالجته .. مما ينفي الاحتمالات والظنون غير المرادة ، ويقطع الطريق على المقاصد المغرضة التي لم يُردها الشارع الحكيم ولم يرُمْها ، ويكشف عن الخطأ أثناء التطبيق فتسْهُل العودة إلى المسار الصحيح (2).

4- والرسول محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم ليس بدعاً من الرسل ، فسيره بالرسالة في واقعه الإنساني محكوم ومضبوط بالسنن وبالخصائص العامة نفسها التي ضبطت سير سائر رسل الله من قبله ، عليهم السلام ، فلا بد من فهم ذلك القدْر المشترك والعلم به من الخصائص والسنن الضابطة لها ، وهو موضوع الاقتداء بالرسل السابقين . ومن أجل ذلك بيّن الله تعالى في القرآن الكريم سننه في حمل الرسالات وفي تغيير الواقع الإنساني بأبعاده المختلفة ؛ الإجتماعية والفكرية والسياسية وغيرها ، مفصّلة باستفاضة وشمول وعلى طول الطريق لإكمال الدين لله جلّ وعلا .. وتكاد لا تجد سورة من القرآن تخلو من ذكرٍ لبعض تلك السنن أو الإشارة إليها (3) . هذا مع الانتباه إلى ما خصّ الله تبارك وتعالى به الرسالة الخاتمة، والرسول الخاتم ، والأمة المسلمة الخاتمة من السنن ، سواء الشرعيّة منها أم القدريّة ..

---

1 - تحقيق المناط هو إجراء يسبق تنزيل الحكم الشرعي على الواقع المعين . ومفاده ؛ النظر في ذلك الواقع بقصد التحقق من أنه هو الذي جيء بالحكم الشرعي - الذي عُرف دليله- له وينطبق عليه ، أي يتعلّق به . أنظر المرجع السابق .

2 - أنظر الجزء الثالث (المنهج) .

3 - إن العلم بالسنن الإلهية بهذا الشمول ، يُعتبر من الهدى والحكمة التي أنزلها الله تعالى في كتابه ، والتزمها وبيّنها رسول الله في سيره وتطبيقه لأمر الله في الواقع الإنساني : (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ {151}) البقرة. (ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ .. {39}) الإسراء وهذا العلم ضروريّ وأساسيّ للأمة الخاتمة في سيرها في العبودية لله تعالى وحمل رسالته هداية للإنسانية في أنحاء الأرض حتى قيام الساعة ، وذلك في " تحقيق المناط " وإنزال المعالجات الشرعية على الواقع ، أي في تحقيق الغاية من الرسالة . فالعلم بأمر الله تعالى الكوني - ممثلاً بما جعل عليه كل مخلوق من طبائع وخاصيات وبالسنن التي تحكمها - لا يقل أهمية عن العلم بأمره الشرعي ، ذلك أن الله عزّ وجلّ ما أنزل أمره الشرعي (الشريعة والدين) إلا لأجل أن يكون حاكماً ومُسيراً للواقع الإنساني الذي يحكمه ويضبطه أمره الكونيّ . فأمر الله الشرعي التكليفي - في حقيقته - فيه الهداية للسير حسب أمره الكوني القدري، فيحيا الإنسان ، فرداً ومجتمعاً ، حياته الدنيا منسجماً مع قوانين الكون والحياة ونواميس الخلق والفطرة فلا يتصادم معها ، فيحياها في سعادة وهناء. ويحيا حياته الأخرى - وقد حقق العبودية لله - في رضا الله تبارك وتعالى ، في جنة ونعيم دائم . وفي المقابل إذا خرج الإنسان عن أمر الله الشرعي ، ضل وتصادم مع نواميس الخلق والفطرة - والتي لا يعلم منها إلا القليل القليل - وعندها تكون معيشته شاقة نكدة ، وفي الآخرة يكون مقيماً في غضب الله وعذاب أليم . ومصداق ذلك قوله تعالى : (.. فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ **اتَّبَعَ** هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى {123} وَمَنْ **أَعْرَضَ** عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى {124}قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً{125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ **آيَاتُنَا** فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى{126}) طه.

5- ومن ثَمّ ، ينبغي بيان الترتيب والتتابع السننيّ العام لحصول أحداث ووقائع سير رسل الله تعالى – عليهم السلام – بالرسالات ، والذي كان حسب سنن الله في تحقيق الغاية من رسالات الله تعالى في المجتمعات الإنسانية .. وقد بيّن الله تعالى ذلك كلّه في القرآن الكريم [1] ..

ثُم مطابقة ذلك الترتيب السننيّ لأحداث سير الرسل الكرام ، مع ما ورد في القرآن الكريم من بيان لسير الرّسول الخاتم محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم في واقعه . فما حصل مع الرسول الخاتم – مما ورد ذكره في القرآن – يُفهم في ضوء تلك السنن والخصائص العامة ، من حيث طبيعة السير والتتابع العام للأحداث .. هذا ، مع الانتباه إلى ما خصّ الله تعالى به الرسالة الخاتمة ، والرّسول الخاتم ، والأمّة الخاتمة ، من سنن ومن معالجات شرعيّة في هذا السياق .

وبعد ذلك ، وعلى ضوئه ، نقوم بدراسة وفهم ما هو **ثابت** من السنّة النبوية ، وخاصّة سيرته صلّى الله عليه وآله وسلّم ، ومقارنته ومطابقته مع ما توصّلنا إليه في الخطوة السابقة ، بقصد الوصول لأكثر تفصيل ممكن للأحداث وحسب الترتيب السنني لوقوعها.

فالنظر في ما ثبت من السنّة والسيرة لفهم " المنهاج " ، **يجب** أن يكون من خلال بيان القرآن للمنهاج وفي ضوءه ، ذلك أن القرآن الكريم هو الأصل في حركة الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم وسيره لتحقيق الغاية منه .. كما بيّناه في الجزء الثالث " المنهج " .

6- وعند الالتزام بما سبق ذكره من خطوات عملية ، نصل إلى المطلبين التاليين من هذا التمهيد:

المطلب الثاني : رؤية أحداث ووقائع سير الرسول محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم بالرسالة **مرتبةً سننياً**، من البداية وحتى تحقيق الغاية ، وفي أوســع صـــورة وأشــمل مدى – بقدر ما ثبت من الروايات – في مرحلتي السير الرئيسـتين ، بأطوارهما الثمانية ، كما ذكرنا في الجزء الثالث .. بمعنى ، أننا سنرى أحداث السيرة النبويّة وقد صُبّت في قالبها أو إطارها الأصل ، إطارها الحاكم لها ، ألا وهو **الإطار السُننيّ** ، وكما بيّنه القرآن الكريم [2] .

المطلب الثالث : رؤية **سور** القرآن الكريم وقد **توزّعت** على الأطوار الثمانية تلك ، وذلك بحسب تعلّق أو ارتباط " **المناط** " الذي جاءت كل سورة تعالجه (مناط السورة) بأي طور من الأطوار الثمانية ، وحسب

---

1 - وبالأخص ما جاء في سورة إبراهيم في الآيات (9 - 16). كما ذكرنا في الجزء الثالث .

2 - فيكون النظر إلى أحداث سير الرسول بالرسالة حتى تحقيق الغاية منها ، من خلال السنن الإلهية الضابطة لها، وبغض النظر عن الزمان والمكان والأشخاص .. كما هي طريقة القرآن في تناول القصص والأحداث التاريخية ، وذلك بعرض الحدث مقروناً بسننه الإلهيه المؤثرة فيه وجوداً وعدماً ونتيجة وغاية وحكمة ، لتحقيق العبرة. وهذا يختلف عن " النظرة التاريخية " للقصص أو رؤيتها ضمن " الإطار التاريخي " . فالأحداث التاريخية في حقيقتها : أنها السنن الإلهية مطبّقة على واقع إنساني معين في زمانه ومكانه وأشخاصه . ويُتتبع فيها - عادة - الأسلوب السردي في ذكر الأحداث والوقائع التي حصلت ، ويُراعى التتابع التاريخي التفصيلي في ذكر حدوثها ، مع الاهتمام بالظروف التي حصلت فيها ، من حيث الزمان والمكان والأشخاص .. كما هي طريقة المؤرخين في سردهم التاريخ والسِّيَر وقصص الأنبياء .

هذا والنظرة السننية للسيرة النبوية ، علاوة على كونها هي طريقة القرآن في النظر إلى القصص لأخذ العبرة منها ، فإنها تُنهي الخلاف في الترتيب التاريخي لسير الأحداث ، والذي هو في الأصل غير ملزم لنا في " المنهاج " ، كما بيّناه مفصلاً في الجزء الثالث ؛ " المنهج " .

سنن الله تعالى في تتابُع وتسلسل حدوث الوقائع والمواقف . فتصبح السور ، تبعاً لذلك **موزعة كمجموعات** على الأطوار الثمانية السابقة ، وكل مجموعة منها تبيّن وتفصّل المعالجات الشرعيّة والسننيّة، للمواقف والأحداث التفصيلية التي حدثت في الطور المتعلقة به ، وحسب سنن الله تعالى في تتابع حدوثها، كما جاءت مُبيَّنة ومفصّلة في القرآن والثابت من السنّة ..

وهذا ما سنرى تفصيله فيما يلي :

المطلب الثاني : بيان مراحل وأطوار خط السير بالرسالة الخاتمة .

وكما بيّنا في الجزء الثالث ، فإن **تتابع** الأحداث في سير الرسول الخاتم محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم بالرسالة .. كان حسب كلٍ من :

– الضـابط الشـرعي ، متمثلاً بتبليغ وبيان ما نُزّل من أمر الله الشـرعيّ ، إيماناً وعملاً صـالحاً ودعوة ، وتطبيقه على الواقع ، أولاً بأول .. بمعنى أن معالجة الواقع الإنسـاني لا تكون إلا بحسـب الأمر الشرعي ..

– **و**الضابط السننيّ ، متمثلاً بما يختاره الناس من مواقف من الحق ، أي مما نُزّل من الأمر الشرعي – إيماناً وعملاً صالحاً ودعوة – وقد بلغهم بيّناً واضحاً..

فإن اختاروا قبول الحق ، واتباع رسول الله في عبادة الله عزّ وجلّ وتنفيذ شريعته ، وتحقيق غاية الرسالة في واقعهم .. نقول : إن اختاروا ذلك ، فبها ونعمت ، وكفى اللهُ المؤمنين القتال .. فتكون الغاية من الرسالة قد تحققت بأسهل الطرق وأقل التكاليف .. فما أنزل الله عزّ وجلّ رسالته وبعث رسوله إلا من أجل ذلك ، رحمة للعالمين ..

أما إن اختاروا رفض الحق ، والعزة بالإثم – وهو ما اختاره أغلب أقوام رسل الله عليهم السلام ، بما فيهم قريش قوم الرسول الخاتم صلّى الله عليه وآله وسلّم – فإن المواقف بين رسول الله ومَنْ تبعه على الحق من جهة ، وبين الرافضين للحق والمتبعين الباطل من جهة ثانية ، تسير في سياق عام وخط عريض ، بيّنه ابن عباس رضي الله عنهما في كلامه عن تنزيل القرآن مفرقاً مرتلاً على قلب رسول الله ، حيث قال: (**ونزّله** جبريل **بجواب** كلام العباد وأعمالهم) [1] .. وأيضاً قوله في رواية أخرى ، ويفسّر الرواية الأولى : (فكان المشركون **إذا أحدثوا شيئاً** أحدث الله لهم **جواباً**) [2]

هذا ، **وإذا أصروا** على تصعيد مواقفهم إلى منتهاها ، حسب سنن الله تعالى وهو " إخراج " رسول الله والذين آمنوا معه من قريتهم ، استحقوا عذاب الله الشديد بما كسبت أيديهم :

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ **لِيُخْرِجُوكَ** مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ **سُنَّةَ** مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ الإسراء .

هذا ، وقد كانت مراحل وأطوار خط سير رسول الله بالرسالة الخاتمة ، حسب تتابعها السننيّ العام [3] ، كالتالي :

---

1 - رواه الطبراني والبزار .

2 - أخرجه ابن أبي حاتم .

3 - وسنعتمد الآيات (9- 16) من سورة إبراهيم ، أصلاً في ذلك .

المرحلة الأولى :

وهي مرحلة " **ما قبل التمكين** " للمؤمنين في الأرض ، ومن أبرز خصـائصـها ؛ " الاستضـعاف " للحق وأهله . ويكون فيها المؤمنون حَمَلة الرسـالة مكلّفين بالرسـالة بوصـفهم أفراداً أو جماعة تعيش في مجتمع جاهلي ؛ مجتمعاً ليسـت كلمة الله هي العليا فيه [1] . ومواقف المجتمع ومَلَئه من الحق لها أطوارٌ أساسية – إذا اختاروا الإصرار على رفض الحق وقد بلغهم بلاغاً مُبيـناً – ولكل طَوْر تفاصيله ، خطاباً وأعمالاً ، وهي كالتالي :

الطور الأول : بداية البعثة :

يقول الله تعالى في سورة إبراهيم :

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ **جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ** فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾ .

نظرة مجملة لهذا الطور:

1– الموقف الشرعي للرسول والجماعة المؤمنة (الضابط الشرعي) :

وهو بدء رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في **البلاغ المبين** لأول القرآن نزولاً على قلبه ، تلاوةً وبياناً واستقامة ، وهي – بشكل أساس – آيات سورة العلق الأولى ، وآيات سورة المدثر الأولى [2] .. وهذا يعني :

- ✓ من حيث الموضوع : البدْء في طرح " فكرة الرسالة " على قريش ، ومخاطبتهم بها " خطاب نذارة " : لا إله إلا الله ، فاعبدوه ، وبيان المصير .. (جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ)
- ✓ ومن حيث " منهج الخطاب " : أن يكون بشكل " **بلاغ مبين** " ؛ بلاغاً بيّناً واضحاً ، مُزيلاً للجهالة موجداً للعلم ، فرقاناً بين الحق والباطل ، ليكون هداية لمن أراد الهداية ، مُقيماً لـ " الحجة الرسالية " على من أبَى واستكبر .. أي الحجة التي ليس بعدها عذر :

﴿ ... رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ النساء

1 - أنظر ما ورد ذكره في بيان واقع المجتمع الإنساني ، ومتى يكون وصفه بالإسلامي أو الجاهلي ، في الجزء الثالث (المنهج) - فقرة (3) : (أين نقف نحن المسلمون الآن ..) ، ص (131) وما بعدها .

2 - أنظر صحيح السيرة إبراهيم العلي . ونحن نرجّح أن تكون سورة الفاتحة قد نزلت في بدايات هذا الطور أيضاً ، لقرائن كثيرة منها : أن الصلاة من أوائل ما كُلّف به المسلمون من العبادة، ولا صلاة بغير الفاتحة. أنظر (تبيان سورة الفاتحة) .

ويتحقق ذلك كله ، **بتلاوة** آيات الله تعالى ذات العلاقة على الناس ، **وببيانها** – حسب **المقام** – كمعالجات للواقع .. كما قال تعالى على لسان رسولنا الكريم مخاطباً قومه :

﴿ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنۡ **أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ** فَمَنِ **ٱهۡتَدَىٰ** فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن **ضَلَّ** فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ النمل

أي ، " وأُمرت أن أتلو القرآن عليكم تلاوة الدعوة إلى الإيمان ، فمن اهتدى به فإنما يهتدي لأجل نفسه فإن ثواب اهتدائه له ، ومن ضل عن الإيمان وأخطأ طريق الهدى ، فأقول له : إنما أنا من المُخوّفين عذاب الله تعالى (المنذرين) ، فليس عليّ إلا التبليغ " .. فالتلاوة هنا ليس مطلق القراءة ، بل هي قراءة مخصوصة بقصد البيان وإقامة " الحجة الرسالية " ، ويؤيد ذلك قوله تعالى وهو يخاطب الكافرين يوم القيامة في معرض إقامة الحجة عليهم : إنه لا عذر لهم وقد كانت " **تُتلى** " عليهم آياته ، ولم يقل " تُقرأ " :

﴿ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي **تُتۡلَىٰ** عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ المؤمنون

﴿ .. وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي **تُتۡلَىٰ** عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ الجاثية [1]

وهنا ، يكون البيان ، مجرد البيان لفكرة الرسالة في إطار الإنذار وإقامة الحجة (كما في آيات سورتي العلق والمدثر ، على سبيل المثال لا الحصر) ، دون التعرض لـ " طاغوت " المخاطبين بشكل مباشر ، أي دون " كشف الطاغوت " [2] .. مثل ما هي بداية دعوة جميع الأنبياء عليهم السلام ، وقد جاؤوا **بالبيّنات** من ربّهم :

﴿ **وَمَآ أَرۡسَلۡنَا** مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ **إِلَّا** نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ الأنبياء

---

1 - أنظر الآيات التي وردت فيها كلمة (تتلى) في المعجم المفهرس، تجدها جاءت في سياق البلاغ والدعوة وبيان مواقف المخاطبين مما سمعوا من الآيات. أما القراءة فتأتي في سياق عموم القراءة لآيات الله ؛ في الصلاة وفي غيرها: (فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ) المزمل ، وفي سياق وجوب التزام القارئ للقرآن بالكيفية التي سمعه بها وتلقاه فيها دون زيادة أو نقصان : {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ } القيامة .أي نقل القرآن كما سمعه. أنظر (مفاهيم ومصطلحات رسالية) - التلاوة والقراءة .

2 - الطاغوت هو : كل ذي طغيان على الله الإله الحق ، فعُبد وأُطيع أمره مع الله أو من دون الله عزّ وجلّ ، إما بقهر منه لمن عبده ، وإما بطاعة ممن عبده له ، إنسانا كان ذلك المعبود أو شيطانا أو وثنا أو صنما ، أو كائنا ما كان من شيء . (تفسير الطبري) . هذا ، والأصل في الدعوة إلى الله تعالى ليس التعرّض لطاغوت المجتمع وكشفه ابتداءً ، بل هو الدعوة إلى عبادة الله وحده مع بيان مصير مَن آمن ومصير مَن كفر (خطاب النذارة) .. وأساس تلك الدعوة تذكير الناس بالله جلّ وعلا وتلميسهم آثار إلهيته في الآفاق وفي أنفسهم حتى **يشهدوا** أنه وحده الإله الحق الذي يستحق الطاعة والعبادة.. وبيان أن مصير من آمن ، في رضوان الله وجناته. وأن مصير من أعرض ، في غضب الله وعذابه . وبعد البيان الواضح الكافي فإذا أصرّ الناس على طاغوتهم ، طاعة واتباعاً ودفاعاً عنه.. ففي هذه الحال أصبح كشف باطل طاغوتهم مطلب شرعي وبيان فساد طاعته ضرورة ، لأنه صار عقبة في طريق تحقيق الناس عبوديتهم لله ، الإله الحق عزّ وجلّ . وهذا ما كان مع الرسول الخاتم ورسل الله جميعاً عليهم الصلاة والسلام : {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } النحل 36 .

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ .. ﴾ النحل

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ نوح

﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾ هود

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ .. ﴿٨٥﴾ ﴾ الأعراف

- .. إلخ

2– موقف المجتمع وملَئه (الضابط السننيّ) :

اختارت قريش وملؤها رفض الحق الذي بلغهم ، فكان موقفهم في البداية ، إظهار التعجب منه والتشكيك بصحته وأنه مثير للريبة ، أي ؛ أنه موضعٌ للإتهام وظن السوء .. والتهوين من شأنه وشأن أهله ، وإظهار عدم الاهتمام واللامبالاة .

الطور الثاني : حتى نهاية السنة الثالثة من البعثة :

ومع آيات سورة إبراهيم ، في قول الله تعالى :

﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾ .

نظرة مجملة لهذا الطور:

1- الموقف الشرعي للرسول والجماعة المؤمنة (الضابط الشرعي) :

الاستقامة على ما أمر الله عزّ وجلّ به – فيما أوحاه لنبيّه – والاستمرار في تبليغ ما نُزّل من الرسالة هدايةً للناس . ثم بالإضافة إلى طرحهم " فكرة الرسالة " في المجتمع بيّنة واضحة في إطار " خطاب النذارة " ، والقيام والالتزام بسائر ما جاء في الطور الأول من أعمال صالحة ، وأبرزها الصلاة . ثم حفظ ما كان يتنزّل من آيات القرآن وتدبّرها والتفكر بها كمعالجات لواقعهم ، أي لتنزيلها كمعالجات للواقع .. وهي معالجات فكرية ، أساسها مشاهدة آثار إلهية الله تعالى ؛ الإله الحق في الآفاق والأنفس.. والبدء بإزالة الشبهات التي أثارها الملأ ومن تبعهم من الناس ، وتقديم الجواب لما قالوه .. وكشف الباطل الذي عليه طاغوتهم ، وإزالة اللبس الذي عندهم بينه وبين الإله الحق ، فما يعبدونه ليس إلهاً ولا يستحق الطاعة والعبادة والاتباع .. مما يعني بدء " المواجهة الفكرية " و " كشف الطاغوت ".. وكل ذلك بالوحي ، بلاغاً مبيناً :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ الأنبياء

﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ إبراهيم

أي ، هذا القرآن بلاغ للناس ونذارة لهم ..

هذا ، والراجح في الصفة العامة لأعمال السير التي التزمها المؤمنون بقيادة الرسول الكريم في الطورين السابقين هي :

- العلانية والجهر في خطاب المجتمع – عامة الناس والملأ – بـ " خطاب النذارة " ، من خلال تلاوة ما تنزّل من آيات الله وبيانها للناس كمعالجات لموقفهم من الحق الذي بلغهم .. والذي كان يُباشره – بشكل أساس – رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .

– السرية في التجمّع واللقاء ، لمن آمن ، للتعليم والتزكية .. حيث كانوا يلتقون مستخفين في شعاب مكة المكرمة ، لتعلّم ما نُزّل من القرآن ، وإقامة الصلاة ، وعيش اليوم الآخر كأنما يرونه رأي العين [1] ..

– الإنذار كان بالمصير والجزاء في اليوم الآخر فقط ، وليس في الدنيا . أي ، بالتخويف من غضب الله وعذابه الأليم المقيم بالنار .. والتبشير والترغيب في رضاه وثوابه في الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .. كل ذلك في اليوم الآخر ، دون ذكر الجزاء والمصير في الحياة الدنيا ، والذي ورد ذكره متأخراً في هذه المرحلة .

2– موقف المجتمع وملَئه (الضابط السننيّ) :

أما وقد أصـــرّت قريشٌ وملؤها على عدم إجابة دعوة الله ، تبارك وتعالى ، لعبادته وطاعته واتباع رسوله ، في إطار " خطاب النذارة ".. رغم البيان الواضح والحجة الساطعة.. أخذوا في تصعيد موقفهم.. فبدأوا في إثارة الشبهات ، والمجادلة بالباطل ليدحضوا به الحق .. وإظهار الإيذاء النفسي ؛ ومنه التكذيب والاستـهزاء ، وإطلاق الأوصـاف الكاذبة على مَنْ كان يعبد الله ويدعو إليه ؛ أصـحاب " لا إله إلا الله محمّد رسول الله "..

<u>الطور الثالث : من السنة الرابعة وحتى العاشرة من البعثة :</u>

ونستمر مع آيات سورة إبراهيم ، في قول الله تعالى :

﴿ **قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ** إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ <u>وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا</u> ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ **وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ** لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ ..﴿١٣﴾ ﴾ .

نظرة مجملة لهذا الطور:

1– الموقف الشرعي لرسول الله والجماعة المؤمنة :

الاستقامة على أمر الله تعالى والاستمرار في تبليغ وبيان ما نُزّل من الرسالة هدايةً للناس وكمعالجات لمواقفهم . فبالإضافة إلى قيامهم بكشف الباطل الذي عليه "طاغوت المجتمع" وملَئه ، وإزالة اللبس بينه

---

1 - انظر (صحيح السيرة)- إبراهيم العلي . (الرحيق المختوم)- للمباركفوري . و(الجهاد والقتال في السياسة الشرعية)- د محمّد خير هيكل . و(أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية والرد على الطوائف الضالة فيه)- د علي بن نفيع العُلياني، وقد فصّل القول في هدي رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام ، في الإسرار والجهر بالدعوة إلى الله .

وبين الإله الحق .. بجرأة وصراحة ودون الخشية في الله لومة لائم ، كما هو واقع الخطاب القرآني في الطورين السابقين . يأتي الآن ، دور **الصبر** على الأذى المعنوي والمادي ، **والتواصي** به .. واتخاذ " إجراء الموت والحياة " بالنسبة للاستقامة والثبات على سبيل الله ودعوته ، والاستعداد لتقديم التضحيات المالية والبدنية .. مع القيام بالأعمال اللازمة ، واتخاذ الإجراءات المناسبة لتخفيف الأذى عن المؤمنين ، كما ثبت في ما يلي من روايات :

- اشتكت قريش رسولَ الله صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى أبي طالب ، فناداه وقال له : [إنّ بني عمّك هؤلاء زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم ، فانته عن أذاهم . فحلّق رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ببصره إلى السماء فقال : (**أترون هذه الشمس**) . قالوا : نعم ، قال : (**فما أنا بأقدر أن أَدَعَ ذلك منكم على أن تشعلوا منه بشعلة**). وفي رواية : (**والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بُعثت به من أن يشعل أحد من هذه الشمس شعلة من نار**)] [1].
- وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : (.. **فما تظن قريش ؟! فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة** – يعني الموت) [2] ..

هذا ، وقد كان الأمر بـ " كف اليد " عن القتال وعن الأعمال المادية ، أمراً ثابتاً في حق رسول الله والجماعة المؤمنة معه طوال هذه المرحلة بأطوارها المختلفة :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ النساء

كما في الرواية الثابتة عند النسائي عن ابن عباس : [أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له ، أتوا النبي صلى الله عليه وسلم بمكة ، فقالوا : يا رسول الله ! إنا كنا في عِـــزّ ونحن مشركون ، فلما آمنا صرنا أذلة ! فقال: (**إني أمرت بالعفو ، فلا تقاتلوا**). فلما حوّلنا الله إلى المدينة ، أُمرنا بالقتال فكفّوا ، فأنزل الله عزّ وجلّ : (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ..)] [3].

---

1 - إسناده صحيح ، رواه الحاكم والطبراني وأبو يعلي ، (صحيح السيرة) إبراهيم العلي .

2 - صحيح ، أخرجه البخاري . وهو قطعة من حديث طويل في صلح الحديبية . (صحيح السيرة) إبراهيم العلي . نقول : وإن كانت هذه الرواية في المدينة المنورة ، إلا أنها تصف الموقف الدائم والثابت لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في بلاغه الرسالة ، منذ بداية بعثته حتى اختار الرفيقَ الأعلى ، كما تشهد بذلك سيرته العطرة صلّى الله عليه وآله وسلّم. فجزاه الله تعالى عنـّا خيـرَ ما يجزي نبياً عن أمته .

3 - صححه الألباني - صحيح النسائي - الصفحة أو الرقم 3086 . أنظر (صحيح أسباب النزول) إبراهيم العلي .

حتى أنّ تُهمتهم الوحيدة كانت أنهم يقولون : (ربّنا الله) .. والتي هي نتيجة طبيعية للالتزام الدقيق من رسول الله والذين آمنوا معه بالطرح الفكري موضوعاً ومنهجاً .. يعني ما كُلّفوا به من الاقتصار على مخاطبة الناس بـ " فكرة الرسالة " في إطار " خطاب النذارة " ..

وكما قال لهم أبو بكر الصدّيق مدافعاً عن رسول الله :

(أتقتلون رجلا أن يقول : **ربي الله** ، وقد **جاءكم بالبيّنات** من ربكم) [1]..

وكما في قوله تعالى :

﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ ﴾ البروج

2– موقف المجتمع ومَلَئه :

استمرت قريش وملؤها في إصرارهم على عدم إجابة دعوة الله تعالى لعبادته وطاعة أمره واتباع رسوله ، فدخلوا مع المؤمنين في جدال بالباطل ، ما لبث أن تحوّل إلى صراع ذي طابع فكريّ سياسيّ ، أساسه ما نُزّل من القرآن الكريم ، سواء في فكرته وموضوعه أم في " منهج خطابه " ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ الفرقان .. أي بالقرآن [2] ..

فكان "جهاداً " ذا طابع فكريّ سياسيّ ، الأصل فيه ؛ كلمات الله عزّ وجلّ . وموضوعه تعيين الرب أو الإله الذي تجب **الطاعة** لأمره في قريش ؛ الله أم " طاغوتهم " ؟ . ولمن يكون **الاتباع** ، للرسول أم للملأ منهم ؟ ..

وكما هي قولة رسل الله الكرام :

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ الشعراء 108، 110، 126، 131، 144، 150، 163، 179. آل عمران50 ، الزخرف63

وكما هي سنة الله جلّ وعلا :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ..﴿٦٤﴾ ﴾ النساء

1 - صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم 4815 : أنظر (صحيح السيرة) إبراهيم العلي .

2 - بشهادة سياق الآيات ، وبما أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما . والمجاهدة والجهاد بذل الجهد والطاقة والوسع في مدافعة العدو ، وإذ كان بالقرآن فالمراد تلاوته عليهم ، وبيان حقائقه لهم لإبطال شبهاتهم وأراجيفهم ، وإتمام حججه عليهم ، أي " الحجة الرسالية " التي ليس بعدها عذر.

ولمّا لم يكن مأذوناً للمؤمنين في هذه المرحلة من السير ، بقتالٍ أو بأعمالٍ مادية .. كان الأمر بالصبر على أذى قريش وملَئها ، والمصابرة على جهادٍ لهم بالقرآن .. فكان صراعاً معهم ذا طابع فكريّ سياسيّ ، محوره **ما يُنزّل** من القرآن الكريم – أولاً بأول – فكرةً وموضوعاً ، كلماتٍ وطريقة خطاب :

﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ **قَالَ** ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ ﴾ يونس

﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ ﴾ الحج

﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا **سَمِعُواْ** ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ﴿٥١﴾ ﴾ القلم

هذا ، وبثبات رسول الله والمؤمنين معه على الحق ، وقولهم : " ربُّـــنا الله ".. وإصرار الملأ من قريش على رفض الحق :

﴿ إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ **لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ** يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ الصافات

﴿ .. يَسۡمَعُ **ءَايَٰتِ ٱللَّهِ** تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٨﴾ ﴾ الجاثية

أخذ الملأ الذين كفروا من قريش في تصعيد موقفهم من الحق وأهله ، فتطوَّر الأمر من **الإيذاء** النفسي والبدني للمؤمنين ، بأشكاله ودرجاته المختلفة.. إلى أن وصل إلى درجة محاولة القتل والإخراج من مكة :

﴿ ٱلَّذِينَ **أُخۡرِجُواْ** مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ **رَبُّنَا ٱللَّهُۗ** وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ الحج

ومن أبرز سمات هذا الطور وأحداثه ومواقفه ، إضافة لما سبق وتفصيلاً :

1– تعهدت كل قبيلة بتعذيب من استجاب لدعوة الله من أفرادها – الذين كُشف أمرهم أو أظهروا إسلامهم – وفِتْنتهم عن دينهم ، وخاصة الضعفاء والفقراء الذين ليس لهم مَنْ يحميهم ..

هذا، ولم يسـتطع الرسـول الكريم أن يقدم لهم الحماية .. بل كان يحثهم على الصـبر مقابل الوعد بالجنة ، في مثل قوله : (**صبراً آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة**) [1] ..

وكما في الرواية عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

(أول من أظهر إسـلامه سـبعة : رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم وأبو بكر وعمّار وأمه سـمية وصـهيب وبلال والمقداد ، فأما رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم فمنعه الله بعمه أبي طالب ، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه ، وأما سـائرهم فأخذهم المشـركون فألبسـوهم أدراع الحديد وصـهروهم في الشـمس فما منهم إنســان إلا وقد اتاهم على ما أرادوا إلا بلال فإنه هانت عليه نفســه في الله ، وهان على قومه فأعطوه الولدان وأخذوا يطوفون به شعاب مكة وهو يقول : أَحَدٌ أَحَد) [2] ..

واستمر الأمر على ذلك ما شاء الله له أن يستمر ..

2– ثم أَمر رسولُ الله صلّى الله عليه وآله وسلّم المسلمين – من استطاع منهم – بالهجرة إلى الحبشة حماية لهم من الفتنة .. وأمّا مَنْ بقي في مكة فأخذ يلتقي بهم سراً في دار الأرقم . وذلك في السنة السادسة للبعثة .. وقد بيّن الله تعالى للمؤمنين ، أنهم إنْ كانوا في ضيق من إظهار الإيمان وعبادة الله وحده ، فأرض الله واسعة فليهاجروا إلى حيث يعبدون الله وحده ، ويتمكنون من إقامة دينهم ، وأجرهم على الله تبارك وتعالى :

﴿ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّـٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦ ﴾ العنكبوت

﴿ قُلۡ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَـٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠ ﴾ الزمر

وفي هذه الأثناء أسلم حمزة بن عبد المطلب ثم عمر بن الخطاب – رضي الله عنهما – فعمّ شعور بالأمان وقوة في العزيمة بين المسلمين ، كما في الرواية عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

(ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر) [3]..

3– هذا ، وفشـلت الإجراءات السـابقة من " الكيد " وفتنة المسـلمين وإيذائهم وتعذيبهم .. في وقف انتشار الدعوة إلى عبادة الله .. وقد أدركت قريش ذلك ، وخاصة بعد إسلام شخصيات بارزة في المجتمع بمثل وزن حمزة وعمر ، رضي الله عنهما .. فأخذت قريش تُصعّد في كيدها ضد الذين استجابوا لدعوة الله تعالى وآمنوا به واتبعوا رسوله ، فلجأ الملأ الذين كفروا من قريش إلى أسلوب تعبئة الناس وحشدهم ضد

1 - حسن صحيح، الألباني - فقه السيرة - الصفحة أو الرقم 103 . نقول : هنا تبرز درجة أهمية "عيش اليوم الآخر" في عملية تزكية المؤمنين ، وكأنهم يرونه رأي العين .

2 - مسند أحمد - الصفحة أو الرقم 5/319 - أحمد شاكر : إسناده صحيح . أنظر(صحيح السيرة) إبراهيم العلي .

3 - صحيح البخاري - 3684 . أنظر(صحيح السيرة) إبراهيم العلي .

المؤمنين ، بل ومَن يحميهم ويآزرهم أيضــــاً ، حتى أجمعت قريش كلُّها على معاداتهم ، وقرروا أن يُغالوا في استخدام القوة على الجماعة المؤمنة ، والاستقواء عليهم واستضعافهم ، وتوحيد الجهود في ذلك ، حتى وصل الأمر بهم إلى سابقة خطيرة ، وهي أن قريشاً **تحالفت** مع بني كنانة على محاصرة النبي صلّى الله عليه وآله وسـلّم ومَن اتبعه من المؤمنين ، بل ومَن أيّــــده وناصـره من أقاربه في شِـعب بني هاشـم ، ومقاطعتهم جميعاً فلا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يسـلموا إليهم رسـول الله .. وكتبت قريش بينهم كتاباً .. ودخل رسول الله وأهل بيته الشعب .. وكانت البداية في السنة السابعة للبعثة ، واستمرت ثلاث سنوات . وهو ما يشير إليه تعبير " جمع الكيد " في القرآن الكريم كما في سورة طه وغيرها ، وأيضاً لفظتا " الجند " و " الأحزاب " كما في سورة ص [1] وغيرها من السور **المكية** ..

وقد وصـــف النبي ، عليه وآله الصـــلاة والســلام ، هذه المقاطعة بقوله : **(تَقاسَموا على الكفر)** [2] ، أي تحالفوا .. و هم " **المقتسمين** " الذين جاء ذكرهم في سورة الحجر :

﴿ وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى **ٱلْمُقْتَسِمِينَ** ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ ﴾
الحجر

أي ، أنذر قريشاً إنذاراً بيّـناً واضحاً أنه سيصيبهم العذاب مرة أخرى ، يعني يوم بدر . كما أصابهم سابقاً، يعني القحط والجدب حتى باتوا يرون مثل الدخان .. حينما تقاســموا ، أي تحالفوا على الكفر ، وكذّبوا بالقرآن فقذفوه بــالبــاطل ، وقــيــلهم إنه شعر وسحر وما أشبه ذلك ، يصرّفونه بحسب أهوائهم ، ليصدوا الناس عن الهدى [3] .

4– وبذلك التصعيد لموقفهم – الحصار والمقاطعة – دخلت قريش وملؤها في سُنّة جديدة من سنن الله تعالى في السير بالرسالات في القرى (المجتمعات) ، وهي : سنة " الأخذ بالبأساء والضراء " أو " العذاب الأدنى " وهو نوع من العذاب المادي غير مدمّر ، يصيب به الله عزّ وجلّ القرى بعد جحودها بالحق وقد بلغهم بلاغاً مبيناً ، تأديباً لهم لعلّهم يضّرعون إلى الله عزّ وجلّ ويتوبون .. فإن رجعوا إلى الله تعالى ، رفع الله تعالى عنهم هذا العذاب . وإن عادوا إلى الكفر بعد ذلك ، **فتح** الله تعالى عليهم أبواب الدنيا **ليتمتّعوا** فيها.. ولكن ، ينذرهم بعذاب أليم وشديد يصيبهم أثناء ذلك ، عذاب استئصال ودمار في الدنيا وهو " العذاب الأكبر" . فإن تداركوا أنفسهم بالتوبة إلى الله وإخلاص الدين لله ، واتباع رسوله ..

---

1 - أنظر سبب نزول الآيات (1- 7) في (صحيح أسباب النزول) إبراهيم العلي . وحدث ذلك في مرض وفاة أبوطالب.

2 - عن أبي هريرة : (قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، من الغدِ يومَ النحرِ ، وهو بمنًى : نحنُ نازلونَ غدًا بخَيْفِ بني كِنَانَةَ ، حيثُ تقاسموا على الكفرِ. يعني ذلكَ المُحَصَّبِ ، وذلك أنَّ قريشًا وكِنَانَةَ ، تحالفتْ على بني هاشمٍ وبني عبدِ المطلبِ ، أو بني المطلبِ : أن لا يُناكحوهم ولا يُبايعوهم ، حتى يُسَلِّمُوا إليهمُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ).البخاري 1590 . ومسلم 1314. أنظر(صحيح السيرة) إبراهيم العلي . ((وفي هذا الحديثِ أشارَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم لِلمكانِ الَّذي تَقاسَموا ، أي : تَعاهدوا فيهِ على إيذاءِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وعلى الكُفرِ، فقالَ لهم في يومِ النَّحرِ في الحجِّ : نحن نازلون غدا بِخِيفِ بني كِنانةَ ، والِخيفُ الوادي ، وهذا المكانُ هو الْمُحَصَّبُ ، وهو بَيْنَ مكَّةَ ومِنًى)) . أنظر موقع الدرر السنية .

3 - أنظر تفاسير (الطبري ، أبو السعود ، أبو حيان) . والشرح والبيان في النقطة التالية .

رفعه الله عنهم ولم يصبهم ، أما إذا أصرّوا على اتباع مَلَئهم في جحودهم بالحق .. أنزله الله بهم فدمّرهم ، وعندها لن ينفعهم إيمانهم إنْ آمنوا ..

وهذه سنة لله عزّ وجلّ دائمة جارية ، يصيب بها الأقوام والأمم المكذّبة لرسلهم :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ الأعراف

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ الأنعام

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ السجدة [1]

ومن الأمثلة الأكثر تكراراً في القرآن الكريم مما تنطبق عليه سنّة " العذاب الأدنى " – وقد ضربها الله تعالى عبرة لمن يعتبر – ما حصل مع فرعون ومَلَئه وجنده ، وقد اتبعوه على كفره بالحق الذي جاء به موسى عليه السلام ، حيث أنزل الله تعالى بهم " العذاب الأدنى " لعلّهم يذّكرون ويرجعون ، وهو الآيات المفصّلات ؛ السنين والدم والجراد والقمّل .. الخ ، فكلما أصابتهم واحدة ، وعدوا بالرجوع إلى الله والتوبة ،

1- إن المكذبين برسالات الله لهم نوعين أو مستويين من العذاب في الدنيا ، كما بيّنته آيات سورتي الأعراف والأنعام السابقة؛ الأول : الأخذ بـ "البأساء والضراء" ، والحكمة منه "التأديب" ودفْع الناس الذين كفروا بالآيات البيّنات إلى الهدى (لَعَلَّهُمْ يضّرعون) الأنعام ، الأعراف ، وهو الفرصة الأخيرة لهم . الثاني : " الأخذ بغتة " ، وذلك أنهم رغم الأخذ بـ "البأساء والضراء" ، لم يرجعوا إلى الله تعالى ونسوا ما ذُكّروا به ، حينها يفتح الله عيهم الدنيا إستدراجاً وإملاءً فيزدادوا كفراً، وأثناء ذلك يأخذهم بغتة ، أخذاً أليماً شديداً بعذاب استئصال ودمار : (فقُطع دابر القوم ..) الأنعام . كما في قوله تعالى:{وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [هود\102] .

فإذا نظرنا في ضوء ذلك ، إلى آيتي سورة السجدة (21-22) . نرى أن هذه المفاضلة في الْعَذَابِ بين (الْأَدْنَى) و (الْأَكْبَر) هي مفاضلة بين نوعي (درجتي) عذاب الله للكافرين في الحياة الدنيا . بقرينة قوله تعالى : (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) أي بعد "العذاب الأدنى" ، فهو ليس عذاباً مدمّراً أو عذاب استئصال ، لأنه يمكن بعده الرجوع والتوبة ، فهو الأخذ (بالبأساء والضراء لعلهم يضّرعون) الأنعام ، الأعراف . أما " العذاب الأكبر" فهو عذاب الهلاك والاستئصال والموت : (إنّا من المجرمين منتقمون) السجدة . فليس بعده إلا الآخرة وعذابها . كما في قوله تعالى : (أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون، فقُطع دابر القوم ..) الأنعام . وقد ورد لـ " العذاب الأكبر " في الدنيا تسميات أخرى في السياقات القرآنية المختلفة ، مثل "العذاب الأليم " ، " عذاب الخزي" ، "عذاب شديد" ، " يوم الفتح " ، وأنه يمثّل انتقام الله جلّ جلاله من المجرمين .. الخ

هذا ، وقد يرد في آيات أُخرى تعبير "العذاب الأكبر" وصفاً لعذاب الله للكافرين في الآخرة . وحسب السياق والقرائن يُرجّح المعنى المقصود . وفي ما يلي من البحث مزيد من البيان والتوضيح .

فيكشفها الله تعالى عنهم ، إلا أنهم كانوا ينكثون ، فيصيبهم الله بالأخرى .. ثم هم ينكثون .. وهكذا ، حتى أصبح الكفر موقفاً نهائياً لهم ، فانتقم رب العالمين منهم فدمّرهم بـ " العذاب الأكبر " ، وجعلهم عبرة لغيرهم:

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ الأعراف

وقد جاء ذكر هذه الآيات (العذاب الأدنى) لفرعون وقومه في سور أخرى عدة ، منها : يونس [75–92]، النمل [9–14] ، الإسراء [101– 104] ، الزخرف [46–56] .. فلم يؤمنوا – بسبب تكبّرهم وطغيانهم – حتى رأوا " العذاب الأكبر " في الدنيا ، ألا وهو إغراقهم في اليم ، وحينئذٍ لم ينفعهم إيمانهم ، ولن ينفعهم :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ يونس

أما أنهم لو تداركوا أنفسهم وتابوا وآمنوا قبل أن ينزل بهم " العذاب الأكبر " ، لرفعه الله تعالى عنهم ولم يصبهم ، ولنفعهم إيمانهم حينئذٍ ، كما حصل مع قوم يونس عليه السلام :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾ يونس

فليس لله عزّ وجلّ حاجة في تعذيب خلقه ، بل هو الغني الحميد ذو الرحمة ، الشاكر العليم ، جلّ ثناؤه :

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾النساء

أما بالنسبة لرسول الله الخاتم محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم وقومه قريش ، فقد كان " العذاب الأدنى" أو " الأخذ بالبأساء والضراء " هو إصابتهم بالقحط والجفاف ، حيث دعا عليهم النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم بسنين كسنيّ يوسف ، أي أيام قحط وجدب ، وقد أصابهم الله بذلك حتى باتوا يرون مثل الدخان في السماء ، وهو " الدخان " المذكور في سورة الدخان . كما في الرواية الصحيحة عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – التي رواها البخاري ومسلم في عدة روايات متشابهة . وهذه رواية لمسلم [1] :

((جاء إلى عبدِ اللهِ رجلٌ فقال : تركتُ في المسجدِ رجلًا يُفسِّرُ القرآنَ برأيه . يُفسِّرُ هذه الآية : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾. قال : يأتي الناسَ يومَ القيامة دخانٌ فيأخذ بأنفاسِهم . حتى يأخذَهم منه كهيئةِ الزُّكام . فقال عبدُ اللهِ : مَن علِم علمًا فلْيَقُلْ به ، ومن لم يعلمْ فلْيقُلْ : اللهُ أعلمُ . فإنَّ مِن فقه الرجلِ أن يقول ، لما لا عِلْمَ له به : اللهُ أعلمُ . إنما كان هذا ؛ أن قريشا لما استعصت على النبي صلى الله عليه وسلم ، دعا عليهم بسنين كسنيّ يوسف فأصابهم قحط وجَهد ، حتى جعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجَهد . وحتى أكلوا العظام . فأتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل فقال : يا رسول الله ! استغفر الله لمُضر فإنهم قد هلكوا . فقال : (لمضر ؟! إنك لجرئ) قال فدعا الله لهم . فأنزل الله عزّ وجلّ :﴿ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ [الدخان15] قال فمُطروا . فلما أصابتهم الرفاهية ، قال ، عادوا إلى ما كانوا عليه . قال فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الدخان] . قال : يعني يوم بدر)) .

وجاء في رواية للبخاري :

((بينما رجلٌ يحدّثُ في كِنْدَةَ فقالَ : يجيءُ دُخَانٌ يومَ القيامة ، فيأخذُ بأسماعِ المنافِقِينَ وأبصارِهِم ، يأخذُ المؤمنَ كهيئةِ الزُكامِ ، ففزِعنَا ، فأتيتُ ابنَ مسعودٍ ، وكان متَّكئًا ، فغضبَ ، فجلسَ فقالَ : من علمَ فلْيقلْ ، ومن لم يعلمْ فليقلْ : اللهُ أعلمُ ، فإنَّ من العلمِ أنْ تقولَ لِمَا لا تعلمُ لا أعلمُ ، فإنَّ اللهَ قالَ لنبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [ص] . وإنَّ قريشًا أبطَؤُوا عن الإسلامِ ، فدَعا عليهم النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : (اللهمَّ أعنِّي عليهم بسبعٍ كسبعِ يوسفَ) . فأخذتْهُم سنةٌ حتى هلَكوا فيهَا ، وأكَلوا المَيْتَةَ والعِظامَ، ويَرى الرجلُ ما بين السماءِ والأرضِ كهيئةِ الدُّخَانِ ، فجاءَهُ أبو سفيانَ فقالَ : يا محمّد ، جئتَ تأمُرُنَا بصلةِ الرحمِ ، وإن قومَكَ قدْ هَلَكُوا فادعُ اللهَ . فقرأَ : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ - إلى قولهِ - إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ

1 - أخرجه مسلم برقم : 2798 . والبخاري برقم : 1007,4809,4821,4822 . (صحيح أسباب النزول) ، (صحيح السيرة) إبراهيم العلي .

قَلِيلًاۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الدخان] . أفَيُكشفُ عنهمْ عذابُ الآخرةِ إذا جاءَ ثمَّ عادوا إلى كفرهِم ، فذلك قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ يومَ بدرٍ ، و (لِزَامًا) يومَ بدرٍ ، (الم غُلِبَتْ الرُّومُ – إلى – سَيَغْلِبُونَ) . والرومُ قدْ مضَى)) [1] .

وفي سور أخرى عدة – بالإضافة إلى سورة الدخان – تناول القرآن الكريم حادثة الدخان أو " العذاب الأدنى" لقريش ، وعالج موقفهم في هذه الفترة ، إما تفصيلاً أو إجمالاً أو إشارة ، أو بضرب الأمثال لهم بالأمم السابقة وقد دخلوا مثلهم في سنة الأخذ بالعذاب الأدنى .. في مثل سور :

النحل [53–55] ، والروم [33–36، 41–42، 51–53] ، وهود [7–12] ، والحجر [89–91] ، والزمر [8 ، 49–61] .. الأعراف والأنعام والسجدة .. يونس والمؤمنون والطور [2] .. وغيرها :

- ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ المؤمنون
- ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ الطور .. وهو عذاب الدنيا [3] .
- ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ الروم
- ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ يونس

أي، وإذا أذقنا كفار مكة مطراً وخصباً من بعد بؤس وجدب مسَّهم ، بطروا ، فاحتالوا لدفع آيات الله ..

---

1 - البخاري - الصفحة أو الرقم 4774. نقول : قريش لم تتحمّل العذاب ، فطلبت من رسول الله أن يستغفر الله لهم قبل أن يتمّوا السنين السبع ، والأمر لم يتجاوز سنوات الحصار الثلاث ، كما يُفهم من آيات سورة الحجر (89-91) أنظر (ص18). وما صح من روايات السيرة. أنظر (صحيح السيرة - ابرهيم العلي - المبحث الثاني وما بعده من الفصل السادس) . فإذا كان ما أوقعه الله تعالى بقريش في غزوة بدر هو "البطشة الكبرى" لقريش ، فقد أوقع الله تعالى بأعدائه وأعداء أوليائه من يهود ومنافقين " بطشة كبرى " خاصة بهم ، كما في الغزوات التالية لبدر .. فبعد كل ضربة لقريش كانت تأتي ضربة ليهود ، وكانت غزوة خيبر آخرها .

2 - أنظر تفسير الآيات ذات العلاقة في تفسير (الجلالين ، ابن كثير ، الطبري) .

3 - عند المقارنة بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، لا شك أن عذاب الآخرة هو الأكبر وعذاب الدنيا مهما كان أليماً شديداً فهو الأدنى ، كيفاً وكماً. إضافة إلى ذلك ، فإن العذاب ليس على درجة واحدة ، فعذاب الدنيا منه ماهو أدنى ومنه ماهو أكبر، وكذلك عذاب الآخرة .. نعوذ بالله من جميع عذابه . لاحظ هنا عندما وصف الله تعالى عذاب الدنيا بـ (دون ذلك) لم يقل (لعلهم يرجعون) لأن المقصود بهذا العذاب (دون ذلك) هو عذاب الهلاك والدمار والموت ، الذي ليس بعده إلا الآخرة وعذابها الأكبر .

فليعلموا أن الله أسرع مجازاةً ، وإن الحفظة من الملائكة يكتبون ما يمكرون [1]..

فإن لم يتداركوا أنفسهم ؛ بأن يؤمنوا قبل نزول " العذاب الأكبر" ، لم ينفعهم إيمانهم إن آمنوا ولن ينفعهم ، كما هي سنة الله تعالى الدائمة الجارية في الذين خلوا من قبلهم من الطغاة والأمم العتاة على أمر ربهم .. مثل فرعون وعاد وثمود .. فلم ينفعهم إيمانهم بعد أن رأوا العذاب :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ غافر

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَـٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ السجدة

فهذه السُـــنّة الربّانيّة أو الآية الربّانيّة ، أصابت قريشاً – وقد تمادوا في غيهم وظلمهم – خلال فترة حصــارهم رســول الله والمؤمنين ومن ناصــرهم في شــعب بني هاشــم .. ثم رفعها الله تعالى عنهم بعد أن وعدوا بالتوبة وبعد استغفار رسول الله لهم – كما في روايات ابن مسعود السابقة – وذلك قُبيل فك الحصار في الســنة العاشــرة من البعثة ، حيث رفضــت جماعة من قريش هذه المقاطعة الظالمة ونقضــوا الوثيقة ، وانفكّ الحصار .. إلا أن قريشاً وملأها بعد ذلك نكثوا وعدهم بالتوبة ، ورجعوا إلى سابق عهدهم في معاداة الحق وأهله ؛ رســولِ الله والذين آمنوا معه ، بل وبصــــورة أشـــد وأقوى وبشـــكل مختلف ، كما في الآيات الســابقة من ســور الطور والمؤمنون ويونس والدخان .. وخاصــة بعد ذهاب نَصــيريّ رسـول الله صـلّى الله عليه وآله وسلّم القويَّــيْــن : زوجه خديجة رضي الله عنها ، وعمّه أبا طالب في نفس العام ، حيث مات أبو طالب بعد فك الحصــار بفترة وجيزة ، وتوفيت خديجة رضـي الله عنها بعده بزمن قليل .. وعندها بدأت قريش وملؤها في التجارؤ على إيذاء رسول الله بما لم يستطيعوه من قبل .. حتى أنهم منعوه أن يبلّغ رسالة الله عزّ وجلّ ، وصــدّوه عن المســجد الحرام .. ومن ثَمّ فقد اســتحقّت قريش وملؤها انتقام الله منهم ممثلاً بـ " العذاب الأكبر " .. فنزلت الآيات تنذرهم به ، كما في الآيات التالية :

﴿ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ الدخان

﴿ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ الحجر

1 - أنظر تفسير الجلالين . وأيضاً (الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)- الواحدي ، (الكشّاف)- الزمخشري .

﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ﴾ الشعراء

وبهذا ، بدأ الطور الأخير من المرحلة الأولى ؛ مرحلة الاستضعاف ..

الطور الرابع : التهيئة لـــ " الفتح " والحكم بين الفريقين ، لنصر المؤمنين وخـــزي الكافرين . وكان من السنة الحادية عشر من البعثة وحتى الهجرة إلى المدينة المنورة في الثالثة عشر :

وننهي جولتنا مع آيات سورة إبراهيم بقوله تعالى :

﴿ ..فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ﴿١٦﴾ ﴾

نظرة مجملة لهذا الطور :

بالرغم من أن قريشاً وملأها دخلوا سنة الله بأخذ القرى بـ " البأساء والضراء " (العذاب الأدنى).. ورأوا من آيات الله تعالى ما رأوا .. إلا أنهم أخلفوا وعدهم بالتوبة ، وعادوا إلى سابق عهدهم في رفض الحق وإيذاء أهله ، بل بأشد وأعتى ، حتى منعوا رسول الله أن يبلّغ كلام ربه عزّ وجلّ ، وصدّوه عن المسجد الحرام ، وتجرّؤوا على إيذائه بما لم يستطيعوه من قبل..! ومن ثَمّ ، فقد دخلوا في السُنّة التالية من سنن الله تعالى في السير بالرسالات ، ألا وهي سنّة " الفتح " ، حيث يَفْصل الله عزّ وجلّ ويحكم بين الفريقين الخصمين ، بنصر أوليائه وبخزي أعدائه ، بإنزال " العذاب الأكبر " في الدنيا عليهم . ولا رادّ لأمر الله جلّ وعلا .. إلا أن الله تعالى – برحمته – جعل لقريش أمانَين من ذلك العذاب ، برغم استحقاقهم له : فإما أن يستغفروا الله تبارك وتعالى ويعودوا إليه ، أو أن يُبقوا رسول الله بينهم فلا يُخرجوه . كما في قوله تعالى :

﴿ وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٢﴾ **وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ** وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ **يَسۡتَغۡفِرُونَ** ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ [1] وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا **ٱلۡمُتَّقُونَ** وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ الأنفال

---

[1]- كما في سورة الحج : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ، وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ، نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ{25}) .

فإذا تابوا إلى الله ، فسيبقوا رسول الله بينهم ، عندها ينجوا من العذاب ..
وإذا أصروا على الكفر جاحدين معاندين ، أخرجوا رسول الله من بينهم ، عند ذلك يُنزل الله " العذاب الأكبر " بهم قريباً ، كما هي سنته عزّ وجلّ :

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ الإسراء

فهذه سنة الله عامة : " النُّصرة والغلبة تأتي على إثر الهجرة (الإخراج) عن قريب . حيث أن النُّصح والدّعوة والصّبر ، ثم البراءة والهجرة ، ثم النّصر حتى يظهر الحق على الباطل .. ليس بأمر يختص بمحمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم ، بل هذه سنّة الله برسله ، وطريق عدله بخلقه " :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾ يوسف

" فعَلِمْنا أن النبيّ – أي نبيّ – إذا هاجر اقترب للناس حسابهم ، فينتصر دين الله وينكسر الكفر . وهذه هي سنة الله .. فإنك ترى مما جاء في قصص الأنبياء ؛ أن الإهلاك يأتي بعد الهجرة ، ذلك أن الرسول أمان للأمّة ما دام فيهم ، حتى إذا استيئس منهم وأُذن له بالهجرة فحينئذ يعلن الرسول بالبراءة ويهاجرهم .. عندها يكون قد اقترب الفتح والعذاب ، فإن استدركوا على أنفسهم فاستغفروا وتابوا ، رفع الله عنهم العذاب ، كما حصل لقوم يونس . وإن لم يتوبوا ويستغفروا وقع بهم العذاب ، كما ذكر الله تعالى ذلك في سورة الأنفال " في الآيتين (33–34) [1] .

هذا ، وقد اختص الله عزّ وجلّ هذه الأمّة الخاتمة بأمر مهم ، في ما يتعلق بطبيعة ونوع عذاب الكافرين بالرسالة الخاتمة ، ألا وهو : أن عذاب الله تعالى لهم ليس كالكافرين من الأمم السابقة ، عذبهم بجنوده من السماء والأرض :

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ العنكبوت

بل الأصل فيه ، أن يكون بأيدي المؤمنين أنفسهم ، قتلاً وأسراً ، فهم الآن جنود الله في الأرض ، وأمناؤه فيها :

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ التوبة

[1] - أنظر كتاب (نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان) ، عبد الحميد الفراهي - تفسير سورة الكافرون .

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ ﴾ محمّد

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ التوبة

لأجل ذلك ، تأجّل نزول العذاب بقريش إلى ما بعد خروج رسول الله والمؤمنين من مكة والهجرة إلى المدينة وبعد أن أصبحوا أمّة من دون الناس ، وأصبح لهم دار وأنصار .. يعني في يوم بدر ؛ يوم " الفرقان " .

وعليه ، بدأت مشيئة الله عزّ وجلّ في التهيئةَ للأمر .. قدراً وشرعاً .. فالنصر حتى يحصل في الواقع الإنساني حسب سنن الله تعالى وتقديره ، لا بد له من شروط وحيثيات ومقومات ، ومن تهيئة وإعداد ..

﴿ ..إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ يوسف

وهذا كله له سنن تضبطه ، وأحكام شرعية لا بد من القيام بها .. فـ " سنّة الفتح "، سنة عامة تندرج تحتها تفاصيل . والطور الرابع من السير هو الظرف الذي حدثت فيه تلك السنن والمقدمات ، القدريّة والشرعيّة ، للتهيئة من أجل نصر المؤمنين ، وإنزال العذاب على الكافرين الجاحدين .. ومن تلك السنن والمقدمات :

1- أمر الله تعالى نبـيّه في البحث عن بديل لقريش بعرض نفسه على قبائل العرب . فبـدأ رسول الله البحث في خارج مكة ، لَعــلّه يجد أحداً يوفّر له الحماية بدلاً من أبي طالب ويحمله إلى قومه ، حتى يستطيع أن يستمر في تبليغ كلام الله تعالى ورسالته [1] ، أو أن يجد من يؤمن به وينصره ، وقد كفرت به عشيرته الأقربون ، ومنعوه أن يبلغ كلام ربه ، وصدّوه عن المسجد الحرام .. إلى أن جاء وفــد الأنصار فآمنوا بالله واتبعوا رسوله ، فكانت بيعةً على الإيمان ، وليس ذلك فحسب .. بل اختاروا ، رضـي الله عنهم وأرضـاهم ، أن يؤوه وينصـروه .. فسارَعوا إلى البيعة الثانية ، على إيواء رسول الله والمؤمنين ونصـرهم .. فكانت بداية نصر الله تبارك وتعالى لرسوله ، أن يسّر له من **يؤمن به** ويحمله إليه ويؤويه .

2- أن قريشاً – وقد نسوا ما ذُكّروا به – دخلوا في حالة " الإمهال " و " الإنظار " **أو** " الاستدراج " و " الإملاء" .. من ســـنن الله في الجاحدين ، وهي أن يفتح الله تعالى عليهم أبواب كل شـــيء من الدنيا ويمدهم بها ، حتى إذا اغتروا بها وأخذوا " يتمتعون " بها، أتاهم " العذاب الأكبر " بغتة في وقته المقدّر :

1 - إعطاء الحماية أو الجوار كان أمراً معروفاً مألوفاً عند العرب، وهو إما بدافع العصبيّة والحميّة، مثل ما كان يفعل أبو طالب مع رسول الله. أو من أجل الشرف والسمعة، كما أجار المُطعمُ بن عدي رسولَ الله عندما لم يستطع دخول مكة بعد عودته من الطائف. وكما دخل بعض الصحابة الكرام في جوار بعض سادة قريش . ومن مألوف العرب أيضاً أن العشيرة تـبـعٌ لسيدها، فإذا أسلم سيد العشيرة أسلمت العشيرة كلها أو معظمها، كما حصل مع سادة الأنصار إذ أسلم الناس بإسلامهم . وهو ما كان حريصاً عليه رسول الله في مكة ، حيث اهتم بدعوة سادة قريش لعل قريشاً تُسلم ، وعندما دخل عليه الأعمى أثناء ذلك عبس في وجهه ، فأنزل الله تعالى قوله : (عَبَسَ وَتَوَلَّى{1} أَن جَاءهُ الْأَعْمَى{2}..).

﴿ ... فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ الأنعام

أي ، " فلما أصروا على ترك آيات الله تعالى معرضين عنها ، فتحنا عليهم أبواب كل شيء من الرزق استدراجاً منا لهم – وقد رفعنا عنهم ما أصابهم من سنين ودخان – حتى إذا بطروا ، وأعجبوا بما أعطيناهم من الخير والنعمة أخذناهم بالعذاب فجأة ، فإذا هم آيسون منقطعون من كل خير.. " .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ الأعراف

فالصـــفة العامة لحال قريش في هذا الطور، هي البطر والعُجب بعدما فتح الله عليهم الدنيا .. والتمتّع بما أمدهم به من أموال وبنين .. بعد القحط والجدب (الســـنين والدخان) .. وهم على الحقيقة ، في حالة " اسـتدراج " و " إمهال " و " إملاء " .. حتى يحين اليوم الموعود لإنزال " العذاب الأكبر" بهم . فهُم يظنون أنهم على خير وأن الله تعالى يكرمهم بالنعم لرضاه عنهم !! [1] ..

3– أما وقد بقيت قريش وملؤها مُصـرّين على الرفض للحق ، فلم يكن أمامهم إلا خيار التصـــعيد لمواقفهم ، حتى أصـــبح " الجحود " موقفاً ثابتاً ونهائياً لهم من رســـالة الله تعالى ورســـوله ، وهو الكفر والتكذيب برغم يقينهم أنه الحق .. وقد دخلوا في سنة الله تعالى في الأمم المستكبرة على الحق :

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ النمل

﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾ يس

وقد استحقوا العذاب ، وهو آتيهم .. ولكن ، في موعده الذي جعله الله عزّ وجلّ له :

1 - سورة الفجر عالجت هذه الحالة : ((... فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ{15} وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ{16} كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ{17} وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ{18} وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً{19} وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً{20} ...)) الفجر . أنظر " تبيان سورة الفجر " في ما يلي من هذا البحث .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَـٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾ الكهف

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ **وَلَوْلَا كَلِمَةٌ** سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ **لَكَانَ لِزَامًا** وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ ﴾ طه

.. إلخ

وقد أكّد الله تعالى ذلك الوصف لموقف قريش ؛ بأنهم لن يؤمنوا ، وقد استحقوا العذاب العظيم نتيجة لموقفهم ذاك من رسالة الله تعالى ، في أوائل سورة البقرة في سياق بيان أصناف الناس في المدينة المنورة بعد الهجرة :

﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟** سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ **لَا يُؤْمِنُونَ** ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ البقرة

وقد وردت الإشارة إلى هذا الوصف لمواقف الأمم السابقة من رسل الله – تعريضاً بقريش – في كثير من السور ، من أنه لن يؤمن إلا من قد آمن ، وأنهم لن يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم (العذاب الأكبر) .. وقد سمعوا الآيات البينات ، وعاينوا " الأخذ بالبأساء والضرّاء " أو " العذاب الأدنى " .. ورغم ذلك كله لم يؤمنوا ..

وفي إطار تصعيد موقفهم ، أخذ الملأ من قريش في التفكير والتخطيط (المكر) إلى توجيه ضربة قاصمة للرسالة وإنهائها .. وذلك بالقضاء على صاحبها وحامل لوائها ؛ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم :

﴿ وَإِذْ **يَمْكُرُ** بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ الأنفال

ولسان حال قريش ومقالها هو :

" إما أن **تخرجوا** من قريتنا (مجتمعنا) أو **تعودوا** في ملتنا وديننا، **وتتبعوا** سادتنا وقيادتنا " :

﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ الإسراء

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ۝١٣ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ۝١٤ ﴾ محمّد

وهذه هي النهاية الطبيعية ، حسب سنن الله تعالى ، للعلاقة بين الفريقين المتخاصمين في ربهما في **حال ثبات** أهل الحق ، **وإصرار** الملأ وأئمة الكفر في القرية على معاندة الحق واتباع الباطل :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٣ ﴾ إبراهيم .

ومن أبرز سمات هذا الطور وأحداثه ومواقفه ، إضافةً لما سبق وتفصيلاً :

1 – أمر الله تعالى رسوله الكريم أن ينذر قريشاً إنذاراً أخيراً **خاصاً بهم** ، ينذرهم بعذاب قريب مدمّر لهم في الدنيا ، أي " العذاب الأكبر " ، قبل عذاب يوم القيامة . وذلك حسب سنة الله تعالى في الأقوام السابقين الذين استكبروا ، كما بيّنا آنفاً .. وجاء ذلك الإنذار في آيات سورة الشعراء : فإمّا التوبة إلى الله الرحيم أو إنزال العذاب الأليم بهم ، من الله العزيز .. (يُرجى قراءة السورة كاملة) :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢١٥ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢١٦ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٢٢٠ ﴾ الشعراء [1] .

وفي صحيح مسلم عن قبيصة بن المخارق و زهير بن عمير ، أنه : (لما نزلت : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ ، قال انطلق نبيُ الله صلى الله عليه وسلم إلى رضمة من جبل . فعلا أعلاها حجراً ثم نادى: **(يا بني عبد مناف إني نذير ، إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يربأ أهله ، فخشي أن يسبقوه فجعل يهتف : يا صباحاه)** [2].

وفي صحيح البخاري عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما : (لما نزلت : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ ، صعد النبي صلى اللهعليه وسلم على الصفا ، فجعل ينادي :**(يا بني فهر ، يا بني عدي)**، لبطون قريش ، حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش ، فقال: **(أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي)** . قالوا : نعم

---

1 - أنظر الروايات الثابتة حول هذه الآيات في (صحيح أسباب النزول) إبراهيم العلي. و (الصحيح المسند) للوادعي.
2 - صحيح مسلم - الصفحة أو الرقم 207. أنظر (صحيح السيرة) إبراهيم العلي .

ما جرينا عليك إلا صدقا ، قال : (**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**). فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ، فنزلت : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ .. فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ﴾ المسد)[1] .

فهذه " **نذارة خاصة** " لقريش – العشيرة الأقربين – بالعذاب الشديد ، أي " الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى " أو " العذاب الأكبر " في الدنيا ، كما هي سنن الله تعالى في الأمم الجاحدة . وقد ورد ذكر هذه " النذارة الخاصة " في سور أخرى ، مثل الدخان [10– 16] ، والحجر [89–91] ، ويونس [96–103] ، والمؤمنون [73–77] .. الخ .. كما ذكرنا سابقاً .

وقد بيّن الله تعالى أن يوم بدر هو اليوم الموعود ، يوم الفرقان ، يوم يحق الله الحق ويقطع دابر الكافرين ، كما هي سنته تبارك وتعالى في الكافرين المستكبرين :

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ **وَيَقْطَعَ دَابِرَ** ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ الأنفال

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ

---

1 - صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم 4770. أنظر (صحيح السيرة) إبراهيم العلي . وقول رسول الله السابق له أصل في كتاب الله ، في قوله تعالى : (قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ{46}) سبأ . يقول القرطبي في تفسيره : [قَوْلُهُ تَعَالَى: (قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ) تَمَّمَ الْحُجَّةَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، أَيْ قُلْ لَهُمْ يَا محمّد : (إِنَّما أَعِظُكُمْ) أَيْ أُذَكِّرُكُمْ وَأُحَذِّرُكُمْ سُوءَ عَاقِبَةِ مَا أَنْتُمْ فِيهِ]. وأنظر تفسير ابن كثير .

هذا ، والقول بأن تلك الآيات من سورة الشعراء نزلت في بداية الأمر بالجهر بالدعوة بعد أن كانت بالسر، لا يصح، وذلك:

- إنه لم ترد رواية ثابتة - حسب علمنا - تربط بين نزول هذه الآيات وبين بداية الجهر بالدعوة وإنهاء السريّة ، إلا كلام ابن اسحق في المغازي، وقوله ذاك لم يثبت له سند متصل.
- إن العذاب الذي أنذرهم به في الدنيا قريب جداً على وشك الوقوع ، كما هو ظاهر الروايات : (..فخشي أن يسبقوه.. تريد أن تغير عليكم .. بين يدي عذاب شديد..) ، وهذا لا يكون في بداية بلاغ الرسالة ولم تعادِ بعدُ قريش رسول الله ، إنما يكون بعد البلاغ والبيان الكافي وظهور موقف الكفر والجحود .. وقد كان هذا قُبيل الهجرة للمدينة (الطور الرابع) .
- إنه لا ينسجم مع وصف السريّة ، ما يُفهم من الروايات السابقة من أن قريشاً كانت على علم مسبق بما يقوله رسول الله بخصوص لا إله إلا الله واليوم الآخر- لاحظ جواب أبي لهب - لكنـهم لا يريدون أن يؤمنوا بما يقول رغم علمهم أنه الصادق الأمين : (فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ {33}) الأنعام . حتى أن رسول الله (لما أراد الهجرة كان عنده ودائع لهم ، فأمر علياً أن يردها إلى أهلها). [حسنه الألباني في (إرواء الغليل)].
- إنه لا يتوافق مع السياق العام لسورة الشعراء ، فالسورة كلها تتحدث عن الإنذار النهائي بعذاب الله في الدنيا لأقوام الرسل وقد جعلوا الكفر بالحق موقفاً نهائياً لهم .
- إن كثيراً من أهل التفسير قد استشكل هذه الآية ، من باب لماذا النص على إنذار عشيرته الأقربين مع العلم أنه نذير للعالمين ؟ فحاولوا إيجاد مبررات مختلفة لذلك .. وما وُجد ذلك الإشكال إلا بسبب عدم وضع الآية في سياقها السننيّ الصحيح الذي بيّـناه آنفاً. وهناك تفصيل أكثر فيما يلي من البحث ، وعند " تبيان سورة الشعراء" ، بإذن الله .

قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ
بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ الأنفال .

2 – التهيئةَ للهجرة .. ليَنْجي الله جلّ وعلا أولياءه المؤمنين من مكر وكيد الكافرين ، وليُنْزل عذابه بأعدائه وأعدائهم .. وكانت البداية أن أمر الله تعالى نبـــيّه بالبحث عن بديل لقريش ، بعرض نفسه على قبائل العرب ، كما تشـير آية سـورة الأنعام التي توجّه رسـول الله إلى حمل الدعوة خارج مكة ، بعد أن رفضـتْها قريش [1] : ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ .. ﴿٩٢﴾ ﴾ الأنعام

وأيضاً في سورة الشورى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ ﴾ الشورى

فبـــدأ الرسول الكريم في البحث خارج مكة ، لَعــلّه يجد أحداً يوفّر له الحماية بدلاً من أبي طالب ويحمله إلى قومه ، حتى يسـتطيع أن يسـتمر في تبليغ كلام الله تعالى ورسـالته ، أو أن يجد من يؤمن به وينصره .. وقد كفرت به عشيرته الأقربون .. ومنعوه أن يبلّغ كلام ربه ، وصدّوه عن المسجد الحرام ..

وأول ما ذهب رسـول الله ، إلى القرية الأخرى ؛ إلى الطائف يعرض نفسه عليهم أن يقدّموا الحماية له أو أن يؤمنوا به وينصـروه ، إلا أنهم رفضـوه وقابلوه بأسـوأ ما يُقابل به نبي كريم .. فكان موقفهم ذاك أشـدّ ما لقيه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم من قومه في الدعوة إلى الله والسير بالرسالة ، كما صح في الرواية عن عائشـة رضـي الله عنها ، حيث قالت : (يا رسـول الله ! هل أتى عليك يوم كان أشـد من يوم أحد ؟ فقال : { **لقد لقيت من قومك ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال . فلم يجبني إلى ما أردت . فانطلقت وأنا مهموم على وجهي. فلم أســـتفق إلا بقرن الثعالب. فرفعت رأســـي فإذا أنا بســـحابة قد أظلتني. فنظرت فإذا فيها جبريل . فناداني . فقال : إن الله عزّ وجلّ قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك . وقد بعث إليك ملَك الجبال لتأمره بما شـــئت فيهم . قال : فناداني ملَك الجبال وســـلّم علي . ثم قال : يا محمّد ! إن الله قد سمع قول قومك لك. وأنا ملَك الجبال. وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك . فما شئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين** } [2] . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :{ **بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ، لا يشرك به شيئا** }) [3] ..

---

1 - هناك روايات ثابتة حول اتصال رسول الله بالقبائل ، تنص على أن رسول الله تلى عليهم آيات من سورة الأنعام . أنظر (صحيح السيرة) إبراهيم العلي . مما يعني أن السورة قد نزلت قبل ذلك ، والراجح أنها نزلت جملة واحدة .

2 - فقريش استحقت الاستئصال "العذاب الأكبر" ، ولكن ، الله تعالى أعطاهم أمان من العذاب مشروط بشرطين : إما أن يستغفروا الله تعالى ويتوبوا إليه ، أو أن يُبقوا رسول الله بينهم ولا يخرجوه من مكة . وإن أخلوا بالشرطين أتاهم العذاب لا محالة ، إلا أنه سيكون بأيدي المؤمنين من الأمة المسلمة الخاتمة كما هي سنة الله تعالى في هذه الأمة .

3 - صحيح مسلم - رقم 1795 : أنظر (صحيح السيرة) إبراهيم العلي .

ثم وجّـــه جُهده – عليه وآله الصـلاة والسـلام – إلى أن يعرض نفسـه على مختَلف قبائل عرب الجزيرة في المواسم ، لعله يجد من يحمله إليه أو من يؤمن به وينصره [1] ..

كما في الرواية الثابتة عن ابن عباس أن رسول الله عرض نفسه في الموسم على جماعة من سادة قبيلة شيبان بن ثعلبة ، فقال لهم : [(**أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمّدا عبده ورسوله ، وإلى أن تؤوني وتنصروني ، فإن قريشا قد ظاهرت على أمر الله ، وكذّبت رسله ، واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغني الحميد**)..] [2] .

لكنّهم اعتذروا ولم يستجيبوا لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم..

وكما في الرواية عن جابر رضي الله عنه : ((كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على الناس بالموقف فيقول:{ **هل من رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشـــاً منعوني أن أبلّغ كلام ربي عزّ وجلّ** }. فأتاه رجل من همذان فقال: { **ممن أنت ؟** }. فقال الرجل: من همذان . فقال:{ **هل عند قومك من منعة ؟** } قال نعم . ثم إن الرجل خشي أن يخفره قومه [أي ينقضوا عهده وميثاقه]، فأتى رسول الله صلّ الله عليه وسلّم فقال : آتيهم أخبرهم ، ثم آتيك من قابل . قال : { **نعم** } . فانطلق ، وجاء وفد الأنصار في رجب)) [3] ..

وجاء وفـــد الأنصار فآمنوا واتبعوا رسوله الله ، وليس ذلك فحسب ، بل آووه ونصروه ، رضي الله عنهم وأرضاهم .. فالله تبارك وتعالى قد ادّخر تلك الكرامة للأنصار رضي الله عنهم ، فهم أحق بها حسب سنته عزّ وجلّ .. في مثل قوله تعالى :

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ الأنعام

وكان ذلك من فضل الله تبارك وتعالى على رسوله أيضاً ، حيث لم يعطه **الحماية** فقط ، بل منّ عليه وعلى المؤمنين معه بأكثر من ذلك وأعظم ؛ **بالإيواء** ثم **بالتمكين والنصر**.. كما في قوله جلّ وعلا :

1 - هذه أول مرة يخاطب فيها رسول الله قبائل العرب بأن يؤوه وينصروه ، لكنها ليست الأولى في دعوتهم إلى الله وإنذارهم وبلاغهم رسالة الله ، كما ثبت في كثير من الروايات ، كما في رواية طارق بن عبدالله المحاربي قوله : (رأيتُ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ مرَّ في سوقِ ذي المَجازِ وعليهِ حلَّةٌ حمراءُ وَهوَ يقولُ : (يا أيُّها النَّاسُ قولوا لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ تُفلِحوا)، ورجلٌ يتَّبعُهُ يرميهِ بالحجارةِ قَد أدمَى كَعبَيهِ وعُرقوبَيهِ وَهوَ يقولُ: يا أيُّها النَّاسُ لا تُطيعوهُ فإنَّهُ كذَّابٌ فقُلتُ : مَن هذا ، قالوا: غُلامٌ بَني عبدِ المطَّلبِ. فقُلتُ: مَن هذا الَّذي يتَّبعُهُ يرميهِ بالحجارةِ. قالوا : هذا عبدُ العُزَّى أبو لهبٍ) صححه الوادعي في (الصحيح المسند) - الصفحة أو الرقم 516 . أنظر (صحيح السيرة) إبراهيم العلي .

2 - قاله الحافظ في الفتح :220/7 وعزاه للحاكم وغيره بإسناد حسن . أنظر أيضاً (صحيح السيرة) إبراهيم العلي . فمهمّة رسول الله الأساس هي أن يستمر في بلاغ الرسالة التي بعثه الله بها .. لاحظ الرواية التالية .

3 - أخرجه أحمد 322/3 ، 339 .وغيره ، أنظر (صحيح السيرة) إبراهيم العلي . هناك رواية أخرى صحيحة في (الصحيح المسند) الصفحة أو الرقم 264 - مقبل الوادعي . وهذه الرواية دليل على أن رسول الله كان يبحث عن رجل يحمله إلى قومه، أيّ رجل . فلما جاءه رجل ، سأله عن المنعة في قومه .. هكذا ، ولم يشترط عليه أن يؤمن بالله هو أو قومه ، بل الشرط أن يحمل الرجلُ رسولَ الله إلى قومه ، وأن يوفّر الحماية له - أي كما كان أبو طالب - ليستمر في بلاغ كلام ربه عزّ وجل ، الأمر الذي منعته قريش منه . فمهمته كرسول هي أن يستمر في بلاغ الرسالة التي بعثه الله بها ، أولاً بأول.. إلى أن يحكم الله تعالى بينه وبين قومه.

﴿ ... فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ الأنعام

أي، إن يكفر أهل مكة بآيات القرآن أو برسالة الله تعالى ، فقد أرصدنا لها قوما ليسوا بها بكافرين ؛ هم المهاجرون والأنصار [1] .

﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ الأنفال

﴿ ... فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ الأنفال

فبداية نصـر الله تبارك وتعالى لرسوله ، أن يُيسّــــر له من **يؤمن به** ويحمله إليه ويؤويه .. وهي الكرامة التي ادّخرها الله جلّ ثناؤه للأنصار رضي الله عنهم .

3 – نزلت آيات ســـورة المزمّل بالأمر بقيام الليل [2] ، أقلّه الثلث وأكثره الثلثين ، تهيئة للمؤمنين لتلقي " القول الثقيل " وهو الآيات التي فيها الأحكام المتعلقة بالأمّة والســـلطان ، ومنها آيات التكليف بالقتال والإنفاق في سبيل الله . ونزلت آية التخفيف آية [20] من سورة المزمّل ، بعد اثني عشر شـهراً أو أكثر كما صـح في بعض الروايات ، كما عن عائشــة رضــي الله عنها : (.. فقالت [أي عائشــة] : لست تقرأ : يا أيها المزمّل ؟ قلت : بلى . قالت : فإن الله عزّ وجلّ **افترض** قيام الليل في أول هذه السورة فقام نبي الله صلّى الله عليه وسلم وأصحابه حولاً. وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء . حتى أنزل الله في آخر هذه السورة ، التخفيف . فصار قيام الليل تطوعا بعد فريضة..) [3] ..

وحدث ذلك قبل الهجرة وقُبيل حادثة الإسـراء ، وآيات سـورة الإسـراء التالية تُصـوّر هذا الحال في الطور الرابع ، حيث بعد حادثة الإسراء فرض الله الصلوات الخمس وأصبح قيام الليل تطوعاً.. وفي هذه الأجواء كان سعي رسول الله للخروج من مكة من خلال البحث عمّن ينصره ويؤويه من قبائل العرب :

﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا

1 - أنظر تفسير الجلالين ، التفسير الميسّر .

2 - القول بأن هذه الآيات من أوائل ما نُـزّل من القرآن، لم تصح فيه رواية. أنظر (صحيح أسباب النزول) إبراهيم العلي . و (الصحيح المسند) مقبل الوادعي . بل إن الروايات الواردة وسياق السورة ، يدلان على صحة ما أثبتناه بأنها نزلت متأخرة. والبيان مفصلاً سيكون عند تبيان السورة فيما يلي من البحث ، بإذن الله.

3 - جزء من رواية صحيح مسلم - رقم 746 .

﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ الإسراء (1)

وكما تشير آيات سورة الشعراء :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ **حِينَ تَقُومُ** ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾

وآيات سورة الشرح :

﴿ فَإِنَّ مَعَ **ٱلْعُسْرِ** يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ **ٱلْعُسْرِ** يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ **فَٱنصَبْ** ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ **فَٱرْغَب** ﴿٨﴾ ﴾ .

وهو نفس الأمر الذي كلّف الله به موسى وهارون ، عليهما السلام ، وأتباعهما عندما كانت الدعوة إلى الله في نفس هذا الطور وهذا الحال ، أي قُبيل نصر المؤمنين وإنزال العذاب على الملأ الذين كفروا ، كما في آيات سورة يونس:

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ **أَن يَفْتِنَهُمْ** ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ
وَإِنَّهُۥ لَمِنَ **ٱلْمُسْرِفِينَ** ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ
تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا **لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً** لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ **وَنَجِّنَا** بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ
وَأَخِيهِ أَن **تَبَوَّءَا** لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا **وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ** ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ... ﴾

ومن ثم دعا موسى عليهم بالهلاك ، فاستجاب الله عزّ وجلّ له ، فنجّى المؤمنين الذين اتبعوا موسى من بني إسرائيل ، وأغرق فرعون وجنوده في اليم (2)..

1 - يقول ابن كثير في تفسيره ، ما حاصله : ((نزلت في كفار مكة لما هموا بإخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ فَتَوَعَّدَهُمُ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ، وَأَنَّهُمْ لَوْ أَخْرَجُوهُ لَمَا لَبِثُوا بَعْدَهُ بِمَكَّةَ إِلَّا يَسِيرًا. وَكَذَلِكَ وَقَعَ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَعْدَ هِجْرَتِهِ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ بَعْدَ مَا اشْتَدَّ أَذَاهُمْ لَهُ إِلَّا سَنَةٌ وَنِصْفٌ، حَتَّى جَمَعَهُمُ الله وإياه ببدر على مِيعَادٍ، فَأَمْكَنَهُ مِنْهُمْ وَسَلَّطَهُ عَلَيْهِمْ وَأَظْفَرَهُ بِهِمْ، فقتل أشرافهم وسبى ذراريهم، ولهذا قال تعالى: {سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا} الآية، أَيْ هَكَذَا عَادَتُنَا فِي الَّذِينَ كَفَرُوا بِرُسُلِنَا وآذوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم يأتيهم العذاب ... وقال الحسن البصري: إِنَّ كُفَّارَ أَهْلِ مَكَّةَ لَمَّا ائْتَمَرُوا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَقْتُلُوهُ أَوْ يطردوه أو يوثقوه، فأراد الله قتال أهل مكة، أمره أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَهُوَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: {وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ} الآية... وهذا القول هو أشهر الأقوال، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ، وَقَوْلُهُ: {وَاجْعَلْ لِّي مِن لَّدُنْكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً} قال قتادة: أن نبي الله صلى الله عليه وسلم ، علم أن لا طَاقَةَ لَهُ بِهَذَا الْأَمْرِ إِلَّا بِسُلْطَانٍ، فَسَأَلَ سُلْطَانًا نَصِيرًا لِكِتَابِ اللَّهِ، وَلِحُدُودِ اللَّهِ، وَلِفَرَائِضِ اللَّهِ، وَلِإِقَامَةِ دِينِ اللَّهِ ... وهو اختيار ابن جرير ، لِأَنَّهُ لَا بُدَّ مَعَ الْحَقِّ مِنْ قَهْرٍ لمن عاداه وناوأه، ولهذا يقول تعالى : {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } [الحديد25]. وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَزَعُ بِالسُّلْطَانِ مَا لَا يَزَعُ بِالْقُرْآنِ». أَيْ لَيَمْنَعُ بِالسُّلْطَانِ عَنِ ارْتِكَابِ الْفَوَاحِشِ وَالْآثَامِ مَا لَا يَمْتَنِعُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ بِالْقُرْآنِ، وَمَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ الْأَكِيدِ وَالتَّهْدِيدِ الشَّدِيدِ، وَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ)) أنظر (مختصر تفسير ابن كثير)- الصابوني .

2 - أنظر (في ظلال القرآن) سيد قطب . نقول : في مثل هذا الموقف العصيب دعى ألو العزم من رُسُل الله - موسى ونوح.. عليهم السلام - على الذين كفروا من أقوامهم بالعذاب ، إلا رسولنا محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم دعى لهم بالهداية. فهو الرحمة المهداة ، وما أرسله ربّنا - جلّ جلاله - إلا رحمة للعالمين . والحمد لله رب العالمين.. فجزاه الله عنا خير ما يجزي نبياً عن أمته ، وآتاه الوسيلة والفضيلة والمقام المحمود الذي وعده .. آمين .

4 – هذا ، و بإصرار قريش على الكفر ، و دُنـــوّ نزول العذاب بهم ، وشعور رسول الله بعِظَم المسؤولية .. جعل رسول الله يتألم من أجلهم شفقة عليهم ورحمة بهم ، فجعل الله تبارك وتعالى ، يواسي رسوله ويخفف عنه حمله الثقيل .. في مثل قوله تعالى :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ الكهف

﴿ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ الشعراء

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ فاطر

وقمة هذه الحسرة من أجلهم كانت في أشد موقف وجده رسول الله منهم ، ألا وهو موقف أهل الطائف، ما جعل رسول الله – بعده – مهموماً مغموماً لا يشعر بنفسه حتى استفاق على نفسه في قرن الثعالب ، حيث ظنّ أنّ الله تعالى منزلاً عذابه بهم .. فما أن جاءه ملَك الجبال وأخبره أن الله تعالى يُخيّره بما يريد أن يفعل بهم ، حتى طلب من الله أن يؤجّل نزول العذاب لعلهم يؤمنون .. بل ورجاه – سبحانه – " أن يُخرج من أصلابهم مَنْ يعبد الله وحده ، لا يشرك به شيئاً " . فأعطاه الله ما أراد وأمهلهم ولم يعذّبهم ، وبذلك أقر الله عين نبيّه وأزاح عن كاهله همّه الكبير ، ووضع عن ظهره حمله الثقيل ، وهو " الوزر " المذكور في سورة الشرح : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ ﴾ الشرح [1].

5 – وصف القرآن المؤمنين بـ (الذين استُضعِفوا) أو (المستضعفين) كما في سورة الأعراف والقصص والأنفال وغيرها .. وهي نفس الفترة التي أشار إليها القرآن بـ " الكرب العظيم " في سورتي الأنبياء والصافات .. وهي التي اشتد فيها أذى قريش على رسول الله وتجرّأوا عليه بما لم يستطعوه من قبل ، حتى صدّوه عن المسجد الحرام ومنعوه أن يبلّغ كلام ربه عزّ وجلّ .. فكانت أصعب فترة وأشدها عسرة على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .. حيث كثرة الأعداء وقلة النصير.. كما جاء في سور العلق، المسد، الفرقان : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾ الفرقان [2] .

وكما في دعاء رسول الله ربّه ، تبارك وتعالى ، بعد عودته من الطائف :

{اللهمَّ إليكَ أشكو ضعفَ قوتِي وقلةَ حيلتِي وهوانِي على الناسِ ، يا أرحمَ الرحمينَ إلى منْ تكلُني إلى عدوٍّ يَتَجَهَّمُني أو إلى قريبٍ ملكتَهُ أمرِي ، إنْ لمْ تكنْ ساخطًا عليَّ فلا أُبالِي غيرَ أنَ عافيتَكَ أوسعُ لِي ، أعوذُ بنورِ وجهِكَ الكريمِ الذي أضاءَتْ له السماواتُ والأرضُ وأشرقتْ لهُ الظلماتُ وصلُحَ عليهِ أمرُ الدنيا والآخرةِ ، أنْ تُحِلَّ عليَّ غضبَكَ ، أو

1 - أنظر تبيان " سورة الشرح " فيما يلي من البحث .
2 - لاحظ الروايات الثابتة في أسباب النزول المتعلقة بالسور والآيات السابقة، في (صحيح أسباب النزول) - إبراهيم العلي

تُنزِلَ عليَّ سخطَكَ ، ولكَ العُتْبَى حتى تَرضَى ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بكَ } [1]

وفي هذه الظروف الصعبة والعسرة على رسول الله والجماعة المؤمنة معه ، كان التنبيه والتحذير من الوقوع في شَرَك " الحلول الوسط " التي كان يقترحها الملأ ، ويقلّبون القول لرسول الله ليقبل بها :

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ الإسراء

أي " وإن كان الحال والشأن أن المشركين قاربوا أن يصرفوك عن الذي أوحيناه إليك يا محمّد ، لتأتي بغيره وتخالف تعاليمه . ولو فعلت ما أرادوا ، لاتخذوك صاحباً وصديقاً . ولولا أن ثبّتاك على الحق بعصمتنا إياك ، كدت تميل إليهم وتسايرهم على ما طلبوا ، ولو ركَنْتَ إليهم لضاعفنا لك عذاب الدنيا وعذاب الآخرة – فالذنب من العظيم جرمٌ كبير يستحق مضاعفة العذاب – ثم لا تجد من ينصرك منا أو يدفع عنك عذابنا". والغرضُ من الآية بيانُ فضل الله على رسوله في تثبيته على الحق ، وعصمته من الفتنة ، ولو تخلى الله عن عصمته لمال إليهم بعض الشيء . والآية نص على أن رسول الله لم يركن للذين كفروا .

" قال المفسرون : حاول المشركون محاولات كثيرة ليثنوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن المضي في دعوته أو تغيير مسارها .. كمساومتهم له أن يعبدوا إلهَهُ مقابل أن يترك التنديد بآلهتهم وما كان عليه آباؤهم (المداهنة) ، و كطلب بعض الكبراء أن يجعل لهم مجلساً غير مجلس الفقراء .. الخ .. فعصمه الله من شرّهم وأخبر أنه لا يكله إلى أحد من خلقه بل هو وليه وحافظه وناصره " [2].

كما في قوله تعالى :

﴿ **فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ** وَمَن تَابَ مَعَكَ **وَلَا تَطْغَوْاْۚ** إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ **وَلَا تَرْكَنُوٓاْ** إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ **هود**

وهي التي شيّبت الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم حيث قال : **(شيبتني هود وأخواتها)** [3] .

ومن هنا ، كان التركيز في خطاب الله للمؤمنين على اتباع الوحي ، والصبر على طاعة الله تعالى، والصبر عن معصيته ، والصبر على أذى المشركين .. حتى يقضي الله – قدراً أو شرعاً – وهو عزّ وجلّ

---

1 - أنظر (صحيح السيرة) - إبراهيم العلي . نقول : عند تعسّر السير وصعوبة الطريق ، لا بد لحَمَلة الرسالة من المراجعة الشاملة والتقويم الدقيق لما مضى من خطوات السير ، مع التجرّد الكامل والإخلاص التام لله تعالى ، حتى لا يكون ذلك التعسّر والشدة والأذى عقوبة لهم وعذاب من الله تعالى ، بسبب مخالفتهم لأحكام " المنهاج " ، سواء من حيث الأعمال أم الخطاب . ولا بد أيضاً من إخلاص الدعاء لله والتذلل له جلّ وعلا في الهداية للصواب وتيسير الأمور . فهذه هي سنة رسولنا محمد ، وهو المعصوم المؤيّد من الله تبارك وتعالى .. فكيف بنا نحن ؟!

2 - أنظر (صفوة التفاسير) - الصابوني .

3 - حسّنه ابن حجر العسقلاني - تخريج مشكاة المصابيح - الصفحة أو الرقم 5/74 ، كما قال في المقدمة .

خير الحاكمين ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ يونس

وضرب الله تعالى الأمثلة والعبرة في الأنبياء والرسل السابقين ، عليهم وعلى نبيّنا الصلاة والسلام :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ **فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ** ... ﴿٩٠﴾ ﴾ الأنعام

﴿ **ٱصۡبِرۡ** عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾ ص

﴿ **فَٱصۡبِرۡ** لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ **مَكۡظُومٞ** ﴿٤٨﴾ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ القلم

" أي: فَاصْبِرْ أيها الرسول الكريم لحكم ربك – القدري والشرعي – ولا يوجد منك ما وُجِد من صاحب الحوت – يونس عليه السلام – من الضجر والغضب على قومه الذين لم يؤمنوا ففارقَهم دون أن يَأذن له ربُّه بمفارقتهم .. حتى لا يكن حالك كحاله وقت ندائه لربِّه عزّ وجلّ ، وهو مملوء غيظا وكرباً (مكظوم) لِما حدث له مع قومه ، ولِما أصابه من بلاء وهو في بطن الحوت ".

وهذا يذكّرنا بموقف نبي الله يعقوب عليه السلام وهُوَ كَظِيمٌ ، أي ممتلئ القلب حُزناً على ابنيه المفقودين وهو لا يعلم عنهما شيئاً .. ورغم ذلك ، فهو على ثقة تامّة بتحقق وعد الله تعالى – رؤيا يوسف بأن يكون سيداً وحاكماً – فقال لأبنائه :

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ يوسف

" أي لا أظهر همِّي وحزني إلا لله وحده ، فهو كاشف الضرّ والبلاء ، وأعلم من وعد الله ومن صدق وقوعه، ما لا تعلمونه .. فدققوا في البحث عن يوسف وأخيه ، ولا تقطعوا رجاءكم من رحمة الله ، إنه لا يقطع الرجاء من رحمة الله إلا الجاحدون لقدرته ، الكافرون به " .

.. الخ

6 – وفي ما يتعلق باستخدام القوة والقتال في الدعوة إلى الله ، كان الأمر الشرعي الثابت طوال هذه المرحلة هو " كف اليد "، أي المنع .. كما ذكرنا .. مع التأكيد عليه في هذا الطور، كما في رواية كعب بن مالك – رضي الله عنه – لأحداث بيعة العقبة الثانية ؛ بيعة النصرة والحرب ، حيث كان ممن شهدها وبايع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .. فبعد أن انكشف أمرهم في الليل بعد عقد البيعة سراً ، قال كعب : ((.. ثم قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : (**ارفضوا إلى رحالكم**). قال : فقال له العباس بن

عبادة بن نضلة : والله الذي بعثك بالحق ؛ إن شئت لنميلنّ على أهل " مِنى " غداً بأسيافنا . قال : فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : (لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم) . قال : فرجعنا إلى مضاجعنا، فنمنا عليها حتى أصبحنا ..)) [1] .

فالأصل في هذه المرحلة كلها هو العفو وكف اليد والصبر على أذى قريش ، حتى يحكم الله بأمره، إما شرعاً أو قدراً .. أي ، إما تكليفاً بحكم شرعي جديد كالقتال مثلاً .. أو تيسيراً وفرجاً .. وقد حصل الإثنان معاً ؛ بإيمان الأنصار والهجرة إلى المدينة ، وبالإذن في القتال بعد الهجرة .. والحمد لله .

7 – وعطفاً على الأمر بالعفو وكف اليد في هذا الطور ، أمر الله جلّ وعلا رســـوله والجماعة المؤمنة معه بالالتزام بما يلي :

الارتقاب : ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ الدخان..

والإعراض والانتظار : ﴿ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ السجدة ..

الصبر والهجر الجميل : ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ ﴾ المزمّل..

والصفح الجميل : ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ ﴾ الحجر

﴿ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ الزخرف

والصبر الجميل : ﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ﴿١﴾ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ﴿٤﴾ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ المعارج

وفي سياق الانتظار والصبر الجميل هذا ، وحثّ المؤمنين على التجمّل به والاستقامة عليه .. تأتي حقيقة أن " الله جلّ وعلا لطيف لما يشاء " ، بمعنى أن الله تعالى يُنفذ مشيئته بلطف ورفق ورَويّة وحكمة، فوَعْده متحقق قطعاً .. لكن في وقته الذي قدّره الله تعالى له .. كما ورد في سورة يوسف التي نزلت أثناء الحصار والمقاطعة في الشعب وقُبيل أخذ قريش بالسنين والقحط (الدخان) [2] . حيث قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام ، مستعرضاً الأحداث التي وقعت بين أن رأى رؤياه تلك وبين " تأويلها " ، أي تحققها في الواقع ، وقد مرّت أعوام عديدة :

1 - قال الهيثمي في المجمع : 6/42-45 رواه أحمد والطبراني بنحوه ، ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن اسحاق وقد صرّح بالسماع . أنظر باقي متن الرواية وتفصيل تخريج سندها في (صحيح السيرة) - إبراهيم العلي .

2 - حيث دعا رسول الله على قريش بقوله : (اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف) البخاري . مما يعني أن نزول سورة يوسف وعِلْم رسول الله بقصة يوسف ، كان قبل دعائه عليهم . أنظر " الطور الثالث " رواية عبد الله بن مسعود عن الدخان .

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) ﴾ يوسف

وفي نفس السياق ، فبالنسبة للملأ من قريش وللذين اتبعوهم على كفرهم ، فهم في حقيقة أمرهم ، واقعون تحت سنّة الله تعالى في : الاستدراج ، والإملاء ، والإمهال ، والإمداد ، والتمتّع :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) ﴾ الأعراف

﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) ﴾ القلم

" أي ، فإني سأقربهم قليلا قليلا إلى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم ، بأن أسوق لهم النّعم ، حتى يفاجئهم الهلاك من حيث لا يعلمون أنه استدراج ، بل يزعمون أن ذلك إيثار لهم وتفضيل عن المؤمنين ، مع أنه سبب هلاكهم ".

﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ (٥٦) ﴾ المؤمنون

﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١) ﴾ المزمّل

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا (٧٥) ﴾ مريم

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) ﴾ النحل

- .. إلخ

وكل ذلك – كما ذكرنا – كان في إطار سنة " الفتح " أو الفصل بين الفريقين ، وفي سياق تهيئة الله تعالى الأمورَ والأوضاع لتحقيق وعد الله عزّ وجلّ بنصر المؤمنين وتمكينهم في الأرض ، وإنزال " العذاب الأكبر " أو " البطشة الكبرى " على قريش بأيدي المؤمنين ، يعني في غزوة بدر ..

وآيات سورة يونس [82–109] تُصوّر هذه الفترة بشكل دقيق ، من خلال إيراد القصص والأحداث التي حصلت مع رسل الله تعالى السابقين في فترات مشابهة لهذه الفترة .. وكذلك آيات سورة النمل [7– 14]، [45–58]، [67–75]. وانظر أيضاً آيات سورة الحج [38–51]، وسورة الزمر [8–20]، [49–61]..

8 – وفي مقابل ما فتح الله به الدنيا على الكافرين وتمتّعهم بها ، استدراجاً لهم وإملاءً حتى تأتيهم " البطشة الكبرى " .. أبدى بعض المسلمين استياءهم ، في البداية ، حيث لم يدركوا حكمة الله تعالى . وذلك من باب القول : إننا على الحق ، ونعيش في هذا الضيق والعسر في ديننا ودُنيانا !.. بينما الكافرون أعداء الله تعالى وأعداء رسوله ، يتمتّعون ويتنعّمون بزينة الحياة الدنيا وهم في زيادة ! . فنزلت الكثير من الآيات تعالج هذه الحالة في هذا الطور ، فبيّنت للمؤمنين حكمة الله تعالى في هذا الأمر . وتأمرهم بالصبر ، وتذكّرهم بما أنعم الله عليهم من الهدى ، وأن العبرة بعواقب الأمور والفوز في الآخرة ، وأن الدنيا لا قيمة لها عند الله تبارك وتعالى.. فليست هي الغاية ، ولا ينبغي أن تكون " غاية الهم ومبلغ العلم " .. كما في قوله تعالى :

– ﴿ .. وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ... ﴾ طه [1]

أي ، ولولا أن الله قد قضى بأن يمهل أعداءك من قومك لأجل مسمى عنده ، للازمهم [2] الهلاك (البطشة الكبرى) عاجلاً ، لأنهم استحقوه .. فاصبر على ما يقولونه في شأنك من سوء أو طلبهم للآيات المادية .. وسر في طريقك دون أن تلتفت إلى إيذائهم واستهزائهم . ثم أرشده – سبحانه إلى ما يشرح صدره ، ويجلو همه :

- ✓ أن أكثر من الاتجاه إلى ربك إيها الرسول الكريم ؛ من تسبيحه وتنزيهه ومن المداومة على الصلاة .
- ✓ وأن لا تُطلْ نظر عينيك بقصد الرغبة والميل إلى ما مَتَّعْنا بِهِ أصنافاً (أَزْواجاً) مِنْهُمْ ، وهم الملأ ، فما رزقك الله إياه في هذه الدنيا من طيبات ، وما ادخره لك في الآخرة من حسنات ، خير وأبقى ممّا متّع به هؤلاء الكافرين من متاع سيتبعه العذاب الأليم ..

– ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ... ﴾ الحجر

– ﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ

---

1 - يُرجى العودة للمصحف وقراءة مجموعة الآيات (123- 135) من سورة طه .

2 - أنظر رواية ابن مسعود السابقة ، والتي تنص على أن " لزاماً " قد مضت وهي عذاب الله لقريش في غزوة بدر . كما في قوله تعالى :{ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً }[الفرقان77]. أي ، قل للكفار : لا يكترث بكم ربي فسوف يعذّبكم ويهلككم بسبب تكذيبكم بالحق ، إلا أن تؤمنوا . أي ، قل لهم حاثاً لهم على الإيمان : آمنوا بالله قبل أن يُهلككم . كما في قوله تعالى :{فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ }[يونس98] .

ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٧﴾ ... ﴾ الزخرف

- ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ ﴾ غافر

.. الخ

وكما حصل مع أتباع أنبياء الله السابقين ، وقد ساقهم الله للمؤمنين عامة ، مثلاً وعبرة :

﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ .... فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ .... تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ القصص

﴿ ... وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ... ﴾ يونس

9 – ونتيجة لاغترار قريش ومَلَئها بما فتح الله عليهم من غنى وقوة ، أخذوا يستعجلون – استهزاءً وتكذيباً – العذاب الذي أُنذروا به في الدنيا ، يعني الفتح في يوم بدر ، كما في سور الرعد [6]، النحل [1]، النمل [72]، يونس [11،50،51]، هود [8–11]، الأنعام [57–58]، الحج [47،48]، الأنبياء [37] .. وغيرها:

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡفَتۡحُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ يَوۡمَ ٱلۡفَتۡحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ السجدة

﴿ .. لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ ﴾ الشعراء

10 – وكان طلب الملأ من قريش لـ " الآيات المادية " (المعجزات) [1].. كما في سورة الإسراء، وهود، والفرقان، وغيرها .. حيث يبدأ الملأ الذين استكبروا بطلب " الآيات المادية " بعد أن يفتح الله عليهم أبواب كل شيء من الخيرات ، وقد نكثوا وعدهم بالإيمان بعد أن رفع الله عنهم البأساء والضراء (العذاب الأدنى) .. كما بيّن الله تلك السنّة في سورة الزخرف :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا
هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾
وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ
يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ
أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ
جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾
فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

الزخرف

وهو من " المكر في آيات الله " الذي يمارسه الملأ :

---

1 - لم يستخدم القرآن الكريم لفظة " المعجزة " ، ولا حتى معناها أو مفهومها كمصطلح ، والذي وُضع لاحقاً ، بل استخدم القرآن كلمة " آية " أو " آيات " أو " سلطان " أو "بيّـنة " أو " بيّـنات " لما فيها من معنى الحجة والبرهان والدلالة على الحق لمن أراد الهداية ، فتكون الحجة له . وأما من جادل بالباطل وأنكر الحق المبين فستكون الحجة عليه . وهذه المعاني والدلالات لا يمكن أن تعطيها لفظة " المعجزة ". فمعناها لغة :عَجُزُ الإنسانِ : مُؤَخَّرُهُ .. والعَجْزُ أصلُهُ التَّأَخُّرُ عن الشيء، وحصوله عند عَجُزِ الأمرِ ، أي : مؤخّره ، وصار في التّعارف اسماً للقصور عن فعل الشيء ، وهو ضدّ القدرة . (أنظر مفردات الراغب) . فالمقصود من إنزال القرآن ليس إثبات عجز الناس عن الإتيان بمثله ، بل أن يكون حجة ودليل إلى الحق (الهداية)، فمَن أخذ به كانت الحجة له ومعه ، ومَن تركه أصبحت الحجة عليه . " فالإعجاز ليس هو المقصود من كلام الله بل هو من لوازمه لكونه من عند الله ، الا ترى أنه في كل ما خلق الله - دق أو عظُم - معجزة ، وليس الأمر في خلقها بقصد الإعجاز بل لحكمة الله في خلقه ". هذا ، والآية أو آيات الله ، إما قرآنية :{تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ }[البقرة252] . أو مادية وهي ما تُسمّى بالمعجزات :{وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً } [الإسراء59] . أو كونية :{سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ }[فصلت53] . وجميعها تشترك في كونها علامة ودليل (آية) على الحق المبين الذي أصله وأُسّـه : " لا إله إلا الله " . فكلمة المعجزة ليست لفظة قرآنية ، ولم يستخدمها القرآن لأنها لا تعبّر عن المراد منه ، أي كونه هدى ونور فهو " إما حجة لك أو عليك " ، كما قال صلّى الله عليه وآله وسلّم . ومن هنا نقول : أنه ما دام يوجد لفظة قرآنية للتعبير عن معنى أو مفهوم معيّن فالأصل أن لا نحيد عنها . لأن توظيف القرآن لتلك اللفظة أو الكلمة ، وجَعْلها جزءاً من النسيج القرآني الكامل ، يوجِد لها مخزوناً فكرياً وشعورياً ، ورصيداً من الطاقة الروحية ، الأمر الذي يجعل لتلك الكلمة دوراً مقدّراً ومؤثراً في تحقيق الغاية من الرسالة. وهذه هي حقيقة " المصطلح الشرعي " - أو القراني - للكلمة . و ذِكْر تلك الكلمة أو تلاوتها يستدعي كل ذلك المخزون من المعاني والمشاعر، والطاقة الروحية الدافعة لتقوى الله وعبادته .. مثل كلمات : الجنة، النار، الشهادة في سبيل الله، الكفر، الإيمان، مؤمنين، كافرين، منافقين ... واستخدام كلمة بديلة عن "الكلمة القرآنية" في الخطاب : مثل استعمال كلمة " الآخر " للتعبير عن الكافرين . أو تبديل وتغيير معناها الشرعي الصحيح .. يعني تعطيل ذلك المخزون وتحييد تلك الطاقة المؤثّرة، ومن ثم إلغاء فاعليتها وتأثيرها في قلوب الناس .. والذي بدوره يؤدي إلى تعطيل - كليّ أو جزئيّ - لفاعليّة كلمات الله وآياته ودورها في هداية الناس ، وتحقيق الغاية من الرسالة . أنظر الجزء السادس : (مفاهيم ومصطلحات رسالية) - المقدمة .

﴿ وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ
٢٠ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ
مَا تَمۡكُرُونَ ٢١ ﴾ يونس

أي ، " أرادوا آية من الآيات المادية (المعجزات) التي كانوا يقترحونها وكانوا لا يعتدّون بما أُنزل عليه من " الآيات القرآنية " العظام المتكاثرة التي لم يَنْـزل على أحد من الأنبياء مثلها، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر بديعة غريبة في الآيات .. وجعلوا نزولها كـ لا نزول ، وكأنه لم يَنْـزل عليه آية قط ، حتى قالوا : لولا أُنزل عليه آية واحدة من ربه ، وذلك لفرط عنادهم وتماديهم في التمرّد وانهماكهم في الغيّ. ﴿ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ ﴾ أى هو المختص بعلم الغيب المستأثر به لا علم لي ولا لأحد به ، يعنى أنّ الصارف عن إنزال الآيات المقترحة أمر مغيب لا يعلمه إلا هو ﴿ فَٱنتَظِرُوٓاْ ﴾ نزول ما اقترحتموه ﴿ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴾ لما يفعل الله بكم لعنادكم وجحودكم الآيات " ..

ثم بيّن الله تعالى أن إِقْدَامهُمْ عَلَى طَلَبِ الْآيَاتِ الزَّائِدَةِ وَالِاقْتِرَاحَاتِ الْفَاسِدَةِ ، إِنَّمَا كَانَ لِأَجْلِ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعَمِ الْكَثِيرَةِ وَالْخَيْرَاتِ الْمُتَوَالِيَةِ بعد القحط والبؤس .. فهم إذا أخصبوا بطروا فاحتالوا لدفع آيات الله ، ليصرفوها عن دلالتها على الحق ، ليضلوا الناس عن سبيل الله .. " فسَمَّى تَكْذِيبَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ مَكْرًا ، لِأَنَّ الْمَكْرَ عِبَارَةٌ عَنْ صَرْفِ الشَّيْءِ عَنْ وَجْهِهِ الظَّاهِرِ بِطَرِيقِ الْحِيلَةِ ، وَهَؤُلَاءِ يَحْتَالُونَ لِدَفْعِ آيَاتِ اللَّه الدالّة على أن الله حق ، وأن اليوم الآخر حق ، وأن القرآن حق .. بِكُلِّ مَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ مِنْ إِلْقَاءِ شُبْهَةٍ أَوْ تَخْلِيطٍ فِي مُنَاظَرَةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الْفَاسِدَةِ .. وَإِنَّمَا غَرَضُهُمُ الدَّفْعُ وَالْمَنْعُ وَالْمُبَالَغَةُ فِي صَوْنِ مَنَاصِبِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ " .. " فقل لهم : أنّ الله تعالى دبّر عقابكم وهو مُوقِعه بكم قبل أن تُدبّروا كيف تعملون في إطفاء نور الإسلام . ﴿ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴾ إعلام بأنّ ما تظنونه خافيا مطوياً ، لا يخفى على الله وهو منتقم منكم " [1] .

هذا ، ومن سنّة الله تعالى في " الآيات المادية " أنه إذا أنزلها الله تعالى وكذّب بها القوم الذين طلبوها، أنزل الله عزّ وجلّ بهم " العذاب الأكبر" مباشرة ودون إمهال ، ليدمّرهم ويستأصل شأفتهم . ذلك أنهم برؤيتهم للآيات البيّنات الدالّة على صدق رسول الله ، رأي العين ، قد أُقيمت عليهم " الحجة الرسالية " كاملةً فلا عُذر لهم بتكذيبهم بعد ذلك ، وقد عاينوا من قبل " العذاب الأدنى " .

لهذا كان من سنّة الله تعالى في هذه الأمّة الخاتمة ، أن لا يُنزل " آية مادية " اقترحها المشركون ، بل أن يُمهلهم حتى حين .. كما في الرواية الصحيحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (سأل أهلُ

1 - أنظر (الكشّاف)- الزمخشري . و(الوجيز)- الواحدي . و (التفسير الكبير)- الرازي ، وقد فصّل القول في بيان هذه السنة ، يرجى العودة إليه .

مكة النبيَّ صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهبا ، وأن يُنحّي الجبال عنهم فَيَزْدَرِعوا . فقيل له : إن شئت أن **تستأني** بهم ، وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا ، فإن كفروا أُهلكوا كما أَهْلَكْتُ مَنْ قبلهم . قال: (**لا بل أستأني بهم**) فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية : ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ٥٩ ﴾ الإسراء) [1] .

وفي هذا السياق يأتي قوله تعالى :

- ﴿ فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا ٨٤ ﴾ مريم

((الْمُرَادَ هُنَا اسْتِعْجَالُ الِاسْتِئْصَالِ وَالْإِهْلَاكِ ، وَهُوَ مُقَدَّرٌ كَوْنُهُ عَلَى يَدِ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَيِ انْتَظِرْ يَوْمَهُمُ الْمَوْعُودَ، وَهُوَ يَوْمُ بَدْرٍ. وَلِذَلِكَ عُقِّبَ بِقَوْلِهِ : (إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا) ، أَيْ نُنْظِرُهُمْ وَنُؤَجِّلُهُمْ ، وَلَسْنَا بِنَاسِينَ لَهُمْ كَمَا يَظُنُّونَ . وَقَدِ اسْتُعْمِلَ الْعَدُّ مَجَازًا فِي قِصَرِ الْمُدَّةِ ، لِأَنَّ الشَّيْءَ الْقَلِيلَ يُعَدُّ وَيُحْسَبُ . وَفِي هَذَا إِنْذَارٌ باقتراب استئصالهم)) [2] .

- ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٣٥ ﴾ الأحقاف

.. إلخ

11 – وقد أيّد الله تبارك وتعالى رسوله وخليله محمّداً صلّى الله عليه وآله وسلّم ، في الظروف العصيبة والعسيرة ، بكثير من الآيات القرآنية .. وببعض الآيات المادية كذلك ، ليس على سبيل التحدّي للمشركين بل تثبيتاً لفؤاده ومن معه من المؤمنين ، واستشعاراً لمعيّة الله لهم .. كما في قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ **كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا** ٣٢ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ٣٣ ﴾ الفرقان

﴿ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ **مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ** فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ١٢٠ ﴾ هود

1 - أحمد شاكر / مسند أحمد - 4/96 . أنظر (صحيح أسباب النزول) إبراهيم العلي . نقول : لذلك لم يُحدث الله أي آية مادية على يد رسول الله الخاتم استجابة لطلب المشركين ، حتى القرآن الكريم ، وإن كان فيه تحدي لهم إلا أنه كان من باب الدليل على أنه من الله تعالى وأنه آية على صدق الرسول ، وليس استجابة لطلب المشركين .. مثل عصا موسى ، وإحياء الموتى على يد عيسى ، عليهما السلام . وأمّا ما ثبت حصوله من آيات مادية مع رسول الله كالإسراء ، ونبع الماء من بين أصابعه ، والبركة في الطعام .. كان من باب التكريم لرسول الله وتأييده وتثبيت المؤمنين . وفي هذا السياق يمكن أن يبرز إشكال في فهم آية " انشقاق القمر " على يد رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام ، بسبب أن بعض الروايات تُشير إلى أنها كانت استجابة لطلب المشركين . وهناك بعض الروايات - عن ابن مسعود - ليس فيها إشارة إلى ذلك . أنظر " تبيان سورة القمر " في ما يلي من البحث .

2 - (التحرير والتنوير) - ابن عاشور .

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب (٨) ﴾ الشرح

وقد تجلّى **تأييد** الله تبارك وتعالى لنبيّه وخليله محمّداً صـــلّى الله عليه وآله وســـلّم في مواقف كثيرة ، من أهمها :

– كفايته المستهزئين ، حيث أهلكهم واحداً بعد الآخر :

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) ﴾ الحجر

– نزول ملَك الجبال لنصـــرته ، وتخييره بإنزال العذاب على قومه وقد كذّبوه .. وذلك بعد عودته من الطائف .

– أيمان النفر من الجن ، بعد أن بلغتهم دعوة الله تعالى . وقد رفضتها كلتا القريتان ؛ مكة والطائف :

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) ... ﴾ الجن

– حادثة الإسراء ، وكانت من آيات الله الكبرى .. فازداد المؤمنون تصديقاً ، والكافرون تكذيباً ..

– إيمان الأنصار ، حيث بعد وفاة أبي طالب ، كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يبحث عن بديل لأبي طالب **ليحميه** فقط ، وإن كان كافراً مثله ، ليستطيع أن يستمر في تبليغ رسالة الله تعالى ، وذلك في إطار "سنّة الفتح " والفصل بين الفريقين المتخاصمين – كما ذكرنا سابقاً – إلا أن الله تبارك وتعالى بمنّه وكرمه ، هيّأ له أكثر من ذلك ، فقد هيّأ له وساق إليه من **يؤمن** به ويتبعه و**ينصره** ، وهي الكرامة التي ادّخرها الله تعالى للأنصار رضي الله عنهم ، حيث آمنوا بالرسول واتبعوه ، ثم آووْه ونصروه :

﴿ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ۚ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) ﴾ الأنفال ..

12 – أصبح الناس فسطاطين متمايزين ، وفريقين متخاصمين **في ربهما** .. الذين آمنوا ، والذين كفروا .. أنظر سورة الشعراء الآيات [200–208] تتكلم عن هذه الفترة . وفي سورة الحج – وقد نزلت قُبيل الهجرة أو أثنائها – ذِكرٌ للخصمين الذَيْن تخاصما في ربهما [19]، وسورة النمل [45]، وسورة هود [24]، وسورة الأنعام [81].. وفي سورة يس [47] حيث يقول تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٤٧) ﴾ يس

وفي سورة مريم :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ ﴾ مريم

وفي سورة الحج :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ ﴾ الحج

هذا ، وقد جعل الله تعالى الفريق المؤمن (الذين استجابوا لدعوة الله) **حجة** على الفريق الكافر (المجتمع ومَلَئه) ، فلا عذر لقريش ومَلَئها أمام الله تعالى ، فإن لم يؤمنوا ويتبعوا الرسول ويلحقوا بمَن سبقهم من المؤمنين ، نزل بهم العذاب الشديد في الدنيا قبل الآخرة :

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ﴾ الشورى

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ المؤمنون .

13 – في كثير من الآيات شبّه الله تعالى قريشاً بأعتى الأمم السابقة وأشدها حرباً على الله تعالى وتكبُّراً على أمره عزّ وجلّ ؛ فرعون وعاد وثمود .. وذلك من حيث استكبارهم وعلوِّهم ، ومن ثم استحقاقهم العذاب مثلهم ، وقد ساروا جميعاً على سنّة واحدة .. كما في سور : يونس والشعراء والقمر والمزمّل والبروج والفجر .. وغيرها ، وسورتي الأنفال وآل عمران .. وقد أطلق رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم على أبي جهل وصف " فرعون هذه الأمّة " ، كما في بعض روايات السيرة . ومن الأسماء والأوصاف الواردة في القرآن الكريم – أثناء هذا الطور – لقيادة المجتمع (الملأ) التي تتولّى كبر الصد عن سبيل الله وتعادي حَمَلة رسالات الله ، في كل زمان ومكان : كبراء ، مترفين ، يجحدون ، الذين استكبروا ، أئمة الكفر ، مجرمين ، طاغين ، مفسدين ، مسرفين .. :

﴿ وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ ﴿٤٤﴾ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ﴿٤٧﴾ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ... وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٥١﴾ ﴾ القمر

﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ الذاريات

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ الأنعام

﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾ ﴾ الإسراء

.. الخ

14 – الابتلاء ، من سنن الله تعالى العامة على طول طريق التمكين لدين الله جلّ وعلا والنصر لأوليائه – في هذا الطور وفي غيره – ليمحّص الله تعالى قلوب الذين آمنوا ، حتى يميز الخبيث عن الطيب ؛ لأن نصر الله تعالى لا ينزل إلا على المستحقين له ..

فمن أجل بيان المستحقين من غيرهم ، أو من أجل تهيئة المؤمنين وإعدادهم ليكونوا من المستحقين .. كان لا بد من الابتلاء والاختبار والفتنة [1] ، في المراحل والأطوار المختلفة من السير بالرسالة ، وخاصّة عند الترقي إلى طور جديد ، أو الانتقال إلى مرحلة جديدة (نقلة نوعية) :

- ✓ كما ضرب الله تعالى مثلاً للمؤمنين ، في قصة طالوت وجالوت في سورة البقرة .. حيث مرّ المؤمنون بعدة اختبارات ، حتى لم يبق منهم إلا الخُلّص الذين استحقوا نصر الله تعالى :

---

1 - الأصل في الكلمات القرآنية عدم الترادف ، وهذه الكلمات ليست مترادفة في استعمال القرآن الكريم لها بل هنالك فروقاً دقيقة بينها :
الاختبار : من الخُبر ، بمعنى الاطّلاع النافذ ، وأخذه
الابتلاء : من البلو ، بمعنى إيجاد التحوّل والتقلّب ، والأخذ به .
الامتحان : من المحن ، وهو دأب وجد في العمل حتى يتحصّل الخُبر والنتيجة .
الفتن : إيجاد اختلال واضطراب .
فلا يصح استعمال واحد منها في مورد الآخر ، إلا بالتجوز . وقد اختلط كل واحد من هذه المعاني في مقام الاستعمال والتفسير في كلماتهم .. أما إذا لوحظت الحيثيات والقيود فلا اشكال .
فيقال : اختبرت الذهب ، وابتليته ، وامتحنته ، وافتتنه .
فالأول : بلحاظ مجرّد تحصّل الخُبر فيه .
والثاني : بتحصّل التحوّل والتقلّب فيه .
والثالث : بالنظر إلى دأب وجَدّ حتى يتحصّل الخبر .
والرابع : بالنظر إلى حصول اختلال واضطراب فيه .
أنظر (التحقيق في كلمات القرآن) . حسن المصطفوي . أنظر (مفاهيم ومصطلحات رسالية) - الإبتلاء والفتنة .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦)...قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ...(٢٥١) ﴾ البقرة

- ✓ وكما حصل للمؤمنين في غزوة أحد ؛ ما قبلها وأثنائها وما بعدها .. حيث كان المجتمع في المدينة أخلاطاً من الناس [1] ، في بداية نشأة الأمّة المسلمة ، فبالإضافة إلى المؤمنين الصادقين من المهاجرين والأنصار ، كان هناك المنافقين ، واليهود ، ومن بقي على الشرك من أهل المدينة . ومن جهة أخرى لم يكن المؤمنون على سوية واحدة من الإيمان والتقوى ، بل كان منهم مَن يريد الدنيا ومنهم مِن يريد الآخرة :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) ... ﴾ آل عمران [2]

ثم بيّن الله تعالى أنه ليس من سنته في عباده المؤمنين أن يذرهم على مثل الحال التي كانوا عليها حين غزوة أحد من اختلاطٍ وعدم تميُّز ، بل إن سنته أن يميز المؤمن من المنافق ، ويظهر حال كل منهما . ووسيلة تحقيق ذلك ليس بأن يُطْلع الله عباده على الغيب الذي يعلمه من عباده ، وإنما جرت سنة الله تعالى بأن يميز الخبيث من الطيب بالامتحان بالشدائد في سبيل الله ، كما حدث في غزوة أحد – وسائر الغزوات والمعارك – فالشدائد هي محك صدق الإيمان ، فهي التي تميز قوي الإيمان من ضعيفه ، وتزيل الالتباس بين الصادقين والمنافقين :

﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩) ﴾ آل عمران

- ✓ وتعتبر حادثة الإسراء قُبيل الهجرة والتمكين في المدينة ، من هذا الباب ، كما في قوله تعالى :

---

1 - أنظر (صحيح السيرة) إبراهيم العلي : فصل : (عبد الله بن أبيّ وإيذاؤه للنبي صلى الله عليه وسلم)

2 - عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : ما كنت أرى أن أحداً من أصحاب النبي صلّى الله عليه وسلّم ، يريد الدنيا حتى نزل : { منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة } . أنظر (موسوعة الصحيح المسبور) - حكمت بشير ياسين .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾ الإسراء

حيث ورد في بعض الروايات أنه بعد انتشار الخبر عن حادثة الإسراء ((أَنَّ نَاسًا رَجَعُوا عَنْ دِينِهِمْ بَعْدَمَا كَانُوا عَلَى الْحَقِّ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ تَحْمِلْ قُلُوبُهُمْ وَعُقُولُهُمْ ذَلِكَ ، فَكَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ . وَجَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ ثَبَاتًا وَيَقِينًا لِآخَرِينَ)) كأبي بكر الصـدّيق رضـي الله عنه . فالواجب أن يُتلقى ما أخبر الله به ورسوله بالتسليم والتصديق من غير شك ولا ارتياب [1] .

✓ وفي نفس السياق ، يمكن أن نفهم آية سورة المدثر :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ ﴾ المدثر

أي : ((إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعة عشر لنعلم مَنْ يصدّق ومَنْ يكّذب من الناس :

- أما أهل الكتاب ، ليعلموا يقيناً أن هذا الرسول حق ؛ فإنه نطق بما يطابق ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله : ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ .
- أما الذين آمنوا ، فكلما أنزل الله آية وآمنوا بها وصدقوا ، ازداد إيمانهم : ﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي : ليزول عنهم الريب والشك .
- أما الكافرون والذين في قلوبهم شك وشبهة و سُوءُ النِّيَّةِ فِي الْقُرْآنِ وَالرَّسُولِ – يعني كموقف مُسبق وثابت – يقولون : ما الحكمة في ذكر هذا هاهنا ؟ وهذا على وجه الحيرة والشك والكفر منهم بآيات الله : ﴿ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾ .

---

1 - يقول ابن كثير في تفسير : ((وقوله : {وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس} قال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس : {وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس} قال : هي رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به .{والشجرة الملعونة في القرآن} شجرة الزقوم ... وتقدم أن ناسا رجعوا عن دينهم بعدما كانوا على الحق؛ لأنه لم تحمل قلوبهم وعقولهم ذلك، فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وجعل الله ذلك ثباتا ويقينا لآخرين؛ ولهذا قال: {إلا فتنة} أي : اختبارا وامتحانا. وأما {الشجرة الملعونة}، فهي شجرة الزقوم، كما أخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى الجنة والنار، ورأى شجرة الزقوم، فكذبوا بذلك حتى قال أبو جهل لعنه الله بقوله : هاتوا لنا تمراً وزبداً، وجعل يأكل هذا بهذا ويقول : تزقموا، فلا نعلم الزقوم غير هذا. حكى ذلك ابن عباس، ومسروق، وأبو مالك، والحسن البصري، وغير واحد، وكل من قال : إنها ليلة الإسراء ، فسّره كذلك بشجرة الزقوم ... ولهذا اختار ابن جرير: أن المراد بذلك ليلة الإسراء، وأن الشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم، قال : لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك ، أي : في الرؤيا والشجرة)). وانظر أيضاً (موسوعة الصحيح المسبور) - حكمت بشير ياسين .

فجعل الله ما أنزله على رسوله ، مميزاً للكاذبين من الصادقين . لهذا يقول تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ ﴾ أي ، وهكذا تنفذ مشيئة الله – ممثلة في سننه وتقديره – في هدايته من يريد الهداية من الناس ، وفي إضلاله من يريد الضلال منهم [1] . فالواجب أن يُتلقى ما أخبر الله به ورسوله بالتسليم ، فإنه لا يعلم جنود ربك من الملائكة وغيرهم إلا هُوَ :﴿ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ ﴾. فإذا كنتم جاهلين بجنوده ، وأخبركم بها العليم الخبير ، فعليكم أن تصدّقوا خبره من غير شك ولا ارتياب)) [2].

15– وبناء على ما تم ذكره من أطوار المرحلة الأولى وبيان خصائصها وسماتها ، يمكن أن نستخلص بعض السمات العامة أو الخطوط العريضة فيما يخص السور المتعلقة بهذه المرحلة بأطوارها الأربع ، وهي من القرائن المساعدة على تعيين الطور الذي تتعلّق به السورة عند تبيانها :

❖ بدايةً ، من المعلوم أن الأصل في تبليغ الرسالة هو البيان والتوضيح والشرح والتفصيل **لمحتوى** " خطاب النذارة " (أنه لا إله إلا الله ، فاعبدوه ، وبيان المصير) وخاصة في البدايات ؛ في الطورين الأول ثم الثاني .. لأن مقصود الرسالة ، هداية الناس لإخراجهم من الظلمات إلى النور .. أما إذا أصرّ المخاطَبون على البقاء على الكفر – برغم البيان والتوضيح – وأخذوا يجادلون بالباطل ويتكبّرون على الإقرار بالحق البيّن .. عندها ، يكون من الحكمة التنويع في اساليب الكلام والاستدلال ، فلكل مقام مقال.. ذلك أن " الاستدلال على أمور لا تتعلق بها الرغبة والنفرة ، مثل ما ترى في العلوم الطبيعية والرياضية أو في تاريخ الأولين ، على الأكثر ، كان ذكر الأدلة فيها أولى بالتصريح . فأما إذا استدللنا على أمور يتصادم فيها من القائل والسامع ؛ حثّ واستنكار ، وزجر واستكبار ، وإلحاح وإصرار .. احتجنا – حينئذ – إلى إيراد الأدلة على وجوه مختلفة من أساليب الكلام ، متفاوتة في الوضوحة واللطافة والقوة والحدة .. وربما نبدّل الأسلوب لمحض الاجتناب عن ملال السامع ، أو رجاء أن ينجح فيه بعض الأساليب أكثر من بعض، كما صرح به القرآن : ﴿ ... ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ٦٥ ﴾ الأنعام [3] .. وكما فعل إبراهيم

---

1 - يقول ابن كثير في تفسيره : ((أي : من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان في قلوب أقوام ، ويتزلزل عند آخرين ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة)) .

2 - أنظر (تفسير السعدي) .

3 - يقول الراغب في المفردات : (والتَّصْرِيفُ كالصّرف إلّا في التّكثير ، وأكثر ما يقال في صرف الشيء من حالة إلى حالة ، ومن أمر إلى أمر. وتَصْرِيفُ الرّياح هو صرفها من حال إلى حال . قال تعالى : وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ [الأحقاف/27] . وَصَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ [طه / 113]) . وقال ابن فارس في المقاييس : (صَرَفَ ؛ الصاد والراء والفاء ، معظم بابِهِ يدلُّ على رَجْعِ الشيء. من ذلك صَرَفْتُ القومَ صَرْفاً وانصرفوا، إذا رَجَعْتَهم فرَجَعوا... ومعنى الصَّرف عندنا أنَّه شيءٌ صُرِفَ إلى شيء ، كأنَّ الدِّينارَ صُرِف إلى الدراهم ، أي رُجِع إليها ، إذا أخذتَ بدلَه ... قال أبو عُبيدٍ : صَرْفُ الكلام : تزيينُهُ والزِّيادةُ فيه، وإنَّما سُمِّيَ بذلك لأنَّه إذا زيِّن صرف الأسماعَ إلى استماعه) . نقول : والحاصل أنه في صرف الدينار أو صرف الكلام ، يبقى المعنى أو القيمة أو المضمون .. هو هو ، إلا أن الشكل أوالمظهر هو الذي يكون فيه التغيير والتبديل لقصدٍ وحكمةٍ . فتصريف الآيات هو : كثرة التنويع والتقليب في إيراد الدلائل على الحق الواحد البيّن ، لعل المخاطَب يتأثر ويهتدي .

عليه السلام مع الذي حاجّه في ربه ، فترك الإصرار على الدليل الأول ، حين لم يفهمه الخصم ، وعمد إلى دليل آخر أقرب إلى فهمه : ﴿ ..فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ..(٢٥٨) ﴾ البقرة " [1].

وفي أجواء الخصومة والجدل والأخذ والردّ .. ينصبّ الاهتمام على **أسلوب عرض** " خطاب النذارة " فيزداد قوة وتنويعاً في استخدام وسائل البيان والتأثير .. من أجل هزّ تلك القلوب القاسية كالحجارة أو أشد قسوة ، لعلها تلين للحق .. وتحريك هاتيك المشاعر الباردة والمتبلّدة ، لعلها تهتز وتهش للحق .. وذلك ، تارةً بالتخويف والترهيب بالمصير الرهيب – في الدنيا والآخرة – إن أصروا على كفرهم .. وتارة أخرى ، بالترغيب بالنهاية السعيدة في ذلك النعيم المقيم في الحياة الآخرة أو بالعز والنصر والكرامة وسيادة الناس ، في الحياة الدنيا ..

❖ هذا ، وأحوال الإنكار والخصومة والجدل بالباطل وأجوائها ، لم تظهر في مواقف قريش من الحق في بداية دعوة رسول الله لهم وتبليغهم الرسالة – كما هو معروف وثابت في السيرة – بل كانت متأخرة ، وقد أصرّوا على الكفر . وقد يكون لها بدايات في " الطور الثاني " ، لكنّها بدت واضحة جداً في نهاية " الطور الثالث " وخلال " الطور الرابع " ..

مما يعني – كخط عام – أن السور التي فيها **إجمال** في عرضها للأفكار والقضايا ، وتكون **متميزة** باسلوبها القوي في أدائها لـ " خطاب النذارة " ، **وبالتنويع** في وسائل عرضه المؤثرة .. كالسور التي تُصوّر يوم القيامة وعذابه ونعيمه ، بشكل متنوع عجيب يأخذ بالألباب .. وقد يرد فيها شيء من القَصص بشكل مكثّف وموجَز وباسلوب قوي .. فهي على الأغلب تتعلّق بالطورين الثالث والرابع ، والأكثر الرابع .

❖ ومن التنويع الظاهر في أسلوب الخطاب القرآني (تصريف الآيات) ، والمناسب لمثل تلك الأجواء والأحوال من الخصومة والجدل بالباطل .. تبرز الأساليب والوسائل التالية :

- ✓ القَسَم : " والقَسَم أسلوب في الخطاب ابرز ما فيه هو التأكيد .. ويقتضيه المقام وحال المخاطَب ، في <u>مثل حال الإنكار والخصومة والجدل بالباطل</u> " [2] ..
- ✓ الاستفهام للتقرير : وهو سؤال يقتضي علم المُقرَّر – المسؤول – بما قُرِّر عليه :

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ (٦) ﴾ الضحى ، ﴿ ..أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ (٤٠) ﴾ القيامة

- ✓ الاستفهام للإنكار والتقريع :

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ <u>**ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ**</u> (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ

1 - أنظر (أقسام القرآن) - الفراهي الهندي .
2 - أنظر (أقسام القرآن) - الفراهي الهندي .

﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ...أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ النمل

- ✓ استعمال " كلّا " للردع والزجر: ويُقصد بها زجر المُخاطَب عن الأمر الذي يُنهى عنه، لئلا يعاوده . والأصل في " كلا " أن تقع بعد الكلام المُراد إبطاله والزجر عن مضمونه . ولكنّها قد تقع في أول الكلام ، فيقتضي أن معنى الكلام الحقيق بالإبطال وبردع قائله يأتي بعدها :

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾ العلق [1]

مما يعني – كخط عام – أن السور التي يأتي في خطابها بعض الأساليب السابقة ، بارزاً وواضحاً.. تُعتبر من السور المرتبطة بالطورين ؛ الثالث والرابع ..

❖ ومن التنويع في أساليب الكلام والاستدلال (تصريف الآيات) ، " الأسلوب القصصي " ، وهو من الأساليب البارزة والمهمّة في الأداء القرآني في عرض " خطاب النذارة " ..(لا إله إلا الله ، فاعبدوه ، مع بيان المصير) .. لما له من تأثير مباشر وقوي على المخاطَبين :

فبالنسبة لفريق المؤمنين ؛ حَمَلة الرسالة : فيه تسلية ومواساة لهم وتثبيت لقلوبهم بتعريفهم وتفقيههم بسنن الله في حمل الرسالات .. مثل أن الله تعالى يُنجّي المؤمنين وينصرهم ، ويُهلك الكافرين ويدمّرهم .. ومثل بيان مواقف مَنْ سبقهم من أهل الحق والإيمان في صبرهم وثباتهم .. وخاصة حين ما تبدأ الأحوال بالضيق والتعسّر وتزداد الأمور شدة .. كما في تعذيب المؤمنين ، والهجرة إلى الحبشة ، والحصار والمقاطعة في شِعب بني هاشم .. :

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ الأنعام

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ ...﴿١١١﴾ ﴾ يوسف

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ هود

﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ..﴿٣٥﴾ ﴾ الأحقاف

أمّا بالنسبة للفريق الآخر ؛ الضالين : ففي " الأسلوب القصصي " تنويع في البيان والبشارة والنذارة وإقامة الحجة عليهم ، بضرب الأمثال لهم بمن سبقهم من أهل الكفر ، والبيان العمليّ الواقعي لسنة الله تعالى بإهلاك أولئك ودمارهم لمّا بقوا مصرّين على كفرهم .. لعلّ هؤلاء يتوبون إلى الله ويتبعون رسوله :

1 - أنظر " تبيان سورة العلق " ، " تبيان سورة عبس " .

﴿ ... فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦ ﴾ الأعراف

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦ ﴾ المزمل

مما يعني – كخط عام – أن السور التي وردت فيها القَصص بشكل مفصّل ، تتعلّق بالطورين الأخيرين.. مثل سور : الأعراف ، يوسف ، هود ، الشعراء ، طه ، القصص ..

❖ " أجواء السورتين متقاربة " ، هذا التعبير قد يرد معنا أثناء محاولة ربط السورة من القرآن مع الطور الذي تتعلق به . ومقصودنا من هذا التعبير أن مناطي سورتين أو أكثر متقاربان في زمن الحدوث، وقد يتداخلان أيضاً .. بمعنى أن مناط سورة قد حدث ، وما تزال تداعيات مناط سورة أخرى ، موجودة ومؤثرة : مثل الحصار في شعب بني هاشم ، فقد استمر ثلاث سنوات وفي أثنائه – في نفس الأجواء – تأتي سور أخرى لمعالجة مواقف وأحداث حدثت أثناء الحصار . ومثل حادثة الإسراء ، حيث كان لها تأثير قوي وتداعيات – أجواء – استمرت فترة من الزمن .. وكذلك العذاب الأدنى (السنين والدخان) .. وأيضاً طلب المشركين للآيات المادية (المعجزات) .. ومثل الغزوات والمعارك في المرحلة الثانية (المدنّية) ، فلكل غزوة أجواؤها من حيث : أسبابهاومقدماتها ، وأحداثها نفسها ، ونتائجها وتداعياتها .. الخ .

فـ " الأجواء " ، هي ظروف وأحوال متتابعة أو متزامنة أو متقاربة .. وهي أخص من " الطور" . فقد تكون في طور واحد ، وقد تكون في نهاية طور وبداية الطور الذي يليه ؛ يعني في فترة الانتقال من طور إلى آخر ..

ومعرفة هذا الأمر له أهميته الكبيرة في الفهم الدقيق لطبيعة سير رسول الله بالرسالة ، وطبيعة تتابع أحداثة وأطواره .. وبالتالي إعطاء حَمَلة الرسالة – في كل زمان ومكان – القدرة على التشخيص الصحيح للواقع الذي يتحركون فيه (تحقيق المناط) ، ثم معالجته بدقة وكفاءة عاليتين .. أي بأقرب ما يكون إلى الصحة وأبعد ما يكون عن الخطأ .. الأمر الذي يُجنّب حَمَلة الرسالة ، التبعات السلبية والضارة ، في حالة الخطأ سواء في " تحقيق المناط " الذي يواجهونه وتحديده ، أم في تنزيل المعالجات الشرعية عليه .

هذا ، والقرائن الدالّة على تقارب " أجواء " سورتين أو أكثر ، قد تكون قرائن من خارج السورة ، كالروايات الثابتة حول أسباب النزول أو من السيرة .. أو قد تكون القرائن من السورة نفسها ، وأهمها المشابهة أو المقاربة بين سورتين أو أكثر ؛ إمّا في الموضوع أو في الأسلوب ؛ أي إمّا في فكرة أو معنى معيّن .. او في كيفية أداء المعاني والأفكار :

- مشابهة الموضوع :

ليس كل مشابة في الموضوع تعني أن تكون أجواء السور التي ورد فيها نفس الموضوع متقاربة ، بل الأمر يعتمد على طبيعة الموضوع :

✓ فإذا كان الموضوع متعلق بقضايا عامة كالإيمان بأنه لا إله إلا الله أو اليوم الآخر .. أو بحالة عامة كالنفاق أو الكفر .. أو متعلّق ببيان بعض الأحكام الشرعية ، والتي نزلت في أوقات مختلفة ومتباعدة وحسب حدوث الحالات .. كأحكام الزواج والطلاق ، مثلاً .. فهذه وأمثالها واضح أنها ليست كافية لاعتبار أن أجواء تلك السور التي ورد ذكرها فيها أنها متقاربة ، بل لا بد من قرائن إضافية أخرى .

✓ أما إذا كان الموضوع متعلّق بـ " الصراع الفكري " والجدال والأخذ والرد .. بين حقائق الإيمان وأباطيل الكفر ، فإن ورود الفكرة نفسها أو المعنى ذاته الذي دار حوله الجدل أو " الصراع الفكري " في سورتين أو أكثر ، يُعَدّ من القرائن القوية على تقارب أجواء تلك السور . ذلك ، أن الشبهة المُعيّنة التي طرحها أهل الباطل ، بأشكالهم المختلفة ، كان من باب المجادلة بالباطل وأنهم قوم خصمون وقوم لُدّ .. فبعد أن يكشف القرآن الكريم ما فيها من لبس ويزيل باطلها ، ويعرّي ويكشف حقيقة موقفهم .. لا يعود أهل الباطل إلى ذكرها أو استعمالها مرة أخرى ، بل يَدَعونها ويلجأون إلى البحث عن شبهات ومواقف جديدة ، للتلبيس على الناس .. وهكذا .

ومن هنا – وبشكل عام – فإن السور التي تعالج نفس الشبهة المعينّة أو تطرّقت إلى ذكرها أو الإشارة إليها .. فإنه من الراجح اعتبار أجوائها متقاربة .. وأن مناطاتها قد حدثت في أزمان متقاربة ..
مثل وصف المشركين لرسول الله بأنه مجنون .. وحاشاه صلّى الله عليه وآله وسلّم .

✓ وأما إذا كان الموضوع متعلّق بذكر وبيان صفة خاصة معينّة من صفات أحد الفريقين الخَصْمَين: أهل الإيمان أو أهل الكفر .. طبعاً غير الصفات العامة مثل الإيمان ، الإسلام ، الضلال ، الكفر ، النفاق .. إنما نقصد الوصف الذي له دلالة على وصول أحد الفريقين إلى مستوى معين في موقفه من دين الله ورسالته ، في طور من أطوار السير لتحقيق الغاية من الرسالة . أي تلك الصفة التي تمثّل درجة محددة من درجات " الزيادة في الإيمان " (التزكية) ، بالنسبة لأهل الإيمان ، مثل : أبرار ، مخبتين ، صدّيقين .. الخ .. أو في الجهة المقابلة ، بالنسبة لأهل الباطل ، فهي الصفة التي تمثّل دركة معينة من دركات " الزيادة في الكفر" (التدسية ، التسفّل).. مثل مفسدين ، مجرمين ، أئمة كفر ، عنيد ، يكيدون ، يمكرون .. الخ ..

نقول : إن ورود مثل تلك الصفة المعينة لأيٍ من الفريقين في سورتين أو أكثر ، يُعد من القرائن القوية على أن أجواء تلك السور متقاربة . فما أُطلق في القرآن الكريم وصف معيّن على أحد إلا لاستحقاقه لذلك الوصف ، واستحقاقه لما يترتب عليه من تبعات وأحكام ومعالجات [1] .. سواء كانوا أهل الحق والإيمان ؛ في ترقيهم في درجات " الزيادة في الإيمان " وصولاً إلى إكمال الدين لله عزّ وجلّ ، واستحقاقهم للتمكين والاستخلاف في الأرض .. أم كانوا أهل الباطل والكفر في تردّيهم في دركات " الزيادة في الكفر" وصولاً إلى استحقاقهم العذاب والدمار في الدنيا وعذاب النار في الآخرة .

1 - ويعزز هذا المعنى ويوضّحه ، مفهوم " المصطلح " في وصف بعض ألفاظ القرآن الكريم . فـ " المصطلح القرآني " هو: ((ذلك اللفظ الذي أكسبه استعماله في القرآن الكريم دلالة خاصة زائدة على الدلالة التي له في اللسان العربي ، فصار بذلك له مفهوم خاص ضمن الرؤية القرآنية الشاملة)) . فهذه الصفات المعينة بمثابة مصطلحات القرآنية .

- مشابهة الأسلوب :

إن طريقة عرض القرآن الكريم للمعاني لا تنفصل عن المعاني والأفكار نفسها ، من باب مناسبتها لحال المخاطبين ، مؤمنين وكافرين ، والمستوى المعين الذي وصلوه في موقفهم من دين الله ، في الطور المعين من السير بالرسالة .. وهذا واضح تماماً .. فذلك من باب تنزيل المعالجة المناسبة على الواقع (المناط) المعين . ومن هنا فإن ماذكرناه سابقاً من ذكر المعاني والأفكار والأحكام – ما بين عمومها وخصوصها – في علاقتها بتطور خطوات السير وأطواره ومراحله .. ينطبق على " الأسلوب " أيضاً ، أي على طريق أداء تلك المعاني والأفكار والأحكام والصفات ومناسبتها لحال المخاطَبين وموقفهم من الرسالة .. ويؤيد ذلك ما ذكرناه في النقاط السابقة (1–3) من هذا البند (15) .. حول أسلوب القسم ، والاستفهام التقريري ، والقصص .. وتنوع أسلوب عرض " خطاب النذارة " بين التفصيل والإجمال .. إلخ [1] .

والحمد لله رب العالمين ..

وبهذا نصل إلى نهاية المرحلة الأولى ، وما فيها من الاستضعاف والخوف ..

ولندخل إلى المرحلة الثانية .. والتي فيها يُظهِر الله تبارك وتعالى دينه ، وينصر أولياءه ..

1 - كما في قوله تعالى لموسى وهارون : {اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44)} طه . إن جملة (قَوْلًا لَيِّنًا) وصف لأسلوب الكلام ، وصف لطريقة أداء الفكرة ، أما الفكرة نفسها فهي ما ذكره الله تعالى في سورة طه ، وفي غيرها من السور : {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14)} طه ، فالفكرة هي الحق الكامل البيّن الذي لا لبس فيه . أما أن يكون أسلوب أداء الفكرة الحق بـ (القول اللّين) فهذا ما يناسب " الذي طغى" في هذا الطور من بلاغ الرسالة ، أمّا بعد إصرار فرعون على الكفر ومجادلته بالباطل ، وجعْل نفسه "طاغوتاً" يُعبَد من دون الله.. فقد تغيّرت المعالجات : من حيث الأعمال ، ومن حيث أسلوب الخطاب.. كالمحاججة العلنية ، والتحدي العلني السافر ، إلى إنزال الآيات البينات .. السنين والجراد والقمّل .. حتى وصل الأمر بفرعون إلى أنه لن يؤمن حتى يرى العذاب الأليم ، وعندما أيقن أنه هالك في البحر آمن .. ولكن ، بعد فوات الأوان .. فأغرقه الله تعالى وجنوده في البحر ، ونجّى أهل الإيمان الذين كانوا مستضعفين وجعلهم الوارثين .

المرحلة الثانية :

وهي مرحلة " **التمكين** " للحق وأهله في الأرض **وإكمال الدين لله وحده** ، حيث تصير الجماعة المسلمة ، **أمة** مسلمة ، والمؤمنون مكلّفون بالرسالة ليس بوصفهم أفراداً أو جماعة فقط ، بل – كذلك – بوصفهم أمّة مسلمة لله ، لها سلطان على بقعة من الأرض ، ولها إمارة عامة (خلافة ، دولة) .

وهي استمرار للمرحلة الأولى ومبنيّة عليها ضمن خط السير بالرسالة ، وأطوارها استمرار للأطوار الأربعة السابقة .. ولكل طَوْر تفاصيله ، خطاباً وأعمالاً .. وهي كالتالي :

الطور الخامس : إيواء المؤمنين ونصرهم . من الاستقرار في المدينة إلى ما بعد غزوة بدر .

في هذا الطور يُظهر الله تبارك وتعالى الحق وأهله ويُزهق الباطل وأهله .. فبعد هجرة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم والمؤمنين إلى المدينة المنورة ، وبدء عملية الاستقرار فيها ، كان إعلان ميلاد " **الأمّة المسلمة** " بشكلها الأساس ، بأن المؤمنين أمّة من دون الناس .. من خلال " وثيقة المدينة " [(1)] .. وإعلان الأصل الذي تقوم عليه هذه الأمّة وهو : حقيقة أنه لا **إله إلا الله محمّد رسول الله** ، بمعنى أن الطاعة لا تكون إلا لله وحده وأن طاعة رسول الله من طاعة الله تعالى ، بوصفه **رسولاً** مبلغاً عن الله سبحانه وتعالى ، وبوصفه **القائد** الأعلى لهذه الأمّة المسلمة الناشئة (الإمارة العامة) ..
وكان بناء المسجد النبوي ، حيث أصبح مركزاً لتداول " الأمور الجامعة " والتشاور فيها [(2)] ، وتُتخذ فيه القرارات المتعلقة بقيادة الأمّة وإدارة شؤونها المختلفة ، ومَقرّاً للتعليم والتزكية ، والإعلام والتوجيه .. وكانت المؤاخاة بين المؤمنين مهاجرين وأنصاراً .. وأصبح الأصل في الخطاب القرآني للمؤمنين بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ ..

وجاء يوم غزوة بدر ، فكان " يوم الفرقان " ، حيث فتح الله تعالى وحكم بين الفريقين ؛ الحق وأهله والباطل وأهله ، وبيّن لقريش ومَلَئها خاصّة ، ولعرب الجزيرة عامة ، أنّهم على الباطل ، وأنّ الذين على الحق هم هذه الأمّة الناشئة بقيادة رسول الله .. حيث جاءهم الفتح الذي طلبوا من الله جلّ وعلا :

﴿ إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٩ ﴾ الأنفال

﴿ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ١٥ ﴾ إبراهيم

وقد تحقق وعد الله تعالى – وبحسب سنته – وقوع " البطشة الكبرى " على قريش بأيدي المؤمنين ،

1 - أنظر الكلام حول هذه الوثيقة وصحة سندها في (صحيح السيرة) إبراهيم العلي .

2 - ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ ...٦٢ ﴾ النور

قتلاً وأسراً .. حيث قُتل سبعون من كبرائهم ووجهائهم ، وأُسر سبعون آخرون :

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾
الأنفال

فلم تترك قريش لنفسها أي أمان ، فلا هم **استغفروا** الله تبارك وتعالى ، ولا هم **أبقوا** رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بين ظهرانيهم (1) . وذلك بعد سَنة ونصف من الهجرة .. وقد كان القتال مأذوناً به دفاعاً عن النفس :

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ **أُذِنَ** لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ **إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ** ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن **مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ** أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ الحج

كما في الرواية عن ابن عباس: ((لما أُخرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيّهم **ليهلكُنّ** . فأنزل الله تعالى : ﴿ **أُذِنَ** لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ الآية . فقال أبو بكر: لقد **علمت** أنه سيكون قتال)) (2) .

الطور السادس : تثبيت المؤمنين وتمكينهم في الأرض وعدم استئصالهم منها . من غزوة أُحد إلى ما بعد غزوة الأحزاب .

وهكذا ، في يوم بدر ، نصر الله عزّ وجلّ الحق وأهله نصراً مؤزّراً ، وكان يوماً من أيام الله تعالى في إحقاق الحق وإبطال الباطل ، وكان درساً وتعليماً للأمّة المسلمة في حال النصر والغنيمة ، من خلال النظر في سنن الله تعالى (أمر الله القدري) وفي التكاليف الشرعيّة (أمر الله الشرعي) ، سواءً في ما يتعلّق بالمقدمات والمتطلبات ، أم بمباشرة الحدث وعيشه ، أم بالنتائج والتداعيات .. كما بيّن الله تعالى ذلك كله

1 - {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } الأنفال33.

2 - حسن ، سنن الترمذي ، الصفحة أو الرقم 3171 . وصححه الألباني في صحيح الموارد - الصفحة أو الرقم 1406 . نقول : لاحظ حُسن فقه الصدّيق رضي الله عنه لسنن الله تعالى ، والمستوى الراقي في توقع ما يمكن أن يحدث بناء على فهمه العميق للسنن الربّانية . أنظر فصل " الطور الرابع " من هذا البحث .

في سورة الأنفال ..

و تلا ذلك أحداث مهمة منها : إخراج بني قينقاع من المدينة أذلاء بعد نقضهم العهد ..

إلى أن جاء يوم أُحد ، حيث أراد كفار قريش الانتقام ليوم بدر .. فحصل للمؤمنين ما حصل من هزيمة ومن إصابة لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .. فكان – أيضاً – درساً وتعليماً للأمّة المسلمة ولكن ، في حال الهزيمة والإصابة بالمصيبة ، من خلال النظر في سنن الله تعالى وفي التكاليف الشرعيّة، سواءً في ما يتعلّق بالمقدمات والمتطلبات ، أم بمباشرة الحدث وعيشه ، أم بالنتائج والتداعيات .. كما بيّن الله تعالى ذلك كله في سورة آل عمران ..

و تلى ذلك أحداث مهمة وجسام منها : مقتلة كبيرة لصحابة كرام في كلٍ من ماء الرجيع وبئر معونة.. ونصْرُ الله تبارك وتعالى الأمّة في غزوة بني النظير ، بعد خيانة اليهود ونقضهم للعهد .. كما بيّن الله تعالى ذلك في سورة الحشر .

هذا ، وما حصل في " أُحد " شجّع الكافرين من خارج المدينة المنورة ؛ قريشاً وقيادتها الجديدة وبعض قبائل يهود .. على توجيه ضربة قاصمة للأمّة المسلمة للقضاء عليها واستئصال شأفتها – في ما يظنون – فجمعوا الجموع وحزّبوا قبائل عرب الجزيرة لقتال المسلمين ، فحشدوا أقصى ما يستطيعون من قوة ؛ عدداً وعدةً وعتاداً ، ثم حاصروا المدينة المنورة ..

وأمّا من داخل المدينة ، فقد استغلّ المنافقون الموقف فعملوا على الإرجاف والبلبلة ، والتشكيك في رسول الله – بوصفه نبيّاً رسولاً وبوصفه قائداً عاماً للأمة – والتكذيب لوعد الله تعالى بنصر أوليائه .. إلا أن الله جلّ وعلا كان بالمرصاد لهم جميعاً، في الداخل والخارج ، فخيّب آمالهم ، ورد كيدهم إلى نحورهم وهزمهم شرّ هزيمة .. فصدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعزّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده جلّ وعلا .. وقد بيّن الله تبارك وتعالى ذلك في سورة الأحزاب ، كما في قوله جلّ وعلا :

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾ الأحزاب

﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ الأحزاب

وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بعد الغزوة :

(الآن نغزوهم ولا يغزونا ، نحن نسير إليهم) [1] .. ونزل بعدها الأمر بالمبادأة بالقتال ..

---

1 - أخرجه البخاري . انظر (صحيح السيرة) لـ إبراهيم العلي . و (الرحيق المختوم) لـ المباركفوري .

" وبعد غزوة الأحزاب وهزيمة جموع الكفر وتشتيت شملهم ، أخذ مجرى الأحداث في التطور مع الأمّة المسلمة ، وميزان القوى بدأ في التحوّل لصالحها ، وأعداء دين الله معنوياتهم في انهيار متواصل ، ولم يتبقّ لهم أمل أن ينجحوا في كسر الدعوة إلى عبادة الله وحده ، وخضد شوكة الأمّة المسلمة وقد قويت .. وتجلّى هذا التطور والتحوّل ، في صلح الحديبية ، فلم تكن الهدنة إلا الاعتراف بقوة الإسلام والتسجيل على بقائه في ربوع جزيرة العرب " .

الطور السابع : الفتح والانتشار . من صلح الحديبية إلى فتح مكة .

أنظر سورة الفتح في كتاب " في ظلال القرآن " . وانظر كذلك كتاب " الرحيق المختوم " لـ صفي الرحمن المباركفوري ، في كلامه حول صلح الحديبية وما بعده ، وإرسال الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم الكتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام لله .. وما تلى ذلك من أحداث أهمها : فتح خيبر ، وغزوة مؤتة .. ثم فتح مكة المكرمة ، فكان هو " الفتح الأعظم الذي أعزّ الله به دينه ورسوله وجنده ، ففيه جاء الحق وزهق الباطل إنه كان زهوقاً ، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، وأشرق به وجه الأرض ضياءً وابتهاجاً " :

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ النصر

الطور الثامن : إكمال الدّين (العبودية) لله تعالى و " الاستخلاف في الأرض " للمؤمنين . من بعد فتح مكة إلى حجة الوداع .

وبعد أن جاء نصر الله تبارك وتعالى وتم " الفتح الأعظم " ؛ فتح مكة ، ذهب طغيان قريش وطاغوتها ، فأسلمت قريش لله عزّ وجلّ وانقادت لرسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم .. وبذلك ، ذُللت أكبر عقبة أمام انتشار دين الله و الدعوة إلى عبادته [1] .. وبعد غزوتي حُنين والطائف ، وتنزُّل التثبيت والنصر من الله على المؤمنين بقيادة رسول الله ، بسطت الأمّة المسلمة سلطانها على جزيرة العرب ، فأصبحت كلمة الله هي العليا فيها . حيث جاءت وفود العرب تترى تعلن ولاءها لله ، وانقيادها لرسول الله ، وتنضوي – مع جماعة المؤمنين – تحت راية لا إله إلا الله محمّد رسول الله ..

1 - كما في حديث رسول الله : (يا ويح قريشٍ لقد أكلتهم الحربُ ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائرِ العربِ . فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ! وإن أظهرني اللهُ عليهم دخلوا في الإسلامِ وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوةٌ ، فما تظن قريشٌ ؟ فواللهِ لا أزال أجاهدُ على الذي بعثني اللهُ به حتى يظهرَه اللهُ أو تنفردُ هذه السالفةُ - **يعني الموتَ**) . وهو قطعة من حديث طويل في صلح الحديبية وقد أخرجه البخاري .

وبهذا اقتربت الأمّة المسلمة من إتمام خصائصها ومقوماتها وإكمال دينها لله جلّ وعلا .. حيث نُزّلت الأحكام والتشريعات النهائية في سورة المائدة ومن بعدها سورة التوبة ، وتم إنفاذ كل ما جاء فيها من أوامر الله عزّ وجلّ على مستوى جزيرة العرب ، ولم يتجرّأ أحد من العرب على مخالفة ما أمر الله به ورسوله، وقد يأسوا من أن يَغلبوا دين الله عزّ وجلّ وأن يُطفئوا نوره ، والحمد لله :

﴿ ...**ٱلْيَوْمَ يَئِسَ** ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ **ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ** لَكُمْ دِينَكُمْ **وَأَتْمَمْتُ** عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى **وَرَضِيتُ** لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ...﴿٣﴾ ﴾ المائدة

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ التوبة [1]

هذا ، وقد أصبح أمر القتال إلى مقاتلة المشركين كافة كما يقاتلوننا كافة .

وما لبث أن تَوفّى اللهُ جلّ وعلا ، رسولَه صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وقد بلّغ الرسالة وأدى الأمانة ، تاركاً الأمّة على المحجّة البيضاء ليلها كنهارها .. حيث أكملت دينها لله جلّ وعلا .. فلا يزيغ عنها إلا هالك .

والحمد لله رب العالمين ..
والصلاة والسلام على رسوله الكريم وآله الطيبين الطاهرين ..

هذا بالنسبة للمطلب الثاني في هذا " التمهيد " :

بيان **التتابع السنني** لمراحل وأطوار خط سير رسول الله الخاتم بالرسالة ..

***

1 - ما أنزل الله جلّ وعلا ، القرآن (النور) إلا ليكون هو وحده المعبود المُطاع أمره في واقع الناس في جميع مجالات حياتهم (إتمام النور) . ولا يتحقق ذلك إلا بأن يرسل الله رسوله ، وينصره على أعدائه ويمكّن له في الأرض ، حتى يكون دين الله هو الظاهر ، وكلمته هي العليا .

المطلب الثالث : توزيع سـور القرآن الكريم على الأطوار الثمانية .

وعند النظر في سور القرآن الكريم – من زاوية أنها هي نفسها " **المنـهاج** " – سنجدها موزّعة على طول خط السير بالرسالة ، بأطواره الثمانية السالفة الذكر ، وبحسب تعلّق أو ارتباط " **المناط** " الذي جاءت كل سورة تعالجه (مناط السورة) ، بأي طور منها .. ومن هنا ، فستكون السور **موزعة كمجموعات** على الأطوار الثمانية السابقة ، وكل مجموعة تحتوي على المعالجات – شرعاً وقدراً – للمواقف والأحداث التفصيلية للطور الواحد الذي حدثت فيه .. وهذا ما سنبذل الجهد في بيانه بالتفصيل عند استعراض كل سورة على حدة في ما يلي من هذا البحث ، بإذن الله تعالى .

وهذا التوزيع والترتيب للسور – بالإضافة إلى كونه ترتيباً سننيّاً – فهو **ترتيب تلقٍ** للرسالة ، فهو **تكاملي** ، بمعنى أن السور المتعلقة في الطور الثاني ، تُضاف إلى تلك المتعلقة في الطور الأول ، مكمّلةً لها .. فما يأتي لاحقاً يُضاف إلى ما جاء سابقاً، كالبناء يكمّل بعضه بعضاً.. وهكذا حتى تمام تلقي الرسالة، وحينذاك يكون السير قد اكتمل وكَمُل الإخراج من الضلال والدخول في الهدى كافة (إكمال العبودية لله تعالى) ، أي تحققت الغاية .

وبذلك ، يتكوّن عندنا الفهم الكامل والشامل والعميق ، لما حصل مع الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم **في واقعه** ، بترتيبه **السننيّ العام** ، **والمفصّل** بقدر ما وصلنا من روايات ثابتة في السنة والسيرة .

وهذا الفهم ، إنما هو " **فهم منـهاجيّ** " ، لأنه فهم **لكيفية تطبيق** رسولنا الكريم لما كان يتنزّل عليه من المعالجات الشرعيّة – من إيمان وعمل صالح ودعوة – في واقعه ، وهو أيضاً فهم للضوابط التي كان تنزيل المعالجات على أساسها ، أي فهم لضوابط تلقي الرسالة كماً وكيفاً .. وكل ذلك ، في إطار السير لتحقيق الغاية من الرسالة ؛ إكمال الأمّة دينها لله جلّ وعلا .

وعلى أساس هذا " **الفهم المنـهاجيّ** " الشامل والعميق – قدراً وشرعاً – يكون العلم بكيفية السير لتحقيق الغاية من الرسالة في الواقع الإنساني ، في أي زمان ومكان .

وسيكون ، بإذن الله تعالى ، بيان كيفية السير – أو منهاج السير – في زمننا الحاضر ووقتنا الحالي، في البحث المخصص له ، وهو الجزء الخامس : " التنزيل على الواقع " .. علماً بأننا أشرنا إلى هذا الأمر في الجزء الثالث : " المنهج " .

والحمد لله رب العالمين

***

المطلب الرابع : بيان وتذكير بأهم خصائص هذا " التبيان " التي تميّزه عن غيره من الأساليب والطرق الأخرى في " تفسير القرآن " .

" التبيان لسور القرآن " إنما هو محاولة لـ بيان وتحديد حقيقة " الفهم المنهاجيّ " لسور القرآن الكريم بقصد بيان " منهاج النبوّة " ؛ أي " الطريقة الشرعية " التي اتبعها رسول الله في سيره بالرسالة من أجل تحقيق الغاية منها في الواقع الإنساني .. وحسب " التتابع السننيّ " لحصول الأحداث وتطوّرها . والتي على أساسها يكون بيان طريقة السير الواجب اتباعها على مَنْ رام تجشُّم حَمْل أعباء الرسالة ، اتّباعاً لرسولنا الكريم .. وأراد أن يكون من ورثته صلّى الله عليه وآله وسلّم .

ومن هنا ، فإن " التبيان لسور القرآن " له منهج في النظر إلى سور القرآن ، يختلف ويتميّز عن المناهج والأساليب والأنواع الأخرى من البيان والتفسير .. وفي نفس الوقت ، هو ليس بديلاً عنها ولا يتعارض معها .. بل هو – في طبيعته – يتكامل معها ويكمّلها ، لأن الهدف منه هو الفهم الشموليّ للرسالة ، والنظر إليها ككل متكامل بقصد تحقيق الغاية منها ، فهو – في الحقيقة ومن هذه الزاوية – يصلح لأن يكون أصلاً عاماً جامعاً لتلك الأنواع .. ويوظّفها توظيفاً أكثر فاعلية .. بحيث إذا أردنا أن نفهم السورة من القرآن ، ثم الآية ، فهماً أقرب إلى مراد الله جلّ ثناؤه ، فإن " الفهم المنهاجي " للسورة سيكون خير عون لنا على تحقيق ذلك ، إذا جعلناه هو الأصل في النظر إلى السورة الواحدة ، وفهم آياتها [1].

هذا ، وقد ذكرنا شيئاً من ذلك في الجزءِ الثالث " المنهج " ، في القسمين الثاني والثالث .. وهنا نضيف أموراً أخرى ، ونذكّر ببعض خصائص منهج " التبيان لسور القرآن " ، ونُجملها في ما يلي :

أولاً :

يقول تعالى :﴿ ..وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ النحل

(تِبْيَانًا) .. مفعول لأجله ، وبشكل صيغة مبالغة من البيان .. أي وآتيناك القرآن مرتلاً ، من أجل البيان الواضح الذي لا لبس فيه لكل شيء ؛ أي لكل شيء متعلّق بتحقيق الغاية من إنزاله – إكمال العبودية لله تبارك وتعالى – فما أنزل الله القرآن إلا لتذكير الناس بحقيقة أنه وحده الإله الحق ، ولبيان كيف يُعبَد الله وحده ، وما أرسل الله الرسول إلا لتحقيق ذلك في الواقع [2] .. كما في قوله تعالى :

1 - لذلك نأمل من كل مَن اطّلع على هذا العمل أن لا يبخل بالتوجيه أو التسديد أو البيان .. حتى يكتمل هذا العمل ويستوي على سوقه ويؤتي ثماره الطيبة - بإذن الله .

2- ومعنى الآية : (بيان لكل شيء يُحتاج إليه في أمر الدين). أنظر زاد المسير لابن الجوزي و تفسير ابن عاشور. ((فالعموم المستفاد من الآية عموم نسبي متعلق بالسياق الذي ورد فيه ، فالقرآن الكريم فيه تبيان لكل شيء يحتاج إلى تبـيان لما فيه من المصلحة الدينية والدنيوية للعباد . وهذا مثل العموم في قوله تعالى : (وأوتيت من كل شيء) عن ملكة سبأ ، أي من كل شيء يؤتاه الملوك . وكذلك العموم في قوله تعالى : (تُدمّر كلّ شيء بأمر ربها) أي كل شيء يستحق التدمير، وهكذا .. فعموم الآية من العموم المراد به الخصوص)) . (ملتقى أهل التفسير ، بتصرف) .

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ..﴿٢٥﴾﴾ الحديد

فالمقصود بـ " تبيان سور القرآن " هو : النظر إلى سور القرآن من زاوية أنها " منهاج " للسير بالقرآن من أجل تحقيق " الغاية منه " في الواقع الإنساني .

ثانياً :

وهذا " الفهم المنهاجي " أو " التبيان " للسورة المعينة نصل إليه من خلال خطوتين رئيستين :

الخطوة الأولى : معرفة " مقصد السورة " أو " سياق السورة " ، وجعله الإطار الأصل الذي يُفهم فيه كل ما جاء في السورة من أفكار وأحكام ، وأساليب عرض وبيان .. (محتوى السورة) .
بمعنى النظر إلى " محتوى السورة " من زاوية أنه جاء كمعالجات لـ " مناط السورة " [1] .. بحيث :

1- في نظرة عامة للسورة ، نبحث عن الأدلة أو القرائن أو الإشارات .. التي تبيّن موقع السورة في خط سير رسول الله بالرسالة لتحقيق الغاية منها ، وحسب ترتيبه السننيّ العام بمرحلتيه وأطواره الثمانية الذي بيّناه آنفاً.. بمعنى العمل على ربط السورة بموقعها في خط السير بالرسالة ..

2- ثم يكون تحديد " مناط السورة ".. وهو الحالة أو الموقف الذي واجهه حَمَلة الرسالة ، جماعة أو أمّة، في ذلك الموقع أو المستوى (الطور) من السير بالرسالة لتحقيق الغاية منها ..

3- وبعد ذلك ، وفي نظرة مجملة وشاملة لآيات السورة ، نستعرض ما ورد فيها من معالجات شرعية وسننيّة لذلك المناط ..

---

1 - وهذا الأمر ، أي جعل " مقصد السورة " الإطار الأصل لفهم " محتوى السورة " ، يُعتبر - في رأينا - الضابط الأهم في توجيه معاني آياتها ، ومن ثَم الأهم في فهم السورة كلها فهماً أقرب إلى مراد الله . لأنه فهم لما ورد في السورة - موضوعاً وأسلوباً - في إطار المقصد الذي من أجله جاء ليشكّل سورة معينة. وعليه، فهذا التأطير لـ " محتوى السورة " ينفي عنه الاحتمالات والظنون غير المرادة ، ويقطع الطريق على المقاصد المغرضة التي لم يُرِدْها الشارع الحكيم ولم يرُمْها. ويمنع من الوقوع في التكلّف في توجيه معاني آيات السورة وبيانها ، أو من التعرض أو الدخول في تفصيلٍ أو إستطرادٍ لأي فكرة أو موضوع أو اسلوب بيان..لا يؤدي إلى تحقيق "مقصد السورة" في الواقع العملي ، أي تحقيق العبودية لله تعالى . فليس هناك تلاوة للقرآن أو بحثاً فيه أو تدبراً لآياته هكذا بشكل عام مفتوح .. أو لمجرد العلم أو الإستمتاع أو لإشباع الفضول لمعرفة ما هو جديد .. بل لا بد أن يكون تدبّراً يؤدي إلى زيادة في الإيمان وفي العمل على تحقيق معانيه وأحكامه في الواقع ، أي زيادة في الترقي في درجات رضوان الله تبارك وتعالى ، والإبتعاد عن غضبه وعذابه .. فليس هنالك تلقياً لآيات الله إلا من أجل التنفيذ . وعلى هذا المستوى من الجديّة كان تلقي الجيل الأول ؛ جيل القدوة من الأمة المسلمة ، لكلام الله وآياته .. فأقل من هذا المستوى من الجديّة في التلقي لا يليق بكلام ربّ السموات والأرض وقد أنزله إلينا ليهدينا للخروج من الظلمات إلى النور .. فبحسب ذلك يتقرر مصيرنا .. إما خلود في جنة ورضوان أو في نار وعذاب .. (إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ{13} وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ{14}) الطارق ، فهذا هو كتاب ربنا ورسالته إلينا .. وعلى مقدار وعينا لخطورة مصيرنا - في الدنيا والآخرة - يكون مقدار شعورنا بالمسؤولية والجديّة في تلاوته وتدبّره ، والعمل بما جاء به. فقد صح عند مسلم قول النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم : {والقرآن حجة لك أوعليك } ، هكذا ولا خيار ثالث. فهو حجة لك ويزيد في إيمانك إن عملت به ، وحجة عليك ويُنقص إيمانك إن فرّطت به وأهملت حدوده . وصح عند مسلم أيضاً قول النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم : { إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع آخرين } . وقال الحسن البصري مبيّناً معنى تدبّر القرآن : (.. أما والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده ، حتى أن أحدهم ليقول : لقد قرأت القرآن كله فما أسقطت منه حرفاً . وقد والله أسقطه كلّه ؛ ما يُرى له القرآن في خُلق ولا عمل ..) . وقيل له : أن فلاناً له تدبّر في كتاب الله . فقال : انظروا في عمله .

هذا ، مع ملاحظة أن تلك المعالجات – الشرعية والسننية – جاءت لمعالجة مناطات موزعة على طول خط السير حتى تحقيق الغاية ، وهذا يقتضي الإنتباه إلى خصوصية كل مناط من حيث أن كل مناط معين له معالجاته الخاصة به . والإنتباه إلى الجهة المكلّفة بتلك المعالجة أو الحكم ، إن كان الفرد أو الجماعة أو الأمة .. أو في مرحلة ما قبل التمكين " للمؤمنين ، أو في " مرحلة التمكين " .

وملاحظة أن تلك المعالجات – الشرعية والسننية – تكون دائما متعلقة بـ بفريقين رئيسين ، قد يُذكران في السورة الواحدة صراحة أو إشارة ، مجتمعين أو يُذكر واحد منهما ، وهما :

– المؤمنون بالله القائمون على الرسالة – تطبيقاً ودعوة – من حيث التزكية والإعداد الفكري ، والإعداد التنظيمي والمادي ، والعلم بالعقبات سواء ماديّة كانت أم فكريّة ، شبهات أم شهوات .. وكيفية مواجهتها والقدرة على إزالتها .. أثناء السير لإكمال الدّين لله تبارك وتعالى ، وتحقيق الغاية من الرسالة ، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور .. وسواء كانوا بوصفهم أفراداً أم جماعة أم أمّة ومجتمعاً .

– الكافرون بالله بأنواعهم ودرجاتهم المختلفة ، مشركين ، منافقين ، أهل كتاب .. سواء كانوا هم الملأ ولهم السلطان (قبل التمكين) .. أم كانوا جماعات تخضع لسلطان المسلمين (بعد التمكين) ، أم كانوا دولاً وأمماً لا تخضع لسلطان المسلمين .. والذين يبغونها عوجاً عن سبيل الله المستقيم ، ويشكّلون عقبة أمام جعل دين الله ظاهراً وإكمال الدين لله جلّ وعلا ، في مختلف بقاع الأرض .

الخطوة الثانية : بعد ربط كل سورة بالطور الذي تتعلّق به ، وحسب سنن الله تعالى في تتابع أطوار سير رسول الله بالرسالة .. نبدأ في جمع السور المتعلقة والمرتبطة في الطور الواحد ضمن مجموعة واحدة وسياق واحد . وبذلك تصبح سور القرآن المئة والأربعة عشر موزعة كمجموعات على الأطوار الثمانية للسير . وكل مجموعة فيها التبيان المفصّل لخصائص وطبيعة الطور الذي ارتبطت به وكذلك الأحكام والمعالجات المتعلقة به . ونتيجة لذلك نحصل على " ترتيب منهاجيّ " لمجموع السور ، مرتبطاً بأطوار السير مرتبة حسب التتابع السنني لحدوثها . وبهذا يوجد عندنا البيان المفصّل لـ " منهاج النبوّة " في السير بالرسالة الخاتمة ، من البداية حتى تحقيق الغاية ، وبحسب التتابع السنني للأحداث . وبهذا أيضاً نشاهد الصورة الكاملة والشاملة – وقد تشكّلت – لحقيقة أن القرآن نفسه ، بسوره وآياته ، هو منهاج السير من أجل تحقيق الغاية منه ، كما بيّنه وسار عليه رسول الله وقد حقق الغاية منه أول مرة .

ثالثاً :

في هذا " التبيان " سنتناول سور القرآن حسب " ترتيب النزول " الوارد والمشهور للسور[1] ، وليس حسب

1 - لمعرفة مدى صحة الروايات التي ورد فيها الترتيب لجميع سور القرآن حسب تاريخ نزولها ، أنظر بحث (تفسير القرآن الكريم على ترتيب النزول - منبعه وفوائده) محمد مجلي ربابعة . والمنشور في مجلة دراسات - الجامعة الأردنية . حيث قال ما نصه : ((خلاصة القول : **أولا**: إن الروايات والآثار التي ذكرت ترتيب نزول سور القرآن الأول فالأول لا مجال لقبولها سنداً ولا متْنا، وترتيب المستشرق " نولدكة " الذي اعتمده المفسرون على حسب النزول ليس له فيه سلف ولا خلف . **ثانيا**: إنّه لا يصح الاعتماد على هذه الروايات والآثار في تغيير ترتيب كتاب الله ، ولا في تفسيره ، ولا في ترجيح تقدّم سورة على أخرى ، ولا مكي على مدني ..)) .

" ترتيب المصحف " ، وذلك لسببين :

السبب الأول : أن كِلا الترتيبين لسور القرآن الكريم ؛ " ترتيب النزول " و " ترتيب المصحف " ، ليس لهما دلالة شرعية على " المنهاج " .. فلا بأس – إذن – بأيّهما تناولنا السور .. وقد بيّنا ذلك مفصلاً في الجزء الثالث " المنهج " – القسم الثاني .. وسنلخّصه فيما يلي للتذكير :

إن " التسوير " – أي جعل آيات محددة في سورة معينة وبترتيل(ترتيب) مقصود – هو من الأدلة على " المنهاج "، وليس ترتيب نزول الآيات والسور.. ولا ترتيب السور في المصحف . ذلك أن " التسوير" هو الترتيل الوحيد والثابت لآيات الرسالة في وجوداتها كلها : في اللوح المحفوظ ، وفي السماء الدنيا ، وبين أيدي الناس . وهو الترتيل الوحيد التوقيفيّ والشرعيّ ، والمتعبَّدين به ؛ تلاوة ودلالة .. فقد كان بتكليف من الله تعالى لرسوله الكريم ، حيث وُضعت الآيات التي كانت تُنزَّل مفرّقة في موضعها في سورتها ، كما أمر الله تعالى .

أما " ترتيب السور في المصحف " ، وإن كان توقيفيّاً – على الراجح – فهو خاص بالحِفاظ على آيّ وسور القرآن الكريم من الضياع ، فهذا هو موضوعه والغاية منه .. بدلالة الروايات الواردة في ذلك ، فالدافع الوحيد لفعل الصحابة – رضي الله عنهم – لجَمْع سور القرآن في مصحف واحد والغاية منه ، إنما هو الحفاظ على القرآن الكريم من الضياع ، وليس أمراً آخر .. لذلك لا يُستدل بترتيب السور في المصحف، على طريقة تلقي الرسالة والسير بها لتحقيق الغاية منها (المنهاج) ، فهو واقع (مناط) آخر يختلف عن واقع (مناط) حفظ آي القرآن من الضياع . فلا يُستدل على المناط المعيّن إلّا بالأدلة ذات العلاقة به .. وترتيب السور في المصحف متعلق بحفظ القرآن من الضياع ، ولا علاقة له ببيان " المنهاج " وكيفية السير من أجل تحقيق الغاية من القرآن ، فلا يُستدل به عليه [1] .

أما " ترتيب النزول " التفصيلي للسور والآيات ، الأول فالأول .. لسنا متعبدين به لا تلاوة ولا دلالة .. لأنه لم يحصل بناءً على تكليف شرعي ، بل بناءً على طبيعة الواقع الإنساني (المجتمع) الذي كان يتحرك فيه رسول الله والذين آمنوا معه ، وعلى نوع ودرجة ردة فعل ذلك المجتمع من الحق وأهله .. في أثناء تبليغهم الحق بلاغاً مبينا .

ولأن ذلك الترتيب غير محفوظ بل فُقد أغلبه .. ويستحيل إعادة ترتيب الآيات والسور كما نُزّلت .. وعلى حد قول عكرمة رحمه الله : " لو اجتمع الإنس والجن على أن يؤّلفوه كذلك ما استطاعوا " [2] .. ومن ثم ، فلا يمكن أن نُكلّف به ..

بل إن فقدانه ، أو فقدان أغلبه ، دليل قطعي على أنه ليس فيه دلالة على العبادة ، وإلا لم يُفقد منه شيء .. فدين الله عزّ وجلّ الذي تعبّدنا به ، محفوظ – قطعاً – من الزيادة أو النقصان حتى قيام الساعة .

1 - أنظر (الجزء الثالث " المنهج "- القسم الثالث : كيفية الإستدلال بـ " التسوير" على " المنهاج ". ص90)
2 - أنظر (مناهل العرفان في علوم القرآن) - الزرقاني (1 / 229) .

وعليه ، فلا بأس بأي الترتيبين تناولنا السور في هذا " التبيان " .. فَهُما سيّان من هذه الزاوية .. فالمقصود هو تناول جميع سور القرآن الكريم ، ومحاولة فَهْمها فَهْماً منهاجياً ، أي كمنهاج للسير ..
إلا أن رغبتنا في اعتماد " ترتيب النزول " رَجَحت للسبب التالي :

السبب الثاني : حتى يتضح الفرق وينجلي ، بين طبيعة " ترتيب النزول التاريخي " للسور .. وبين طبيعة " الترتيب المنهاجيّ " للسور ، والذي نحن بصدد بيانه وبيان أهميته في فهم مراد الله في كلامه .. وكما يُقال : إن الأشياء تعرف بأضدادها ، وتتضح الأمور بما يقابلها .

و" الترتيب المنهاجيّ " للسور ، إنما هو نتيجة لربط السور بمنهاج سير رسول الله بالرسالة ، وبحسب سنن الله تعالى في تتابع أطواره ومراحله .. وهو يقوم على النظر إلى السورة من القرآن الكريم من حيث كونها " وحدة منهاجيّة " وتشكّل جزءاً من " المنهاج " ، وفي مجموع السور ثَمّ المنهاج كاملاً . فالسورة الواحدة من القرآن فيها " التبيان " لجزء من الطريقة الشرعية (المنهاج) في حمل الرسالة لتحقيق الغاية منها ، ومرتبطة بطور من أطوارها ، وفي مجموع السور تتبيّن الطريقة كاملة ، من البداية حتى النهاية وتحقيق الغاية . فربط السورة بخط السير هو ربط منهاجيّ ، يقوم على بيان دور السورة الواحدة في منهاج السير من أجل تحقيق الغاية من الرسالة ، وبغض النظر عن الزمان والمكان والأشخاص لأنه بحسب التتابع السننيّ للأحداث والمواقف ، كما هو مُبيّن في القرآن الكريم [1] .

وأما " ترتيب نزول " السور : فهو نتيجة لسير رسول الله – والذين آمنوا معه – بالرسالة حسب " المنهاج " في واقعه الإنساني حينذاك ؛ بزمانه ومكانه وأشخاصه .. فكان بحسب تتابع وقوع الأحداث ومواقف الناس من الرسالة والرسول ومن اتبعه من المؤمنين ، في ذلك الزمان والمكان .. أي حسب التتابع التاريخي لحصول الأحداث ، والذي يمكن أن يتغير مع أقوام آخرين في أزمنة وأمكنة مختلفة .
ف " ترتيب نزول السور" ومعه " أسباب النزول " ، هو ربطٌ تاريخي للسورة أو الآيات بزمن النزول الأول .
وعلى هذا فله بُعدَين :

- بُعد تاريخيّ؛ من جهة أنه مرتبط بحدث تاريخي وقع في زمان ومكان محدَّدين، ومع أشخاص معينين.
- بُعد " منهاجيّ " سُننيّ ، يتجاوز الزمان والمكان والأشخاص ، من جهة أن وقوع الحدث كان نتيجةَ سير رسول الله بالرسالة حسب " المنهاج " ؛ أي حسب الطريقة الشرعيّة الثابتة ، وأن تتابع وقوع الأحداث كان محكوماً لسنن الله – التي لا تتغيّر ولا تتبدّل – في حمل الرسالات [2]..

فباعتبار السببين السابقين ، وُجدت لدينا الرغبة في اعتماد " ترتيب النزول " في تناول سور القرآن الكريم في هذا " التبيان" .

1 - ونؤكّد هنا - منعاً لأي لبس - أن " الترتيب المنهاجي " للسور إنما هو ترتيب من أجل فهم منهاج السير بالرسالة ، بتتابع خطواته وتوالي أطواره الثمانية في مرحلتيه الإثنتين ، حتى تحقيق الغاية من الرسالة . فهو ترتيب من أجل الفهم فقط وليس بديلاً عن ترتيب المصحف ولا موازياً له. ونحن لم نقصد ذلك ولا ألمحنا إليه .

2 - ومعرفة هذا البعد وفهمه وتحديده هو هدفنا ومقصودنا من هذا العمل بأجزائه الستة . أنظر (الجزء الثالث " المنهج "- القسم الثاني : بيان كيفية التأسي في رسول الله في تلقي الرسالة . ص 54)

رابعاً :

من خلال المقارنة المباشرة لهذا " التبيان " مع الطرق والأساليب الأخرى في البيان والتفسير ، مثل : التفسير التحليلي أو التجزيئي .. أو التفسير الموضوعي .. أو البحث في " علم المناسبة " والترابط بين الآيات والسور .. أو التفسير حسب ترتيب النزول التاريخي .. تتضح معنا خصائص أخرى تتميز بها طريقة " الفهم المنهاجي " للسورة .. ونُجملها في ما يلي :

1- التفسير التحليلي أو التجزيئي للسورة :

حيث يعمد المفسّر في هذا الأسلوب إلى التجزيء والتحليل في التعامل مع السورة ، فيتناولها آية آية أو عدة آيات .. فيُبيّن سبب نزولها ، وبيان غريبها ، وإعراب مشكلها .. إلخ .

وهذا الأسلوب هو الغالب على التفاسير ..

وأما " تبيان " السورة من سور القرآن ، فهو ليس تفسيراً لها بالأسلوب التجزيئي .. بل يمكن اعتباره خطوة تالية لذلك التفسير ، ومبنيّة عليه .. ذلك أن المقصود في هذا " التبيان " هو فهم " محتوى السورة " – من حيث الموضوع والأسلوب – فهماً مترابطاً شاملاً وبشكل مُجمل ، في إطار " مقصد السورة " . وذلك لما بيّناه من أن الهدى كما هو متحقق في الآية الواحدة ، هو كذلك متحقق في مجموع الآيات بوصفها تشكّل سورة واحدة . فالسورة كاملة – أي بوصفها سورة – فيها دلالة على مراد الله ، كما هي الآية الواحدة منها، وكما هي اللفظة : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ .. ﴿٩﴾ ﴾ الإسراء

فالهدى متحقق في القرآن **كلّه** ، الآيات والسور ، فهذا هو القرآن .. آيات مرتلة (منسقة) في سور ؛ كل مجموعة آيات معينة ، تشكّل سورة واحدة ..

الأمر الذي من خلاله يُمْكِننا معرفة دور كل سورة ومكانها في خط السير بالرسالة الخاتمة من أجل تحقيق الغاية منها . أي رؤية السورة كـ " وحدة منهاجية " واحدة تشكّل جزءاً من " المنهاج " ، ثم معرفة مكانة السورة ودورها في " المنهاج " الكامل .. وهذا هو " الفهم المنهاجيّ " للسورة .. ومن ثم ، فالتفسير التحليلي أو التجزيئي للسورة يُعتبر من متتطلّباته ، كخطوة أوليّة [1] .

1 - وفي هذا السياق نؤكّد على حقيقة أن البيان المفصّل لأحكام ومعالجات " المنهاج " كان أثناء حمل رسول الله الرسالة وخوضه غمار السير العملي بها في المجتمع بقصد تحقيق الغاية منها . لذلك كان التنزيل للآيات والسور مرتّلاً ؛ لبيان معالجات الوقائع والأحداث (المناطات) أثناء حصولها وورودها ومواجهة حمَلة الرسالة لها أثناء سيرهم العملي بالرسالة من أجل تحقيق الغاية منها في واقعهم ومجتمعهم والمحافظة عليها كذلك . فهذه هي الطريقة التي تلقي فيها الجيل الأول من الأمة القرآن الكريم أول مرة ، فهُم عندما ساروا بالرسالة في واقعهم حسب " المنهاج "، بلاغاً وبياناً واستقامة ، كانت الآيات تتنزّل على الحدث (المناط) الحاصل معهم فعلاً في حينه وفي طوره ومرحلته .. لمعالجته . فكان هذا التنزيل للآيات على المناط حين حدوثه ، هو البيان لتلك الآيات .. فهو " بيان عمليّ " .. فلم يكن هناك حاجة لـ " التفسير " بمعنى الشرح والبيان بالكلام - بالشكل الذي عُرف لاحقاً حتى يومنا هذا - إلا في حدود ضيقة جداً ، وبما يلزم لتحقيق معالجة المناط على وجهها الأكمل . وهذا ما يعلل - بشكل رئيس - ندرة " الروايات التفسيرية " المرفوعة إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وكذلك قلة الروايات الثابتة المنسوبة للصحابة الكرام رضي الله عنهم .. فلم يكن في زمانهم " تفسير للقرآن " بالكيف والكم الذي عُرف لاحقاً في القرون التالية للجيل الأول .. ذلك أن "البيان العملي" لِما كان يتنزّل من آيات الله حسب " المنهاج " ، لمعالجة الواقع ، بقصد تحقيق الغاية من الرسالة .. كان هو الطريقة الوحيدة التي تَلَقّى فيها الجيل الأول من الأمة المسلمة القرآن الكريم ، والتي تعلّموا بها القرآن الكريم وفهموه . وهذه هي الأجواء الحقيقية والطبيعية=>

2- التفسير الموضوعي للسورة :

حيث يُنظر إلى السورةِ على أنها وحدة واحدة ، من زاوية أن موضوعاتها وأفكارها ترجع إلى موضوع واحد أو فكرة رئيسة أو محورية واحدة ، وأن السورة متميّزة بأسلوب أدائها وطريقة عرضها [1] ..

نقول : إنه من الواضح أن سور القرآن الكريم **تختلف** فيما بينها في **درجة الاهتمام** بأيٍ من مواضيع **العبادة** (الإيمان والعمل الصالح والدعوة) ، وفي **التنويع** في ذكرها ووسائل عرضها .. وفي **بيان** المصير (البشارة والنذارة) ، وبشكل متنوّع عجيب فريد .. وما ذلك إلا **لاختلاف** مقصد كل سورة وسياقها ، أي

لتلقي آيات القرآن الكريم وفهمها ، أي عيش معاني آيات القرآن أثناء القيام به وحمله كرسالة من الله للعالمين ، من أجل جعل الدّين خالصاً لله : (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ.. {3}) الزمر . لذلك ، في حِسّ جيل القدوة من الأمة ووجدانهم ، لم يكن القرآن إلا أنه رسالة الله إليهم ، فيها حُكْمه وأَمره ، وأنه يجب إنفاذه في الواقع المعاش ، إيماناً وعملاً صالحاً ودعوة إلى الله ، وعلى مستوى الفرد والأمة حتى " إكمال الدين لله " ، والمحافظة عليه كذلك : (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ ..{110}) آل عمران ، (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا {36}) الأحزاب .. هذا ، وقراءة آيات الله بقصد تنزيلها كمعالجات على الأحداث والوقائع المعاشة حين حدوثها (البيان العملي) ، هو نفسه معنى ومفهوم " التلاوة " للقرآن كما في قوله تعالى : {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ..(121)} البقرة . يقول الإمام الطبري : ((فتأويل الآية : الذين آتيناهم الكتاب الذي قد عرفته يا محمد - وهو التوراة - فقرءوه واتبعوا ما فيه ، فصدقوك وآمنوا بك، وبما جئت به من عندي ، أولئك يتلونه حق تلاوته . أي : يتبعونه حق اتباعه ، من قول القائل : ما زلت أتلو أثره ، إذا اتبع أثره ، لإجماع الحجة من أهل التأويل على أن ذلك تأويله)) . فالتلاوة هي قراءة ، ولكن بقصد الإتباع . والإتباع يقتضي أن يسبقه البيان . والبيان يكون بتنزيله على الواقع - فكراً وسلوكاً، فرداً ومجتمعاً - كمعالجات له . فحقيقة معنى " تلاوة القرآن " هي : قراءة آياته بقصد تنزيلها على الواقع كمعالجات من الله تعالى (البيان) ، وجعلها حقيقة واقعة (الإتباع). فتكون بذلك هدى للمؤمنين ، وحجة على الكافرين . لهذا نجد أن السياقات القرآنية التي ترد فيها " تلاوة آيات الله " هي إقامة الحجة الرسالية على الذي استمع لها ولم يتبعها، كما في قوله تعالى :{..تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (104) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (105)} المؤمنون . {إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (91) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (92) } النمل . فـ " التلاوة " تردُ في معرض البيان وإقامة الحجة على الكافرين ، وأنه لا عذر لهم يوم القيامة وقد سمعوا وشاهدوا آيات الله " **تُتلى** " عليهم ، ولم يقل " تُقرأ " لأن القراءة ترد في سياقات أخرى: في عموم القراءة لآيات الله ، في الصلاة وفي غيرها ، وفي سياق وجوب إلتزام القارئ للقرآن بالكيفية التي سمعه بها وتلقاه فيها دون زيادة أو نقصان. أي نقل القرآن كما سمعه. أنظر (مفاهيم ومصطلحات رسالية) - التلاوة والقراءة . أنظر أيضاً (صفحة 11) من هذا البحث . هذا ، و" التلاوة " بهذا المفهوم الذي بيّناه تُشغل حيزاً كبيراً من عملية "التعليم" التي هي من مهمات الرسول الأساس :{ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ **يَتْلُو** عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَ**يُزَكِّيهِمْ** وَ**يُعَلِّمُهُمُ** الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (2)} الجمعة ، حيث أن " البيان العملي" بتنزيل آيات الكتاب على مناطها ، يتضمّن تعليم الكتاب وتعليم الحكمة ، وهي السنة الفعلية والقولية مع الأساليب والوسائل اللازمة . بمعنى تعليم كيفية معالجة الواقع بالكتاب والتعامل معه بما يناسبه شرعاً وقدراً، هذا هو تعليم الحكمة .

وننبه هنا ، إلى أننا مدركون لحقيقة أن العلوم المتعلّقة بالقرآن كان لها " تطوّراً طبيعياً " ، قد تَواكَب وتَماشَى مع تطوّر أحوال وحاجات الأمة ، من حيث الإجتهاد واستنباط الأحكام لما كان يستجد من أحوال وأحداث ونوازل ناتجة عن حمل الأمة لرسالة الله بالجهاد في سبيل الله ، وأهمها التوسّع الجغرافي والسكاني .. إنما الذي نقصده هنا هو ما شاب هذا " التطور الطبيعي " من شوائب غريبة عن منهجه الشرعي الذي أرساه رسول الله في الجيل الأول من الأمة ، والتي مع مرور الزمن أصبحت تلك الشوائب - أو آثارها - جزءاً أصيلاً من ذلك المنهج ، ومع تقدّم الزمن دخلت شوائب أخرى وأخرى .. حتى كادت معالم المنهج الحق الذي كان عليه رسول الله وأصحابه أن تختفي . ومن أهم تلك الشوائب : "الأهواء" حيث بسببها تحوّل الخلاف السياسي والفكري (ما يجوز الخلاف فيه) إلى خلاف عقديّ (ما لا يجوز الخلاف فيه) أدّى إلى تقسيم الأمة إلى طوائف وأحزاب وكل حزب بما لديهم فرحون . ومنها التأثّر بـ "مناهج تفكير" غريبة عن الوحي ، مثل المنطق الأرسطي والفلسفة ، والتي زادت الطين بِلة ، فترسّخ تقسيم الأمة وازداد .. وغيرها من الشوائب الدخيلة .. إلخ . وليس هنا مجال التوسّع .. إنما المقصود أن نذكّر بالمنهج الأصل ونشير إلى معالمه الكبرى ، التي تكاد أن تندرس وتُنسخ .. لولا حفظ الله عزّ وجلّ لِوَحْيه ولدينه ، والحمد لله .

1 - أنظر (منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم) - د زياد خليل الدغامين . وانظر (منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ، دراسة نقدية) - د سامر عبدالرحمن رشواني .

لاختلاف الحالات أو المواقف التي تواجهها كل سورة من السور (مناط السورة) بقصد معالجتها ، والحاصلة مع المؤمنين أثناء السير لتحقيق الغاية من الرسالة . مما يجعل لكل سورة " طابعها الخاص " بها في ما تتناوله من مواضيع العبادة (الدين) ، وبيان المصير .. الأمر الذي يجعل من السورة وحدة واحدة متماسكة، وتشكّل جزءً من " المنهاج" لتحقيق الغاية من الرسالة ؛ إكمال الدّين لله .. وفي مجموع السور ثَمّ " المنهاج" كاملاً .

لهذا ، أن يكون للسورة " وحدة موضوعية " ، ليس هو المقصود – أصالة – من " التسوير " ، أي من جعل آيات محددة في سورة معينة .. بل لا يصلح أن يكون هو " **مقصد السورة** " أو " **سياق السورة** ".. وحتى السور التي يظهر فيها أنها ذات موضوع واحد – مثل بعض قصار السور التي تتناول اليوم الآخر – فهي لا تخرج عن ما سبق تقريره ، وذلك :

- لأن " وحدة الموضوع " بحث في " **محتوى** السورة " من حيث الموضوع ومن حيث الأسلوب وهو أمر آخر يختلف عن " **مقصد** السورة " ، أي **الغرض** الذي من أجله جاء هذا الموضوع المعيّن معروضاً بهذا الشكل المعيّن في هذه السورة بعينها . فلا بد عند تدبّر السورة من التمييز بين " **محتوى** السورة " من حيث الموضوع ووسائل العرض وأساليب الأداء .. وبين " **مقصد** السورة " .
- ولأن الدّين ؛ إيماناً وعملاً صالحاً ودعوةً ، لم يُعرض في سور القرآن الكريم **مبوباً** حسب **الموضوع** ، مثل أسلوب البشر في التأليف والتنسيق ، ككتب الفقه مثلاً .. وهذا ظاهر في جميع السور .. لذلك ، نجد أن ما يَرِد في السورة المعينة من الموضوع المعين ، لا يشكّل إلا **بعضاً** من كلٍ موزّع على سور أخرى ، فما جاء فيها ليس **كل** ما هو متعلق بذلك الموضوع ، لا من حيث المحتوى ولا من حيث الشكل، أي أسلوب العرض والمعالجة ، " حتى إنك إذا أردت أن **تُلمّ بموضوع** واحد لا بد لك من تتبعه في طول القرآن وعرضه " [1]..

ومن هنا ، أن يكون للسورة " **وحدة موضوعية** " .. ليس هو العامل المؤثّر في **تنويع** المواضيع والمعالجات أو أسلوب عرضها بين سور القرآن الكريم . بمعنى ، أن الأساس في أن يأتي في السورة من القرآن هذا **الجزء** المعيّن من هذا **الموضوع** المعيّن ، وأن يتم تناوله من هذه **الزاوية** .. بينما في سورة أخرى ، يأتي نفس الموضوع العام – يوم القيامة مثلاً – لكن بصورة مختلفة من حيث تفاصيله وأجزائه ، ومن حيث الشكل وزاوية التناول .. أقول : الأساس في ذلك كله والغرض منه أصالة ، ليس أن تكون السورة ذات " وحدة موضوعية ".. إنما هو اختيار ما يلزم – من حيث الموضوع وأسلوب البيان والأداء – لتحقيق " مقصد السورة " ، والذي هو **معالجة** الحالة أو الموقف (مناط السورة) الذي يواجهه حمَلَة الرسالة أثناء سيرهم في واقعهم ومجتمعهم لتحقيق الغاية منها .. وهذا هو " مقصد السورة " ألا وهو معالجة مناطها ، وهو الذي ينبغي أن يكون الأساس في النظر ، والإطار الجامع لفهم كل ما جاء في السورة (محتوى السورة) من مواضيع وأفكار وأساليب عرض وبيان .

1 - (نحو تفسير موضوعي) لـ محمد الغزالي .

وعلى هذا ، لا يرد في " محتوى السورة " ، لا موضوعاً ولا أسلوباً ، إلا ما يلزم لمعالجة " مناط السورة " ، أي ما يحقق مقصدها . وبهذا ومن خلاله ، تُشاهَد السورة وحدة واحدة على الحقيقة ، وبدون تكلّف .. وبه أيضاً تكون متميزة عن غيرها من السور ، وبالأسلوب القرآني الفريد .

فالنظر إلى **مواضيع الدين** – من إيمان وعمل صالح ودعوة – في جميع السور .. حتى التي يظهر أنها ذات موضوع واحد .. يكون على أساس أنها **معالجات** لما يحدث من مواقف وحالات (المناط) أثناء حركة وسير المؤمنين ؛ حَمَلة الرسالة – أفراداً وجماعة وأمّة – لإكمال الدين لله جلّ وعلا . فتكون السورة " **وحدة منهاجية** " واحدة ، تشكّل **جزءاً** من " المنهاج " .. وبمجموع السور يكتمل منهاج تلقي القرآن والسير به لبلوغ الغاية منه . وهذا هو " **الفهم المنهاجي** " لسور القرآن الكريم .

إن إكمال الدين لله عزّ وجلّ هو ما أُنزل القرآن (الدّين) لأجله ، وهو ما جُعل " المنهاج " طريقاً للوصول إليه . وكان " التسوير " للدلالة على ذلك " المنهاج " وبيانه وبيان معالجاته . وكان سير رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم على أساسه ، **بتلقي القرآن مرتلاً** على مكث ، **للعلم والعمل** به ، حتى أصبح **حقيقة** في واقع الناس **والحاكم** على شؤون حياتهم .

فلم يُنزّل الله عزّ وجلّ القرآن (الدّين) ويبعث به الرسول ، على صورة مواضيع لإعطاء المعلومات عن القضايا المختلفة للمعرفة والثقافة العامة ، أو للاستمتاع بجمال الأسلوب وموسيقاه ، والانبهار بعذوبة طريقة العرض وقوتها .. فهذه الأمور وما شاكلها ليست أهدافاً أو غايات للبحث والفهم – ولا يصح جعلها هدفاً أو غاية – إنما هي وسائل وأدوات لتحقيق الغاية من إنزال القرآن ؛ أي ما نُزّل القرآن من أجله .. وما نزّله الله جلّ وعلا ، إلا **ليكون هو وحده** المعبود المُطاع أمره في واقع الناس وفي جميع مجالات حياتهم ، وحتى قيام الساعة .. ولا يتحقق ذلك إلا بأن تكون كلمة الله هي العليا ، ودينه هو الظاهر :

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ **لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ** وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣ ﴾
التوبة

فآيات الرسالة جاءت مرتلة في سور ، وكل سورة **تعرض** ما جاء فيها من " **مواضيع الدّين** " – الإيمان والعمل الصالح والدعوة – **عرضاً خاصاً مؤثراً** بالأسلوب القرآني الفريد ، **كمعالجات للواقع الإنساني** (المناط) ، **هدماً** لكيان الباطل **وبناءً** لكيان الحق .. في أطوار ومراحل .. كـ " منهاج " للسير من أجل تحقيق " الغاية من الرسالة " ، إكمال الدّين لله .. فالقرآن المجيد قولٌ فصل وما هو بالهزل ، وهو إما حجة على المتلقي أو حجة له [1] ..

1 - وحجة القرآن كما هي قائمة في أفكاره وحقائـــقه ، فهي قائمة أيضاً في أسلوب عرضها الربانيّ البديع الفريد . فما جعل الله تعالى القرآن هكذا في أوجهه المختلفة - موضوعاً وأسلوباً - إلا بقصد إحقاق الحق وإبطال الباطل ، أي لتحقيق الغاية منه في الواقع الإنســاني . ومن ثم ، فالتأثير - على الحقيقة - إنما هو لآيات الله البيّنات ، وما الرسـول إلا مبلّغ لآيات الله كما يريد الله تعالى ، بمعنى أنه المفعّل للآيات البيّنات في واقع الناس والمعلّم لنا لكيفية تفعيّلها لتؤدي دورها وأثرها في حياة الناس. ويوضـح ذلك ما قاله الله تعالى لموســى وهارون ، عليهما الســلام : (**بِآيَاتِنَا** أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ } [القصـص 35] . فالغلبة في النهاية لأولياء الله الذين معهم " آيات الله تعالى " سـواء المتلوّة منها أم المادية (المعجزات)، فكلّها سمّاها الله تعالى "آيات" لدلالتها على الحق . والقرآن هو آية الله الخاتمة الخالدة ، وفيه تجتمع الخاصيتان معاً؛ =>

وما يُنَزّل منه يجب أن يُطبّق مباشرة على **الواقع الإنساني** لمعالجته وتغييره ، فكراً وسلوكاً ، فرداً وأمة ومجتمعاً .. ليصير كما أمر الله تعالى ورضيه أن يكون .. فالله تبارك وتعالى هو وحده **الإله الحق** الذي له الخلق والأمر ؛ **فأمره الشرعيّ** لا بد من أن يَنْفُذ في الواقع كما هو نافذ **أمره القدريّ** .. فـ **لا إلـه إلا الـله** .

وفي الجملة ، فإن الدّين لم يُعرض في القرآن الكريم **مبوّباً** حسب **الموضوع** ، أي لم يُبحث بحثاً **موضوعيّاً** بشكل أكاديميّ أو نظريّ كأسلوب البشر في التأليف والتنسيق (مثل كتب الفقه وكتب العقائد) لا في السورة الواحدة ولا في القرآن كله ، بل جاءت آياته **مرتلة** (منسقة ومنظمة) حسب " التسوير " ، فجاءت أفكار **ومواضيع** العبادة موزّعة على السور .. وتناولت كل سورة – وبالأسلوب القرآني الفريد – ما جاء فيها من مواضيع العبادة (الدّين) .. وكان ذلك **باختلافٍ** في **التركيز** في كل سورة على أيٍ من تلك المواضيع أو بعضٍ منها ، وفي **التنويع** في ذكرها وفي وسائل عرضها .. بما **يحقق** مقصد تلك السورة ، ألا وهو **معالجة** حالة أو موقف معين يحصل فعلاً ويواجهه حَمَلة الرسالة أثناء **السير** قُدماً **لتحقيق الغاية** من الرسالة .. الأمر الذي يجعل لكل سورة ذلك الطابع الخاص بها فيما تتناوله من مواضيع العبادة أو الدّين ، ويجعل منها كذلك ، وحدة واحدة تشكّل جزءً من " المنهاج " . وفي مجموع السور ثم المنهاج كاملاً .. وهذا هو " الفهم المنهاجي" للسورة .

وعليه ، فالأصل في النظر إلى السورة هو اعتبارها " وحدة منهاجيّة " ، وليس أنها ذات " وحدة موضوعية " ، وإن ظهر أن **محتوى** بعض السور – موضوعاً وأسلوباً – يشكّل وحدة موضوعية .. فذلك إنما كان من أجل تحقيق " مقصد السورة " ألا وهو بيان المعالجات لحالة أو موقف يحصل مع حَمَلة الرسالة أثناء السير (مناط السورة) . فتكون " الوحدة الموضوعية " حينئذ ، ليست هي " مقصد السورة " ، أي ليس هي المقصودة من جعل هذه الآيات في سورة معينة ، إنما هي من وسائل معالجة المناط وأدواته .. أي وسيلة لتحقيق " مقصد السورة " .. والذي – في النهاية – يؤدي إلى تحقيق مقصد الرسالة نفسها ، العبودية الكاملة والشاملة لله تعالى في الواقع الإنساني : إكمال الدين لله .

3– " علم المناسبة " أو مناسبات الآيات والسور :

قد يُشاهَد في بعض سور القرآن الكريم – بمستوى أو بآخر – " الوحدة الموضوعية " .. إلا أنه في كثير من السور ، وخاصة الطوال منها ، فيها تنوّع ظاهر في المواضيع وأساليب الأداء والبيان .. فيصعب القول عندها ، بوحدة الموضوع .. وهذا أمر واضح .

كونه آية متلوّة وكونه آية ماديّة (معجزة) . فالغلبة تكون دائماً ، لمن يملك **العلم بالمنهاج** في تفعيل القوة الهائلة في التأثير والتغيير الكامنة في القرآن - أفكاره وأسلوبه - بوصفه " آيات بيّنات " .. ويُحسن توظيف تلك القوة من أجل تحقيق الغاية منه . كما حصل في أول أمر هذه الأمة على يد رسول الله . والغلبة الآن - وفي كل زمان - لا تكون إلا لمن يسير على " منهاج النبوة " في تلقي القرآن وتبليغه وبيانه ، أي يسير على " منهاج النبوة " في تفعيل القوة التغييرية (الهداية) الكامنة في الرسالة ، بما فيها من الآيات البيّنات ، بقصد تحقيق الغاية منها ، فيستحق - عندها - أولئك السائرون على " منهاج النبوة " أن يكونوا من ورثة النبي . فلا يصلح أمر آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

وقديماً قال بعض العلماء بـ " المناسبة " بين آيات السورة الواحدة ، ذلك أن المعنى أو الموضوع ليس هو الرابطة أو العلاقة (المناسَبة) الوحيدة أو الرئيسة بين آيات السورة الواحدة ، بل هنالك " النظم " أو " السياق " أو " النسق " الذي يجعل من السورة وحدة واحدة لتحقيق مقصدها أو غرضها (مقصد السورة) مهما تعددت قضاياها ومواضيعها .. وهذا الجانب له تعلّق وثيق بعلم البلاغة أو البيان .. أي بطرق وأساليب أداء المعاني بشكل جميل ومؤثّر في النفس [1].

نقول : وكما بيّنا فيما سبق من البحث .. إن المقصود الأصل من " التسوير " هو أن يحقق " محتوى السورة " – موضوعاً وأسلوباً – المقصد الذي من أجله جُعل في سورة معينة (مقصد السورة) ، ألا وهو معالجة " مناط السورة " . الأمر الذي يجعل من السورة " وحدة منهاجية " واحدة ، تشكّل جزءاً من " المنهاج" الكامل لتحقيق الغاية من الرسالة في الواقع الإنساني . وعليه ، فالأصل في العلاقة أو " المناسبة " بين الآيات في السورة الواحدة ، هو " المناسبة المنهاجيّة " . بمعنى أن الرابط الأصل ، والأمر الجامع بين أفراد وعناصر " محتوى السورة " – موضوعاً وأسلوباً – هو كونها تشكّل "وحدة منهاجية " واحدة .. وهذه هي " المناسبة " الجامعة لـ " محتوى السورة " على صعيد واحد ، وبانسجام ودون تكلّف .. إنها " المناسبة المنهاجيّة " . وهذا لا يلغي المناسبة الموضوعية أو الأسلوبية بين الآيات المتجاورة في السورة ، أو بين جميع آيات السورة الواحدة .. يعني " نظم السورة " .. بل يتكامل معها ويكمّلها ، حيث أن " الفهم المنهاجيّ" يعطيهما القصد والغاية ؛ ذلك أن كل آيات السورة وما بينها من مناسبة أو ترابط في الموضوع أو الأسلوب، إنما جاء من أجل تحقيق " مقصد السورة " وبالتالي مقصد الرسالة في الواقع الإنساني . وبهذا ومن خلاله تُشاهَد السورة وحدة واحدة على الحقيقة ، وبدون تكلّف .. وبه أيضاً تكون متميزة عن غيرها من السور ، وبالأسلوب القرآني الفريد .

وعليه ، فالأصل في النظر إلى السورة هو اعتبارها " وحدة منهاجيّة " .. وإن ظهر أن **محتوى** بعض السور – موضوعاً وأسلوباً – كلاماً واحداً يتعلّق أوله بآخره .. وعلى نظام واحد ونسق جامع .. فذلك إنما كان من أجل تحقيق " مقصد السورة " ، ألا وهو بيان المعالجات لـ " مناط السورة " وتنزيلها على الواقع أثناء السير . لهذا ، فـ " وحدة النظم " أو " الوحدة النسقية " تلك ، إنما هي من وسائل معالجة " مناط السورة " وأدواتها ، فهي وسيلة لتحقيق "مقصد السورة " .. وينبغي أن لا يُنظر إليها إلا هكذا ، أي بوصفها

---

1 - وهو ما يُعرف بـ " علم المناسبة " ، كما عند البقاعي ، أو بـ " نظام القرآن " كما عند الفراهي ، أو بـ " علم مقاصد السور" .. مع اختلاف في المفهوم أو تقاطع أو تطابُق ، بين هذه المصطلحات.. وقد قال بهذا علماء آخرون كأبي بكر النيسابوري ، وفخر الدين الرازي ، وأبي بكر بن عربي ، وأبي اسحاق الشاطبي في الموافقات ، حيث يقول ما حاصله: (إن السورة مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد يتعلّق آخره بأوله ، وأوله بآخره ، ويترامى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلّق الجُمل بعضها ببعض في القضية الواحدة . وأنه لاغنى لمتفهّم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها ، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية) . أنظر كتاب (النبأ العظيم) د محمد عبدالله دراز . وانظر كذلك بحث (مناسبات الآيات والسور) د أحمد حسن فرحات. وأيضاً بحث (علم مقاصد السور) و بحث (علم السياق القرآني) د محمد الربيعة . وكتاب (منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ، دراسة نقدية) - د سامر عبدالرحمن رشواني . وكتاب (إمعان النظر في نظام الآي والسور) د محمد عناية الله أسد سبحاني . وانظر (نسقية السورة القرآنية - دراسة في تفسير (في ظلال القرآن) لسيد قطب) د أحمد بزوي الضاوي - ملتقى أهل التفسير .. ومما ورد في هذه الدراسة قوله : ((السورة القرآنية الكريمة تشكّل وحدة متكاملة ، وهي ما أسميناه بـ "الوحدة النسقية " ، تمييزاً لها عن "الوحدة الموضوعية " أو "الوحدة العضوية" التي لا تنطبق على القرآن الكريم ، لأنها تجعله مشابهاً لكلام البشر)) .

وسيلة لتحقيق كون السورة " وحدة منهاجية " ، ولتحقيق الغاية من الرسالة في الواقع الإنساني ؛ العبودية الكاملة والشاملة لله تعالى : إكمال الدين لله .. والمحافظة عليه كاملاً .

ومن هنا ، يمكننا القول : إن " الفهم المنهاجيّ " للسورة ، كما بيّنا بعض معالمه فيما سبق من البحث .. وكما سيظهر جلياً واضحاً في هذا " التبيان " ، بعون الله .. يصلح لأن يكون أصلاً ، وإطاراً عاماً ، وأرضية خصبة لفهم ما يُعرف بـ " علم المناسبة " و " علم مقاصد السور " .. ويصلح لتحديد معالمه وبيان أبعاده الحقيقية [1]..

هذا فيما يتعلق بـ " المناسبة " بين آيات السورة الواحدة ..

أما فيما يخص " المناسبة " أو الترابط بين السور المتتابعة . فنقول : إن " الترتيب المنهاجيّ " للسور، أي ترتيبها بحسب ارتباط " مناط " السورة بالطور المعين من أطوار " المنهاج " ، وبحسب تتابعها السننيّ .. سيجعل من سور القرآن الكريم مجموعات موزعة على أطوار " المنهاج " الثمانية بمرحلتيه الإثنتين . وكل مجموعة ستضم المعالجات الشرعيّة والسننيّة للمواقف والأحداث التفصيلية للطور الواحد الذي تتعلّق به .. وعندها ستتضح السمات والخصائص العامة المميزة لكل طور ، ولكل مرحلة . وسيتضح كذلك التتابع السنني لتلك الأطوار ، من الأول حتى الثامن ..

فهذا هو الأمر الجامع والأصل العام لـ " المناسبة " أو الترابط بين السور؛ أي بوصفها "وحدات منهاجية" متتالية ، القصد منها تحقيق الغاية من الرسالة في الواقع .. وفي مجموعها ثم " المنهاج " كاملاً .. فـ " المناسبة المنهاجية " هي الأصل في معرفة وفهم " المناسبة " أو العلاقة أو الترابط بين السور المتتالية.

وعليه ، فإن " المناسبة المنهاجيّة " الناتجة عن " الترتيب المنهاجيّ " (السننيّ) للسور جميعها هي الأصل في فهم ومعرفة " المناسبة " ، سواء بين آيات السورة الواحدة أو بين السور المتتالية .

هذا ، مع التأكيد على أن " المناسبة " بين الآيات أو السور ، سواء من حيث الموضوع ، أم من حيث أسلوب العرض .. وسواء في تتابع النزول التاريخي للسور والآيات ، أم في ترتيب المصحف .. فجميع ذلك لا يتعارض مع " المناسبة المنهاجيّة " . وفي نفس الوقت ، نؤكّد على أنها – أي " المناسبة المنهاجيّة " – تصلح لأن تكون أصلاً جامعاً ، وإطاراً عاماً ، وأرضية خصبة لفهم ما يُعرف بـ " علم المناسبة " .. وتصلح لأن تكون أداة رئيسة ومهمة في بلورة " علم المناسبة " وتوضيح معالمه ، وتنقيته مما علق فيه من التكلّف أحياناً كثيرة ، ومن عدم الوضوح أحياناً أخرى ، ومن عدم الشمولية .

1 - ومن خلال " الفهم المنهاجيّ " أيضاً .. يمكن أن نجد حلولاً جذرية لكثير من القضايا المُشكّلة في بعض أقسام " علوم القرآن " ، وتقديم أجوبة شافية على كثير من التساؤلات العالقة فيها .. مثل علم الناسخ والمنسوخ .. وأسباب النزول .. وترتيب النزول .

4- تفسير القرآن حسب " الترتيب التاريخي " لنزول سور القرآن .

حيث عمد بعض المفسرين – قديماً وحديثاً – إلى تفسير القرآن حسب الترتيب التاريخي لنزول سور القرآن ، وإلى جعْله مؤثراً في تفسير السورة وتوجيه معاني آياتها . مثل (بيان المعاني) لـ الملاحويش ، و (التفسير الحديث) لـ دروزة .. وغيرهم . وهو يُعتبر من التفسير التحليلي أو التجزيئي للسور ، إلا أنه يختلف عنه في أن المفسّر عندما تناول السور لم يأخذها بحسب " ترتيب المصحف " ، بل أخَذَها بناء على " ترتيب النزول " ، وجَعَله مؤثراً في تفسير السورة وتوجيه معاني آياتها لما لذلك من ميزات ، حسب رأيهم ، أهمها : ((معايشة الوحي أولا بأول ، حتى يتذوق تالي القرآن منهج التربية ، فينتقل إلى العمل ، ويستفيد من طريقة الوحي في الإصلاح . وهو ما يُشعر بلذة التدبّر للوحي ، والعيش في ظلال السيرة ، مما يعني ربط المسلم بمسيرة الوحي مع مصدريه الكتاب والسنة مدة ثلاث وعشرين سنة)) [1].

نقول : إن عَمَلنا هنا في هذا " التبيان " – كما هو واضح – قائم على النظر إلى السور في إطار تحقيق الغاية من الرسالة ، ومن زاوية سننيّة منهاجيّة ؛ الأمر الذي يؤدي إلى جَعْل " الترتيب المنهاجيّ " هو الذي له تأثير في النظر إلى معاني الآيات والسور .. فيكون ضابطاً مهماً من ضوابط الفهم وتوجيه المعاني عند فهم " المنهاج " .. وذلك لكونه مؤَسَساً على منظور سُننيّ إنسانيّ ؛ فهو عامّ ، ويصلح للإنسان في كل زمان ومكان .

أما " الترتيب التاريخيّ " لنزول الآيات والسور فلا يجوز جَعْله مؤثراً في توجيه معاني الآيات والسور عند فهم " المنهاج " .. فهو غير ملزم لنا في فهم " المنهاج " .. وذلك لما بيّنّاه سابقاً – في هذا الجزء والذي قبله – من أنه خاص بالنزول الأول للقرآن .. في زمانه ومكانه وأشخاصه . وأنه قد فُقد أغلبه ولم يصلنا ، وأن " ترتيب نزول " جميع سور القرآن ، الأول فالأول لم يصح فيه شيء ..

فتفسير القرآن – الذي هو رسالة الله لكل زمان ومكان – على أساس التتابع التاريخيّ للنزول لا يحقق تلك الغاية المقصودة ، ولا يحل الإشكال القائم أو يقدم جواباً شافياً له .. بل يزيد الأمر تعقيداً ، لأنه متعلّق بواقع إنساني معيّن في زمانه ومكانه وأشخاصه .. بل لا بد من اعتماد " الترتيب المنهاجيّ " في النظر إلى السور ، لأنه قائم على " السنن "، وعلى الترتيب السننيّ لمراحل وأطوار السير .. فهو عابر للزمان والمكان والأشخاص المُعيّنين ، ويصلح للتطبيق في كل واقع إنساني في كل زمان ومكان . فهنالك بون شاسع بين الأمرين وبين النظرتين – التاريخيّة والسننيّة – لا بد من اعتباره ولا يمكن إغفاله [2] .

وعليه ، فلا يصح الاعتماد على " الترتيب التاريخي " للنزول وجعله أصلاً مؤثراً في الفهم عند النظر إلى السور ، بقصد العلم **بطريقة** الوحي في الإصلاح ، والتدرج في التربية والتشريع .. الخ .. بل لا بد من اعتماد " الترتيب المنهاجيّ " وجعله أصلاً في ذلك .

1 - للتفصيل أنظر بحث (تفسير القرآن الكريم على ترتيب النزول - منبعه وفوائده) د محمد مجلي ربابعة . والمنشور في مجلة دراسات - الجامعة الأردنية .

2 - للتفصيل في هذه المسألة أنظر (الجزء الثالث " المنهج " - القسم الثاني والثالث)

لهذا ، عند النظر إلى أي سورةٍ بقصد فهم " المنهاج " ، يلزم – بداية – التفريق بين ما هو متعلق بزمان ومكان التنزيل الأول (التاريخيّ) .. وبين ما هو من الطريقة الشرعية الثابتة ، والمنهاج البيّن المَبني على السنن الذي يصلح لكل زمان ومكان (المنهاجيّ) ، وذلك من خلال بيان وتحديد الضوابط اللازمة في ذلك ..

ونذكّر هنا ، بأن أهم مقاصد هذا البحث – " منهاج النبوّة " بأجزائه الستة – هو محاولة تحرير هذه المسألة ، وبيان الضوابط اللازمة في الفصل بين ما هو " تاريخيّ " وبين ماهو " منهاجيّ " .. أي بيان الضوابط لمعرفة وفهم ما هو خاص بزمن النزول الأول بظروفه وأشخاصه .. وما هو واجب الاتباع والملزم لنا شرعاً ، أي من الطريقة الشرعية (المنهاج) لكل زمان ومكان . ومن بعد ذلك ، العمل على وضع كل ما هو من " المنهاج " في منظومة متكاملة ، على أساسٍ من الفهم الكليّ والتصوّر الشمولي .

هذا ، وتلخيصاً لكل ما سبق ذكره بخصوص تمايز طريقة " الفهم المنهاجي " للسورة ، عن غيرها من الطرق والأساليب الأخرى في البيان والتفسير .. نقول : إن هذا " التبيان لسور القرآن " إنما هو محاولة لـ " الفهم المنهاجيّ " لسور القرآن الكريم بقصد بيان " منهاج النبوّة " في تحقيق الغاية من القرآن في الواقع الإنساني .. لذلك ، فهو ليس من باب التفسير التحليلي أو التجزيئي ، أو التفسير الموضوعي ، أو التفسير حسب ترتيب النزول التاريخي .. ولا بحثاً في " علم المناسبة " والترابط بين الآيات ..

وفي الوقت نفسه ، هو ليس بديلاً عنها ولا يتعارض معها .. بل هو يتكامل معها ويكمّلها ، ويوظفها توظيفاً أكثر فاعلية ، بل هو في الحقيقة يصلح أن يكون أصلاً عاماً جامعاً لها.. بحيث إذا أردنا أن نفهم السورة من القرآن فهماً أقرب إلى مراد الله جلّ ثناؤه ، فإن " الفهم المنهاجي " للسورة سيكون خير عون لنا على تحقيق ذلك ، إذا جعلناه هو الأصل في النظر إلى السورة الواحدة .. وعلى حد تعبير الإمام الشاطبي في الموافقات : ((لا بد لفهم السورة على وجهها الصحيح من دراستها كلّها إجمالاً ، وردّ أولها إلى آخرها وآخرها إلى أولها ، فإنّها وإن اشتملت على قضايا متعددة ، لكنّها نازلة لهدف واحد ، وتندرج تحت مقصد واحد)) .. ونحن نوافقه – رحمه الله – تماماً على توصيفه هذا ، ونقول : إن المقصد الواحد الذي تندرج تحته السورة ، هو أن تلك القضايا المتعددة في السورة ، إنما جاءت كمعالجات لـ " مناط السورة " .. فـ " مقصد السورة " هو أن يكون " محتوى السورة " وقضاياها المتعددة .. معالجات لمناطها . الأمر الذي يجعل من السورة وحدة واحدة ، وتشكّل جزءاً من منهاج السير لتحقيق الغاية من الرسالة الخاتمة ..

بمعنى أنه عند النظر و " التدبّر " [1] في أي سورة من القرآن الكريم ، ينبغي أن يكون **المقصد** الأصل الذي نبحث عنه دائماً هو الآتي : ما هو دور هذه السورة في تحقيق الغاية من القرآن في الواقع الإنساني؟ .. أين تقع في منهاج السير بالقرآن من أجل تحقيق العبودية الكاملة لله تعالى ، حتى إكمال الدين لله ؟. فهذا ما ينبغي أن نهتم به عند " التدبّر " في السورة من القرآن .. وليس البحث عن وحدة الموضوع ، أو نظام السورة ، أو جمال الأسلوب .. ولا أي غرض آخر مهما كان نوعه .. إلا في حالة واحدة ووحيدة .. وهي أن يتم تناوُل ذلك الغرض من زاوية كونه وسيلة تؤدي بشكل مباشر إلى تحقيق المقصد الأصل للسورة ، ألا وهو تحقيق الغاية من الرسالة .. أي ، أن نكون عبيداً لله وحده ، وفي جميع مجالات حياتنا ، وأن تكون كلمة الله هي العليا ، ونحافظ عليها كذلك [2] .

هذا والله تعالى أعلم وأحكم ، وهو الهادي سواء السبيل ..

والحمد لله رب العالمين ..

1 - التـدبّـر : عبارة عن النظر في عواقب الأمور ، وهو قريب من التفكّر ، إلا أن التفكر تَصرّف القلب بالنظر في الدليل ، والتدبر تَصرّفه بالنظر في العواقب . والتدبير : النظر في العواقب بنظر الخير . أو : إجراء الأمور على علم العواقب . أنظر التعريفات (الجرجاني) ، المفردات (الراغب) . المقاييس (ابن فارس) .
نقول : فالتدبّر خطوة لاحقة للتفكر والنظر والتأمّل ، " فالإنسان لا يمكن أن يتدبّر ما لا يفهم معناه " ، فبعد الفهم للقول يُنظر في مقصده النهائي ، فيما يهدف إليه، في عاقبته، فيما يؤول إليه.. أي في تداعياته وعواقبه، بقصد الإنتفاع : { أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24)} محمد ، تمنعها من الهداية والإنتفاع . " فصحة التدبّر مرهونة بسلامة القلب". أنظر (مفهوم التدبّر في ضوء القرآن والسنة والآثار) - د محمّد الربيعة .

2 -{ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (82)} النساء .
{ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24)} محمد .
{ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (68)} المؤمنون .
{ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (29)} ص .
هذه الآيات الأربع هي وحدها في كتاب الله التي تنص على " التدبّر " لآيات الله .. حاثّة عليه . وهي تُحدد مجال " التدبّر" المطلوب بأن له دائرتان رئيستان :
الأولى : تدبّر في سياق بيان أن هذا القرآن لا يمكن إلا أن يكون من عند الله .. وإلا كان فيه اختلاف وتعارض وتناقض كثير ، [آية (82) النساء] .
الثانية : تدبّر يؤدي إلى التذكّر والاهتداء ، أي تدبّر في سياق تحصيل الإيمان الذي يُنتج العمل الصالح .. فهو تدبّر في سبيل تحقيق العبودية الكاملة الخالصة لله وحده في حياة الناس ومعاشهم . [سائر الآيات] . أنظر تفسير ابن عطية.
فالدائرة الأولى من التدبّر **مقصدها** (عاقبتها) اثبات مصدر القرآن ، والدائرة الثانية **مقصدها** (عاقبتها) تحقيق الغاية من القرآن في الواقع الإنساني . فالثانية عاقبة للأولى . هذا ، والحركة ضمن الدائرتين ليست مطلقة ، بل يحكمهما سلّم الأولويات من منظور قرب أو بعد الأمة المسلمة عن تحقيق الغاية من القرآن في واقع حياتها.. أي حسب "منهاج النبوة" في السير لتحقيق الغاية من القرآن . فلا يجوز للمسلم الإنشغال والتلهي بالمهم عن الأهم ، حسب منهاج السير ، حتى تكون الأمة متلبّسة بوظيفتها الأصل : حمل الرسالة ؛ تطبيقاً على نفسها ، ودعوةً للناس لإخراجهم من ظلمات الشرك والمعاصي إلى نور إخلاص الدين لله .. فتعود الأمة لترتقي وتتبوّأ مكانتها السامقة التي أرادها الله تبارك وتعالى لها ؛ أن تكون خير أمة أخرجت للناس .. وفي موقع الشهادة على الناس . فهذه أولى الأولويات التي لا يجوز أن ينشغل عنها المسلم ولو للحظة واحدة ، وبعدها .. لكل حادث حيث ، ولكل مقام مقال .

" تبـيان سـور القرآن "

وبناء على ما تم تقريره سابقاً – سواء في هذا الجزء أم في الأجزاء السابقة – سنشرع الآن ، بإذن الله تعالى ، في " تبيان سور القرآن " .. بحسب ما مَنّ الله جلّ ثناؤه ، علينا من قُدرة وعَزيمة ، وما فتح علينا من فَهم ..

- ونذكّر بما قلناه سابقاً ، من أن " تبيان " كل سورة سيكون في ثلاث خطوات (مستويات) :

1- ربط السورة بخط السير، ببيان موقعها في أي مرحلة وفي أي طور، بالدلائل والقرائن والإشارات.

2- تحديد " مناط السورة " ، وهو الموقف أو الحالة التي جاءت السورة لمعالجتها في ذلك الطور.

3- بيان المعالجات التي وردت في السورة لـ " مناط السورة " . وسيكون البيان مجملاً ، حيث سنكتفي في الغالب بذكر أرقام الآيات دون نصها ، مع التركيز على الأفكار الرئيسة في السورة ، ووضعها في أُطر عامة ، دون الخوض في التفاصيل إلا ما كان ضرورياً ولازماً لـ " التبيان " . فمقصودنا هنا بيان دور السورة في " المنهاج " بوصفها وحدة منهاجيّة واحدة ، وذلك من خلال تحديد الإطار العام للسورة ، وضبط وتوجيه معاني آياتها .

- ونرجو من القارئ الكريم ، عند البدء في قراءة " التبيان " الوارد لأي سورة كريمة ، أن يصطحب معه نسخة من المصحف ، وحبذا لو كان على هامشها معاني الألفاظ أو الكلمات ، حتى نتماشا سويّاً في مشاهدة شاملة للمعاني الواردة في السورة ، لأن ما سنورده في " التبيان " حول أي سورة سيكون مجملاً ، كما ذكرنا ، فمقصودنا ليس البيان التفصيلي للمنهاج ، لأنه – في الحقيقة – لا يمكن البيان بالتفصيل لأحكام ومعالجات " المنهاج " إلا أثناء خوض غمار حمل الرسالة والسير بها فعلياً – مرة أخرى – بقصد تحقيق الغاية منها .. لأن الأصل في طريقة تلقي آيات الرسالة وسورها ، تلقيها كمعالجات لوقائع وأحداث (مناط) حاصلة فعلاً ، ويواجهها حَمَلة الرسالة أثناء سيرهم العملي بالرسالة من أجل تحقيق الغاية منها في واقعهم ومجتمعهم ، والمحافظة عليها كذلك .

هذا ، والحمد لله رب العالمين ..

ونسأل الله الرحمن ، الهداية إلى الحق والصواب ، والسداد في الرأي ..

فهو وحده المستعان وعليه التكلان .. آمين .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

1- (سورة العلق)

ربط السورة بخط السير :

تأتي السورة في " الطور الرابع " من السير بالرسالة [1] ، وذلك للاعتبارات التالية :

1- أن الملأ من قريش ما تجـرّأوا على مقام رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، بهذا السفور – بمثل إيذاء أبي جهل وتحدّيه – إلا من بعد وفاة عمه أبي طالب الذي كان يمنعه من الناس . فالأشخاص الذين تجرّؤا على مقام رسول الله ، ظهروا في هذه الفترة ، وكان أشدها وأقساها موقف أهل الطائف [2] .

2- وصف " التولّي " في قوله تعالى : ﴿ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ ﴾ العلق . يعني أن موقف التكذيب أصبح موقفاً نهائياً ، وقد استحق صاحبه العذاب . كما يقول صاحب المفردات : ((وقولهم : تَوَلَّى ، إذا عُدّي بنفسه اقتضى معنى الوَلَايَةِ ، وحصوله في أقرب المواضع منه . يقال : وَلَّيْتُ سمعي كذا ، ووَلَّيْتُ عيني كذا، ووَلَّيْتُ وجهي كذا : أقبلت به عليه . وإذا عدّي بـ عـن لفظاً أو تقديراً اقتضى معنى الإعراض وترك قربه .. والتَّوَلِّي قد يكون بالجسم ، وقد يكون بترك الإصغاء والائتمار)) .

نقول : فـــ " التولّي عن " هو درجة تأتي بعد " الإعراض عن " ، ففيه معنى الانفصال والبعد ، وتحول الذات عن مكانها .. ويؤيّد ذلك ، ظاهر استعمال : **تَوَلَّى عن** ، أو **تولَّوا عن** ، في أغلب ورودها في الآيات القرآنية، فإنها ترد بمعنى : انصرف الشخص – على الحال التي هو عليها (حسب السياق) – ولم يرجع . يعني أن موقفَ ذلك الشخص وتَصرَّفه كان نهائياً [3] .

---

1 - لا يُقال هنا : لماذا جُعلت سورة العلق في " الطور الرابع " بينما هي أول ما نُـزّل من القرآن الكريم ؟ . لا يُقال ذلك ، لأن الخمس آيات الأولى منها فقط هي كذلك ، أما باقي السورة فقد نَـزل متأخراً ، هذا أولاً. وثانياً ،لأن هذا الترتيب الذي نحن بصدده - كما بيّنا سابقاً - ترتيب منهاجيّ ، وهونتيجةً للنظر إلى السورة من القرآن كوحدة منهاجية واحدة .. ونتيجة لربط تلك السورة بمنهاج السير بالرسالة من أجل تحقيق الغاية منها ، لبيان دورها فيه . فهو ترتيب للسور من منظور سننيّ منهاجيّ ، وليس من منظور تاريخي حسب " تاريخ النزول ". وهذا ينطبق على جميع سور القرآن في هذا " التبيان لسور القرآن " . وبهذا ، نشاهد الفرق الواضح كفلق الصبح ، بين النظر إلى السورة من زاوية "منهاجيّة " وبين النظر إليها من أي زاوية أخرى ، بما فيها التاريخية .

2 - أنظر (الطور الرابع) في أول هذا الجزء ، و (صحيح السيرة ، صحيح أسباب النزول) - ابراهيم العلي . وقد وردت في سور أخرى نماذج وشخصيات أخرى شبيهة وقريبة في عداوتهم للحق وأهله ، سواء من قريش أم من الأمم السابقة ، مثل أبي لهب وأبي جهل .. وفرعون .. كما في سور : (المسد ، القلم ، المدّثر ، القيامة ، البلد ، الهُمزة ، لقمان ، والآيات الأخيرة من سورة يس ..) وغيرها . ونشير هنا إلى أن تأريخ نزول الآية أو السورة تبرز أهميته في كونه من القرائن المفيدة في ربط السورة المعينة مع الطور الذي تتعلّق به من خط السير بالرسالة. حيث ذكرنا سابقاً أن الأصل في النظر إلى السورة في هذا " التبيان " لسور القرآن ، هو "النظرة المنهاجية" ، أي اعتبار أن السورة كلها وحدة منهاجية واحدة ، وتشكّل جزءاً من المنهاج الكامل لتحقيق الغاية من القرآن.

3 - كما في قوله تعالى : (هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن **تَتَوَلَّوْا** يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ {38}محمّد . (إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ **وَتَوَلَّى** {48}) طه. (كَلَّا إِنَّهَا لَظَى{15} نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى{16} تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ **وَتَوَلَّى**{17}..) المعارج . (سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا **وَلاَّهُمْ عَن** قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا .. {142}) البقرة . (.. وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ **تَوَلَّواْ** وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ {92}) التوبة . (فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ <=

3- مواجهة الملأ والآلهة (طاغوت المجتمع) والتحدي السافر لهم بهذا الشكل ، يحصل في وقت متأخر في المرحلة الأولى من خط السير ، وقد صعّد المشركون من موقفهم في رفض رسالة الله تعالى .. كما أُمر رسول الله في سورة الأعراف :

﴿ .. إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ .. ﴾ **الأعراف**

وكما هي سنة الله تعالى في رسل الله السابقين ، مثل موقف هود عليه السلام في سورة هود :

﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ فَإِن **تَوَلَّوۡاْ** فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾ ﴾ **هود**

وموقف نوح في سورة يونس ، عليهما السلام :

﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن **تَوَلَّيۡتُمۡ** فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ **يونس**

والسور الثلاث السابقة من السور المتأخرة في خط السير ، كما سنبيّنه لاحقاً عند " تبيانها " .

4- الإنذار والتخويف بعذاب الله في الدنيا ، وبتحدّي سافر: ﴿ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ **سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ** ﴿١٨﴾ ﴾ العلق ، أظهر ما يكون في آخر المرحلة الأولى .. في " الطور الرابع " .

وَّإِن **تَوَلَّوْاْ** فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ..{137}) البقرة . (وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ **وَلَّى** مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ {31}) القصص . (إِنَّ الَّذِينَ **تَوَلَّوْاْ** مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ {155}) آل عمران. أنظر باقي الآيات في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن .

مناط السورة [1] :

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ ﴾ العلق ، ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ ﴾ العلق ، بروز أفراد أو مجموعة أشخاص في المجتمع (من الملأ) يرفضون العبودية لله عزّ وجلّ ويطغون على أمره – كموقف نهائي لهم – بل ويطلبون الطاعة لأنفسهم ، ويأخذون على عاتقهم معاداة من يعبد الله تبارك وتعالى ويدعو إليه ، ويجاهرون بذلك [2] .

المعالجة :

السورة في عمومها خطاب مباشر لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : (ٱقْرَأْ) (رَبِّكَ) (ٱقْرَأْ) (وَرَبُّكَ) (رَبِّكَ) (أَرَءَيْتَ) (أَرَءَيْتَ) (أَرَءَيْتَ) (لَا تُطِعْهُ ، وَٱسْجُدْ ، وَٱقْتَرِب) ..

وهذا ينبئ عن كمال العناية برسول الله ، والرأفة والرحمة والرعاية بشأنه .. وفيه تسلية له صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن تبعه ، وتعجيب من حال هذا الإنسان الطاغي الشقي ..

وعندما يتكلم الله – سبحانه – عن ذلك الذي طغى ، يتكلّم بصيغة الغائب تحقيراً له ..

وقد سارت السورة في معالجة مناطها كالتالي :

1- (الآيات1-5) ، تقرير حقيقة أن الله هو الربّ الحقّ ؛ أي : المالك لِما خلق والمربّي لهم الذي يغذوهم، والسيد المتصرف بهم كيف يشاء . لأنه وحده الخالق لكل موجود . وأنه الأكرم [3] وقد خصّ الإنسان

1 - مناط السورة : هو حالة أو موقف مما يواجهه المؤمنون - جماعة أو أمّة - أثناء السير لتحقيق الغاية من الرسالة، وقد جاءت السورة كوحدة واحدة لمعالجته ؛ وهذا هو " مقصد السورة " . فيُعتبر ما يواجهه المؤمنون على طول خط السير، من البداية حتى تحقيق الغاية ، من مواقف وأحوال هو " المناط " الذي جاءت سور القرآن الكريم - بمجموعها - لمعالجته. أنظر (التمهيد) في بداية هذا الجزء .

2 - (عن ابن عباس : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه . فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: " لئن فعله لأخذته الملائكة ") . صحيح البخاري برقم (4958) . (عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي عند المقام فمر به أبو جهل بن هشام فقال : يا محمد ، ألم أنهك عن هذا ؟ وتوعده . فأغلظ له رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتهره ، فقال : يا محمد ، بأي شيء تهددني ؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادي ناديا ! فأنزل الله تعالى :{ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (17) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (18) } العلق . قال ابن عباس : لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته) سنن الترمذي برقم (3349) وقال: حسن صحيح . تفسير الطبري (164/30) وهذا لفظه. (عن ابن عباس قال: قال أبو جهل: لئن رأيت رسول الله يصلي عند الكعبة لآتينّه حتى أطأ على عنقه . قال: فقال : " لو فعل لأخذته الملائكة عياناً، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً ") . مسند الإمام أحمد (248/1) . أنظر تفسير ابن كثير .

نقول : وهذا التأييد من الله تبارك وتعالى لرسوله - عليه وآله الصلاة والسلام - ليس بوصفه نبياً يوحَى إليه فقط ، بل وبوصفه مؤمناً حاملاً لرسالة الله ، مع الانتباه إلى خصوصية مقام النبوة وعموم مقام الإيمان . فللمؤمنين السائرين على " منهاج النبوة " نصيب منه ، الأمثل فالأمثل :{إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (51)} غافر . { ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (103)} يونس . { إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38)} الحج .

3 - (الكَرَمُ إذا وُصف الله تعالى به فهو اسم لإحسانه الكبير وإنعامه المتظاهر ، نحو قوله : (فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) [النمل/40]. وإذا وصف به الإنسان فهو اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه ، ولا يقال : هو كريم حتى يظهر ذلك منه.. والكرم لا يقال إلا في المحاسن الكبيرة ، كمن ينفق مالا في تجهيز جيش في سبيل الله .. وقوله تعالى : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) [الحجرات/13] فإنما كان كذلك لأنّ الْكَرَمَ الأفعال المحمودة ، وأكرمها وأشرفها ما يُقصد به وجه الله تعالى، فمن قصد ذلك بمحاسن فعله فهو التّقيّ ، فإذاً أكرم الناس أتقاهم . وكلّ شيء شريف في بابه فإنه يوصف بالكرم . <=

بما فضّله وكرّمه به من حُسن وتقويم الخَلْق ، والقدرة على التعلّم .. وأن محمّداً رسول الله وقد علّمه القرآن ، وأمره بأن يقرأ القرآن ، ويقرأه على أنه من الله وباسم الله ربّه وربّ كل شيء :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ..﴿١﴾ ﴾ العلق [1].

ومن هنا ، فإن مسؤولية الإنسان بعد أن تبلغه آيات الله جلّ ثناؤه ، هي تحقيق العبودية لربّه الذي خلقه من علق ثم كرّمه وعلّمه ما لم يكن يعلم .. بالشكر له وحده وبالطاعة والخضوع لأمره وحده . فهو وحده الرّبّ الحق المستحق للعبادة [2] ، أي وحده الذي تجب طاعته فيما أعطى وقدّم ، ووحده المستحق للحمد والشكر على ما تكرّم .

2- (الآيات 6-8) ، إلا أن بعض عباد الله لا يشكر ولا يُطيع ، بل يكفر ويطغى!! .. ولكن لماذا كفران الربّ الخالق الأكرم ؟!! .. قد بيّن الله تعالى لنا السبب بأن بعض الناس ، كالحالة التي يواجهها رسول الله من الملأ في قومه ، إذا رأى نفسه ذا غنى في المال والجاه والعشيرة .. ظن – لغروره وبطره – أنه لا حاجة له لما يدعوه إليه رسول الله من الحق .. فيتجاوز حدوده كعبدٍ مملوك مربوب لله ؛ سيّده و ربّه وخالقه الأكرم ، فيتجرّأ ويعلن الطغيان على أمره !! .. بل يصل به الحد أن يطلب الطاعة لنفسه من دون الله ! .. فيأمر وينهى بما يُخالف أمر الله !!. فشعوره بالقوة والاستغناء سيطر على نفسه ، فطغى .. ناسياً أصل خلْقه المهين!.. وناسياً فضل ربه الأكرم الذي جعله في أحسن تقويم .. ألا فليعلم كل طاغية متمردٍ على أمر الربّ الخالق الأكرم .. أنّ إليه الرُجعى ، وإليه المصير والمُنتهى .

3- (الآيات 9-18) ، وعلى أساس ما سبق ، تُكشف حقيقة ذلك الطاغية ، أمام أتباعه والناس جميعاً ، وتُعرّى دوافعه في محاربته الحق وأهله ، بإنّها ليست البحث عن الحقّ أو الوصول إليه ، وإنّما هي الطُغيان والتكذيب من أجل مصلحته الخاصّة . فتكرار لفظ (أَرَأَيْتَ) ثلاث مرات .. فيه تعجيب من حال هذا الإنسان الطاغية الذي يُصرّ على كفره ، ويؤثر الغيّ على الرّشد .. ثم ، وبشكل علني وسافر ، يُهدّد ذلك الطاغية الذي يمنع الناس عن عبادة الله واتباع رسوله [3] بسوء المصير في الدنيا قبل الآخرة، فالله يسمعه ويراه ، ويقدر عليه ، فهو الذي خلقه من علق .. فسيعاقبه العقاب الذي يتناسب مع تكبّره عن الشكر والطاعة لربّه الذي خلقه وأكرمه وعلّمه .. وذلك ، عقاباً عاجلاً في الدنيا إذا بقي مصرّاً

قال تعالى : (فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) [لقمان/10] ، (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ) [الواقعة/77] . والإِكْرَامُ والتَّكْرِيمُ : أن يصل إلى الإنسان إكرام ، أي : نفع لا يلحقه فيه غضاضة ، أو أن يجعل ما يوصل إليه شيئا كَريماً ، أي : شريفا ، قال: (بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ) [الأنبياء/26] أي : جعلهم كراماً ، قال : (كِراماً كاتِبِينَ) [الانفطار/11] ، وقوله : (ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ) [الرحمن/27] منطوٍ على المعنيين) . (المفردات) - الراغب . باختصار .

1 - كما في قوله تعالى : (إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30)) النمل . أي إن الكتاب من الملك سليمان، وأنه يكاتبهم باسْم الله ويَصْدُر في دعوتهم عن أوامر الله . وكان مجمل (فحوى) الكتاب : (أَلاَّ تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (31)) النمل . أي مسلمين لله ، متبعين لرسوله .

2 - فالمعاني الظاهرة في كلمة الربّ في لغة العرب هي المُربي والمالك والراعي والسيّد المطاع ، ويقابلها كلمة العبد أي المملوك المربوب . أنظر (المعجم الإشتقاقي) - حسن حسن جبل . كما في قوله تعالى في سورة الفاتحة : (الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{2} .. إلى .. **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ{5}) .

3 - الصلاة مثالاً ، باعتبارها كانت المظهر البارز للدخول في دين الله وأداء العبادة له والكفر بالطاغوت وترك عبادته ، في المجتمع الجاهلي آنذاك .

على طغيانه وتحدّيه السافر لله جلّ وعلا .. ثم في الآخرة – عذاباً دائماً مقيماً – بإذلاله إذلالاً شديداً، بأخذه بشدة من ناصيته وبسحبه إلى النار .. تلك الناصية المكذّبة بالحق ، والمتعمّدة لارتكاب المنكر ، والمتكبّرة على ربها ومولاها ولا تريد السجود له .. فالجزاء من جنس العمل .

بالنسبة للجماعة المسلمة :

إضــافة لما ســبق من تذكيرهم بأن الله عزّ وجلّ هو وحده الرب الحق الذي تجب الطاعة لأمره .. وأنه يســمع ويرى ما يحدث لهم .. والتأكيد على أنّ الله عزّ وجلّ هو الذي يتولّى أمر أعدائه وأعدائهم .. فليصـدعوا بالحق ويجهروا به ، ولا يخشوا إلا الله .. وفي الآية (19) ، أمرهم الله تعالى – ممثلين برسول الله – بعدم طاعة الطاغوت الذي يطلب الطاعة لنفســه من دون الله ، الربّ الحق .. فيأمر بمعصــية الله وينهى عن طاعة الله . وأن عليهم كشف حقيقته أمام كل الناس ؛ بأنه عبد مملوك لله ، وناصيته بيد الله جلّ وعلا .. وكذلك تحديه تحدياً ســافراً بإظهارهم الرفض لأوامره وقوانينه وتشــريعاته .. وإظهار الطاعة لأمر الله وحده .. والمداومة على طاعة الله تعالى مســتعينين به متوكّلين عليه ، ومتقربين إليه عزّ وجلّ بكثرة الصلاة [1] .

***

1 - ذَكَر السجود وأراد الصلاة . بقرينة : (أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى{9} عَبْداً إِذَا صَلَّى{10}) العلق . وأيضاً لأنه الفعل من الصلاة الذي يتجلّى فيه معنى الخضوع والإستسلام لله الرّب الخالق الأكرم جلّ ثناؤه ، ويبرز فيه معني القرب منه جلّ وعلا .. فـ " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء " كما قال صلّى الله عليه وآله وسلّم . "صحيح مسلم" 1/ 350 ، ح : 215 كتاب الصلاة .

2- (سورة القلم)

ربط السورة بخط السير :

تأتي السورة في " الطور الرابع " من السير بالرسالة ، وقد استحقت قريش العذاب في الدنيا ونزل قول الله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ الشعراء .. وفي بداية الاتصال بالقبائل والتهيئة للهجرة . يعني في أجواء التهيئة للفصل بين الفريقين (انتظار الفصل) ، وذلك :

1- وصـــف الملأ المكذّبين بأنهم " مجرمين " : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ القلم [1] ، وأنهم اسـتحقوا " العذاب الأكبر" في الدنيا ، وقد عاينوا " العذاب الأدنى" – السـنين والدخان – لكنّ الله تعالى يُمْلي لهم ويستدرجهم ، أي يُمهلم ويؤخّرهم حتى يحين موعد عذابهم :

﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ القلم

أي ، " فدعنى – يا محمّد – ومن يكذِّب بهذا القرآن سـندنيهم من العذاب درجة درجة ، من الجهة التى لا يعلمون أن العذاب يأتى منها، وأُمهلهم بتأخير العذاب إلى وقت معلوم . إن تدبيرى قوي مُحْكم لا يفلت منه أحد" [2] . فهُم الآن – وقد فتح الله عليهم الدنيا وزادهم غنى – في حالة " الاســتدراج " و " الإملاء " حتى يأتيهم العذاب من الله جلّ جلاله . والكلام هنا عن " العذاب الأكبر" (البطشـــة الكبرى) الذي ليس بعده إلا عذاب يوم القيامة . كما ضرب الله تعالى مثلاً لسنته بـــ " أصحاب الجنة " ، حيث كفروا بأنعم الله ولم يحفظوها بالشكر ، فغيّر الله تعالى ما بهم من نعمة :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ ... كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ القلم [3]

---

1 - يأتي في السياق القرآني ، إطلاق وصف " المجرمين " على مَنْ استحق العذاب في الدنيا أو الآخرة ، وذلك بسبب إصرارهم على الكفر وعلى محاربة الله ورسوله وقد أقيمت عليهم الحجة الرسالية . ويكون هذا متأخراً قبيل إنزال " العذاب الأكبر" في الدنيا . كما في قوله تعالى :{وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (22)} السجدة . وانتقام الله عزّ وجلّ في الدنيا يكون بانزال " العذاب الأكبر " : { ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (14) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (15) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ } الدخان . {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (47)} الروم .{ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (110)} يوسف .{لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (66)} التوبة.. الخ . أنظر باقي الآيات في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .

2 - كما في قوله تعالى في سورة مريم : (فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً {84 }) . أنظر "الطور الرابع" .

3 - وقد ذكّر الله تعالى قريشاً وملأها وأتباعهم بسنته تلك اكثر من مرة ، كما في سورة النحل في قوله تعالى : (وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ {112}) . وذكّرهم بها - كذلك - بعد أن نزلت بهم البطشة الكبرى في غزوة بدر ، وبيّن لهم أن الذي أصابهم هو من سنة الله الدائمة في الذين كفروا ، في قوله تعالى من سورة الأنفال : (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ{52} ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{53} كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَونَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَالِمِينَ{54}) .

2- جاء في الآيتين (2 ، 52)، ذكر اتهام الملأ من كفار قريش لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بأنه مجنون . وهذا يأتي في وقت متأخر من " المرحلة الأولى " من السير بالرسالة .. وقبيل انزال العذاب بالكافرين .. كما في السور الأخرى التي ورد فيها وصف الكفار لرسول الله إليهم بأنه مجنون ، وهي من السور المتعلقة في وقت متأخر من المرحلة الأولى في السير بالرسالة .. فأجواؤها متقاربة [1] :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ ﴾ الأعراف

﴿ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ الذاريات

﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ ﴾ القمر

فاتهام رسل الله بالجنون من قِبَل أقوامهم – حسب سنن الله تعالى – من طبائع القوم الطاغين المصرّين على الكفر بالحق ، برغم بيان الآيات ، وقد استحقوا العذاب (أنظر كلمة يطغى في سورة العلق) :

﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ الذاريات

﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ الطور

مناط السورة :

﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ ﴾ القلم . وموقفهم التكذيب برسالة الله وما جاء فيها من الحق ، يطرح الملأ من قريش على حَمَلة الرسالة ؛ رسول الله والجماعة المسلمة معه ، خيار المداهنة أي المداراة والملاينة في " فكرة الرسالة " وقضية الصراع – عبادة الله عزّ وجلّ وحده واتّباع رسوله – مقابل أن يوقف الكفار حالة العداء (الصراع) معهم . " فهم يريدون منه التساهل في أمر الدين وعدم أخذه بالجد والصلابة التي رأوها منه " مقابل أن يلينوا لهم .. فهو نوع من " الحل الوسط " [2] .

1 - والسور هي : الأعراف(184) ، الحجر(6) ، المؤمنون(25 ، 70) ، الشعراء(27) ، الصافات(36) ، الدخان(14) ، سبأ(8 ،46) ، الذاريات(39 ، 52) ، الطور(29) ، القمر(9) ، التكوير(22) . هذا ، مع الإشارة إلى أن السور السابقة - مع سورة القلم - جميعها قد ورد فيها وصف المشركين بالمجرمين ، ما عدا سورتي الطور والتكوير .

2 - ويبدو لنا أن الصلابة في موقف رسول الله وعدم قبول التفاوض معهم ، هو ما أوحى إلى الملأ المتكبرين الطاغين بوصفه بالمجنون . وقوله : (وَدُّوا) من الوُدْ بمعنى المحبة. وقوله : (تُدْهِنُ) من الإدهان وهي المسايرة والمصانعة والملاينة للغير . وأصله أن يُجعَل على الشيء دهناً لكي يلين أو لكي يَحْسُن شكله ، ثم استعير للملاينة والمساهلة مع الغير . أنظر (مفردات - الراغب) . و (معجم المقاييس - ابن فارس) .

المعالجة :

- السورة في عمومها خطاب مباشر لرسول الله ، وهذا ينبئ عن كمال العناية برسول الله .. وفيه تثبت له صلى الله عليه وآله وسلم – والذين آمنوا معه – وتسلية عمّا يلاقيه من معاناة بسبب إصرار المشركين المستمر على التكذيب . وعندما يتكلم الله – سبحانه – عن المكذّبين ، يتكلّم بصيغة الغائب تحقيراً لهم .. إلا عند الإنكار عليهم فخطابه لهم كان مباشراً ، زيادة في تبكيتهم (35–39) .
- والسورة تتكلم عن كفار قريش بوصفهم مكذّبين . بمعنى أن التكذيب برسالة الله وما جاء فيها من الحق موقف نهائيّ لهم ، فهو مصدر تصرفاتهم ومنبع أفعالهم .

هذا ، والخط العام في سير السورة في معالجة مناطها كالتالي :

✓ التأكيد على نبوة محمّد وإثبات كمالاته في الدنيا والآخرة ، واهتدائه وضلال معانديه ، " وذلك بالقَسَم بما هو من مظاهر حكمة الله تعالى في تعليم الإنسان الكتابة ، فتضَمّن تشريف حروف الهجاء والكتابة والعلم ، لتهيئة الأمة لخلع دثار الأمية عنهم وإقبالهم على الكتابة والعلم ، لتكون الكتابة والعلم سبباً لحفظ القرآن " .

✓ ثم أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه بعدم طاعة الملأ من قريش في طلبهم المداهنة (الحل الوسط) بين الكفر والإيمان ، فالملأ أصحاب مصالح ، غايتهم الحفاظ على ماعندهم من مال وجاه ، وزيادته . وأمّا المؤمنون فهم أصحاب حق وحَمَلَة رسالة .. فكيف يلتقيان ؟! .

✓ " ثم أنحى على زعماء المشركين المكذّبين بمذمات كثيرة ، وتوعدهم بعذاب الآخرة وببلايا في الدنيا بأن ضرب لهم مثلا بمن غرَّهم عِزُّهم وثراؤُهم ، فأزال الله ذلك عنهم وأباد نعمتهم (أصحاب الجنة) . وأنّ آلهتهم لا يُغنون عنهم شيئا من العذاب في الدنيا ولا في الآخرة " . ووعظهم بأنّ ما هم فيه من النّعمة ، استدراج وإملاء . وأنّهم لا معذرة لهم فيما قابلوا به دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من كفر وتكذيب . وقابل ذلك بحال المؤمنين المتقين وأن الله – جل ثناؤه – اجتباهم بالإسلام ، وأنه في ميزان الله لا يمكن أن يستوي الفريقان : المسلمون المنقادون لله المتّبعون لرسوله ، والمجرمون ؛ المكذّبون الآبقون .. لا في حياتهم ولا في مصيرهم ومآلهم (أصحاب الجنة) .

✓ وأمر الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالصبر على تبليغ الدعوة وتلقي أذى قومه ، وأن لا يضجر من ذلك ضجراً عاتب الله عليه نبيّه يونس عليه السلام .

وبشيء من التفصيل في بيان المعالجات ، نقول :

أولاً : بالنسبة للذين كفروا ، بوصفهم " المكذبين " :

1- (1–7) ، القَسَم ، لتقرير وتأكيد أنّ الله عزّ وجلّ هو الإله الحقّ وأنّ محمّداً – الذي يعرفونه وصاحب

الخُلُق العظيم – قد أنعم الله تعالى علية بالنبوّة والرسالة .. والإنسان العاقل اللبيب هو منْ يُصدّق بهذه الحقيقة لأنّها الحقّ المبين : (1–4) (52) ، وأن الذين يُكذّبون هذه الحقيقة هم المفتونون الضالّون ، وعن قريب سيُبصرون جزاءهم في الدنيا ، ومن بعده في الآخرة (5–7) .

2- (8–16) ، كشف واقع المكذّبين القبيح ، وسوء علانيتهم وسريرتهم كذلك ، وكشف حقيقة موقفهم .. وخاصة من تولّى كِبر أمر التكذيب منهم (10–15) [1] .. في مطالبتهم بالمداهنة وإثارة الشبهات – مثل تساوي المسلم والفاجر في الجزاء عند الله [2] ، واستحقاقهم الطّاعة والاتباع من دون الله تعالى ورسوله – بأنه بدافع التكذيب برسالة الله تعالى وما جاء فيها من الحق البيّن ، وأنّهم يُضلّلون الناس لتبقى الطّاعة والقياد لهم .. (لاحظ سورة العلق) .

بيان أن ما يدّعيه الطاغوت من مقوّمات ومؤهّلات اســـتحقاقه الطّاعة والاتباع من دون الله – فيما يزعم – ومنها المال والنســـب العريق وكثرة الاتباع والأنصـــار : ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ القلم ، والتي هي من أســـباب بطر الكافرين وطغيانهم .. إنّما هي من الله عزّ وجلّ ؛ خالقهم ومالكهم وهو الذي منحهم إياها ، ويقبضها منهم متى يشاء وكيف يشاء (أصحاب الجنّة ، مثلاً) .. وبالتالي عدم استحقاقهم للطّاعة ، إنما الطاعة للربّ الحق ، الخالق والمالك أصالة ، والذي رزقهم إياها :

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ النحل

فكيف يغترّ هؤلاء بما آتاهم الله ؟!! وما أوتوه إلا اســـتدراجاً وإملاءاً .. حتى يحين اليوم الموعود لعذابهم وزوال نعمتهم وعزهم .. يوم " الفرقان " ، يوم " البطشـة الكبرى ". كما بيّن الله تعالى ذلك في الآيات التي تلت .

3- (17–34) ، النذارة والوعيد لهم بعذاب الله القريب في الدنيا ومن بعده في الآخرة ، إن أصـرّوا على تكذيبهم وكفرهم ، من خلال بيان سنة الله تعالى فيمن هو مثلهم (قصة أصحاب الجنة) . فحقيقة ما فتح الله تعالى عليهم من نعم الدنيا ، ما هو إلا اختبار وامتحان ليشـــكروا أو يكفروا ، مثل ما حصـــل مع أصـــحاب الجنة : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ... ﴿١٧﴾ ﴾ القلم ، فلما كفروا بالله عزّ

1 - " فهو فضلا عمّا اتسم به من الصفات القبيحة تلك ، تراه إذا تُتلى عليه آيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته.. وعلى صدق رسول الله محمد فيما يبلّغه عن ربه، قال هذا العتلّ الزنيم : هذه الآيات أكاذيب الأولين وخرافاتهم . ثم توعّده الله تعالى بأشد أنواع الوعيد ، فقال تعالى : (سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ) . أى: سنبين أمره ونوضحه توضيحا يجعل الناس يعرفونه معرفة تامة لا خفاء معها ولا لبس ولا غموض، كما لا تخفى العلامة الكائنة على الخرطوم، الذي يراد به هنا الأنف. أو سنلحق به عارا لا يفارقه، بل يلازمه مدى الحياة، وكان العرب إذا أرادوا أن يسبوا رجلا سبة قبيحة.. قالوا: قد وُسِم فلان ميسم سوء.. أى: التصق به عار لا يفارقه، كالسمة التي هي العلامة التي لا يمحى أثرها. وذِكْر الوسم والخرطوم فيه ما فيه من الذم، لأن فيه جمعاً بين التشويه الذي يترتب على الوسم السّيّئ، وبين الإهانة، لأن كون الوسم في الوجه بل في أعلى جزء من الوجه وهو الأنف.. دليل على الإذلال والتحقير . وهو ما يناسب تكبّره عن الحق " .

2 - وقد ورد ذكر هذه الشبهة في عدة سور : { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ }[الجاثية\21] . { أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ }[ص \28] . { أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ }[السجدة\18] .

وجلّ عذّبهم بزوال نعمتهم وعِـزّهم [1] . فليعتبروا ، وليسلموا لله جلّ وعلا وليتّقوه ، قبل أن يصيبهم ما أصـاب أولئك [2] من العذاب في الدنيا ، أما عذاب الآخرة – ألا فليعلموا – أنه أشـد وأبقى وأعظم .

وفي المقابل بيّن الله عزّ وجلّ ما وعد به المسـلمين له والذين اتقوه في كل أحوالهم .. من جنّات اختصهم بها ، لهم فيها النعيم الخالص الدائم ، والتشريف والتكريم (عِنْدَ رَبِّهِمْ) .. في الآخرة .

4- (35-43) ، الإنكار عليهم ، والحملة عليهم بمطالبتهم بالحجج والبيّنات القاطعة – بدلالة الحس أو بدليل من الخبر الصادق – وإظهارها أمام الناس .. على صحة ما يزعمون ، وهم المجرمون ، من أن لهم منزلة تكريم عند الله مثل المسـلمين ، بعلامة ما فتح عليهم من نعم الدنيا .. فقد بيّن الله تعالى لهم في ما سبق ، أن حقيقة تلك النّعم هي الاختبار والامتحان ، ليشكروا أو يكفروا . والتأكيد على أنّ الملأ ومنْ اتّبعهم لا يملكون حُجّة تُنجيهم من عذاب الله عزّ وجلّ – لا في الدنيا ولا في الآخرة – وقد أصرّوا على التكذيب والكفر [3] .

ثانياً : بالنسبة للجماعة المسلمة :

تثبيت الجماعة المسـلمة على الحق ، والتخفيف من وطأة موقف التكذيب والصـدّ والمناوأة من المجتمع ومَلَئه والاستمرار على رفضهم لرسالة الله .. على نفوسهم ، وذلك – إضافة لما سبق :

✓ (44-47) ، إرجاع الأمر كله لله عزّ وجلّ ، فالقضية ليست قضية شخصية بين الطّاغوت (الملأ) وحَمَلة الرسالة ، بل هي عداوة بين المكذّبين – الملأ وأتباعهم – و الله عزّ وجلّ :

﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ القلم

أي : اترك – أيها الرسـول الكريم– أمر هؤلاء الذين يكذبون بهذا القرآن ، وخلِ بيني وبينهم .. أما وهم يصـرّون على التكذيب والكفر ، وقد فتَحتُ عليهم أبواب الدنيا وسـقتُ لهم النعم .. فليعلموا أنّي أُقرّبهم بذلك – الإنعام عليهم رغم كفرهم – درجة درجة إلى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم ، وليس كما يزعمون أن ذلك إيثار لهم ، وتفضـيل على المؤمنين ، بل هو الطريق إلى هلاكهم .. فسـآخذهم أخذ

1 - قال القرطبي: في هذه الآية دليل على أن العزم مما يؤاخذ به الإنسان ، لأنهم عزموا على أن يفعلوا، فعوقبوا قبل فعلهم. ومثله قوله تعالى : (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ). وفي الحديث الصحيح: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار. قيل : يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال : إنه كان حريصا على قتل صاحبه» .

2 - ((إِنَّ الْغُرُورَ بِسَعَةِ الرِّزْقِ المؤدي إِلَى الِاسْتِخْفَافِ بِدَعْوَةِ الْحَقِّ البينة الواضحة ، قَدْ أَوْقَعَ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ أَصْحَابَهُ فِي بَطَرِ النِّعْمَةِ وَإِهْمَالِ الشُّكْرِ ، فَجَرَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ شَرَّ الْعَوَاقِبِ ، فَضَرَبَ اللَّهُ لِلْمُشْرِكِينَ مَثَلًا بِحَالِ أَصْحَابِ هَذِهِ الْجَنَّةِ لَعَلَّهُمْ يَسْتَفِيقُونَ مِنْ غَفْلَتِهِمْ وَغُرُورِهِمْ . كَمَا ضَرَبَ الْمَثَلَ بِقَرِيبٍ مِنْهُ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ ، وَضَرَبَ مَثَلًا بِقَارُونَ فِي سُورَةِ الْقَصَصِ)) . (محاسن التأويل ـ القاسمي) . بتصرف يسير .

3 - قال الآلوسي : وقد نبّه - سبحانه- في هذه الآيات ، على نفي جميع ما يمكن أن يتعلقوا به في تحقيق دعواهم ، حيث نبّه - سبحانه- على نفي الدليل العقلي بقوله : (ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ). وعلى نفى الدليل النقلى بقوله : (أَمْ لَكُمْ كِتابٌ..) . وعلى نفى أن يكون الله وعدهم بذلك بقوله : (أَمْ لَكُمْ أَيْمانٌ..) . وعلى نفى التقليد الذي هو أوهن من حبال القمر بقوله : (أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ ..) . نقول : تحداهم في ما إذا كانت آلهتم التي يشركونها في العبادة مع الله تعالى (شركاؤهم) ، تقدر أن تضمن لهم ما يزعمون من مساواتهم للمسلمين وأنهم سينجون من عذاب الله .. فليأتوا بهم !! .

عزيز مقتدر ، بغتة وعمّا قريب – وهذه سُـنّة دائمة لله جلّ وعلا (أصـحاب الجنة) – واعلموا أن تدبيري للأمور شـديد قوى ، لا يفلت منه أحد ، ولا يحصـل إلا ما أريد .. فلا يمكن أن يفلتوا من العذاب إن بقوا مصرّين على التكذيب بالحق [1].

وبعد هذا الإنذار والتنبيه ، ألا فليبادروا إلى الإيمان بالله واتباعك .. فماذا ينتظرون ؟! نزول العذاب بهم !! .. أم ماذا يمنعهم ؟!

أأنت تطلب منهم أجراً على دعوتك لهم حتى اسـتثقلوا الطلب وتهرّبوا من الدعوة تفاديا من المَغرم والخسارة ؟!

أم هم مطّلعون على غيب الله أم بيدهم أمر المستقبل ؟! فيقررون لأنفسهم ما يشاؤون حتى يبدو منهم هذا الاطمئنان إلى العاقبة .

- ✓ (48-50)، نهي المؤمنين – ممثلين برسـول الله – وتنفيرهم من أن يرضـخوا ، تحت تأثير ضـغط الواقع (المجتمع ومَلَئه) ، للموافقة على مطالبة المكذّبين بالمداهنة في قضـية الصـراع ؛ إخلاص الدين لله تعالى [2] .. وكذلك مطالبتهم بالصـبر والثبات على موقفهم البيّن والواضـح مع الإيمان بالحق ضـد الكفر ، وعدم الاسـتعجال كما حصـل مع يونس عليه السـلام ، فكاد أن يهلك لولا أن تداركه الله برحمته وتاب عليه : ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾ ﴾ المزمل ..

أي ، وما دام الأمر كما ذكرنا لك [3]، فَاصْـبِرْ أيها الرسـول الكريم لحكم ربك : الشـرعي ، بتكليفك بحمل الرسـالة والدعوة .. والقدري ، لقضـائه فيك وفيهم ؛ من إمهالهم وتأخير ظهورك عليهم .. أي لا يثنينّك أذاهم وتكذيبهم عن تبليغ ما أمرت به ، بل امض صـابراً عليه وسـتكون العاقبة لك ولأتباعك . ولا يوجد منك ما وُجد من يونس عليه السـلام من الضـجر والونى عن التبليغ ، فتُبتلى ببلائه ، أي لا يكن منك ما يُلجئك إلى مثل ندائه . وأنه لولا توبته وضراعته إلى الله وإنعام الله عليه نعمة بعد نعمة ، لقذفه الحوت من بطنه في الفضـاء من الأرض والله غاضـب عليه . فتوبته حالت

---

1 - كما في قوله تعالى : { فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (45)} الأنعام . وفي الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن الله تعالى ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ [هود:101/ 102] } . أنظر " الطور الرابع " . { ..إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (45)}. الكيد في الاصطلاح القرآني هو : القيام بأعمال وإعداد ترتيبات تُلجيء بها غيرك للخضوع لمرادك . لذلك وُصف " الكيد " في القرآن - في إطار تحقيق المراد - بأنه : متين ، أو ضعيف ، أو عظيم ، أو أنه في تضليل أو في ضلال ، أي لم يحقق المراد . أنظر (تبيان سورة الفيل) . فلا نجاة لهم من عذاب الله إلا باختيارهم سبيل النجاة ، وهي التصديق بالحق واتباع رسول الله .

2 - قال صاحب الكشاف : (قوله : (فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾) تهييج وإلهاب للتصميم على معاصاتهم ، وكانوا قد أرادوه على أن يعبد الله مدة ، وآلهتهم مدة ، ويكفوا عنه غوائلهم).

3 - ((من إبطال مزاعم المشركين ومطاعنهم في القرآن والرسول صلى الله عليه وسلم ، وما تبعه من تكفل الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بعاقبة النصر، وذلك أن شدتها على نفس النبي صلى الله عليه وسلم، من شأنها أن تُدخل عليه يأسا من حصول رغبته ونجاح سعيه، ففرع عليه تثبيته وحثه على المصابرة واستمراره على الهدي)) . التحرير والتنوير - ابن عاشور .

دون أن يكون مذموماً ، بل اســـتنزلتْ عليه نعماً كثيرة ، إذ أنقذه الله من تلك الورطات كلها إنقاذاً خارقاً للعادة ..

- ✓ الوعي على محاولات الملأ لحرفهم عن هدفهم وقضـــيتهم (إكمال الدين لله) ، عن طريق الحلول الوســط (المداهنة) ، أو تحويل اهتمام عامة الناس عن الرســالة وما فيها من الحق إلى شــخص حامل الرسالة : ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ﴿٥١﴾ ﴾ القلم

أى: وإن يكاد الذين كفروا ليصرعونك بأبصارهم– أيها الرسول الكريم – من شدة نظرهم إليك شزرا، بعيون ملؤها العداوة والبغضاء حين سمعوا القرآن الكريم.. (وَيَقُولُونَ) على سبيل البغض لك (إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ) أى : إنّك لمن الأشخاص الذين ذهبت عقولهم.. ((ويَقُولُونَ ذَلِكَ اعْتِلَالًا لِأَنْفُسِهِمْ إِذْ لَمْ يَجِدُوا فِي **الذِّكْرِ** الَّذِي يَسْمَعُونَهُ مَدْخَلًا لِلطَّعْنِ فِيهِ فَانْصَرَفُوا إِلَى الطَّعْنِ فِي صَاحِبِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِأَنَّهُ مَجْنُونٌ لِيَنْتَقِلُوا مِنْ ذَلِكَ إِلَى أَنَّ الْكَلَامَ الْجَارِيَ عَلَى لِسَانِهِ لَا يُوثَقُ بِهِ لِيَصْرِفُوا دَهْمَاءَهُمْ عَنْ سَمَاعِهِ، فَلِذَلِكَ أَبْطَلَ اللَّهُ قَوْلَهُمْ : إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ بِقَوْلِهِ : (وَما هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ) ، أَيْ مَا الْقُرْآنُ إِلَّا ذِكْرٌ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ وَلَيْسَ بِكَلَامِ الْمَجَانِينِ .. وما أنت إلا مذكّر)) [1] .

- ✓ تزكية الجماعة المســـلمة بتعريفهم وتذكيرهم بآثار إلهية الله الإله الحقّ عزّ وجلّ ، وبالقيام بأعمال الطّاعة والعُبوديّة مثل الصـــبر والاســـتقامة على أمره عزّ وجلّ .. وتوعيتهم على الواقع من خلال " النظرة الإيمانية " ، أي النظر إلى الواقع والأحداث وفهمها من خلال الإيمان بأن الله هو وحده الإله الحق صاحب الأمر الفاعل والمؤثّر في الوجود : خلقاً وتقديراً واستمراراً ومصيراً ، فما شاء الله كان وما لم يشــأ لم يكن .. والعلم بســنن الله تعالى الدائمة التي بحســبها يُحدث الله تعالى ما شــاء وقوعه .

***

1 - التحرير والتنوير - ابن عاشور .

3- (سورة المزمّل)

ربط السورة بخط السير :

تأتي السورة في أواخر " الطور الرابع " ، وذلك :

1- لأنه لم تصح أي رواية في سبب نزول هذه السورة أو تأريخ نزولها [1] . فلم يثبت أن السورة من أوائل ما نُزّل من القرآن .

2-﴿ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ﴿١١﴾ ﴾ المزمل ، في هذه الآية الكريمة اكثر من إشارة :

- ﴿ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ﴾، ذكر لقرب الفصل بين الفريقين ، وأنهم في حال "الإمهال" وقد دنى وقوع "العذاب الأكبر" على الكافرين من قريش ، والذي كان في غزوة بدر ، مما يعني أنها متعلقة بطور متأخر ، أي قُبيل الهجرة إلى المدينة . ويؤكّد ذلك أن الله تعالى ضرب مثلاً لموقف قريش في تكذيب رسول الله بموقف فرعون ، فقد استحقوا العذاب مثله : ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ﴿١٦﴾ ﴾ المزمل .

- ومن ثم ، فإن قوله تعالى: ﴿ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ ﴾ ، وصــف الكفار بالمكذبين وانهم منعّمين ، فيه إشــارة إلى ما فتح الله على قريش من أبواب نعم الدنيا " اســتدراجاً " و " إملاءاً " ، وهو " الإمهال " قبيل وقوع " العذاب الأكبر" بهم .

- وما سبق ، يشابه ماجاء في سورة (ن والقلم) من قبل : ﴿ فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ القلم ، من حيث وصف الكفار ، وتهديدهم بعذاب الدنيا، والطور الذي هم فيه .. مما يشير إلى تقارب أجواء السورتين .

3- ونلاحظ أن ما كُلّف به خاتم الرسل محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم ، في حال قرب الفصل بين الفريقين ، من الانقطاع إلى الله تعالى والقيام للصلاة أغلب وقت الليل .. شبيه بما كُلّف به رسول الله موسى عليه السلام في نفس هذه الحال ، كما بينه تعالى في سورة يونس الآيات (83-90) ، أي قُبيل إنزال العذاب بفرعون وجنوده وقد استجاب الله لدعاء موسى وهارون ، عليهما السلام :

﴿ ... وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ... ﴾ يونس [2].

---

1 - أنظر (صحيح أسباب النزول) و (صحيح السيرة - فترة الوحي) إبراهيم العلي .(الصحيح المسند) الوادعي .
2 - لاحظ (التمهيد - الطور الرابع) في أول هذا البحث .

4- والروايات الثابتة عن عائشة أم المؤمنين وابن عباس .. تؤكّد أن الزمن الفاصل بين نزول أول السورة (الآيات:1- 19) ، ونزول آخرها (الآية:20) ، كان سنة أو سنة ونصف : ((.. **فقالت [أي عائشة] : ألستَ تقرأُ : يا أيها المزمّل ؟ قلتُ : بلى . قالت : فإنَّ اللهَ عزّ وجلّ افترض قيامَ الليلِ في أولِ هذه السورةِ. فقام نبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأصحابُه حَولًا . وأمسك اللهُ خاتمتَها اثني عشرَ شهرًا في السماءِ حتى أنزل اللهُ ، في آخر هذه السورةِ ، التَّخفيفَ . فصار قيامُ الليلِ تطوُّعًا بعد فريضةٍ ..**)) [1]

5- وبناء على ما سبق ، فإن " القول الثقيل " الذي سيتلقاه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم والمسلمون معه ، إنما هو وصف لمرحلة جديدة من تلقي آيات الرسالة والسير بها ، سينتقلون إليها ويدخلون فيها ، وستكون تالية لفترة التبتّل والانقطاع والتفرّغ لذكر الله تعالى وقيام الليل ، في " الطور الرابع " ، والتي استمرت لمدة سنة أو تزيد .

والمرحلة التالية هي مرحلة الهجرة إلى المدينة المنورة والتمكين للمؤمنين في الأرض وتلقيهم تكاليف العبودية فيها كأمّة ودولة .. وأهم تلك التكاليف : الهجرة ، ثم نصرة الدين بالجهاد في سبيل الله بالمال والأنفس .. فكان لا بد من الاستعداد للدخول في هذا الأمر العظيم والثقيل على الأنفس [2].

فأنزل الله تعالى تلك الأحكام التي في أول السورة ، والتزمها المسلمون لمدة سنة أو تزيد ، وعندما أصبح المسلمون جاهزين للانتقال إلى مرحلة التالية ؛ مرحلة الأمّة ، وبعد هذه المدة من التبتّل لله ، نزل التخفيف من تلك الأحكام في آخر السورة ، بقصد توفير الوقت والجهد .. في إطار التهيئة للدخول في ذلك الأمر العظيم الذي فيه نصرة لدين الله وإعلاء لكلمته عزّ وجلّ ، من الهجرة وترك الأموال والعشيرة ومكان الإقامة .. والجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس ، وإقامة حدود الله تعالى ..

6- وعليه ، فليس من الصحيح القول : أن " القول الثقيل " هنا ، وصف لعموم تلقي آيات الرسالة – ثقل الوحي – وذلك ، إضافة لما سبق :

- لأن الوحي لم يكن ثقيلاً على رسول الله دائماً ، بل كان في بعض حالاته فقط وليست كلها ، كما في رواية البخاري عن عائشة أم المؤمنين : ((أن الحارثَ بنَ هشامٍ سأل النبيَّ صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحيُ ؟ قال : (**كلُّ ذاك ، يأتي المَلَكُ أحيانًا في مثلِ صلْصَلَةِ الجرسِ ، فيَفْصِمُ عني وقد وعيتُ ما قال، وهو أشدُّه عليَّ . ويتمثلُ لي المَلَكُ أحيانًا رجلاً ، فيكلِّمُني فأعي ما يقولُ**))) [3] .
- ولأن تلقي الآيات وثقل الوحي ، كان حاصلاً قبل نزول آيات المزمّل ، فهي ليست أول الآيات نزولاً. وكذلك فإن الأحكام قد خُفّفت برغم أن تلقي الآيات – أي ثقل الوحي – بقي مستمراً فعلاً بعد نزول آية

1 - صحيح مسلم - الصفحة أو الرقم 746. الطبري ، وابن كثير ، (الصحيح المسند) الوادعي .
2 - لاحظ كثرة الآيات في السور المدنية - وكذلك الأحاديث النبوية - التي تتناول الحث على الجهاد في سبيل الله بالقتال وإنفاق الأموال ، وبيان منزلة الشهيد ، وتعالج تأخّر بعض المسلمين ، وحتى تقاعس بعضهم ، عن ذلك الأمر الثقيل على الأنفس : { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216) } البقرة .
3 - صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم 3215 .

التخفيف ، فهي ليست آخر ما نزّل من آيات القرآن .. مما يدل على أن وصف " القول الثقيل " ليس وصفاً لعموم تلقي الوحي ، بل هو وصف مرتبط بتلقي قسم معين من الآيات ، وبمرحلة معينة من السير بالرسالة .

7- وليس صحيحاً – أيضاً – القول : أن آيات المزمّل الأولى نزلت قبل نزول آيات سورة المدثر الأولى ، التي جاء فيها تكليف الرسول بالإنذار وتبليغ الرسالة ، من باب إعداده لتلقي القول الثقيل ، أي تلقي الوحي والقيام بأعباء الرسالة ، وذلك ، وبالإضافة لجميع ما سبق :

- لأنه لم تثبت رواية تُشير إلى ذلك أو تدل عليه . بل لم يثبت أن سورة المزمّل من أوائل ما نُزّل من القرآن ، كما ذكرنا ، إنما الثابت في الصحيح رواية جابر بن عبد الله التي تنص على أن أول ما نزل بعد آيات " إقرأ " وبعد " فترة الوحي " هي آيات سورة المدثر الأولى . حيث يقول جابر :

((سمعتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهوَ يحدِّثُ عن فترةِ الوحيِ ، فقالَ في حديثِهِ : (**فبَيْنَا أنَا أمشِي، إذْ سمِعْتُ صوتًا من السماءِ ، فرفَعْتُ رأسِي ، فإذا المَلَكُ الذي جاءَنِي بحِراءَ ، جالسٌ على كرسيٍّ بينَ السماءِ والأرضِ ، فَجَئِثْتُ منهُ رعبًا ، فرجعْتُ فقُلْتُ : زمِّلونِي زَمِّلونِي ، فَدَثَّرونِي ، فأَنْزَلَ اللهُ تعالى : { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ .. إلى .. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ }**) . **قبلَ أنْ تُفْرَضَ الصلاةُ ، وهيَ الأَوْثَانُ**)) [1] .

- ولا ينسجم ذلك مع الروايات الثابتة من أن الفترة بين نزول أول المزمّل وآخر آية فيها (آية التخفيف) هو سنة أو سنة ونصف ، من جهة أن الفترة الزمنية الفاصلة بين نزول آيات سورة إقرأ وآيات سورة المدثر – فترة الوحي – أقل من ذلك بكثير ، بل على الراجح أنها لا تتجاوز أياماً معدودات [2] .

- وأيضاً ، قوله تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ **وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ** .. ﴿٢٠﴾ ﴾ المزمّل .. والرواية الصحيحة السابقة عن عائشة أم المؤمنين : (.. فقام نبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأصحابُه حَولًا ..) .. فكلاهما تنصّان على أن هنالك مؤمنون كانوا يقومون الليل مع رسول الله ، وهذا لم يكن إلا بعد أن كُلّف رسول الله بالإنذار وتبليغ الرسالة ، أي بعد نزول سورة المدثر ، على أقل تقدير ، وليس قبل ذلك [3] .

- ويُفهم كذلك – من الآية والرواية السابقتين – أن التكليف بقيام الليل لم يكن خاصاً باعداد رسول الله وحده ، بل هو في سياق إعداد " الجماعة المؤمنة " أيضاً ، للانتقال إلى الحالة الجديدة ؛ " تلقي القول الثقيل " . ويؤيد ذلك أيضاً ، أن مبررات تخفيف التكليف الوارد في الآية الأخيرة (20) هي مبررات

1- صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم 4925 . أنظر (الصحيح المسند) الوادعي .

2 - أنظر الرحيق المختوم - المباركفوري .

3 - بل إن جعْل قيام الليل ، من 4 - 6 ساعات ، في المعدّل كل ليلة ، فرْض على رسول الله والمؤمنين معه ، قرينة قوية على أن التكليف به كان بعد مرور زمن كافي من السير في تبليغ الرسالة (قم فأنذر) ، يسمح بنزول " قدر كافي " من آيات القرآن . وإلا كيف يفرض الله تعالى قيام هذا الوقت الطويل من الليل ولم يكن بعد نازلاً من القرآن على قلب رسوله إلا الآيات الخمس الأولى من سورة العلق ! . وخاصة أنه مأمور بالترتيل أي بالقراءة على مكث وتمهّل . وأنه عبّر عن الصلاة بالقراءة : (فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ) ، (فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ) ، إشارة إلى أن الحكمة من الصلاة هو قراءة ما نزل من القرآن بتفكّر وتدبّر .

تتعلق بواقع أمّة وحركة مجتمع ، باعتبار ما سيكون .. أي في المدينة المنورة ؛ من القتال في سبيل الله تعالى ، وممارسة التجارة وهم آمنون : ﴿ ..عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴿٢٠﴾ ﴾ المزمل ..

فمن الواضح أن تلك المبررات لا يمكن أن تتأتّى في مكة المكرّمة ، وبعد مرور سنة واحدة على تبليغ الرسالة (رواية عائشة) ، في أجواءٍ كان المؤمنون فيها أفراداً مستضعفين خائفين مستخفين .

- وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ ﴾ المزمل . أي أن هنالك فراغاً طويلاً في النهار للنوم والراحة فاجعل ناشئة الليل للصلاة والتبتّل إلى الله جلّ وعلا ، وذلك في سياق بيان حيثيات ومبررات الأمر بالقيام لمعظم الليل ، حثاً على الالتزام به . وهذا الفراغ الطويل في النهار يتناسب مع طبيعة " الطور الرابع " ، فهو طور " الانتظار" و " الإمهال " و " الهجر الجميل " .. أي عدم الاحتكاك المباشر مع المجتمع في مكة ، مما يعني توفر متسع من الوقت في النهار .. وقد مَنعت قريشٌ رسولَ الله أن يبلّغ كلام ربه ، وصدّوه عن المسجد الحرام .. وهم جرءآء عليه ..

وفي النتيجة ، فإن " القول الثقيل " وصف لآيات الله المتعلّقة بمرحلة معينة من السير بالرسالة وتطبيقها وحملها ، وهي التي ستكون فيها تكاليف العبودية على مستوى الأمّة ، أي بعد التمكين لـ " الجماعة المؤمنة " في المدينة المنورة وتحوّلهم إلى " أمة " .
ومن ثَمّ فما جاء في السورة من معالجات فهو متعلق بـ " الطور الرابع " من السير بالرسالة .

هذا ، والله تعالى أعلم وأحكم .

مناط السورة :

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ ﴾ المزمل
حالة الجمود التام للمجتمع ومَلَئه في موقفه من رسالة الله تعالى وحمَلَتها ، حيث أن التكذيب والرفض لرسالة الله جلّ ثناؤه وما جاء فيها من الحق ، أصبحا موقفاً نهائياً لهم .. وفريق المؤمنين في انتظار الفصل بينهم وبين الذين كفروا .. (الإمهال) .

المعالجة :

1- (1-8) ، الأمر لرسول الله – وللمؤمنين – بالتقرب إلى الله تعالى بالطاعات والقُرُبات ، بشكل مكثف لدرجة الانقطاع والتفرّغ : ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ ﴾ المزمل [1] ،

1 - ((تبتّلَ إلى الله تعالى : أي انقطع وأخلص نفسه له تعبداً ، فلا ينزِعه عنه ما كان (وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا)، و الصيغة تعبّر عن الإجتهاد اللازم لتحقيق هذا)) . المعجم الإشتقاقي المؤصّل - د محمّد حسن حسن جبل . { وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا } ((أي : انقطِع في العبادة وإخلاص النية انقطاعاً يختص به)) أي بالله . المفردات - الراغب .

وأهمها قيام الليل من الثلث إلى الثلثين .. فلهم في النهار متســـع من الوقت للنوم والراحة وقضـــاء الحوائج الضرورية :﴿ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ﴾ المزمل . يعني ((فراغا طويلا)) [1] . أي ، فاجعل أغلب الليل للصـلاة .. وكل ذلك من باب الاسـتعداد والتهيؤ لتلقي " القول الثقيل " ، والذي هو وصـف للمرحلة القادمة من تلقي الرسالة والسير بها ، وهي التكليف بالعبودية على مستوى الأمّة والدولة ، أي القيام بأعباء الرسالة ، تطبيقاً ودعوة وجهاداً وإنفاقاً.. كأمّة مسلمة لله تعالى ..

2- (9-14) ، وعلى أســاس حقيقة أن الله وحده الإله الحق صـــاحب الأمر في الوجود ؛ إيجاداً وتقديراً واســـتمراراً .. جاء الأمر باتخاذ الله وحده وكيلاً ، أي فوّض أمرك إليه وحده ، واعتمد عليه في تحقيق ما وعدك به . والأمر بالصـبر على ما يقول الكافرون المنعّمون من تكذيبهم ، وإطلاقهم أوصـافاً على رســول الله – صــلّى الله عليه وآله وسـلّم – كانت تؤذيه ؛ كقولهم : مجنون وســاحر .. وعدم التأثّر بموقفهم ، والإعراض عنهم وتركهم دون الردّ عليهم أو إثارة مواقف معهم (الهجر الجميل).. فالله جلّ وعزّ سيتولّى أمرهم عمّا قريب في الدنيا ، ولهم عذاب أليم يوم القيامة يناسب بطَرهم وتكبّرهم .

3- (11-19) ، إنذار المكذبين – قريشٍ ومَلَئها – وتهديدهم بمصـــيرهم عند الله جلّ وعلا في الدنيا والآخرة وبالعذاب الأليم الذي ينتظرهم إن أصـــروا على موقفهم [2] . وبيان ســنة الله تعالى الثابتة في إنزال العذاب على المكذبين العاصين لرسله سبحانه وتعالى (فرعون الطاغية مثالاً) وأنهم دخلوا فيها، وهم الآن في حالة " الإمهال " قبيل إنزال العذاب بهم ، أي " البطشــة الكبرى" التي قدّرها الله في غزوة بدر . وحثهم على عبادة الله تعالى وحده والكفر بما دونه من الطاغوت ، وأن الطريق إلى الله عزّ وجلّ مفتوحة لمن شاء العودة إليه ، فباب التوبة مفتوح .. فإذا نزل بهم العذاب فلا توبة حينئذ .

4- (20) ، نزول الأمر بالتخفيف من التكاليف السابقة ، وبيان حكمة الله تعالى من التخفيف وحيثياته :

﴿ ..عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ...٢٠ ﴾ المزمل .. وقد يكون هذا قبيل الهجرة إلى المدينة المنورة استعداداً لها .

فالله تعالى عندما كلّفهم بما سبق ، لم يكن يريد أن يُثقل عليهم أو يُعجزهم ، كما في قوله تعالى :

﴿ طه ١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ٣ ﴾ طه ، بل ليتهيّأوا للانتقال لمرحلة جديدة ؛ تلقي " القول الثقيل " ، أي حمل أمانة الرسالة والتكاليف الشرعية على مستوى الأمّة والدولة، تطبيقاً ودعوة وجهاداً.. وهذا سيلقي على عاتقهم مسؤوليات بدنية ومالية كبيرة .. وسيحتاجون – حينئذ

---

1 - عن ابن عباس ، حسّنه الألباني في صحيح أبي داود - الصفحة أو الرقم 1304 .

2 - { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (11) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (12) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (13)} المزمل . لاحظ كيف يكون العذاب .. تنكيلاً أي ألماً وذلة وقهر.. وغصّة في حلوقهم وهو الغِسلين والضَّريع والزَّقّوم . مقابل ما كانوا يتنعّمون به في الدنيا من الطعام الليّن والفاخر .. والرفاهية والراحة .. لأنهم لم يؤدّوا شكرها بتكبّرهم على أمر الله ربهم وخالقهم .. وإيذائهم لرسوله وبتكذيبهم بالحق .. فالجزاء من جنس العمل .

– إلى وقت وجهد في النهار ، مما يعني أنهم لن يكون لهم ﴿ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ﴾ المزمل ، فلن يكون هنالك متسع من الوقت للنوم وقضاء الحوائج الضرورية ، فيلزمهم – حينئذٍ – أن يأخذوا قسطاً أكبر من الراحة والنوم في الليل . ومن هنا جاء الأمر بتخفيف قيام الليل ، كماً وكيفاً ، فنُزّل حكمه من الواجب إلى المندوب ، وبمقدار ما يتيسّر : ﴿ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ ﴾ المزمل .. استعداداً للدخول في ذلك الأمر الثقيل .

وكذلك الحث على الاستمرار في الطاعات والقرُبات – الواجبة والنافلة – فما عند الله تبارك وتعالى هو خير وأعظم أجراً ، وطلب المغفرة من الله تعالى والتوبة إليه فهو غفور لهم رحيم بهم .

***

4- (سورة المدثّر)

ربط السورة بخط السير :

تأتي السورة في " الطور الثالث " وما بعده ، بعد اشتداد المواجهة الفكرية وإعراض المشركين إعراضاً كبيراً عن سماع آيات الله ، وذلك :

1- الجو العام للسورة جو إصرار على التكذيب بالرسالة ﴿ ..إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ﴿١٦﴾ ﴾ المدثر . ((فالعنيد هو الذي يردّ الحق مع العلم به)) [1] .. والفرار من سماع التذكرة فرار المرعوب الخائف من قاتله : ﴿ فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ﴿٥٠﴾ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ ﴿٥١﴾ ﴾ المدثر .. والمكابرة وطلب الآيات المادية : ﴿ بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ ﴿٥٢﴾ ﴾ المدثر .

2- بروز قيادات من الملأ في مواجهة الرسالة .. المواجهة الفكرية ، والاجتهاد في البحث عن طرق للتلبيس على الحق لصرف الناس عنه : ﴿ ...فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ﴿٢٤﴾ ﴾ المدثر .

3- التركيز على العذاب في الآخرة .. دون ذكر الجزاء في الدنيا : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ ﴾ المدثر ، ﴿ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ ﴾ المدثر ، ﴿ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ ﴾ المدثر .

4- وصف الكفار بـ " المجرمين " ، وأنهم استحقوا العذاب في نار " سقر" ، وبيان طبائعهم بصفات محددة . ويكون هذا في طور متأخّر من السير :

---

1 - المعجم الإشتقاقي المؤصّل - محمّد حسن حسن جبل . وفي مفردات الراغب : ((عند : لفظ موضوع للقرب ، فتارة يستعمل في المكان ، وتارة في الاعتقاد ، نحو أن يقال : عِنْدِي كذا ، وتارة في الزّلفى والمنزلة ... والعَنِيدُ : المعجب بما عنده ، والمُعَانِدُ : المباهي بما عنده. قال : {كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ} [ق / 24] ، {إِنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنِيداً} [المدثر / 16]))

- ✓ ﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ المدثر .
- ✓ ﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ المدثر .
- ✓ ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ المدثر .
- ✓ ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ ﴾ المدثر .
- ✓ ﴿ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ ﴾ المدثر . أي ، بقوا مصرين على ذلك حتى ماتوا [1] . ففيه تحذير لهم بأن يتوبوا قبل أن يفجأهم الموت .

<u>مناط السورة :</u>

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ ﴾ المدثر ، ﴿ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ ﴾ المدثر ، ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ المدثر .

حالة الإعراض الشديد من المجتمع ومَلَله عن عبادة الله تعالى والرفض لدعوته ، برغم البيان الواضح والإنذار الشديد . وبروز فئة من المجتمع (من الملأ) تثير الشبهات حول الرسالة وتضع العراقيل أمام اتّباع الناس للرسول ، لإبقاء الطاعة للملأ من دون الله تعالى في المجتمع ..
كالقول بأن القرآن سحر من قول البشر .. والاستهزاء بعذاب الله في الآخرة في نار " سقر " .

<u>المعالجة :</u>

1- (1-10)، تكليف الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم بالعبودية لله عزّ وجلّ ، بحُزمة من التكاليف تأتي في سياق بداية التكليف بحمل الرسالة إلى الناس ، وإنذارهم بعذاب الله تعالى في الآخرة إن لم يطيعوا الله ويتبعوا رسوله [2] .

---

1 - هذا ضرب من التحديد أو التعريف لصفة " المجرمين " ، من حيث خصائصهم وطبائعم ، فمن وصفه القرآن بهذه الصفة " مجرم " يكون قد توفرت فيه تلك الخصائص . وقد ترد خصائص أخرى في سور أخرى .

2 - ما الحكمة بأن يكون بداية التكليف ببلاغ الرسالة بالأمر بالإنذار (أنذر) وليس بفعل آخر مثل : بشّر ، بلّغ ، ادعُ.. ؟. وذلك :
- الإنذار : هو البلاغ مع التخويف . فكان محتوى خطاب الإنذار : لا إله إلا الله ، فاعبدوه ، وبيان المصير النار أو الجنة . فالجزاء بناء على موقف المُخَاطَب من الهدى الذي جاءه من عند الله في رسالته التي أنزلها على رسوله : (قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا <u>يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى</u> فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (39)) البقرة . وإنذار الكافر يقتضي بشارة المؤمن . فحاصل الإنذار : بلاغ ونذارة وبشارة. فهو ليس دعوة (طلب) لعبادة الله فقط ، بل فيه أيضاً تحميل السامع المسؤولية عمّا سمع من الحق .
- من سنة الله تعالى أنه إذا استحقت قرية عذاب الله عزّ وجلّ ، أرسل لهم رسولاً لينذرهم عذابه ، لأن الله تعالى يحب أن يُعذر : (رُسُلًا <u>مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ</u> لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (165)) النساء ، فإذا جاءهم رسول الله أنذرهم بعذاب الله إن لم يؤمنوا ، ثم يحكم الله تعالى بين الكافرين والمؤمنين بالعدل : { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (47)} يونس . أنظر (مفاهيم ومصطلحات رسالية) - نذارة وبشارة .

2- (11–30)، التهديد المباشر بأنواع من عذاب الله تعالى في الآخرة .. في نار " سقر " ، للمجرم الذي يعاند آيات الله ويتكبّر على العبودية له تبارك وتعالى ، كموقف نهائي له ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ٢٣﴾ المدثر وقد بلغه الحق بيّناً واضحاً .. بل شاهد وشهد أن ما جاء به رسول الله هو الحق من عند الله .

3- (31–37)، الرد على المجرمين الذين يكذّبون بعذاب الله في نار " سقر " ويستهزئون به ، بأن ما ورد ذكره من أوصاف " سقر " وعدد زبانيتها .. إنما هو اختبار ليزداد المؤمنون إيماناً ويزداد الكافرون كفراً، مع التأكيد – بالقسم ببعض آيات الله الكونية – على أن تلك النار (سقر) التي يتهكم بها وبخزنتها الكافرون لهي إحدى الأمور العظام ، والدواهي الكبار ، التي قَلّ أن يوجد لها نظير أو مثيل في عِظَمها وفي شدة عذاب من يصطلى بنارها ، وهذا نذير لهم ، فليعتبروا وينتهوا .. خيراً لهم [1] .

4- (38–48)، وبعد أن يستقر المؤمنون بالله المصدّقون لما جاء به رسوله .. في جنات ربهم آمنين منعّمين ، في الغرفات ، بينما المجرمون قد استقروا في دركات " سقر " خائفين يذوقون أصناف العذاب الأليم .. جزاءً لأعمالهم السيئة مرتهنين بها . يبيّن الله تعالى – من خلال سؤال المؤمنين للمجرمين ، زيادة في التوبيخ والتخجيل – تلك الأعمال التي كانت السبب في دخولهم نار " سقر " .. ويؤكّد لهم أن مَنْ كان متصفاً بهذه الصفات ، فإنه لا تنفعه يوم لقاء الله تعالى شفاعة شافع فيه ؛ لأن الشفاعة إنما تنجع إذا كان المحل قابلاً ، فأما من يوافي الله – عزّ وجلّ – يوم القيامة مجرماً فإنهم ماكثون خالدون في " سقر " ، التي كانوا بعذابها يستهزئون .. ويخوضون بالباطل مع الخائضين بلا بيّنة (المسؤولية الفردية) [2].

5- (49–51)، (الاستفهام للتعجيب) أي ، عجباً لأولئك المجرمين – وخاصة الملأ منهم – من إصرارهم على الكفر بعد هذا البيان الساطع ، ومن نفورهم من العظة بالقرآن الذي يتلوه عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .. برغم علمهم بأنه من عند الله . " وشبههم سبحانه ، في نفورهم عن القرآن وشرادهم عن استماع الذكر والموعظة ، بحُمر جدت في نفارها مما أفزعها . وفي تشبيههم بالحُمر: مذمة ظاهرة ، وتهجين لحالهم بيّن " .. فهو موقف غير نابع من عقل وتفكير وتدبّر ..

6- (52–56)، ثم بيّن الله تعالى وكشف حقيقة دوافعهم : (كَلّا) ليس العلة في إعراض المجرمين عن تذكرة القرآن عدم إنزال صحف لهم من السماء .. بَلْ العلة أنهم (لا يَخافُونَ الْآخِرَةَ) . فتكذيبهم بالآخرة وسخريتهم من عذابها هو سبب امتناعهم عن الهدى وسبب هلاكهم .. ثم أعاد الردع والزجر عن طلب الآيات المادية ، مؤكداً أن القرآن (الآيات المتلوّة) تذكرة وعظة كافية لمن أراد أن يتقي الله ربه وينجو

---

1 - ((وقوله تعالى : { لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ(37)} المدثر، قال الحسن هو وعيد نحو قوله تعالى : { فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ} [الكهف: 29] ، وقوله تعالى : { وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ } [الحجر: 24] ... ثم قوي هذا المعنى بقوله : { كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38)} المدثر ، إذ ألزم بهذا القول أن المقصّر مُرتَهن بسوء عمله)) . (المحرر الوجيز - ابن عطية) .

2 - {وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45)}المدثر . أَيْ : نَتَكَلَّمُ فِيمَا لَا نَعْلَمُ . وَقَالَ قَتَادَةُ : كُلَّمَا غَوِيَ غَاوٍ غَوَيْنَا مَعَهُ . أنظر (تفسير ابن كثير) .

من عذابه . ثم أكد جازماً أن الله تعالى أهل لأن يُتّقى ويُحذر عقابه ، وهو أهل للمغفرة .. فسارعوا إلى إصلاح أعمالكم والتوبة لربكم .. قبل أن تموتوا وتشاهدوا بأم أعينكم أن ما أنذركم به رسول الله هو الحق اليقين [1]، وقد كنتم به تكذّبون .. ولكنّكم ضيّعتم الفرصة : ﴿ .. وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ ﴾ ص .

<u>بالنسبة للفئة المؤمنة</u> : إضافة لما سبق :

1- حث الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم والفئة المؤمنة على الصبر – مرضاة لله – على موقف المعاندين لآيات الله في القرآن الدالة على الحق ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ ﴾ المدثر .

2- طمأنة الفئة المؤمنة – بوصفهم أصحاب اليمين- بأن مصيرهم عند الله عزّ وجلّ هو الجنة (39-40) .

3- تثبيت ومواساة الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم والفئة المؤمنة بعدم التأثّر من موقف الملأ فقضيتهم مع الله عزّ وجلّ وهو سيتولّى أمرهم : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ ... ﴾ المدثر .

***

1 - قال ابن عطية في (المحرر الوجيز) : ((وقال المفسرون : الْيَقِينُ الموت ، وذلك عندي هنا مُتعقَّب لأن نفس الموت يقين عند الكافر وهو حي ، فإنما الْيَقِينُ الذي عنوا في هذه الآية ، الشيء الذي كانوا يكذبون به وهم أحياء في الدنيا فتيقنوه بعد الموت. وإنما يتفسر اليقين بالموت في قوله تعالى : {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [الحجر: 99])) .

5- (سورة الفاتحة)

ربط السورة بخط السير :

تأتي السورة في " الطور الأول " وما بعده ، وذلك :

1- أن السورة هي " أم الكتاب " أي أصله ، فالرسالة مجملة ومكثّفة فيها .. ولهذا كانت " فاتحة الكتاب".

وجَعْلُها في الصلاة تُقرأ وتُكرّر في كل ركعة : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ الحجر ، دليل على العناية الشديدة من المشرّع الحكيم بتركيز ما تحتويه من الحقائق ، في نفوس المسلمين – أمّة وأفراداً – والتذكير الدائم لهم بها ، تعليماً وتزكيةً للأفراد وللأمّة . وهذا هو دورها في " المنهاج " وقد أصبحت قراءتها في كل ركعة من فرائض الصلاة . ويؤيد ذلك :

الرواية الثابتة عن أبي هريرة أنه قال : ((.. **فإنّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ** : **قالَ اللهُ تعالى** : **قسمتُ الصَّلاةَ بيني وبينَ عبدي نصفينِ ، ولعبدي ما سألَ** ؛

فإذا قالَ العبدُ : { **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** } ، **قالَ اللهُ تعالى** : **حمدني عبدي** .

وإذا قالَ : { **الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** } . **قالَ اللهُ تعالى** : **أثنى عليَّ عبدي** .

وإذا قالَ { **مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** } . **قالَ** : **مجّدني عبدي (وقالَ مرَّةً: فوَّضَ إليَّ عبدي)** .

فإذا قالَ : { **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** } . **قالَ** : **هذا بيني وبينَ عبدي ولعبدي ما سألَ** .

فإذا قالَ : { **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ** } . **قالَ: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل**)) [1] .

والرواية الثابتة عن عن أبى سعيد بن المعلى أنه قال : كنت أصلى في المسجد ، فدعاني النبي صلّى الله عليه وسلّم فلم أجبه فقلت : يا رسول الله ، إنى كنت أصلّى . فقال : « **ألم يقل الله : (اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ)** ». ثم قال لي : ((**لأعلمنّك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد**)). ثم أخذ بيدي ، فلما أراد أن يخرج ، قلت : يا رسول الله . ألم تقل : لأعلمنّك سورة هي أعظم سورة في القرآن . قال : « **(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ) ، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته** » [2] .

2- وجعْل الحقائق الإيمانية الواردة في السورة – فكرة الرسالة والإنذار – في شكل دعاء ، وقد علّمنا الله تعالى إيّاه لندعوه به ، لبيان أن الأمر كلّه من الله تبارك وتعالى ومن فضله وإنعامه ، وبحَوْله وقوته.. فهو الرب الحق ، رب العالمين ، وما نحن إلا من خلقه وعبيده ..

3- وبصيغ الجمع (نعبد ، نستعين ، الذين..) لبيان أن تلك العبودية "عبودية مجتمعيّة " وعبودية أمّة ، وليست "عبودية فردية " فقط .

---

1 - صحيح مسلم - الصفحة أو الرقم 395

2 - صحيح البخاري . كتاب التفسير . باب ما جاء في فاتحة الكتاب ج 6 ص 21 .

4- وعليه ، فإن قضية المسلمين ومهمتهم – أمّة وأفراداً – في هذه الحياة هي دائماً تحقيق العبودية لله وحده ، بالقيام على أمره ونهيه تطبيقاً وحملاً لدعوة الله ورسالته للناس كافة ، كما في قوله تعالى :

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦ ﴾ البقرة

5- ونتيجة لما سبق ، فالخلاف بين العلماء في تأريخ نزولها – مكية أو مدنية – لا تأثير له على دورها في " المنهاج " .. فيبقى الأمر في الإطار التاريخي فحسب ، وليس له دلالة شرعية على المنهاج .
بل قد يكون " الفهم المنهاجي " للسورة رافعاً للخلاف وفيه الحل للإشكال ..
و دورها في المنهاج أنها تُقرأ في كل صلاة ، فقراءتها من فرائض الصلاة .

مناط السورة :

﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥ ﴾ الفاتحة . بيان حقيقة المسلمين – أمّة وجماعة وأفراداً – أنهم يشهدون أن الله هو ربّ العالمين .. وأنه هو وحده إلههم ومعبودهم .. ومن ثم فمهمتهم في الأرض هي أن يحققوا العبودية الكاملة الشاملة لله عزّ وجلّ وحده (إكمال الدين لله) ، وذلك ؛ بتطبيق ما جاء في رسالة الله على واقعهم وفي حياتهم ، وحملها للعالمين هدى ورحمة .

البيان :

السورة قسمان :

الأول : (1-5) ، تقرير حقيقة أن الله تعالى هو وحده الإله الحق ، أي وحده المستحق للخضوع والاستسلام لأمره (العبادة) :

1 – فله وحده الحمد .. أي أن جميع أجناس الحمد والشكر والثناء ثابتة لله وحده .. مقصورة في الحقيقة على الله ، لأن كل ما يستحق الثناء فهو صادر عنه ومرجعه إليه ، إذ هو الخالق لكل شيء :
﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣ ﴾ النحل

2 – وهو رب العالمين .. الربّ وهو المنشيء بدءاً والمربي ، والمُنعِمُ ، والمالك .. ويبرز فيه معاني الإصلاح والرعاية والإنماء . ولا يقال الرّبّ مطلقا إلا لله تعالى المتكفّل بمصلحة الموجودات ، نحو قوله : ﴿ ..بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥ ﴾ سبأ . وعلى هذا قوله تعالى :

﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ آل عمران .
أي : آلهة ، وتزعمون أنهم الباري مسبّب الأسباب ، والمتولّي لمصالح العباد .

وبالإضافة يقال له ولغيره ، نحو قوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾ الفاتحة [1].

3 – وهو الرحمن الرحيم .. " الرَّحْمَنُ " يعني ذا الرحمة الممتلئ بها الملازمة له . فهو دائم الرحمة ، العامّ برحمته الذي وسع كلّ شيء رَحْمَةً ، فيعم برحمته المؤمن والكافر ، أي وليّه وعدوه . ولا يطلق إلّا على الله من حيث إنّ معناه لا يصحّ إلّا له جلّ وعلا . لذلك قام هذا الاسم مقام لفظ الجلالة " الله " في مثل قوله تعالى :﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ..﴿١١٠﴾ ﴾ الإسراء

وهناك 57 موضعاً يصلح فيهن اسم " الرحمن " أن يقوم مقام اسم الذات العلية .

و " الرَّحِيمُ " هو الذي كثرت رحمته .. وقد يطلق على غير الله جلّ وعلا .. وورد 115 مرة يُلحظ فيهن جميعاً تطلُّب الموضع لوقوع الرحمة ، ومسبوقاً بما يناسبها كالغفور والرؤوف والتّواب والبرّ . وفي بضع مواضع سُبق بالعزيز ، وبالتأمل تراها للجمع بين صفتي القوة والرحمة معاً [2] .

4 – وهو وحده المَلِك في يوم الحساب ، فكل مَنْ كان في الدنيا من الأباطرة والملوك والطغاة والفراعنة .. إلخ .. يذلّون ويخنسون ، وتخشع الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً :

﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ غافر
وله وحده مجازاة العباد على أعمالهم :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ إبراهيم ..

فما سبق ، هو من حيثيات ودلائل وآيات حقيقة أنه لا إله إلا الله ..

الثاني – (5–7) ، والموقف الطبيعي لمَنْ شهد حقيقة أنه **لا إله إلا الله** ، أن يؤمن بها ويجعلها الأساس لحياته ووجوده .. فيُسْلم وينقاد بكُليّته للإله الحق ، وتكون مهمته في الأرض هي تحقيق العبودية الكاملة لله وحده – تطبيقاً وحملاً – وأن لا يطلب العون على ذلك إلا منه وحده عزّ وجلّ :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ الفاتحة [3] ، يعني مخلصين لك الدين . ومنه :

---

1 - أنظر المعجم الإشتقاقي - محمّد حسن جبل . وأيضاً المفردات - الراغب

2 - أنظر المعجم الإشتقاقي - محمّد حسن جبل .

3 - يقول الإمام الطبري في تفسيره : [وتأويل قوله : (إِيَّاكَ نعبُدُ) ، لك اللهم نَخشعُ ونَذِلُّ ونستكينُ ، إقرارًا لك يا رَبنا بالرُّبوبية لا لغيرك.. لأنّ العبودية ، عندَ جميع العرب أصلُها الذلّة ، وأنها تسمي الطريقَ المذلَّلَ الذي قد وَطِئته الأقدام ، وذلّلته السابلة : معبَّدًا.. ومن ذلك قيل للبعير المذلّل بالركوب في الحوائج : معبَّد. ومنه سمي العبْدُ عبدًا لذلّته لمولاه... ومعنى قوله : (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) ، وإياك رَبنا نستعين على عبادتنا إيّاك وطاعتنا لك وفي أمورنا كلها ، لا أحدًا سواك ، إذْ كان مَنْ يكفُر بك يَستعين في أمورِه معبودَه الذي يعبُدُه من الأوثان دونَك ، ونحن بك نستعين في جميع أمورنا مخلصين لك العبادة]. كما في قوله تعالى في سورة الزمر : (إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ{2} أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ..{3}) . أنظر تفسير الطبري أيضاً . أنظر تبيان " سورة العصر " .

1- الطلب من الله تعالى الهداية والتوفيق إلى طريق عبادته الواضح الذي لا اعوجاج فيه . وذلك ، بالعلم بالحق وبالاستقامة عليه : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ ﴾ الفاتحة .

فالسير على طريق عبادة الله القويم ، من سنة عباد الله الصالحين – الأنبياء والصدّيقين والشهداء – وسبيلهم وهديهم : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ الفاتحة .

2- والطلب منه – سبحانه – أن يجنّبهم خصلتين :

- ✓ الجهل بالحق ، وعدم الاهتداء إليه ..
- ✓ العلم بالحق ، وعدم اتباعه و الاستقامة عليه ..

حتى لا يكونوا مثل بعض الأمم السابقة ممن علم الحق ولم يتبعه : ﴿ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ ﴾ الفاتحة ، وهم اليهود .. أو ممن جهل الحق فضلّ ﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ الفاتحة ، وهم النصارى ..

" فمعنى الكلام : اللهمّ إياك نعبدُ وحدَك لا شريك لك ، مخلصين لك العبادةَ دونَ ما سِواك .. فأعِنَّا على عبادتك ، ووفِّقنا لما وفَّقت له مَن أنعمتَ عليه من أنبيائك وأهل طاعتك ، من السبيل والمنهاج " .

***

6- (سورة المسد)

ربط السورة بخط السير :

تأتي السورة في " الطور الرابع " ، وذلك :

أنها نزلت بعد نزول آية سورة الشعراء : ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤ ﴾ ، في "الطور الرابع" ، لورود رواية صحيحة في أسباب النزول [1] .. بمعنى أن نزولها كان بعد " النذارة الخاصة " لقريش بالعذاب الأكبر (البطشة الكبرى) ، الوارد في الآية . وبعد وفاة أبي طالب ، وتجرّؤ قريش على إيذاء رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، ومنعه من تبليغ رسالة الله وصده عن المسجد الحرام .

وكخط عام : فالسورة تبيّن كيفية مواجهة مَنْ هو مثل أبي لهب في عداوته للحق وأهله ، كما ورد في سور متعددة ، فأجواؤها متقاربة ، مثل :

(العلق ، القلم ، المدثر ، القيامة ، البلد ، الهمزة ، عبس ، لقمان ، والآيات الأخيرة من سورة يس ..)

---

1 - (صحيح أسباب النزول) إبراهيم العلي . (الصحيح المسند) الوادعي .

مناط السورة :

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ ﴾المسد . الأشخاص أو الجماعات – من الملأ أو من أتباعهم – الذين انبروا لصد الناس عن اتّباع دعوة الله تعالى ، وبرزوا في معاداة وإيذاء من يعبد الله ويدعو إلى عبادته عزّ وجلّ (أبو لهب وامرأته .. مثالاً) .

المعالجة :

1- إنذارهم بعذاب الله الشديد والمهين ، مع ذكر العذاب ونوعه وتفصيله .
2- بيان أن ما يغترّ به الملأ (الطاغوت) ويفتخرون من مال وجاه ونسب – والتي يستخدمونها كمبررات لاستحقاقهم الطاعة لأنفسهم من دون الله أو مع الله عزّ وجلّ [1] – لن تغني عنهم شيئاً ولن تحميهم من نزول عذاب الله بهم [2] ، فالأجدر بهم أنْ لا يقفوا عقبة أمام دعوة الله عزّ وجلّ ..
3- وأما تعيينه وذكره باسمه – أبو لهب – دون غيره من أعداء الله ورسوله ، وذلك فيما يظهر لنا :

- لكون معاداته لرسول الله كانت أشد وأكبر أثراً على العرب من غيره ، في الصد عن سبيل الله ، بحكم قرب نسبه منه ، حيث كان في المواسم وغيرها ينهاهم عن تصديق الرسول واتّباعه ، وهو معروف عندهم أنه عمه ، فكأنه يقول لهم : إنه ابن أخي وأنا أدرى الناس به . بينما غيره – ممن هو أبعد نسباً – كأبي جهل مثلاً – فعداوته لرسول الله قد تكون أقل تأثيراً على عامة الناس ، فقد يُظن أن عداوته تلك بسبب دوافع خاصة به مثل الحسد و التنافس على السيادة ..

- وفيه أيضاً إعلاء لرابطة الإيمان على غيرها من الروابط والعلائق وجعلها هي الأساس قبل أي رابطة أخرى ، إنما هي أخوة الإيمان وليس أخوة الدم والنسب :﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ..﴿١٠﴾ ﴾الحجرات
فأبو لهب ، وإن كان هو عم رسول الله ، فما دام كافراً فهو في النار .. ورسول الله هو أول المسلمين وإمام المتقين وهو القدوة والأسوة الحسنة.. كما فعل صلّى الله عليه وآله وسلّم عند نزول تحريم الرّبا، حيث قال في خطبة حجة الوداع : (**و رِبا الجاهلية موضوع** ، **وأول رِبا أضع ربانا** ، **رِبا عباس ابن عبد المطلب فإنه موضوع كله**) [3] .

- كنيته (أبو لهب) ، ليست كنية تكريم له ، بل أُطلقت عليه بسبب وجهه المُحمرّ . فاشتُهر بتلك الصفة (أبو لهب) وكأنها اسم عَلَم عليه . وعلى أية حال ، فقد ربط الله تعالى في كتابه العزيز بين اسم (أبو لهب) المشهور به ، وبين مصيره في نار (ذات لهب) ، لأنه عَلِم الحق وتولّى عنه ،

---

1 - كما قال فرعون : (وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ : يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ {51}) الزخرف

2 - كما في قوله تعالى في سورة الحاقة : (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ{25} ... مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ{28} هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ{29} خُذُوهُ فَغُلُّوهُ{30} ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ{31} ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ{32} إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ{33} وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ{34} فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ{35} وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ{36} لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِؤُونَ{37})

3 - (صحيح السيرة) إبراهيم العلي .

بل ويؤذي رسول الله ويصدّ الناس عن سبيل الله .. فذاك الوجه المتورّد المُحمرّ سيُصلى بالنار ذات اللهب . فهو الآن (أبو لهب) لأنه (سيصلى ناراً ذات لهب) ، استهزاءً به وتحقيراً له . كما سمّى رسولُ الله عمروَ بن هشام بـ " أبي جهل " بدل كنيته المعروف بها " أبي الحكم " ، تحقيراً له من أن يكون سيداً مطاعاً ، لأن حكمته تلك لم تؤدي به إلى اتباع الحق والنجاة من النار، وهذا هو الجهل بعينه، فهو (أبو جهل) .. وهو " فرعون هذه الأمّة " : ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ ﴾ طه .

***

7- (سورة التكوير)

ربط السورة بخط السير :

قد تأتي السورة في نهاية " الطور الثالث " وبداية " الطور الرابع " . وذلك :

- أسلوب السورة ليس نقاشاً عقلياً وبيان حجج ، بل هو إنذار وتخويف وتحميل المخاطب المسؤولية على موقفه بأسلوب تقريري .. يعني من باب التنويع في خطاب النذارة .. وهذا يُشير إلى أن مناط السورة في مرحلة متأخرة من السير ، أي بعد التفصيل في ذكر البيّنات والبراهين على الحق ، والذي كان في أول الأمر ..
- وقد تكون قريبة من سورة النجم أو بعدها ، حيث جاء فيها قوله تعالى :

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾ النجم

وسورة التكوير :

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ التكوير

- ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ ﴾ التكوير .

كما يشير إلى ذلك قوله تعالى في سورة النحل :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ ، وهي متعلقة بطور متأخر ..

وبشكل عام ، فإن توجيه النقد المباشر لبعض العادات والتشريعات الجاهلية يأتي في طور متأخر من السير كما في سور : المطففين ، الأنعام ، والإسراء ، والأعراف .. وكما في قصص الأنبياء التي في السور المتعلقة بطور متأخر من المرحلة الأولى ، حيث يوجه رسل الله وأنبياؤه النقد المباشر لبعض التشريعات في قومهم ومجتمعهم ..

- السور الأخرى التي ورد فيها وصف الكفار لرسول الله بأنه مجنون : الحجر (6) ، المؤمنون (25 ، 70) الصافات (36) ، الدخان (36) ، سبأ (8 ،46) ، الذاريات (39 ، 52) ، الطور (29) ، القمر (9) ، القلم (2 ،51) .. وهي من السور المتعلقة في وقت متأخر من المرحلة الأولى في السير بالرسالة .

<u>مناط السورة :</u>

﴿ ..عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ ﴾ ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ التكوير .

إصرار المجتمع ومَلَئه على رفض اتباع الحق الذي جاء في رسالة الله تعالى ، برغم معرفتهم أنه الحق .

<u>المعالجة :</u>

1- السورة متميزة بأسلوبها .. ففيها تصوير بديع قوي التأثير لما يصيب الناس من أهوال وشدائد يوم القيامة كما في رواية الترمذي عن ابن عمر أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال : { **<u>من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين</u> فليقرأ : (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) و(إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ) و(إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ)** } [1].

2- (1-14)، إخبار من الله تبارك وتعالى عن تغيير كونيّ هائل ، وانقلاب شامل في الخصائص والسُنن الكونيّة التي يحيى فيها الإنسان وتوفّر له حياته ومعيشته .. وبعد هذا الانقلاب الكوني الهائل تُعَدُّ الجنَّة لاستقبال أصحابها وتسعّر النار كذلك لأصحابها .. وبعد أن يمرّ الإنسان خلال هذا الموقف العصيب ويعيش ما فيه .. يعلم نتيجة ما قدّم من أعمال ، ويعلم مصيره للجنّة أو للسعير.

3- (15-25) ، فمن أجل هذه النتيجة ، كانت تلك الأحداث الرهيبة في ذلك اليوم العصيب - جواب « إذا » الشرطية الظرفية - أي حتى يعلم الإنسان نتيجة موقفه من الرسول والرسالة ، والتي هي الحقّ المُبين ، وقد بلّغها رسول الله كما أوحاها الله إليه تماماً .. ولا يمكن مطلقا ، أن يأتيها الباطل [2] :

- لا من جهة ناقل الرسالة (الأمين جبريل) .
- ولا من جهة الرسول المبلّغ (محمّد) فهو ليس بالمجنون كما تعلمون .

---

1 - التاج ج 4 ص 252 . أنظر التفسير الحديث - دروزة

2 - القَسَم ، أسلوب تقريري . " وأقسم الله تعالى ، بهذه الأشياء، لأنها في حركاتها المختلفة من ظهور وأفول ، ومن إقبال وإدبار.. تدل دلالة ظاهرة على قدرة الله تعالى ، وعلى بديع صنعه في خلقه ".. ومن ثم قدرة الله تعالى على حفظ ما يوحيه إلى عبده .. كما في سور: النجم ، والحجر ، والجن ..

– ولا من جهة المصدر (ما هو بقول شيطان رجيم) .. (لاحظ سورة النجم)

4- (26-29)، فما دام أن هذه الرسالة هي الحق من عند الله تبارك وتعالى لا يأتيها الباطل أبداً ، وهي موعظة وهدى .. فلتُقرّروا على أثر ذلك مصيركم ، فماذا تريدون الهداية أم الضلال ؟ وأين تريدون الذهاب للجنّة أم للسعير ؟! [1] فالله تعالى هو الربّ والإله الحقّ المتصرّف في مُلكه كيف يشاء ، وكلّ أمر مرهون بمشيئته عزّ وجلّ .. وما جعل الله طريق الهدى والنجاة إلا طريقاً واحداً لا غير : اتباع وحيه والاقتداء برسوله .. فالأولى بهم – إن أرادوا النجاة – أن يبادروا إلى الإيمان بأنه لا إله إلا الله واليوم الآخر واتباع الرسول محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم.

بالنسبة للجماعة المؤمنة :

زيادة في التذكير والتأكيد على ما هم عليه من الحق ، فالمؤمن يزداد إيماناً وتثبيتاً كلما نُزّلت سورة جديدة من آيات الله تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥ ﴾ التوبة .

***

1 - (فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ) ((جملة معترضة بين ما سبقها، وبين قوله- تعالى- بعد ذلك (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ)، والمقصود فيها توبيخهم وتعجيزهم عن أن يأتوا ولو بحجة واحدة يدافعون بها عن أنفسهم . والفاء لتفريع هذا التعجيز والتوبيخ ، على الحجج السابقة ، المثبتة بأن هذا القرآن من عند الله تعالى ، وليس من عند غيره)) . التفسير الوسيط للقرآن الكريم - محمّد سيد طنطاوي .

8 – (سورة الأعلى)

ربط السورة بخط السير :

تأتي السورة في " الطور الثالث " وما بعده .. وبعد ظهور موقف الرفض بشكل واضح من المجتمع ومَلَئه لرسالة الله ودعوته .

مناط السورة :

﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ الأعلى .

حالة الضيق والشدة التي تواجهها الجماعة المؤمنة في عبوديتها لله تعالى وحملها لرسالته ، نتيجة إصرار المجتمع على عدم الإستجابة لدعوة الله تعالى ، أي عدم الانتفاع بالذكرى .

المعالجة :

أولاً :

- ✓ (1–5)، يأمر الله عزّ وجلّ الرسول صلّى الله عليه وآله وسلم ومن تبعه ، بتسبيحه وتعظيمه لأنّه هو وحده الربّ الأعلى صاحب الأسماء الحسنى والأفعال الجليلة العظيمة ، والتي تُشاهد آثارها في الآفاق والأنفس ، خلقاً وتسويةً وتقديراً وهدايةً . فهو جلّ جلاله " الذي خلق كل شيء فسواه ، فأكمل صنعته ، وبلغ به غاية الكمال الذي يناسبه ، والذي قدّر لكل مخلوق وظيفته وطريقته وغايته، فهداه إلى ما خلقه لأجله ، وألهمه غاية وجوده ، وقدّر له ما يصلحه مدة بقائه ، وهداه إليه . وهذه الحقيقة الكبرى ماثلة في كل شيء في هذا الوجود ، ويشهد بها كل شيء في رحاب هذا الكون ، من الكبير إلى الصغير.. وهي من أكبر الأدلة المشاهدة ، على أنه– تعالى– يتصرف في خلقه كما يشاء وأنه على كل شيء قدير "
- ✓ (6–7)، أنّ الله عزّ وجلّ مُتكفِّل بحفظ رسالته من الضياع والنسيان ، فهو سبحانه يعلم ما ظهر وما بطن وهو على كل شيء قدير .. ومن ثم يُبشّر رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم بأنه لن ينسى القرآن فلا يشعر بالمسؤولية تجاه هذا الأمر [1] .
- ✓ (8)، ويَعِدُ اللهُ عزّ وجلّ رسولَه صلّى الله عليه وآله وسلم ومن تبعه أنه سيوفّقهم للطريقة التي هي الأسهل والأخف في كل أمورهم ، شرعاً وقدراً .. ومنها تحقيق الغاية التي يسعون من أجلها ، إخراج الناس من الظلمات إلى النور (غاية الرسالة) . فعسر السير في الطريق لا يُزال إلا بأمر الله عزّ وجلّ ، ويتحقق بالاستمرار على الاستقامة على طاعة الله وتسبيحه.

---

1 - { قال الحسن البصري وقتادة ومالك بن أنس : هذه الآية في معنى قوله تعالى : (لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18)) القيامة }. التفسير الوسيط للزحيلي . نقول : مما يشير إلى أن أجواء السورتان متقاربة . وكذلك سورة طه : (.. وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ..{114}) . والظاهر أن وعد الله تعالى لرسوله بعدم نسيانه القرآن وجمعه في صدره الشريف ، سابق للنهي عن الإستعجال بالقرآن .

ثانياً : (9–15)، وبناء على العلم **بالحقائق** السابقة :
- ✓ من أن الله تعالى هو صاحب الأمر في الوجود خلقاً وتسوية ، تقديراً وهداية ..
- ✓ وأن وحي الله تعالى محفوظ في الصدور ولن يُنسى ..
- ✓ وأن الله تعالى سييسّر الأمور العسيرة ..

فعلى المسلم أن يستمر على عبادة الله تعالى ، وتذكير الناس بحقيقة أنه لا إله إلا الله فاعبدوه وبيان المصير .. بدون إبطاء أو يأس غير مستاء من عدم إجابة (انتفاع) معظمهم، فسينتفع بعضهم .. لأن من **سنن** الله تعالى التي قدّرها في الناس ، أنّهم من الذكرى على نوعين :
- من يتذكّر ، وهو الذي يؤمن بالله ويخشى دائما عذابه يوم القيامة . فلا يؤثر عليه سواه .
- من يتجنّب الذكرى ، لإصراره على أن يشرك بالله عزّ وجلّ ولا يخشى عذابه يوم القيامة وقد أخذ موقفاً مسبقاً بالرفض ، فمثل هذا لن يهتدي .. فهو الشديد الشقاوة والتعاسة (الأشقى) لأن مصيره الاصطلاء بالنار العظيمة الفظيعة .. التي لا يَمُوتُ فِيهَا فيستريح من العذاب ، وَلا يَحْيى حياة طيبة يهنأ بها [1] .

فمن المُحَقق إذن ، أن الفلاح لمن طهّر نفسه من الشرك والمعاصي (تزكّى) ، وذكر اسم ربه فخشع له وخضع .. فوجل قلبه ، وفاضت عينه .. فقام بالأعمال الصالحة التي تنفعه ؛ أهمها وأبرزها الصلاة .. وفي هذا تشجيع للمؤمنين ليزدادوا التزاماً بما هم عليه من طريق الفلاح ؛ عبادة الله وحده واتباع رسوله .. وفيه حث وتحريض لغيرهم ليسلكوا معهم سبيل الفلاح .

ثالثاً : (16–17)، وعندما يواجَه حامل الرسالة أثناء سيره ، من يتجنّب الذكرى – وقد بلغته مراراً – ولا يتبع الحق وما يؤدى إلى الفلاح .. مثل الملأ من قريش ومن تبعهم ، فليقل لهم – كاشفاً حقيقتهم للناس – أن حُبّكم ملذات الحياة الدنيا الزائلة وإيثاركم لها هو سبب عدم هدايتكم (حسب سنّة الله) ولتعلموا حقاً أن الآخرة هي الخير والأبقى .

رابعاً : (18–19)، وليعلم الجميع أن ما ذُكر سابقاً :
- من فلاح مَن تزكّى وذكَر الله تعالى ..
- وأن إيثار الناس الدنيا من أسباب الضلال وعدم الهدى ..
- وأن الآخرة خير وأبقى من الدنيا ..

ليس بالأمر الجديد ، بل هو مما أُثبت معناه في الرسالات الأولى التي أنزلها الله عزّ وجلّ ، منذ إبراهيم وموسى عليهما السلام [2].. فهذا هو دين الله عزّ وجلّ الواحد الثابت وهو خطّ الأنبياء والرسل

---

1 - كما في قوله تعالى في سورة فاطر: { وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها، كَذلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (36) }.

2 - أنظر تفسير ابن كثير . كما في قوله تعالى في سورة النجم : (أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى{33} وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى{34} أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى{35}أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى{36} وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى{37} أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ

عليهم السلام .. فعلى الرافض لهدى الله تعالى أن ينتهي ، وعلى الجماعة المؤمنة حَمَلة الرسالة ، الثبات والاستمرار في عبادة الله تعالى وحده والدعوة إلى عبادته .

أخرج الإمام أحمد عن عامر بن عقبة الجهني قال: لما نزلت : (**فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**) قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **اجعلوها في ركوعكم** » . فلما نزلت : (**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى**) قال : « **اجعلوها في سجودكم** » .

أخرج أحمد وأبو داود عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا قَرَأَ : { سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى } قَالَ: « **سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى** » .

في رواية للإمام أحمد عن الإمام علي– كرم الله وجهه– أن رسول الله– صلى الله عليه وسلم– كان يحب هذه السورة : «سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى» .

وفي صحيح مسلم أنه كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بـ (سبح اسم ربك الأعلى) ، و (هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ) . وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما.

***

أُخْرَى{38} وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى{39} وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى{40} ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الْأَوْفَى{41} وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى{42}..)

9 – (سورة الليل)

ربط السورة بخط السير:

تأتي السورة في الطور الثاني فما بعده ، وذلك :

✓ أن السورة تتكلّم عن إظهار الملأ تكذيبهم بالحق الذي جاءهم في رسالة الله .. وفيها إشارة إلى إيذائهم للمؤمنين ، وخاصة الضعفاء منهم ، مثل العبيد والموالي وغيرهم .. كما في رواية سبب النزول :
(عن عبد الله بن الزبير قال : قال أبو قحافة لأبي بكر : أراك تعتق رقاباً ضعافاً ، فلو أنك إذ فعلت، أعتقت رجالاً جلداً يمنعونك ويقومون دونك . فقال أبو بكر : يا أبت إنما أريد ما أريد . فنزلت هذه الآية فيه : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [الليل] ، إلى قوله : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [الليل]) [1].

✓ ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ الليل . التولّي وهو مكذّب ، يعني أن التكذيب أصبح موقفاً نهائياً لذلك المكذّب ، فيخوفه الله تعالى النار المستعرة حتى لا يستمر في تكذيبه ، فيكون في أقصى الشقاء (الأشقى) .

مناط السورة :

﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ الليل .
حالة المكذّبين وقد استمروا في تكذيبهم ، واستغنوا بالباطل عن الحق ، وتجديد الإنذار لهم حتى لا يصلوا إلى أقصى دركات الشقاء .

المعالجة :

الخط العام في سير السورة في معالجة مناطها ، كالتالي :

بيان الفرق بين الصنفين من البشر ، من خلال بيان حقيقة كل صنف وأثره – خيراً أو شراً – على مَن حوله وعلى المجتمع (القرية) بشكل عام ، ومصير كل منهما .. والفرق بينهما واضح وضوح الفرق بين الليل والنهار ، والذكر والأنثى .. فأي الصنفين يختار العاقل من الناس التشبه به والاقتداء به واتباعه ؟ .
هذا ، ولكل صنف يوجد مَن يُمثّله في قريتهم ومجتمعهم ويعيش بينهم . الصنف الأول هم رسول الله ومن تبعه على الحق كأبي بكر .. والصنف الآخر هم الأغنياء وأصحاب السلطان (الملأ) من قريش ومن تبعهم على باطلهم وتكذيبهم .. وهم معروفون [2] .

---

[1] - أخرجه الحاكم : 525/2 ، وابن جرير: 221/30 . والحديث حسن ، وقد صرّح ابن اسحاق بالتحديث فانتفت شبهة التدليس ، ويرتقي إلى الصحة بشواهده . (صحيح أسباب النزول) إبراهيم العلي .

2 - أنظر تبيان "سورة الماعون "

ويمكن التفصيل كما يلي :

1- (1-3) القَسَم للتأكيد على أن الله تعالى هو الإله الحق ، فهو الخالق القادر على جعل الخلق أزواجاً وأنواعاً مختلفة .

2- (4-11) جواب القَسَم ؛ أن من تقدير الله و سنته في عمل الإنسان أن يكون مختلفاً ، فمنه ما يسعد به الساعى ومنه ما يشقى به [1] ، ومن سنته أيضاً أن جعل كل طريق ميسر للسير عليها لمن شاء. و الله عزّ وجلّ قد كرّم الإنسان فجعله قادرا على الإختيار بين طريقي الهدى والضلال والخير والشــر .. فكل فرد يتحمّل عاقبة الطريق الذي اختاره . هذا ، وفي المحصـلة فإن موقف الناس من رسالة الله عزّ وجلّ على صنفين مختلفين :

<u>الأول</u> : مَن صدّق بالحق الذي جاء به رسول الله : أنه **لا إله إلا الله** وأنه سيلاقي الله يوم القيامة ، فيظهر على عمله مقتضيات ذلك التصديق من الطّاعة وتقوى الله وإعطاء المال في سبيل الله .. فهذا المصدّق مُيسّر لليسرى ؛ وهي طريق الفلاح والخير ، في الدنيا والآخرة .. وسيظهر أثر ذلك على الناس من حوله .

<u>الثاني</u> : مَنْ كذّب بالحق : بـ" **لا إله إلا الله** " وما ترتّب عليها من العمل والجزاء .. فسيظهر على عمله مقتضيات ذلك التكذيب من البخل في إنفاق المال على مستحقيه – والذي لن ينفعه بعد موته- والاستغناء عن الحقّ والتكبّر عن طاعة الله تعالى [2] .. فهذا المكذّب ميسّر للعسرى ؛ وهي طريق الضنك والشقاء في الدنيا والآخرة .. وسيظهر أثر ذلك على الناس من حوله .

3- (12-21)، التأكيد على أن الله تعالى هو الإله الحق الذي له الخلق والأمر : فمنه الهدى – بياناً وتوفيقاً – وأنه يملك أمر الدنيا والآخرة ، ابتداءً ومصيراً ، فلا مهرب منه إلا إليه [3] .. ثم إنذار الشقي الذي كذّب واستغنى عن رضى ربّه ، أن مصيره – ومن اتبعه لماله وسلطانه – إلى الهلاك والنار التي تتوقّد وتتلهّب ، وأنه لن تُغني عنه أمواله ولا سلطانه من عذاب الله شيئاً ، وأنه إذا أصرّ على موقفه ذاك : ﴿ .. كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ الليل ، سيكون " الأشقى " ، في الدنيا قبل الآخرة ..

وفي المقابل فإن " الأتقى " الذي يقدّم ماله متزكيا به عند الله تعالى ، بأن يخرجه لله تعالى خالصاً

---

1 - [(إن سعيكم لشتّى) جواب القسم ، أقسم سبحانه على أن أعمال عباده شتى جمع شتيت ، وقيل للمختلف المتباين شتى لتباعد ما بين بعضه وبعضه ، والشتات الافتراق] . إعراب القرآن وبيانه - محي الدين الدرويش . قال القرطبي : السعي ؛ العمل ، فساع في فكاك نفسه ، وساع في عطبها . يدل عليه قوله صلّى الله عليه وسلّم : (الناس غاديان : فمبتاع نفس فمعتقها ، وبائع نفسه فموبقها) .] وفي القَسم بالليل وبالنهار التـنـبيه على الإعتبار بهما في الإستدلال على حكمة الله في نظام هذا الكون وبديع قدرته .. واختير القسم بالليل و النهار لمناسبته للمقام ، لأن غرض السورة بيان البون بين حال المؤمنين والكافرين في الدنيا والآخرة] . التحرير والتنوير - ابن عاشور .

2 - [(واستغنى) جُعل مقابلاً لـ (اتقى) فالمراد به الاستغناء عن امتثال أمر الله ودعوته ، لأن المصرّ على الكفر المُعرض عن الدعوة يَعدّ نفسه غنياً عن الله مكتفياً بولاية الأصنام وقومه . فالسين والتاء للمبالغة في الفعل ، مثل استجاب بمعنى أجاب] . التحرير والتنوير - ابن عاشور . والظاهر أن الذي بخل واستغنى ، من الملأ أصحاب الأموال.

3 - والمقصود : (فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ{50} وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ{51}) الذاريات

لا رياءً ولا سمعةً ، فيكون زاكيا عند الله .. هو الذي ينجو ويُفلح – ومَن اتبعه ..
فالمراد بالأشقى : الأشد والأكثر شقاءً . والأتقى : الأشد والأكثر تقوى .

***

10 – (سورة الفجر)

ربط السورة بخط السير :

تأتي السورة في بداية " الطور الرابع " وما بعده ، وذلك :

1– ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾ الفجر [1] ، تهديد بالعذاب المدمّر في الدنيا لكل من طغى فأكثر الفساد في الأرض ، مثل عاد وثمود وفرعون ، وأنه قريب .. وهذه سنة من سنن الله جلّ وعلا في الأمم . وفي هذا إنذار لقريش بأنهم إذا تمادوا في طغيانهم وإفسادهم سيشملهم هذا التهديد ، لذلك ذكّرهم الله تعالى بسنته هذه وأكّدها لهم . وهذا قرينة على أن السورة متعلقة بالطور الرابع ، فهو الطور الذي أنذر الله به قريشاً بالعذاب الأكبر . ومن هنا فورود الكلام – في السورة – عن الغنى والفقر وعن كرامة الغني ومهانة الفقير .. يناسب حال الغنى والرفاه الذي حدث لقريش بعد أن فتح الله عليهم " أبواب كل شيء " من الدنيا.. وذلك بعد أن وعدوا بالإيمان بعد ذاقوا العذاب الأدنى (الدخان) ، فرفعه الله تعالى عنهم .. إلا أنهم نكثوا وعدهم .. ففتح الله تعالى عليهم أبواب الدنيا إملاءً لهم حتى يحين موعد نزول العذاب [2] .

2 – عند النظر في السور التي جاء فيها وصف أقوام الرسل بأنهم "مفسدون" أو "فاسدون" أو "يعيثون في الأرض الفساد" ..(أنظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم).. نجدها ، إما من السور المرتبطة بطور متأخر من المرحلة الأولى وحينئذٍ ، فالفساد وصف ينطبق على أفعال قريش . أو من السور المرتبط بالمرحلة الثانية ، وقد ورد ذلك الوصف في سياق وصف أفعال أهل النفاق أو أهل الكتاب ..
وأيضاً ، يمكن القول كذلك عن وصف أقوام الرسل – ومنهم قريش – بأنهم " طاغون "، وأنهم بسبب "طغيانهم" أكثروا الفساد ، فالطغيان يُجرّيء صاحبه على التعدّي على حقوق الناس وظلمهم ، أي الفساد ، لذلك فقد استحقوا العذاب – العذاب الأكبر – في الدنيا .. ووصفهم بإكثار الفساد فيه إشارة إلى ما قامت به قريش من حصارٍ لرسول الله والمؤمنين ومن ناصرهم .. في الشعب .

3 – تشترك هذه السورة مع سورة الماعون – المتعلقة بنهاية الطور الثاني – في تقرير أن سبب الشقاء والضنك الذي يعيشه أهل القرى هو اتخاذهم الملأ الكافرين أسياداً متبوعين .. إلا أن سورة الماعون

---

1 - المرصاد : المكان الذي يَرصد فيه الإنسانُ عدوّه . أي ، إن ربك أيها الرسول يرقب الطغاة المفسدين في الأرض ، ويترصّد خطواتهم ، وسيجازيهم بأعمالهم السيئة ، ولا يفوته واحد منهم . مثل قوله تعالى : (ولا تحسبنّ الله غافلاً عما يعمل الظالمون {42}) إبراهيم .
2 - أنظر (الطور الرابع) في بداية هذا البحث .

لم يرد فيها ذكر " الطغيان " و " إكثار الفساد " ، وهذا يشير إلى أن سورة الفجر متعلّقة بأحوال وأوضاع حصلت بعد ذلك .. وقد ازداد إصرار الملأ من قريش على الكفر، وتماديهم في طغيانهم ، فكثُر فسادهم .

مناط السورة :

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾ الفجر ،

ادعاءات الأغنياء من المجتمع بأن الله تعالى هو الذي أغنى الغني لكرامته عنده ، وأفقر الفقير لهوانه عليه .. فمن الطبيعي – حسب منطقهم – أن يكون الأغنياء هم السادة (الملأ) الواجب اتباعهم لكرامتهم عند الله تعالى [1] .

المعالجة :

سارت السورة في معالجة مناطها في ثلاث خطوات رئيسة :

1- (1–14) ، إنذار قريش بعذاب الله في الدنيا إذا أصرّوا على طغيانهم وفسادهم . كما هي سنة الله في إهلاك الأمم الطاغية .. ويأتي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾ الفجر، أساساً في تقرير ذلك ، حيث جاءت الآيات التي سبقتها في إطار تقرير دلالتها وإثبات صدقها وأنها سنّة لله تعالى جارية دائمة . وقد استُخدمت ثلاثة أساليب توكيد : فبالإضافة إلى حرفي التوكيد " إنّ " و " لـ " ، جاء القَسَم ببعض آثار قدرة الله تعالى في الكون ، ثم الإستشهاد بحقائق تاريخية معلومة ومعروفة .

2- (15–20) ، ثم تكذيب الملأ حول ما يدّعون به ، بأن ما هم فيه من النعيم علامة على إكرام الله تعالى لهم ، وأن ما فيه غيرهم من الخصاصة علامة على أهانة الله تعالى لهم . وذلك ببيان وتقرير حقيقة أن الأغنياء – وهم من الملأ عادة – هم سبب تفشّي الشرور وانتشار الظلم في المجتمع .. حيث أن جشعهم وحبهم للمال دفعهم إلى ظلم الفئات الضعيفة في المجتمع (القرية) . وذلك البيان في إطار " خطاب النذارة " .

3- (21–30) ، وبعد ذلك إنذارهم بمصيرهم يوم القيامة ، عندما يحكم الله عزّ وجلّ بين عباده : بعذابه الشديد الأليم للطغاة المفسدين .. وبالجنة والرضوان لعباد المؤمنين .

1 - ومعنى " نَـعّمه " جعله في نعمة ، أي في طيب عيش . والإكرام على ضربين : أكرمه بأن يصيب الإنسان ما هو نفع لا غضاضة فيه ، أو بأن جُعِلَ كريماً سيداً شريفاً . وقوله : (فأكرمه..) من المعنى الأول للإكرام . وقوله : (فيقول ربي أكرمن) من المعنى الثاني . والإهانة : المعاملة بالهون وهو الذلّ . أنظر (التحرير والتنوير) - ابن عاشور . و(مفردات القرآن) - الراغب .

وبشيء من التفصيل نقول [1] :

1- (1-5) ، في سياق التأكيد على تحقق سنة الله تعالى بإهلاك الطاغين المفسدين ، جاء ذكر بعض آثار قدرة الله عزّ وجلّ في الآفاق ، ولكن بأسلوب القَسم . حيث يُقْسِم الله سبحانه بوقت الفجر ، ساعة ينشق ضوء النهار مطارداً للظلام . ويُقْسِم – سبحانه – بالليالي العشر ، وهي الليالي من أول كل شهر والتي يكون ضوء القمر فيها مطارِداً للظلام في كل ليلة إلى أن تُغلَب الظُلمة ، كما يهزم ضوء الصبح ظلمة الليل حين يسطع النهار . ويُقْسِم – سبحانه – كذلك بالعدد المزدوج وبالعدد الفرد من الأيام والليالي أثناء تعاقبها، فأول يوم يكون وتراً ثم يتبعه الشفع ثم الوتر .. وهكذا تسير الأيام والليالي وتنقضي . ثم يُقْسِم سبحانه ، بالليل إذا يمضي ويذهب فيعقبه الفجر .. والمُقسَم عليه (جواب القسم) – كما أشرنا – هو أن الله سبحانه وتعالى سيُطهّر وجه الأرض من الفساد بإزالة الطاغين المفسدين ، وهذه سنة لله تعالى دائمة ، كما هي سنته في ذهاب الليل وبزوغ نور الفجر .. أليس في ذلك القسم تأكيد كاف لكل ذي عقل ولُبّ بأن الله هو الإله الحق وأن أمره ومشيئته وحده ، ممثلة بسننه، هي النافذة في الوجود .. أليس فيه كفاية للإنسان العاقل ذي الحِجْر، الذي يقهر نفسه ويمنعها من الوقوع فيما لا ينبغي ، لكي يعتصم بالله الإله الحقّ ويترك ما هو فيه من طغيان وإفساد ، لينجو بنفسه من عذابه عزّ وجلّ .. فلا ملجأ من الله إلا إليه .

2- (6-14) ، ثم أورد الله – سبحانه – دليلاً عملياً على تحقق سنّته تلك وإنفاذ عقابه وجزائه من تاريخ الأمم السابقة المعلوم والمشاهدة آثاره :

وإذا لم يكن في القَسَم السابق كفاية ، ألم يعلم ويرى الطغاة المفسدون في قريش ما فعله الله جلّ وعلا في اقوام رسل الله السابقين [2] ، مثل : عاد وثمود وفرعون .. وقد استحقوا " العذاب الأكبر" .. أي ،

---

1 - نرى أنه من المهم ، في توجيه معاني آيات السورة وتحديد الإطار الذي يضبطها ، مراعاة الحقائق التالية :
- إنّ السياق العام للسورة هو البشارة والنذارة (خطاب النذارة) موضوعاً . ومن باب تصريف الآيات وتنويعها أسلوباً . أما النذارة فهي للكافرين لحثهم على التوبة إلى الله وتعظيمه وطاعته . والبشارة للمؤمنين زيادة في إيمانهم وتثبيتاً لهم على الحق حتى يأتي الله تعالى بأمره .
- إنّ الأشياء الخمسة المقسم بها هنا ، لا بد وأنها من الأمور التي كانت معروفة عند العرب قبل الإسلام ، فهم المخاطَبون بها ابتداءً . لذلك فالتفسيرات الواردة بمعاني لم تُعرف إلا في مرحلة التمكين (المدينة) لم يكن من باب التفسير لتلك الألفاظ ، بل - قد يكون - من باب دخولها في عموم تلك الألفاظ .
- المقصود من القَسَم التأكيد لكل ذي حجر وعقل من المخاطَبين - كفاراً ومسلمين ، وفي كل زمان ومكان - على المُقسَم عليه (جواب القسم) وهو تقرير وبيان سنة الله تعالى في إهلاك الطغاة المفسدين . فالعاقل هو الذي لا يوقع نفسه تحت طائلة تلك السنّة ، بل يُنقذ نفسه من غضب الله جلّ وعلا ، بالفرار إلى مرضاته . ((فالقسَم في الكلام من طرق تأكيد الخبر، إذ القسَم إشهاد المقسِم ربَّه على ما تضمّنه كلامه . وقسَم الله تعالى متمحض لقصد التأكيد)) . (التحرير والتنوير) - ابن عاشور . للتفصيل أنظر (إمعان في أقسام القرآن) - الفراهي الهندي .

2 - الكلام موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، كما دل عليه قوله : (ألم تر كيف فعل ربّك بعاد) [الفجر/6] وقوله : (إن ربّك لبالمرصاد) [الفجر/14] . ولذلك فالقسم تعريض بالمعاندين لإنذارهم بحصول المُقسَم عليه ، فإن ما فعله الله بهذه الأمم الثلاث موعظة وإنذار للقوم الذين فعلوا مثل فعلهم ، وقُصد منه تقريب وقوع ذلك وتوقع حلوله . ومن جهة أخرى فيه تثبيت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم كقوله تعالى : (ولا تحسبنّ الله غافلاً عمّا يعمل الظالمون {42}) إبراهيم . وكذلك الأمر ، في العدول عن ضمير المتكلم أو اسم الجلالة إلى "ربّك" في قوله : (فصب عليهم ربّك سوط عذاب) وقوله: (إن ربّك لبالمرصاد) إيماءً إلى أن فاعل ذلك ربّه الذي شأنه أن ينتصر له ، فهو مُؤمّل بأن يعذّب الذين كذبوه انتصاراً له انتصار المولى لوليه . أنظر (التحرير والتنوير) - ابن عاشور . وأنظر أيضاً (تبيان سورة الفيل) .

تدميرهم وإستئصالهم ، بسبب طغيانهم الذي أدى بهم إلى إكثارهم الفساد [1] ..
وسبب طغيان أهل تلك القرى هو اغترارهم بقوتهم وشدتهم وغناهم ، كما يشير إلى ذلك صفاتهم التي وصفهم الله تعالى بها ، فكل صفة تدل على شكل من أشكال القوة :

﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٠﴾ ﴾ الفجر

كما في قوله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾ العلق [2] . (أنظر تبيان سورة العلق)

وقد كانوا أكثر قوة وغنى من قريش وعمروا الأرض أكثر مما عمروها ، فعذّبهم الله جلّ وعلا ، فقوتهم وشدّتهم وإمكاناتهم الكبيرة .. لم تغن عنهم من الله شيئاً [3] .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾ الفجر ، التهديد المؤكّد بالعذاب المدمّر في الدنيا لكل من طغى فأكثر الفساد في الأرض ، وأنّهم غير معجزي الله خالقهم وخالق السماوات والأرض . فهذه سنة الله تعالى في الأمم التي تطغى وتُفسد ، جارية لا تتبدّل ، مُحقّقة فيهم إنْ لمْ يدخلوا في دين الله عزّ وجلّ كافة ، ويستغلّوا هذه القوّة والنِعَم في طاعة الله ، أي في الإصلاح .. فلا بد من تطهير وجه الأرض من المفسدين وفسادهم .

---

1 - الطغيان : من طغوت وطغيت ؛ طغوانا وطغيانا، وأطغاه كذا : حمله على الطغيان، وذلك تجاوز الحد في العصيان والظلم . قال تعالى : {اذهب إلى فرعون إنه طغى}[النازعات/17]،{ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي}[طه/81] {فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا} [الكهف/80]، {قال قرينه ربنا ما أطغيته} [ق/27]، والطغوى الاسم منه . قال تعالى : {كذبت ثمود بطغواها} [الشمس/11]، تنبيها أنهم لم يصدقوا إذا خُوفوا بعقوبة طغيانهم . وقوله : {هم أظلم وأطغى} [النجم/52]، تنبيها أن الطغيان لا ينجّي الإنسان، فقد كان قوم نوح أطغى منهم فأهلكوا. وقوله : {إنا لما طغى الماء} [الحاقة/11]، فاستعير الطغيان فيه لتجاوز الماء الحد . والطاغوت عبارة عن كل معتد، وكل معبود من دون الله، ويستعمل في الواحد والجمع . قال تعالى : {فمن يكفر بالطاغوت} [البقرة /256]، {والذين اجتنبوا الطاغوت} [الزمر/17]، {يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت} [النساء/60]، فالطاغوت ، عبارة عن كل معتدٍ على حق الله تعالى في أن يكون وحده المعبود المطاع أمره . ولِمَا تقدّم سُمّي الساحر، والكاهن، والمارد من الجن، والصارف عن طريق الخير طاغوتا . أنظر (مفردات القرآن الكريم) - الراغب . (تفسير الطبري) .

الفساد : خروج الشيء عن الفطرة ، وعن الغاية أو الحكمة التي خُلق من أجلها. وعن كونه مُنتَفع به. فالفساد: سوء حال الشيء ولحاق الضر به . ويضاده الصلاح وهو أن يؤدي المهمة التي خُلق من أجلها وكونه منتفع به . (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها {56}) الأعراف . والإصلاح إنماء الصالح وإكثاره وزيادة فاعليته ومنفعته . أو جعل الشيء صالحاً مرة أخرى بعد أن أُفسد ، فالإصَّلاَحُ : ضدّ الإفساد . وهما مختصّان في أكثر الاستعمال بالأفعال : (إِنَّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ{81}) يونس ، فالمفسد يضادّ الله في فعله ، فإنّه يفسد والله تبارك وتعالى يريد في جميع أفعاله الصَّلاَحَ ، فهو إذن لا يُصْلِحُ عملَه . وقوبل الصلاح في القرآن بالفساد تارة ، وبالسّيّئة تارة أخرى . قال تعالى : (خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً) [التوبة 102] ، (وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها) [الأعراف 56] . والصُّلْحُ يختصّ بإزالة النّفار بين الناس ، يقال منه : اصْطَلَحُوا وتَصَالَحُوا ، قال تعالى : (أَنْ يُصْلِحا بَيْنَهُما صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ) [النساء / 128]، (فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ) [الحجرات 10] . ولهذا كان من أشكال الفساد قطع الرحم والصلات بين الناس : (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ) [محمد 22] . وقد ذكر القرآن الكريم أشكالاً متعددة من "الفساد" . أنظر مادة " فسد " في " المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم " . أنظر (تفسير الشعراوي) . (مفردات القرآن الكريم) - الأصفهاني . وأيضاً (المعجم الإشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم) - محمّد حسن حسن جبل .

2 - أنظر (تبيان سورة العلق) .

3 - كما في قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ{9}) الروم .

3- (15–20) ، ثم ، يكشف الله سبحانه وتعالى ادعاءات الملأ من قريش ، ويُزيل تلبيسهم حول ما يدّعونه من استحقاقهم هم للطاعة والاتباع ؛ ذلك أن غِناهم دليل كرامتهم عند الله تعالى وعلو منزلتهم .. وأن فقر غيرهم دليل على وضاعتهم عند الله وإهانته لهم [1] ..

وكان كشف تلبيسهم بتقرير حقيقتين :

الأولى : إن الغنى والفقر ابتلاء واختبار من الله تعالى للإنسان أيشكر أم يكفر .. وليس علامة

1 - (({ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ .. (15) .. (16)} : دلت الفاء على أن الكلام الواقع بعدها متصل بما قبلها ومتفرع عليه لا محالة . ودلت (أما) على معنى : مهما يكن من شيء، وذلك أصل معناها ومقتضى استعمالها، فقوي بها ارتباط جوابها بما قبلها وقبل الفاء المتصلة بها . وإذا كان تفريع ما بعد هذه الفاء على ما قبلها خفيا، فلنبينه بياناً جلياً : ذلك أن الكلام السابق حول الآيات (1- 14) اشتمل على وصف ما كانت تتمتع به الأمم المُمثّل بها ، مما أنعم الله عليها به من النّعم ، وهم معرضون عن إجابة دعوة ربهم ، مقتحمون المناكر التي نُهوا عنها ، بَطِرون بالنّعمة ، معجبون بعظمتهم .. فبعد ذكْر ما كانوا عليه ، وما جازاهم الله به عليه من عذاب في الدنيا .. أعقبه باستخلاص العبرة وهو تذكير المشركين بأن حالهم مماثل لحال أولئك ترفاً وطغياناً وبطراً ، وتنبيههم على خطئهم إذ أنهم بسبب حال الترف والنّعمة توهّموا أن الله جعلهم محل كرامة ، فحسبوا أن إنذار الرسول صلى الله عليه وسلم إياهم بالعذاب الأكبر ليس بصدق لأنه يخالف ما هو واقع لهم من النّعمة ، فتوهموا أن فعل الله بهم أدلّ على كرامتهم عنده ، مما يُخبر به رسول الله : أن الله أمَرَهم بخلاف ما هم عليه .. فكان هذا الوهم مُسَوِّلاً لهم التكذيب بما أُنذروا به من وعيد ، وبما بُشّر به المؤمنون من ثواب في الآخرة . ففاء التفريع { فَأَمَّا الْإِنسَانُ .. } مرتبطة بجملة : { إن ربك لبالمرصاد } [الفجر:14] بما فيها من العموم الذي اقتضاه كونها تذييلا . والمعنى : هذا شأن ربك الجاري على وفق علمه وحكمته - يعني في كون الغنى والفقر ابتلاء واختباراً - فأما الإنسان الكافر فيتوهم خلاف ذلك إذ يحسب أن ما يناله من نعمة وسعة في الدنيا تكريماً من الله له ، وما يناله من ضيق عيش إهانة ، أهانه الله بها . وقد عُرف هذا الاعتقاد الضال من كلام أهل الجاهلية وأشعارهم ... وجعلوا هذا الغرور مقياسا لمراتب الناس ، فجعلوا أصحاب الكمال هم أهل المظاهر الفاخرة ، ووَصَموا بالنقص أهل الخصاصة وضعفاء الناس . لذلك لما أتى الملأ من قريش ومن بني تميم وفزارة للنبي صلى الله عليه وسلم وعنده عمّار وبلال وخباب وصهيب.. وأناس آخرين من ضعفاء المؤمنين قالوا للنبي : اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم أن نتّبعك . وقالوا لأبي طالب : لو أن ابن أخيك طرد هؤلاء الأعبد والحلفاء كان أعظم له في صدورنا وأدعى لاتباعنا إياه . وفي ذلك نزل قوله تعالى : (وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ) [الأنعام 52] . فذلك الاعتقاد أوجَب تمادي أهل الشرك في إشراكهم وصَرَف أنظارهم عن التدبر فيما يُخالف ذلك . فنبّه الله تعالى على خطأ اعتقادهم بذِكْر ما يماثله مما اعتقدته الأمم قبلهم ، الذي كان موجباً صبّ العذاب عليهم)) . (التحرير والتنوير) - ابن عاشور ، باختصار وتصرّف .

ونشير هنا إلى ما يلي :

- أن هذه السنّة ليست متعلقة بالأفراد فقط ، بل بالقرية أو المجتمع أيضاً ، بدليل أن المثال الذي ضربه الله لهم في تحقق سنته ، كان بأمم سابقة وليس بأفراد ، وكذلك الآيات التالية للآيتين (15، 16) خاطبتهم فيها بمجموعهم (قرية) : لا تكرمون ، ولا تحاضّون ، وتأكلون التراث .. وعليه ، فما ذكر الله تعالى هذه السنّة في سورة الفجر ، إلا تحذيراً لقريش القرية ، وإنذاراً لهم ، لأن الحال الذي تمرّ به قريش - والذي تعالجه السورة - مشابه لحال تلك الأمم المضروب بها المثل.. وبأنهم إذا استمروا في طغيانهم وفسادهم سيصيبهم ما أصاب تلك الأمم : { إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14)} الْفَجْر .
- أما ما نلاحظه في خطاب السورة من تنقّله بين خطاب المجموع (الجماعة أو القرية) وخطاب الفرد (الإنسان) وهو عادة من الملأ ، فله فائدتان :

الأولى : التأكيد على أن المسؤولية أمام الله تعالى - في النهاية - هي مسؤولية فردية ، فقد عذّب الله تعالى القرية في الدنيا بسبب شيوع الفساد فيها ولم يُنكروه ، يعني " كَثُـر الخَبَث " ، كالقرى التي ضربها الله تعالى مثلاً . وفي الآخرة كذلك المسؤولية فردية : (وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى {23}) الفجر . وقوله : (وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً{95}) مريم .

والثانية : إبراز الدور القوي والمؤثر للأغنياء والملأ (الإنسان) ، ليس في مصير أتباعهم فقط ، بل في مصير القرية كلها . كما في قوله تعالى : (وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى{79}) طه . وقوله : (قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً {21}) نوح . حتى يتنبّه أهل القرى ، وليعلموا من هو الأحق بأن يُتّبع ، حتى لا يوردوا أنفسهم المهالك .

على التكريم أو الإهانة . وسبب مقولتهم الباطلة تلك ، توهّمهم وادّعاؤهم أن الله – سبحانه – هو الذي أراد أن يكون الغني غنياً لكرامته وشرفه ، والفقير فقيراً لوضاعته وهوانه ، فاعتقدوا ذلك وقالوه واعتذروا به لأنفسهم ، وتصرّفوا على أساسه ، كما في قوله تعالى على لسانهم :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ يس

الثانية : إن حال تفشي الفقر بين الناس ، بينما الأموال محصورة بأيدي فئة قليلة بعينها تحكم الناس ، هذا هو الفساد بعينه . وإن سببه المباشر هو **طغيانكم** أيها الملأ الأغنياء وظلمكم للفئات الضعيفة في المجتمع وتعدّيكم عليهم ، بسبب اعتقادكم الفاسد ذاك وتصرّفكم على أساسه ، لذلك نراكم تُكثرون **الفساد** في البلاد ، ومن إفسادكم :

– أنكم لا تكرمون اليتيم .. وهو الطفل الذي مات عنه أبوه وهو دون سن البلوغ . " وإكرام الْيَتِيم : سدُّ خلته ، وَحُسْنُ مُعَاملَتِه ، لِأَنَّهُ مَظِنَّةُ الْحَاجَةِ لِفَقْدِ عَائِلِهِ ..

– ولا يحث بعضكم بعضاً على إطعام مَن أصابته الفاقة والمسكنة ..

– وتعتدون على حقوق الضعفاء – كالنساء والأطفال – في المال الموروث ، فتأكلونه جميعاً بالباطل .. " وَقَدْ كَانَتِ الْأَمْوَالُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَتَدَاوَلُهَا رُؤَسَاءُ الْعَائِلَاتِ " .

– وأنكم تُحبّون المال حباً كثيراً يدفعكم إلى الحرص على جمعه والبخل بإنفاقه لمستحقيه . (أنظر تبيان سورة الماعون)

فعلى الجميع أن يعلموا – خاصة الضعفاء والمظلومين – أن هذا هو سبب الظلم والضنك الذي يعيشونه في قريتهم ومجتمعهم ..

4- (21– 30)، ثم زجْر الطغاة المفسدين وإنذارهم مرة أخرى : بأن ارتدِعوا عن تلك الأفعال وانتهوا عن هذا الطغيان والفساد [1] .. لما ينتظركم من الوعيد ، ليس في الدنيا فحسب ، بل هنالك عذاب ينتظركم أشدّ وأبقى في يوم عظيم .. يوم تُزلزل الأرض ويُكَسّر بعضُها بعضًا ، وجاء ربُّك – والملائكة صفوفًا صفوفًا – لفصل القضاء بين الفريقين [2] ..

1 - وحرف كَلّا زجر عن قول الإنسان : ربي أَكْرَمَن عند حصول النعمة. وقوله : ربي أهانن عند ما يناله تقتير، فهو ردع عن اعتقاد ذلك . فمناط الردع كِلا القولين لأن كل قول منهما صادر عن تأوّل باطل ، أي ليست حالة الإنسان في هذه الحياة الدنيا دليلاً على منزلته عند الله تعالى. وإنما يُعرف مراد الله بالطرق التي أرشد الله إليها بواسطة رسله وشرائعه، قال تعالى : (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً) إلى قوله : (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً) في سورة الكهف [103- 105] . فرُب رجل في نعمة في الدنيا هو مسخوط عليه ورب أشعث أغبر مطرود بالأبواب لو أقسم على الله لأبره . فمناط الردع جعل الإنعام علامة على إرادة الله إكرام المنعم عليه وجعل التقتير علامة على إرادة الإهانة .

2 - (وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً{22}) الفجر ، قال : ربّك ولم يقل : الله أو غيره من الأسماء الحسنى . وذلك ليبيّن أن ربّك الذي سيحكم بين الناس يوم القيامة ، هو ربّك الذي فعل بـ عاد ما فعل ، وأنه ربّك الذي صبّ العذاب الأليم على الطغاة المفسدين ، وأنه ربّك الذي هو لقريش بالمرصاد وأنه هو ربّك الذي سيحاسبهم ويجازيهم يوم القيامة .. وهذا فيه ما فيه من التسلية لرسول الله ومن معه من المؤمنين وزيادة صبرهم والتثبيت لهم على الحق ، لما في وصف ربّ من الإشعار بالولاية والتأييد ، ولما تؤذن به إضافته إلى ضمير المخاطب من إعزازه وتشريفه. أنظر (تبيان سورة الفيل) =>

ويومئذ يصير فريق إلى الجنّة وفريق إلى جهنّم .. وحينما يواجه الطاغي المُفسِد مصيره في العذاب الأليم في جهنّم [1] ، لن ينفعه الندم ولا التمنّي لو أنه قدّم في دنياه من الإيمان وإنفاق الأموال ما ينفعه في حياته الحقيقية ؛ الحياة الآخرة ..

أما المؤمن الطائع لأمر الله ، الإله الحق ، المتّبع لرسول الله .. فكما كانت نفسه مطمئنّة مستكينة بالإيمان بالله واليوم الآخرة في الدنيا .. وغير قلقة ، وعلى ثقة بوعد الله بالنصر والتأييد .. رغم اضطراب الأحوال وصعوبتها .. فنفسه ستكون مطمئنة على مصيرها عند لقاءه تبارك وتعالى يوم القيامة ، حيث يُقال لها : ادخلي في عداد عبادي الصالحين ، وادخلي معهم جنتي .

هذا ، ووصف نفس المؤمن أنها " مطمئنة " ، فيه تعريض بالمشركين ، وخاصة الضعفاء والفقراء الذين لا يزالون على الشرك وهم يعانون ما يعانون من ضيق العيش والضنك والقلق .. من أن الأمان والإطمئنان الحقيقي هو في رضوان الله تبارك وتعالى .. في العبودية لله واتباع أمره والتقرب إليه .. وليس في الدنيا والغنى .. فالله هو الربّ الحق وهو الرازق المالك المتصرّف في هذا الوجود .. والفوز والأمان والإطمئنان الحقيقي هناك في جنة الله .. فاتبعوا الله ورسوله لتنجوا في الدنيا والآخرة .

بمعنى : أن رفض عامة الناس دعوة الله تعالى لهم ، إلى طاعة أمره واتباع رسوله .. وقبولهم طاعة واتباع أولئك الأغنياء االذين طغوا وأفسدوا ، واتخاذهم أسياداً ومتبوعين .. هو سبب " المعيشة الضنكى " التي يحيونها في قريتهم (مجتمعهم) ، ومن أبرز مظاهرها " الظلم الإجتماعي " والتعدّي على حقوق الضعفاء، كعقوبة وجزاء عاجل من الله تعالى لهم .. يعني في سياق " خطاب النذارة " .

بالنسبة للجماعة المؤمنة :

إضافة لما سبق : فإن ((من وراء المصارع كلها – للأمم الطاغية المفسدة – تفيض الطمأنينة على القلب المؤمن وهو يواجه الطغيان في أي زمان وأي مكان . ومن قوله تعالى: « إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ » تفيض

هذا أولاً . وثانياً :(وَجَاء رَبُّكَ ..) : لا يجوز - مطلقاً ، لا عقلاً ولا شرعاً - البحث في كيفيات أفعال الله تعالى أو النظر في كيفية تعلقها بذات الله سبحانه .. كالقول : بأن ذلك الفعل لله ، على الحقيقية أو على المجاز .. لأن القول بأي منهما يقتضي قطعاً أن تكون الذات الفاعلة مُحسّة مُدركة ، ذلك أن القرائن الصارفة للمجاز مردّها إلى الحسّ ، أي إلى أمر يقع تحت الحسّ .. والله عزّ وجلّ (لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ{103}) الأنعام . و(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ{11}) الشورى . فذات الله وكيفيات أفعاله - سبحانه وتعالى - من الغيب المطلق الذي لا سبيل لأحد العلم به . فالبحث فيها من تلك الزاوية غير وارد هنا ، و يدخل في النهي الوارد في قوله تعالى : (وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً{36}) الإسراء . إنما البحث والنظر يكون فقط في دلالة ألفاظ ذلك الفعل في سياقه ، لا غير ، كما هو في معهود كلام العرب وكما هو في معهود القرآن ، دون الدخول في بحث كيفية الفعل مطلقاً . فالآيات (21، 22، 23) جاءت كل آية لتدل على موقف أو مشهد من مواقف يوم القيامة ، فالأولى : تُشير إلى مشهد زوال الكون والحياة الدنيا . والثانية : موقف الحساب بين يدي الله جلّ وعلا ، ثم الثالثة وما بعدها : تبيّن المصير النهائي ، الكافرون في جهنّم والمؤمنون في جنّة الله . هذا والله أعلم وأحكم .

للتفصيل في تحقيق المنهج الحق في النظر إلى أسماء الله جلّ ثناؤه وأفعاله وصفاته ، ومختلف قضايا " الغيب " الأخرى أنظر بحث (مفاهيم ومصطلحات رسالية) - وعنده مفاتح الغيب .

1 - ((قال الحسن من طريق معمر : " قد علم الله أن في الدنيا عذاباً ووثاقاً ، فقال : فيومئذٍ لا يعذِّب مثل عذابه أحد في الدنيا، ولا يوثِق مثل وثاقه أحد في الدنيا ")) . (تفسير جزء عم) - مساعد الطيار . نقول : وفي هذا تعريض بقريش - بسبب طغيانهم وإفسادهم - في إيذائهم لرسول الله والمؤمنين معه والفئات الضعيفة . يعني كأن الله تعالى يقول لهم : في مقابل ما تفعلونه بأوليائي وبالمستضعفين من عذاب ووثاق في الدنيا ، فإن لكم عندي عذاب ووثاق لم يعمله أحد في الدنيا قط ، ولم تشاهدوا مثله ولم تسمعوا عن مثله ، فليس له مثيل . نعوذ بالله ، الرحمن الرحيم ، من جميع سخطه وعذابه .

طمأنينة خاصة ، فربّك هناك ، راصد لا يفوته شيء ، مُراقِب لا يندّ عنه شيء . فليطمئنّ بال المؤمن ، ولينَمْ ملء جفونه ، فإن ربه هناك! .. بالمرصاد.. للطغيان والشر والفساد! ..
وإضافة الفعل إلى (رَبَّكَ) فيها للمؤمن طمأنينة وأُنس وراحة ، وبخاصة أولئك الذين كانوا في مكة يعانون طغيان الطغاة ، وعسف الجبارين من المشركين ، الواقفين للدعوة وأهلها بالمرصاد ..
وهكذا نرى هنا نماذج من قَدَر الله في أمر الدعوة ، غير النموذج الذي تعرضه سورة البروج لأصحاب الأخدود . وقد كان القرآن– ولا يزال– يربي المؤمنين بهذا النموذج وذاك ، وفق الحالات والملابسات ، ويُعد نفوس المؤمنين لهذا وذاك على السواء ، لتطمئن على الحالين وتتوقع الأمْرين ، وتكل كل شيء لقَدَر الله يجريه كما يشاء)) [(1)] .

***

11- (سورة الضحى)

ربط السورة بخط السير :

بدايةً ، هذه بعض الروايات الصحيحة في سبب نزول آيات سورة الضحى :

- عند البخاري : ((اشتكى رسول اللَّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، فجاءت امرأة فقالت : يا محمّد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك ، لم أرَه قَرِبك منذ ليلتين أو ثلاثاً فأنزل اللَّه عزّ وجلّ : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾)) .
- وعنده أيضاً : (احتَبَسَ جبريلُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على النبيّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالت امرأةٌ من قريشٍ : أَبْطَأَ عليهِ شيطانُهُ ، فنزلتْ : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾).
- وفي لفظ لمسلم ، عن جندب بن سفيان : (أبطأ جبريل على رسول اللَّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال المشركون : قد وُدِّع محمّد . فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾) .
- وعند أحمد : (عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ قَيْسٍ، قَالَ: سَمِعْتُ جُنْدُبًا الْعَلَقِيَّ يُحَدِّثُ ، " أَنَّ جِبْرِيلَ أَبْطَأَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجَزِعَ ". قَالَ: فَقِيلَ لَهُ [يعني ؛ قد وُدِّع محمّد أو ربه قلاه] : قَالَ : فَنَزَلَتْ : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾) [(2)] .

---

1 - (في ظلال القرآن) - سيد قطب

2 - مسند أحمد (18806) ، إسناده صحيح على شرط الشيخين ، إلا أن شيخ أحمد هاهنا وكيع ، وهو ابن الجراح الرؤاسي. وأخرجه البخاري (1125). ومسلم (1797) (114) ، والترمذي (3345) قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح. يُرجى العودة إلى فتح الباري لابن حجر ، لمعرفة مزيد من التفصيل والتقييم للروايات الواردة كأسباب نزول .

وكما هو ظاهر الروايات السابقة ، أن المشركين قد علموا بإبطاء الوحي على رسول الله ، فاستغلوا ذلك ، وكأنهم كانوا ينتظرون أي فرصة للنيل من رسول الله – وخاصّة الملأ منهم والذين أظهروا عداءً شديداً له – وأذاعوا ذلك في مكة وقالوا في سخرية وشماتة : إن ربّه قد قلاه وودعه ، وإن منهم من عيّره بذلك مواجهة . وقد أثّر كلامهم ذاك في نفس رسول الله وأحزنه ، كما في رواية أحمد وغيره : (أَنَّ جِبْرِيلَ أَبْطَأَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجَزِعَ) .. وخاصة أنه صار حديثهم عامّة (فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ ..) ، وليس فقط حديث تلك المرأة من قريش وحدها ..

فنزلت سورة الضحى ، وجاء خطاب الله جلّ ثناؤه فيها يدور حول تثبيت فؤاد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم – ومَن معه من المؤمنين – وتعزيز ثقتهم بالله عزّ وجلّ .. والرد على الشامتين .. فخلاصة القول في معنى آيات السورة (توجيه معانيها) : أن مَن آواك في يتمك ، وهداك من ضلالك ، وأغناك من فقرك ، لا يتركك في مستقبل أمرك .. فقد أنعم عليك بتلك النعم الجليلة قبل أن تصير رسولاً ، فكيف يهجرك بعد أن اختارك لتبليغ رسالته . فمقصود القَسَم ، وما تبعه من البشارة ، وذكر النعم الجليلة .. إنما هو تأكيد المعنى الوارد في جواب القسم : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ الضحى ، والذي يُعتبر مركز الثقل في السورة ، والمحور الذي تدور حوله معانيها ؛ أي ما تركك ربك وما أبغضك .. تثبيتاً وتطميناً له ، ورداً على الشامتين .. فالمقام مقام التطمين والبشارة والتثبيت [1]..

هذا ، والمفسرون متفقون على أن السورة مكيّة (المرحلة الأولى) ، إلا أنهم اختلفوا في تعيين زمن النزول ، في أولها أو وسطها أو آخرها ؛ فالروايات الثابتة ليس فيها إشارة إلى ذلك . وعلى اعتبار أن سبب

---

1 - كثير من المفسرين وجّه معنى الآيات الأخيرة من السورة باتجاه الشكر، أي شكر الله تعالى على ما سبق وذَكَر من نعمه. ومع أن هذا الفهم له وجاهته ، إلا أن المعنى الأصلي الذي ذُكرت له تلك النعم ، هو ما أثبتناه ، أي تأكيد المعنى المقسَم عليه في السورة : (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى{3}). أي في مقام التطمين والبشارة والتثبيت.. وهذا هو مقصود قوله تعالى: (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ{11}) أي : فتحدّث دائماً - مع كل الناس، مؤمنهم وكافرهم - عن إنعام الله عليك وكيف أنه لن يتخلى عنك .. أي كما تحدث الله تعالى معك حول نعمه عليك في هذه السورة .. وذلك تطميناً وتثبيتاً للمؤمنين ، وتبكيتاً وتكذيباً للكافرين . وهو السياق نفسه الذي نزلت فيه التكاليف : { فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (10) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11)} فهذه الأعمال يجب أن تظهر على نبي الله بوصفه رسولاً من الله وحاملاً لرسالته ، داعياً للدين الجديد في مجتمع مكة الجاهلي . والواقع أن هذا الأمر له أثران : الأول ؛ ذاتي على المؤمنين أنفسهم من باب استمرار التذكير بنعم الله تعالى عليهم واستشعار قيمتها عند رؤيتهم لمن هو دونهم ، الأمر الذي يستدعي الشكر الدائم والمستمر لله جلّ وعلا . والثاني ؛ إن ظهور هذه الأخلاق على المؤمنين حاملي رسالة الله للناس في المجتمع الجاهلي فيه تعريض بذلك المجتمع الذي طابعه العام السائد فيه هو ظلم تلك الفئة من الناس وأكل حقوقهم ، لأن فيه مخالفة واضحة لتلك الأجواء السائدة في المجتمع الجاهلي . فهي ليست أعمالاً فردية ، أو من باب أعمال الجمعيات الخرية وكفالة اليتيم .. إلخ ، كما هو معروف الآن .. بل هو الأمر للمؤمنين بالتميّز عن واقع المجتمع الجاهلي والسمو على أخلاقه وأعرافه السائدة ، تزكيةً لهم وإعداداً ليكونوا أمناء الله على دينه في أرضه ، والشهداء على الناس .. بوصفهم أمة ممكّن لها في الأرض (تحقيق غاية الرسالة) . ومن جهة أخرى ، فهذا يؤآزر ويقوّي ما ورد في السور الأخرى في هذا السياق .. مثل سور : الماعون، الفجر ، القيامة .. من كشف فساد الملأ وأنهم سبب الظلم الحاصل في المجتع بأشكاله وألوانه .. وذلك في إطار " البشارة والنذارة " : من باب أن ترك عبادة الله وعدم اتباع رسوله ، وطاعة واتباع ما دونه من الملأ والأهواء، ودين الآباء .. هي أصل كل فساد وظلم في حياة الناس ، كعقوبة عاجلة من الله .. فاعبدوا الله وحده وأخلصوا له الدين ، إني لكم ناصح أمين.

وهذا أصل عام في النظر إلى التكاليف الشرعية (الأحكام الشرعية) التي نزلت في " المرحلة الأولى " ، في مثل سُوَر: المؤمنون ، الفرقان ، الأنعام ، الإسراء .. والتي نزلت في طور متأخر منها . ولذلك الأصل العام ، تفاصيل سنتعرّض لها عند تبيان تلك السور وغيرها ، بإذن الله تعالى .

نزولها : تأخُّر جبريل على رسول الله ، فبعضهم قال : هذا في فترة الوحي الأولى بعد سورة العلق .. وآخرون في تأخر الوحي الوارد في سبب نزول سورة الكهف ، والذي لم يصح له سند .. الخ

ولكن إذا نظرنا إلى السورة من خلال التتابع السنني لأطوار السير بالرسالة – كما بيّناه في " التمهيد" من هذا البحث – نرى أن السورة ترتبط في طور متأخر من " المرحلة الأولى " ، بل على الأغلب ، في أواخر الطور الرابع ، وذلك :

1– أن ما ورد في السورة من أحكام وأفكار وأسلوب بيانها (محتوى السورة) ، وفي إطار ما أجملناه سابقاً من توجيه معانيها ، تأتي مناسبة كمعالجات لما قد يقع به المسلم (الجماعة المسلمة) ، مِن ظنّ وكأن الله – سبحانه تعالى – قد تخلى عنه وتركه بسبب معصية أو خروج عن المنهاج .. وذلك عندما يتعرّض المسلمون إلى مواقف ابتلاء شديدة وفتنة قوية ، وشعورهم بعدم وجود النصير – وتأخر الوحي الوارد كسبب نزول ، يعزز مثل ذلك الشعور – كالمواقف التي حصلت مع رسول الله في وقت الحصار والمقاطعة ، أو بعده من موت أبي طالب ووفاة خديجة رضي الله عنها .. يعني فقدان النصير .. وخاصة ما حصل معه من بعد ذهابه إلى الطائف (الكرب العظيم) .. ودعاءه المؤثّر الذي ناجى به ربه جلّ وعلا : {**اللهمَّ إليكَ أشكو ضعفَ قوتِي وقلةَ حيلتِي وهوانِي على الناسِ ، يا أرحمَ الرحمينَ إلى منْ تكلُني إلى عدوٍّ بعيد يَتَجَهَّمُنِي [أهل الطائف]، أو إلى قريبٍ ملكتَهُ أمري [أهل مكة] ، إنْ لمْ تكنْ ساخطًا عليَّ فلا أُبالِي غيرَ أنَ عافيتَكَ أوسعُ لِي ، أعوذُ بنورِ وجهِكَ الكريمِ الذي أضاءَتْ له السماواتُ والأرضُ ، وأشرقتْ لهُ الظلماتُ وصلُحَ عليهِ أمرُ الدنيا والآخرةِ ، أنْ تُحِلَّ عليَّ غضبَكَ ، أو تُنزِلَ عليَّ سخطَكَ ، ولكَ العُتْبَى حتى تَرضَى ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بكَ** } [1] .

وكأن سورة الضحى جاءت جواباً من الله تبارك وتعالى ، لهذا الدعاء من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، بما في السورة من قَسَم وأساليب توكيد ، ووعد بتفريج الكرب ، وتذكير بما سبق من الإنعام والإفضال .. وكان من أول بشائر التأييد والتثبيت نزول جبريل عليه السلام ومعه ملك الجبال لإنزال العذاب بهم .. ثم كان إسلام الأنصار .. وإسلام النفر من الجن .. ورحلة الإسراء والمعراج .. ثم بيعة العقبة الثانية .. ثم الهجرة إلى المدينة .. واستمر الأمر في زيادة الخير واضمحلال الشر .. حتى إكمال الدين لله [2] .. كما قال الشيخ السعدي في بيان قوله تعالى : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ الضحى ، ((أي : كل حالة متأخرة من أحوالك ، فإن لها الفضل على الحالة السابقة)) .

2– جاء في رواية البخاري أن رسول الله " لم يقم ليلتين أو ثلاثاً " وفي رواية أخرى " لم يقم ليلة أو ليلتين " [3] .. ويُفهم منه أن رسول الله كان من عادته – في تلك الفترة – أنه يقوم كل ليلة وباستمرار..

1 - أنظر (صحيح السيرة) - إبراهيم العلي .
2 - أنظر (فصل " الطور الرابع ") - في ما سبق من البحث .
3 - صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم 4983 .

حتى يُلاحظ أنه لم يقم ليلة أو ليلتين أو ثلاث . والقيام بهذا الشكل المكثّف لعله كان بعد نزول الأمر بوجوب قيام الليل في سورة المزمل ، والذي كان في أواخر " الطور الرابع " .

ومن هنا يمكن القول : بأن (مُنَاسَبَةُ الْقَسَمِ بِ الضُّحى وَاللَّيْلِ ... أَنَّ اللَّيْلَ وَقْتُ قِيَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْقُرْآنِ ، وَهُوَ الْوَقْتُ الَّذِي كَانَ يَسْمَعُ فِيهِ الْمُشْرِكُونَ قِرَاءَتَهُ مِنْ بُيُوتِهِمُ الْقَرِيبَةِ مِنْ بَيْتِهِ أَوْ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ . وَلِذَلِكَ قُيِّدَ اللَّيْلِ بِظَرْفِ (إِذَاسَجَىٰ) [أي إذا سكن بالخلق واشتد ظلامه] فَلَعَلَّ ذَلِكَ وَقْتُ قِيَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢﴾ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ ﴾ المزمل)[1].

3- خطاب السورة شبيه بخطاب الله تعالى لرسوله في سورة الشرح ((فَمَضْمُونُهَا شَبِيهٌ بِأَنَّهُ حُجَّةٌ عَلَى مَضْمُونِ سُورَةِ الضُّحَى ؛ تَثْبِيتًا لَهُ بِتَذْكِيرِهِ سَالِفَ عِنَايَتِهِ بِهِ ، وَإِنَارَةِ سَبِيلِ الْحَقِّ ، وَتَرْفِيعِ الدَّرَجَةِ ، لِيَعْلَمَ أَنَّ الَّذِي ابْتَدَأَهُ بِنِعْمَتِهِ مَا كَانَ لِيَقْطَعَ عَنْهُ فَضْلَهُ ، وَكَانَ ذَلِكَ بِطَرِيقَةِ التَّقْرِيرِ بماض يعمله النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))[2] ..

فقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ﴿٦﴾ ﴾ الشرح ، هو مركز الثقل في سورة الشرح ومحورها الذي تدور حوله معانيها .. فكأن الله جلّ ثناؤه يقول لرسوله : " خوّلناك ما خوّلناك فلا تيأس من فضل الله، ولا تكترث بأذى قريش ، فإن الذي وهب لك هذه النعم الجليلة ، مستمر في معيّتك وتأييدك وسينصرك عليهم .. فإن مع العسر الذي أنت فيه ، يسراً " . فأجواء سورة الضحى قريبة جداً لأجواء سورة الشرح ، والتي تأتي متأخرة في " المرحلة الأولى"[3] .

4- أن قوله تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ الضحى ، كقوله تعالى في سورة مريم :

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴿٦٥﴾ ﴾ مريم[4]

((أخرج البخاري في باب التفسير ، والإمام أحمد ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم

1 - أنظر (التحرير والتنوير) - ابن عاشور .

2 - (التحرير والتنوير) - ابن عاشور

3 - أنظر (تبيان سورة الشرح) .

4 - { وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً }،أي ومَا نَسِيَكَ رَبُّكَ ..(.. فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ) أي ، وإذ قد علمت أنه الربّ المسيطر على ما فى السموات والأرض وما بينهما، القابض على أعنّتهما ، فاعبده ودُم على مشاقّ العبادة وشدائدها، فِي الْأَدَاءِ وَالْإِبْلَاغِ .. وإياك أن يصدّك عنها ما يحدث من إبطاء الوحى وتقوّل المشركين الخرّاصين عن سببه . فَإِنْ قِيلَ : لِمَ لَمْ يَقُلْ وَاصْطَبِرْ عَلَى عِبَادَتِهِ بَلْ قَالَ :(وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ) ، قُلْنَا : لِأَنَّ الْعِبَادَةَ جُعِلَتْ بِمَنْزِلَةِ الْقِرْنِ فِي قَوْلِكَ لِلْمُحَارِبِ : اصْطَبِرْ لِقِرْنِكَ أَيِ اثْبُتْ لَهُ فِيمَا يُورِدُ عَلَيْكَ مِنْ شَدَّاتِهِ. وَالْمَعْنَى أَنَّ الْعِبَادَةَ - وأعظمها تبليغ الرسالة - تُورِدُ عَلَيْكَ شَدَائِدَ وَمَشَاقَّ فَاثْبُتْ لَهَا وَلَا تَهِنْ .. يشبه قوله تعالى : (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ {112}) هود .. ثم أكد الأمر بالعبادة بقوله : (هل تعلم له سميا؟) أي هل تعلم له شبيها ومثلا يقتضى العبادة والطاعة لأمره ؟ لكونه مُنْعِماً متفضلاً بجليل النعم وحقيرها ، فيجب تعظيمه غاية التعظيم ، بالاعتراف بربوبيته والخضوع لسلطانه. أنظر (مفاتيح الغيب) - الرازي . و (تفسير المراغي) .

لجبرائيل: « ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ » قَالَ ، فَنَزَلَتْ : {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ} .. وقال العوفي عن ابن عباس : احتبس جبرائيل عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَوَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك وحزن ، فأتاه جبرائيل وَقَالَ : يَا محمّد {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ} الآية ...

قَالَ مُجَاهِدٌ والسُّدِّيُّ: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ كَقَوْلِهِ : { وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ })) [1].

وهذا يشير إلى أن اجواء سورة الضحى مشابهة أو قريبة من الأجواء العامة لسورة مريم ، والتي تأتي متأخرة في " المرحلة الأولى " .

5- هذا ، وما واجهه رسول الله والمؤمنون معه من عسر وشدة ، يذكّرنا بما واجهه أهل الإيمان من قبلهم ؛ رسل الله السابقين وأتباعهم ، مثل ما حصل مع نبي الله لوط عليه السلام عند إصرار قومه على الكفر ، وتماديهم بفعل المنكر – قُبيل إنزال العذاب بهم – وما شعر به من فقدان النصير نتيجة ذلك . يقول تعالى في سورة هود : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ ، أي: يوم شَدِيدٌ بَلَاؤُهُ وكرْبُه ... إلى قوله : ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ ، أي ، ((يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِراً عَنْ نَبِيِّهِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّ لُوطًا تَوَعَّدَهُمْ بِقَوْلِهِ : { لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً} الآية ، أَيْ لَكُنْتُ نَكَّلْتُ بِكُمْ وَفَعَلْتُ بِكُمُ الْأَفَاعِيلَ مِنَ الْعَذَابِ وَالنِّقْمَةِ وَإِحْلَالِ الْبَأْسِ بِكُمْ ، بنفسي وعشيرتي . ولهذا ورد في الحديث الصحيح : « رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى لُوطٍ لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ – يَعْنِي اللَّهَ عزّ وجلّ – فَمَا بَعَثَ اللَّهُ بَعْدَهُ مِنْ نَبِيٍّ إلاَّ في ثروة من قومه » . " فلما ضاق الأمر ، وبلغ الكرب اشده " ، عِنْدَ ذَلِكَ أَخْبَرَتْهُ الْمَلَائِكَةُ أَنَّهُمْ رُسُلُ اللَّهِ إليه ، وأنهم لا وصول لهم إليه : ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾ هود)) [2] ..

وكما في قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾ يوسف . يقول الشيخ السعدي في تفسيره : ((يخبر تعالى أنه يرسل الرسل الكرام ، فيكذّبهم القوم المجرمون اللئام ، وأن الله تعالى يمهلهم ليرجعوا إلى الحق ، ولا يزال الله يمهلهم حتى إنه تصل الحال إلى غاية الشدة منهم على الرسل . حتى إن الرسل – على كمال يقينهم وشدة تصديقهم بوعد الله ووعيده – ربما أنه يخطر بقلوبهم نوع من الإياس ، ونوع من ضعف العلم والتصديق ،

1 - أنظر (تفسير ابن كثير).
2 - أنظر (مختصر تفسير ابن كثير) - الصابوني .

فإذا بلغ الأمر هذه الحال { جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ } وهم الرسل وأتباعهم ، { وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ } أي : ولا يُردّ عذابنا ، عمن اجترم وتجرأ على الله : ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ﴿١٠﴾ ﴾ الطارق)) .

مناط السورة :

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ الضحى ، شعور المسلم (الجماعة المسلمة) وكأن الله – سبحانه تعالى – قد تخلى عنه ، وخاصة في حالة تعرّضه للابتلاء الشديد والفتنة القوية ، وشعوره بعدم وجود النصير . وسبب النزول مثالاً ، فالعبرة بعموم النص لا بخصوص السبب .

المعالجة :

جاء خطاب الله جلّ ثناؤه في السورة – كما ذكرنا سابقاً – يدور حول تثبيت فؤاد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، ومعه الجماعة المسلمة ، وتعزيز ثقتهم بالله عزّ وجلّ .. فخطاب رسول الله خطاب لأمته ، مع مراعاة خصوصية مقام النبوّة وعموم مقام الإيمان . وتفصيل ذلك :

1- (1-5) ، أكّد رب العزة والجلال بالقسم بالضحى وهو صدر النهار حين ترتفع الشمس ، وما فيه من الضياء واجتماع الناس وكمال الأنس ، وبالليل إذا أظلم وستر كل شيءٍ وسكن الخلق – كدليل ظاهر على قدرة الله جلّ وعلا على تغيير الأحوال وتدبير أمور الخلق – بأنه (جواب القسم) :

- ✓ ما تخلّى الله تبارك وتعالى عن عبده المؤمن – ممثلاً في رسول الله – ولا تركه [1]..
- ✓ وأن عَاقِبة أَمْرِهِ خَيْرٌ مِنْ بِدَايَتِهِ ، سواء في الدنيا أم في الآخرة [2] . (فَاللَّامُ فِي "الْآخِرَةُ" و "الْأُولَى" لَامُ الْجِنْسِ ، أَيْ كُلُّ آجِلِ أَمْرِهِ هُوَ خَيْرٌ مِنْ عَاجِلِهِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَفِي الْأُخْرَى . وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ : " لَكَ " لَامُ الِاخْتِصَاصِ ، أَيْ خَيْرٌ مُخْتَصٌّ بِكَ ، وَهُوَ شَامِلٌ لِكُلِّ مَا لَهُ تَعَلُّقٌ بِنَفْسِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذَاتِهِ وَفِي دِينِهِ وَفِي أُمَّتِهِ . فَهَذَا وَعْدٌ مِنَ اللهِ بِأَنْ يَنْشُرَ دِينَ الْإِسْلَامِ وَأَنْ يُمَكِّنَ أُمَّتَهُ مِنَ الْخَيْرَاتِ الَّتِي يَأْمُلُهَا النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُمْ) .
- ✓ ولسوف يمنحه ربه عطاءً جزيلاً ، ونعمة كبيرة في الدنيا والآخرة ، حتى يرضى [3] . " وَحَرْفُ الِاسْتِقْبَالِ لِإِفَادَةِ أَنَّ هَذَا الْعَطَاءَ الْمَوْعُودَ بِهِ مُسْتَمِرٌّ لَا يَنْقَطِعُ " .

---

1 - فلعامّة المؤمنين حظهم من ذلك : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ{47}) الروم . (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ{38}) الحج

2 - (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَّن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ{21}) الجاثية .

3 - (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ{27} ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً{28} فَادْخُلِي فِي عِبَادِي{29} وَادْخُلِي جَنَّتِي{30}) الفجر . ((وفي الصحيح : " يقول الله تعالى : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ : لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ربنا وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟ فَيَقُولُ: إِنِّي أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقُولُونَ: وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُ : أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا ")) تفسير ابن كثير .

" فَكَانَ مُفَادُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ تَعْمِيمَ الْعَطَاءِ كَمَا أَفَادَتِ الْجُمْلَةُ التي قَبْلَهَا تَعْمِيمَ الْأَزْمِنَةِ ".. وهذا فيه ما فيه من البشارة والتطمين لرسول الله ومن معه من المؤمنين ، أثناء حملهم لرسالة الله وعبوديتهم له تبارك وتعالى ، فلا يحزنوا مما يقع لهم .. وما عليهم إلا أن يثبتوا ويصبروا على أمر الله ؛ الشرعي والقدري.

2- (6-8)، وبعد التأكيد بالقسم ، يذكّر الله تبارك وتعالى المؤمن – زيادة في التوكيد – بنعمه السابقة السابغة .. فكيف يتخلّى الله جلّ وعلا عن عبده المؤمن (الجماعة المؤمنة) وما تركه وما أخلاه من قبل من رحمته ورعايته وإيوائه ؟ .. مستخدماً أسلوب " الاستفهام التقريري " بقصد التذكير بما سبق الإنعام به كدليل على أنه ما تخلّى عنه ، وأن ما وعده به سيتحقق .. وأما النعم الكبرى المتعلقة بشخص رسول الله والتي سبق وأنعم بها عليه :

- ✓ ألم تكن يتيماً تحتاج إلى مَن يرعاك ، فجعل لك مكاناً ترجع إليه ، ومَن يحسن القيام بأمرك ؟ .. وكان ذلك برعاية جده له ثم عمه .
- ✓ ووجدك حائراً لا تقنعك المعتقدات حولك ، فهداك إلى منهج الحق ، كما في قوله تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ ﴾ الشورى

- ✓ ووجدك فقيراً لا مال لك ، فأغناك بمال خديجة ومال أبي بكر ، رضي الله عنهما ، قال رسول الله : **(ما نفعَني مالٌ قطُّ ما نفعَني مالُ أبي بَكرٍ)** [1] .

3- (9-11) ، أما وقد علمت ما سبق وَأَقْرَرْتَ به ، فَعليكَ القيام بما يلي :

- ✓ أن تواسي اليتيم ، وأن تكرمه ، وأن تكون رفيقا به..
- ✓ وأن تفتح صدرك للسائل الذي يسألك العون ، فلا تزجره ولا تغلظ له بالقول .. بلْ رُدَّهُ ردًّا جميلاً .
- ✓ ﴿ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴿١١﴾ ﴾ الضحى ، والتحديث بالشيء : الإخبار به ، والحديث عنه . أي ونِعَم ربّك فخُصها بالكلام عنها ، وإذاعتها بين الناس [2] . والمعنى : فتحدّث دائماً – مع كل الناس ، مؤمنهم وكافرهم – عن إنعام الله عليك وكيف أنه لن يتخلى عنك .. أي كما تحدث الله تعالى معك حول نعمه عليك في هذه السورة ..

هذا ، والسياق الذي جاءت فيه هذه الأحكام الثلاثة الأخيرة هو معالجة " مناط السورة " : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ الضحى .. أي تطميناً وتثبيتاً للمؤمنين ، وتبكيتاً وتكذيباً للكافرين . فهذا هو " سياق السورة "

1 - عن أبي هريرة ، في صحيح الجامع - الصفحة أو الرقم 5808 :

2 - فـ (نعمة) نكرة مفردة تفيد العموم ، أي كل نعمة من ربك . وحذف مفعول (فَحَدِّثْ) يفيد العموم ، أي كل أحد .

الذي جاءت فيه هذه التكاليف . وعليه :

- ✓ فالأمر بإكرام اليتيم و بالإحسان للسائل ، ينضوي تحت عملية تزكية المؤمنين وإعدادهم .. الأمر الذي يجعلهم يَسْمُون على أخلاق المجتمع الجاهلي وأعرافه السائدة ، والمتناقضة مع أوامر الله ، فيتميّز المؤمنون عن واقعهم الجاهلي .. وهذا فيه تعريضٌ بالمجتمع الجاهلي بالإشارة إلى واقعهم السيّء ، وخاصة أغنياءه وكبراءه الذين يغلبون اليتيم ويذلونه ويظلمونه .. والسائل يزجرونه .. وقد بيّن الله جلّ وعلا – في أكثر من سورة – أن من طبائع الذي لا يعبده ولا يؤمن باليوم الآخر ، أنه جبّار وظالم ولا يرحم ضعاف الناس من الفقراء والمساكين والأيتام [1] .
- ✓ والأمر بالتحديث بما أنعَم الله تعالى على رسوله الكريم وما وعده به من كرامة ، وإذاعته بين كل الناس .. فيه تكذيب لما أشاعه الكافرون من دعوى " أن محمّداً ودّعه ربه " .. وتبكيت لهم " بالتأكيد على أَنَّ مَا وَعَدَ اللَّهُ بِهِ رسوله مُحَقَّقُ الْوُقُوعِ ، قِيَاسًا عَلَى مَا ذَكره مِنْ مُلَازَمَةِ لُطْفِهِ بِهِ فِيمَا مَضَى ، وَهُمْ لَا يَجْهَلُونَ ذَلِكَ ، عَسَى أَنْ يُقْلِعُوا عَنِ الْعِنَادِ وَيُسْرِعُوا إِلَى الْإِيمَانِ ، وَإِلَّا فَإِنَّ ذَلِكَ مَسَاءَةٌ تَبْقَى فِي نُفُوسِهِمْ، ستعقبها حسرة وندم .. وفيه أيضاً ، امْتِنَانٌ عَلَى النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَقْوِيَةٌ لِاطْمِئْنَانِ نَفْسِهِ – والمؤمنين – بِوَعْدِ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاه " [2].

وفي المحصلة ، على المؤمن حامل الرسالة – خاصة في المواقف الصعبة والعسيرة – الثبات والاستقامة على أمر الله وأن يعمل الخير في المجتمع وخاصة مع الضعفاء والمساكين ، وأن يتصف بفعل الخير دائماً .. وأن يُحدّث الناس بما عَرفْ وعَلم من إنعام الله عزّ وجلّ عليه ، وأهمها الهداية والتوفيق إلى حمل رسالته .. وأن يذكّر الذين هم في مثل حاله ليعلموا ما علم ، وليجدّدوا ثقتهم بالله ربهم عزّ وجلّ ، فهو المنعم المتفضّل في سابق أمرهم فكيف يتخلى عنهم في حاضر أمرهم ومستقبلهم ، وقد أصبحوا من أوليائه وحملة رسالته ؟! فهو عزّ وجلّ نعم المولى ونعم النصير لهم .. فليصبروا ، وليستقيموا على أمر الله تبارك وتعالى .

***

1 - أنظر مثلاً : (تبيان سور : الفجر ، الماعون) .
2 - أنظر (التحرير والتنوير) - ابن عاشور

12- (سورة الشرح)

ربط السورة بخط السير:

السورة تأتي في أواخر الطور الرابع ، وذلك :

1- إن قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ۝٦ ﴾ الشرح ، هو مركز الثقل في السورة ومحورها الذي تدور حوله معانيها .. فكأن الله جلّ ثناؤه يقول لرسوله : " خوّلناك ما خوّلناك فلا تيأس من فضل الله ، ولا تكترث بأذى قريش ، فإن الذي وهب لك هذه النعم الجليلة ، مستمر في معيّتك وتأييدك وسينصرك عليهم .. فإن مع العسر الذي أنت فيه ، يسراً " .. وفي الآيتين الأخيرتين يقول له : " لمّا تقرر ما سبق ، فإن عليك أن تُشغل نفسك – ومَنْ معك – في الأعمال الصالحة ، فإذا فرغت من عملٍ من أعمال الخير ، أن تباشر القيام بعمل آخر " .

هذا ، وتأكيد الخبر بحرف إنّ ، وبتكرار ألفاظه مرتين بأنه سيكون مع العسر يسرا ، يشي بأن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، كان يلقى صداً وعسراً شديدين ، وأنه كان يعتلج في نفسه ، بسبب ذلك ، همّ وغمّ وقلق .. فكان في حاجة إلى عون ومدد ، وزاد ورصيد .. مما اقتضى هذا التذكير وهذا التوكيد بكل ضروب التوكيد ، وهذا الاستعراض لمواقع العناية والرعاية .. فالأمر الذي يُثقل على نفس رسول الله هكذا ، لا بد أنه كان أمراً عظيماً [1]. وهذا يذكّرنا بالأحوال الصعبة العسرة في سيره بحمل الرسالة التي واجهها رسول الله في أواخر " المرحلة الأولى" (المكيّة) ، ومن أشدها فترة ما بعد وفاة عمه أبي طالب وزوجه خديجة رضي الله عنها ، وفقدان النصير .. ومن ثم تجرّؤ الملأ من قريش على إيذائه بما لم يستطيعوه من قبل ، حتى منعوه عن المسجد الحرام .

2- وقوله تعالى : ﴿ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ۝٣ ﴾ الشرح ، أي خففنا عنك حملك الثقيل الذي أثقل ظهرك وأوهنه وأتعبه حتى سَمع له نقيض .. والاسم الموصول نعت للوزر ، مما يشير إلى وزر معيّن في تبليغ الرسالة هو الذي أثقل ظهر رسول الله [2] . وأول ما يتبادر إلى الذهن – من منظور التتابع السنني لأحداث السير بالرسالة – هو إحساسه بالمسؤولية عن هداية قومه ، وشعوره بالهم والحزن

---

1 - أنظر (التفسير الحديث) - دروزة . وانظر (في ظلال القرآن) - سيد قطب .

2 - والنقيض : هو الصوت الخفي (الصرير) الذي يُسمَع من الرحل الثقيل الكائن فوق ظهر البعير ، ولا يكاد البعير يحمله إلا بمشقة وعسر . (والنقيض : صوت عظام المفاصل وفرقعة الأصابع .. وإسناد " أنقض إلى الوزر مجاز عقلي ، وتعديته إلى الظهر تبع لتشبيه المشقة بالحمل . فالتركيب تمثيل للذي يُجابه المشاق الشديدة ، بالراحلة المحمّلة بالأحمال الثقيلة جداً حتى يُسمَع لعظام ظهرها فرقعة وصرير . ووصف الوزر بهذا الوصف تكميل للتمثيل بأنه وزر عظيم . والآية تُشير إلى أحوال كان النبي صلّى الله عليه وسلّم في حرج منها أو من شأنه أن يكون في حرج ، وأن الله كشف عنه ما به من حرج منها أو هيّأ نفسه لتحمّل أعبائها) . أنظر (التحرير والتنوير) - ابن عاشور . نقول : إن الهم الأكبر عند رسول الله هو بلاغ رسالة الله ونجاة أمته من النار . عن أبي هريرة أن رسول الله قال : (لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ مستجابةٌ فتعَجَّلَ كلُّ نبيٍّ دعوتَه . وإنِّي اخْتَبأْتُ دَعوتي شفاعةً لأُمَّتي يومَ القيامةِ . فهي نائلةٌ ، إن شاءَ اللهُ ، من ماتَ من أُمَّتي لا يُشركُ باللهِ شيئًا) صحيح مسلم - الصفحة أو الرقم199 : والبخاري الصفحة أو الرقم 6304 . وكما في حديث الشفاعة المشهور : (.. فأسجدُ للهِ تعالى فيقولُ : ارفع رأسَك يا محمَّدُ وتَكلَّم يُسمَعْ لك ، وقل يُقبَلْ منكَ ، واشفع تُشفَّعْ فأرفعُ فأقولُ : أمَّتي أمَّتي يا ربُّ ..) . وكما في حديث خطبة حجة الوداع ، حيث أشهد الله تعالى على شهادة أمته أنه - عليه الصلاة والسلام - بلّغ الرسالة وأدى الأمانة .

الشديدين لعدم إيمانهم ، لعلمه أن الله تعالى سينزل العذاب بهم بسبب ذلك ، وخاصة بعد إصرارهم على الكفر [1] في أواخر " المرحلة الأولى " :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ الكهف

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ فاطر

﴿ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ الشعراء

وأثقل همّ وجده رسول الله كان بسبب ما لاقى من أهل الطائف من أذى [2] (الكرب العظيم) ، حيث علم أن الله تعالى معذّبهم .. حتى أنه صلوات الله وسلامه عليه ، بعد أن خرج من القرية لم يشعر بنفسه إلا وهو في منطقة " قرن الثعالب " .. وقد حضره جبريل ومعه ملك الجبال .. وما أن خيّره الله جلّ وعلا بأن يفعل بهم ما يشاء ، حتى اختار إمهالهم وعدم إنزال العذاب بهم لعل الله تبارك وتعالى " يُخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً ". لذلك فقد أعطاهم الله تعالى أمانين من العذاب ، حسب سننه جلّ ثناؤه ، والتي بيّنها في ما بعد في سورة الأنفال :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ الأنفال

وبالأمان والإمهال ، أراح الله تبارك وتعالى رسوله وخفف عنه حمله الثقيل ذاك ..

3- وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾ ﴾ الشرح ، " أي ما أن تفرغ من عمل صالح حتى تبدأ القيام بعمل آخر " [3]. وهذا قريب من قوله تعالى في سورة المزمّل : ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ ، " أي انقطِع وأخلِص نفسك له تعبدّاً ، فلا ينزِعك عنه ما كان . والصيغة تعبّر عن الإجتهاد اللازم لتحقيق هذا " [4] .. فكلاهما يتماشى ويتوافق مع الأمر بالإعراض عن المشركين في أواخر " الطور الرابع " ، فهو طور "الانتظار" و "الإمهال" و " الهجر الجميل" .. أي عدم الاحتكاك المباشر مع المجتمع في مكة .. وقد منعت قريش رسولَ الله أن يبلّغ كلام ربه ، وصدّوه – والمؤمنين – عن المسجد الحرام .. الأمر الذي ينتج عنه وقت فراغ طويل في النهار .. ﴿ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ ﴾ المزمل .. فالسورتان أجواؤهما متقاربة ..

---

1 - أنظر (المعجم الإشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم) - محمّد حسن حسن جبل .

2 - كما ثبت في الرواية الصحيحة عن عائشة . أنظر (صحيح السيرة) - ابراهيم العلي . وانظر (فصل "الطور الرابع")

3 - قال الإمام الطبري في تفسيره : (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: إن الله تعالى ذكره، أمر نبيه أن يجعل فراغه من كلّ ما كان به مشتغلا من أمر دنياه وآخرته، مما لا بد له من الشغل به أو أمره بالشغل به، إلى النصب في عبادته والاشتغال فيما قرّبه إليه ومسألته حاجاته، ولم يخصص بذلك حالا من أحوال فراغه دون حال، فسواء كلّ أحوال فراغه، من صلاة كان فراغه، أو جهاد، أو أمر دنيا كان به مشتغلا .. لعموم الشرط في ذلك، من غير خصوص حال فراغ دون حال أخرى) . نقول : والمقصود هو إشغال جميع الوقت وعدم ترك وقت فراغ من غير عمل صالح .

4 - (المعجم الإشتقاقي المؤصّل) - محمّد حسن حسن جبل . أنظر (تبيان سورة المزمل) .

مناط السورة:

﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾ الشرح ، تعرّض المسلم و الجماعة المسلمة لحالة عسر وضيق شديدة في قيامهم بعبوديتهم لله تعالى وحملهم لرسالته ، بسبب الرفض الشديد من المجتمع ومَلَئه للرسالة ، والإصرار على صدها ومقاومة أهلها وحمَلتها بشدة .

المعالجة:

والخط العام في سير السورة لمعالجة مناطها كان كالتالي :

أن الله الذي شرح لك صدرك وخفف عنك الحمل الذي كان شديداً عليك ، ورفع ذكرك .. مما هو مُعتَرف به منك (استفهام تقريري) .. لا يمكن أن يدعك وشأنك ، ولا أن يجعل عسرك مستمراً ، فـ الأكرم الذي ابتدأك بنِعَمه ما كان ليقطع عنك فضله . وعليك أن تتجلّد وتصبر ، فإن مع العسر الذي أنت فيه ، يسراً .. فلتتحمّل متاعب الرسالة ، وارغب إلى الله في عونه [1] .

فالنِّعم التي أنعم الله بها على نبيّه الكريم ، كان ورودها في السورة في سياق التطمين لنفس النبي وتثبيته، بتذكيره باستمرار عناية الله له . وفي هذا الإتجاه تسير معاني آيات السورة ، ومعاني ألفاظها ، ودلالات أساليب تعبيرها [2] . وتفصيل ذلك :

1- ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ ﴾ الشرح ، و(نشرح) فعل مضارع فيه دلالة على الاستمرارية ، خلافاً لـ (وضعنا) و (رفعنا) . فشرْح صدر رسول الله – بمعنى جعله واسعاً منبسطاً راضياً – عملية مستمرّة وتجلياتها عديدة ، وكان صلّى الله عليه وآله وسلّم يعلمها – " كما أشعر به إجمالها في الاستفهام التقريري المُقتضي علم المقرَّر بما قُرِّر عليه " – ولعلّها ابتدأت منذ الشق البدني لصدره الشريف ، ثم الشرح المعنوي لصدره عن طريق إيداعه الإيمان والحكمة والعلم ، وتَهْيأته لقبول كل ما هو من الفضائل والكمالات النفسية والروحية .. كقوله تعالى :

---

1 - (وهذا الاستفهام التقريري مقصود به التذكير لأجل أن يراعي رسول الله هذه المنّة عندما يُخالجة ضيق صدر مما يلقاه من أذى قومٍ يريد صلاحهم وإنقاذهم من النار ورفع شأنهم بين الأمم ، ليدوم على دعوته العظيمة نشيطاً غير ذي أسف أو كمد) . (التحرير والتنوير) - ابن عاشور .

2 - افتراض أن السورة نزلت في بدايات نزول الوحي - حسب ترتيب نزول السور الوارد - كان له تأثير ظاهر وقوي على فهم كثير من المفسّرين للسورة وتوجيه معاني آياتها .. سواء في معنى "شرح الصدر" ، أم في بيان "الوزر" ومفهومه ، أم في تعيين نوع العمل في "فرغت".. إلخ . وهذا أمر طبيعي ، ودليل قوي على أهمية ربط السورة من القرآن مع سير الرسول بالرسالة - يعني السياق أو المقام أو الحال الذي نزلت فيه - وأثره المباشر في توجيه معانيها ، ألفاظاً وآيات .. لدرجة اعتباره " ضابطاً " مهماً في توجيه المعاني . وهذا ما نحاول بيانه وإثباته في هذه الدراسة من ضرورة ربط السيرة بالقرآن أو ربط القرآن بالسيرة ، وأنه يجب أن يكون ربطاً " منهاجياً " سُننياً .. وليس تاريخياً ، والذي يؤدّي في النهاية إلى " الفهم المنهاجي " للسورة . أنظر فصل " تبيان سور القرآن " . من هذا البحث (الجزء الرابع) . ونذكّر بأن الجزء الثالث " المنهج " فيه البيان مفصلاً للأدلة والضوابط الشرعية لتأصيل هذا الأمر ، أي " الفهم المنهاجي " للسورة . فانظره هناك .

﴿ ..وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴿١١٣﴾ ﴾ النساء

إلى إعانته على تبليغ الرسالة على أكمل وجه ، بإزالة ما كان يجد في نفسه من همّ وغمّ وضيق في الصدر ، نتيجة العقبات التي كان يضعها المشركون في طريق دعوته .. فكلّما نزل عليه وحي من الله تبارك وتعالى أكسبه شرحاً لصدره ، حتى وَسِع هموم النبوّة ودعوة الثقلين :

﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ الحجر

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ ﴾ لقمان

2- (2-3) ، أما حططنا عنك حملك الثقيل الذي أتعبك ؟. فقد وفّقناك إلى حمل الرسالة ، وأعنّاك على تحمّل عبئها .. وأمهلنا قومك إلى حين لعلّهم يهتدون . .

3- (4) ، أما رفعنا لك ذكرك بالنبوّة وحملك الرسالة ؟ ، فإذا ذُكر الله جلّ وعلا ذُكرتَ معه .. وقبل ذلك بخُلُقِك العظيم ، وأنت الصادق الأمين ..

4- (5-6) ، ثم قوّى الله تعالى رجاء رسوله ببيان سنّة من السنن الربّانية في حياة الناس ، وهي : أن الشدة يأتي معها اليُسر والفرج ..

" وفي هذا إشارة إلى إدراك العناية الإلهية به فيما سبق ، وتعريض بالوعد باستمرار ذلك في كل أحواله . وسياق الكلام : وعْد من الله تبارك وتعالى بأن ييسّر لنبيّه الكريم المصاعب كلما عرضت له أثناء عبادته لله ، ومن أعظمها تبليغ الرسالة . فاليسر لا يتخلّف عن اللحاق بتلك المصاعب . وذلك من خصائص كلمة "مع" الدّالة على المصاحبة " [1] .

5- (7-8)، وبناء على ما سبق ، فعلى رسول الله :

- أن يبذل كل وسعه في القيام بما كلّفه به ربه من أعمال – إيماناً وعملاً صالحاً ودعوة – حتى تكون شغله الشاغل ، فلا يترك وقت فراغ بين الأعمال الصالحة بل هو في عمل دائب مستمر .. فما أن ينتهي من عمل حتى يجتهد ليُباشر العمل الذي يليه .. وهكذا .

- وأن لا يكون ذلك – صغيره وكبيره – إلا رغبة إلى الله سبحانه لا إلى غيره كائناً من كان ، وإلى ما عند الله عزّ وجلّ من الرضا والثواب .. ولا يطلب أياً من حاجاته أو مرغوباته إلاّ منه ، ولا يعوّل في طلب حصول أمر من أموره إلاّ عليه تبارك وتعالى .

1 - أنظر (التحرير والتنوير) - ابن عاشور .

هذا ، ولعامّة المؤمنين حظهم مما سبق ذكره ، فخطاب رسول الله خطاب لأمته ، مع ملاحظة خصوصية مقام النبوّة وعموم مقام الإيمان :

- ✓ فمِنْ شرْح الله تعالى لصدر المؤمن : هدايته إلى الله ومنهاج عبوديته ، وجعله مطمئناً للحق راضياً به ، بعد أن كان في ضيق الضلال وشقاء المعصية ، وعدم الهدى الكامل للحق . كما في قوله تعالى :
﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ الأنعام
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ يونس
- ✓ وللمؤمن حظه من وضع العبء الثقيل عن عاتقه ، وعونه على عبادة ربه وحمل دعوته :
﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ العنكبوت
- ✓ وله أيضاً نصيب من رفع الذكر ، وجعل المحبة له والرضى عنه في قلوب الناس : (قيل لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : أرأيتَ الرجلَ يعملُ العملَ من الخيرِ ، ويحمدُه الناسُ عليه ؟ – وفي روايةٍ : ويحبُّه الناسُ عليه ؟ – . قال : " تلك عاجلُ بُشرى المؤمنِ ") [1] .

فخطاب الله جلّ ثناؤه في هذه السورة فيه طمأنة للمؤمنين ؛ حَمَلة الرسالة – ممثلين برسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم – بأن الأمور المتعسرة في طريق عبوديتهم لله وحملهم لرسالته ودعوته ، سيجعل الله عزّ وجلّ لها فرجاً . وذلك بالتأكيد على أن وعد الله تعالى بتفريج الكرب عن المؤمنين متحقق ، وطمأنتهم بقرب اليُسر ، مستخدماً أسلوب " الاستفهام التقريري " بقصد التذكير بما سبق الإنعام به عليهم ، كدليل على أن الوعد متحقق .. ومبيّناً سنته التي لا تتخلّف في معيّة ومصاحبة اليسر للعسر.. فما عليهم إلا الصبر والثبات وإشغال وقتهم بالأعمال الصالحة [2] .. فما أن يفرغوا من عمل حتى يبدأوا القيام بعمل آخر .. راغبين إلى الله ، معتمدين عليه مستعينين به وحده ، جلّ وعلا .

***

1 - رواه مسلم عن أبي ذر الغفاري . صحيح مسلم - الصفحة أو الرقم 2642 .
2 - كما في قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ{153}) البقرة .

13- (سورة العصر)

ربط السورة بخط السير :

السورة تأتي في " الطور الأول " وما بعده ، وذلك :

خلاصــة معنى الســورة (توجيه معانيها) : بيان أن غير المؤمنين – بوصــفهم هذا ، أفراداً أو مجتمعاً – هم الخاســـرون في الدنيا والآخرة ، برغم قوتهم وملكهم للدنيا . وأن المؤمنين – بوصـــف الإيمان ، أفراداً كانوا أو جماعة أو أمة – هم الفائزون والفالحون في الدنيا والآخرة ، برغم ضعفهم وقلة حيلتهم ..
ففيها بيان ميزان الله تعالى في الفلاح والخسران . ومن ثم :

- ✓ فـــــ " محتوى الســورة " يأتي من باب التنويع في "خطاب النذارة " وبيان فكرة الرسـالة ، فتأتي عامة لمختلف أطوار السير .
- ✓ وقد يكون " محتوى السورة " – أفكاراً وأسلوباً – مناسباً عندما يحتدم الصراع الفكري بين الحق والباطل في أطوار الســير اللاحقة . ذلك أن اسـتعمال القَسَـم كأسـلوب تأكيد ، وعرض أفكار الســورة بشـكل مجمل ومركّز (جامع مانع) وليس بأسـلوب البيان والتفصـيل ، يشـي بأن الســورة مناسـبة لمعالجة مناطات تأتي متأخرة في الســـير ، وخاصــــة بعد ظهور مواقف الإعراض والرفض من المجتمع .. ومن هنا يمكن إضافة هذه السورة إلى سور مثل : الضحى ، والشرح ، والأعلى ، والكوثر ..

مناط السورة:

﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَـٰنَ لَفِى خُسۡرٍ ﴿٢﴾ ﴾ العصر ، تقرير وبيان سـبيل النجاة من الخسـران ، على أسـاس أنّ الإنسـان مخلوق لحكمة ، وأنّ له قضية ومصير مع الله ؛ الإله الحق ، جلّ جلاله .

البيان :

جاءت صــياغة البيان بأسـلوب تقريري ، ومجمل ، ومحدد ، وملفت للإنتباه .. وذلك من باب التنويع في خطاب النذارة ، وتصريف الآيات :

أولاً – ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَـٰنَ لَفِى خُسۡرٍ ﴿٢﴾ ﴾ العصر [1] ،
العصـر : هو الدهر أو الزمان الذي يمر به الناس ، والمقصــود جنس الإنســان . فيؤكّد الله تعالى ، بالقســـم بالدهر والزمان ، حقيقة أن الناس – أفراداً ومجتمعات وأمماً – كلهم في خســـران .. بقرينة الإستثناء الذي جاء بعد هذا التقرير . " فالسورة فيها وعيد شديد ، لأن الله تعالى حكم بالخسار على

1 - العصر : هو الدهر أو الزمان الذي يمر به الناس ، وما فيه من العبر وتقلّبات الليل والنهار ، وتبدّل الأحداث والدول ، والأحوال والمصالح ، وما يكون فيه من الأحوال المتناقضة .. والتي تدل على أن لهذا الكون خالقاً مدبّراً ، ولهذا الدهر إلهاً هو القادر المتصرّف فيه ، عزّ وجلّ . والزمان إنما هو عمر اللإنسان ، فكل لحظة تمضي فإنها من عمره ونقص من أجله ، تقرّبه من لقاء ربّـه ، الله تبارك وتعالى ، ليواجه الإنسان مصيره ، نتيجة كدحه وسعيه في حياته الدنيا .

جميع الناس ، إلا الذين يأتون بما ورد فيها من أمور .. فدلّ ذلك على أن النجاة معلقة بمجموع تلك الأمور " .

ثانياً – ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ العصر ، بيان طريق النجاة ، وهي الإسلام لله أو الدخول في دين الله ، في أمور جامعة أربعة :

1. الإيمان بكل ما طلب الله عزّ وجلّ الإيمان به ، وأصله الإيمان بـ لا إله إلا الله ..
2. العمل الصالح ، منبثق عن الإيمان وثمرة له ..
3. الدعوة إلى العبودية الكاملة الشاملة لله تبارك وتعالى . فكلمة (وَتَوَاصَوْاْ) تدل على المشاركة الجماعية ، فالتواصي بالحق يعني أن يوصي المؤمنون – أفراداً وأمة – بعضهم بعضاً ببيان الحق وإتباعه . ويعني كذلك التواصي في إظهاره وبإبقائه ظاهراً أيضاً ، فالحق (الدين) لا يمكن أن يُتّبع كاملاً إلا بأن يكون ظاهراً .. فاتباع جميع أحكام الدين **شرطه** أن يكون الدين ظاهراً .
4. وبعد ذلك كله وفي أثنائه ، لا بد من الصبر ؛ على طاعة الله ، وعن معصية الله ، وعلى قضائه وقدره .. والتواصي بذلك . " والصبر ليس مجرّد حبس النفس عمّا تتوق إليه من فعل أو ترك ، بل هو تلقي ما ورد من الله عزّ وجلّ – شرعاً وقدراً – بالرضا به ظاهراً وباطناً " .

ثالثاً – بيان أن ظهور الدين وإكماله يقتضي أن يتجسّد في " أمّة مسلمة " تجتمع فيها تلك الأمور الأربعة .. فجاءت الألفاظ تدل على ذلك :

– (ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ.. وَعَمِلُواْ ..) جاءت بصيغة الجمع .

– (وَتَوَاصَوْاْ .. وَتَوَاصَوْاْ) صياغة تدل على المشاركة الجماعية في الفعل بين المؤمنين بعضهم بعضاً ..

رابعاً – وفي الجملة ، فإن الأمور الأربعة السابقة هي سفينة النجاة ، وطريق الفلاح والفوز لا غير .. ألا وهي حال إكمال الدين لله .. وذلك أن يكون المسلمون : أمّة متمثلة بالرسالة ، وحاملة لها ، وصابرة على ذلك .. وهي الحال التي ترك عليها رسول الله الأمة ، حين اختار الرفيق الأعلى .

" قال ابن القيم في (مفتاح دار السعادة) قال الشافعي رضي الله عنه : " **لو فكّر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم** " . وبيان ذلك أن المراتب أربعة وباستكمالها يحصل للناس غاية كمالهم .

إحداها : معرفة الحق . الثانية : عملهم به . الثالثة : تعليمهم من لا يُحسنه . الرابعة : صبرهم على تعلّمه والعمل به وتعليمه . فذكر تعالى المراتب الأربعة في هذه السورة ، وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كل الناس في خسر، إلاّ :

{ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ } وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا به ، فهذه مرتبة .

{ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ } وهم الذين عملوا بما علموه من الحق ، فهذه أخرى .

{ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ } وصى به بعضهم بعضا تعليما وإرشادا ، فهذه مرتبة ثالثة .

{ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ} صـبروا على الحق ووصـى بعضـهم بعضـا بالصـبر عليه والثبات . فهذه مرتبة رابعة .. وهذا نهاية الكمال .

فهذه السـورة ، على اختصـارها ، هي من أجمع سـور القرآن للخير بحذافيره . والحمد لله الذي جعل كتابه كافياً عن كل ما سواه ، شافياً من كل داء ، هادياً إلى كل خير " [1] .

***

14- (سورة العاديات)

ربط السورة بخط السير :

السورة تأتي في أواخر" الطور الثاني " ، أي بعد التبليغ والبيان في " الطور الأول " .. وبعد الحوار ، والأخذ والرد .. في بداية " الطور الثاني " . وذلك :

1- قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ٧ ﴾ العاديات ، هاتان الآياتان هما مركز الثقل في السورة والمحور الذي تدور حوله معانيها .. فهما جواب القسم ، وفيهما بيان حقيقة الإنسان الذي يرفض طاعة الله وشكره ، وهو مقصود القسم الذي ورد في الآيات التي سبقتها (1-5) وأما الآيات التي تلتها (9-11) ففيها المعالجة وبيان الموقف ، وهو الإنذار بعذاب الله تعالى يوم القيامة ..

و كنود ، أي : ((كفور لنعمته ، كقولهم : أرض كَنُودٌ : إذا لم تُنبت شيئا)) [2] . وهي من صيغ المبالغة .. والمعنى المحوري لـ " الكُنُود " : ((حبس الشيء ما في باطنه ، لا يبرز منه . ومنه الكُنُود : كفر النعمة، إذ هو مع الحصول على النعمة يكتمها ولا يُبرز أمرها بالشكر والتحديث)) [3].

فهو وصف للإنسان الذي لا يريد أن يؤمن أو أن يعترف بأن ما به من نعمة ، فمن الله وحده . يعني لا يريد إظهار شكر النعمة .. وهذا الموقف يكون بعد البلاغ والبيان لأَنْعُم الله تبارك تعالى عليه ، وأن الله تعالى هو الخالق المُنعم الوهّاب .. المستحق وحده للحمد .

2- أن إنذار الإنسان الجحود كان بتخويفه بعذاب الله تعالى يوم القيامة ، وليس بعذابه في الدنيا :

---

1 - (تفسير القاسمي) ، بتصرف .
2 - (مفردات القرآن) - الراغب .
3 - (المعجم الإشتقاقي المؤصّل) - محمّد حسن جبل .

﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ العاديات

أما الإنذار بالعذاب في الدنيا ؛ الأدنى ثم الأكبر ، فمن خصائص الطورين الثالث و الرابع .. كما في حالة ، أصحاب الجنة في سورة القلم ، وصاحب الجنتين في سورة الكهف ، وقارون في سورة القصص :

﴿ ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ... فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ... ﴾ القصص

فقارون كان أشدّ كفراً من الإنسان (الحالة الإنسانية) [1] الذي في سورة العاديات ، بدليل وصف الله تعالى له – كما في الآيات – بأنه من الفرحين (المتكبّرين) ، والمفسدين ، والمجرمين ، بالإضافة إلى كونه من الجاحدين لأنعم الله (كَنود) ، بل ومن المجاهرين بذلك حيث أنكر أن تكون تلك النعم التي يرفل فيها ، من الله تبارك وتعالى ، وإنما نسبها لنفسه .

مناط السورة :

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ ﴾ العاديات ، حالة إصرار الإنسان على جحوده لأنعم الله تعالى عليه ، وعلى عدم الإقرار بأن تلك النعم إنما هي من الله ، الخالق المالك ، وأنه وحده له الحمد والشكر .. برغم علمه بهذه الحقيقة ، وقد سبق أن ذُكّر بها : ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ العاديات .

المعالجة :

1- (1-5) القَسَم بأحوالٍ للخيل أثناء الغزو والقتال ، معروفة مألوفة عند المخاطبين في حينه ، تذكيراً

1 - كثيراً ما ترد كلمة " الإنسان " في التعبير القرآني للإشارة إلى شخص معيّن ، معروف لدى المخاطبين آنذاك بتلك الصفات الواردة في سياق الكلام عنه . وعدم تعيينه باسمه ، بل بصفاته ، من باب أنه يمثّل حالة إنسانية عامة لها خصائصها وسُننها الضابطة لها ، ويمكن أن يواجهها حامل الرسالة في أي زمان ومكان . فالقرآن رسالة الله الخاتمة حتى قيام الساعة . والأصل عدم الإنشغال في تعيينه مالم يكن لذلك تأثير على فهم مراد الله تعالى وبيان قوله . وهذا الأصل ينطبق على كل شيء أو موضوع .. أهمل النص ذكره في سياق معيّن ، فلا نتكلّف عناء التفتيش عنه لأن في ذلك تشويش على فهم مراد الله وصرف للأنظار والأفهام عنه ، وتضييع للعبرة .. كما حصل عندما نهى الله تعالى رسوله من جدال الخائضين في عدد أهل الكهف إلا جدالاً (مراءً) ظاهراً لا يتجاوز حدود ما أخبره به الوحي ، وَقُصَّه عليهم فحسب .

لهم بأهميتها في حياتهم ومعاشهم ، فهي من نعم الله الظاهرة [1] ، وأن الله رب العالمين هو الذي سخرها لهم ، وهو وحده المستحق للحمد وللعبادة .

2- (6-8) جواب القَسَم ، وفي معرض التنديد والإنذار ، يبيّن الله تعالى ثلاث صفات للإنسان الذي بلغه العلم بأن ما به من نعمة فمن الله وحده ؛ الخالق الأكرم المُنعم .. وبقي مصرّاً على كفره وجحوده :
الصفة الأولى : كونه كنوداً ، أي جحوداً متنكّراً لفضل ربه ، غير شاكر لأنعمه العظيمة ..

والثانية : أن حاله وأعماله القبيحة شاهدة على كفره وجحوده ، فهو ينفق المال على الشهوات والملذات ولا يعرف فيه حقاً للفقير و المسكين .. وهو لا يستطيع إنكار ذلك لظهوره ، وإن لم يقر بلسانه أمام الناس عناداً .. أما في نفسه فهو يشهد بأنه جاحد منكر لأنعم الله .. وسيشهد على نفسه بذلك يوم القيامة ، كما قال تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِۚ ..﴿١٧﴾ ﴾ التوبة.

والثالثة : أنه يحب المال حباً جماً ، فهو حريص على جمعه وتكديسه [2] ..

وما اتصف بتلك الصفات إلا لأنه قَصَر نظره على هذه الدار الفانية ، ونسي مصيره في الآخرة الباقية.

3- (9-11) أَجَهِل ذلك الإنسان الجاحد عاقبة أمره ؟! (استفهام في معرض الاستنكار والإنذار) أفلا يعلم إذا القبور قُلب ترابها وأُثير ما فيها .. وأُرجعت الناس إلى ربها للحساب والجزاء .. وكُشفت أسرار الصدور فيظهر ويبرز ما كانوا يخفونه في نفوسهم الجَحودة ؛ من أنهم كانوا على علم بالحق ؛ بأن الله هو وحده المستحق للحمد والشكر والطاعة لأمره .. وقد أبوا أن يعترفوا بذلك .. ألا فليعلموا أن ربّهم – الذي خلقهم ورازقهم والمتكفّل بهم – عليم تمام العلم (خبير) بجميع ما كانوا يصنعون ، وأنه سيجازيهم أوفر الجزاء على القليل والكثير .. فكيف يقابلون إنعام ربهم ومولاهم عليهم ، وتعهده وكفالته لهم – من غير استحقاق – يقابلون كلّ ذلك بالجُحود والكُفران للنعمة ، فيشركون معه – سبحانه وتعالى – في العبادة والطاعة مَن هو دونه ؟!!.

***

1 - ((أقسم الله تبارك وتعالى بالخيل ، لما فيها من آيات الله الباهرة، ونعمه الظاهرة، ما هو معلوم للخلق. وأقسم تعالى بها في الحال التي لا يشاركها فيه غيرها من أنواع الحيوانات)) تفسير السعدي . ((يقسم الله سبحانه بخيل المعركة، ويصف حركاتها واحدة واحدة منذ أن تبدأ عدْوها وجريها ضابحة بأصواتها المعروفة حين تجري، قارعة للصخر بحوافرها حتى توري الشرر منها، مغيرة في الصباح الباكر لمفاجأة العدو، مثيرة للنقع والغبار. غبار المعركة على غير انتظار. وهي تتوسط صفوف الأعداء على غرة فتوقع بينهم الفوضى والاضطراب! إنها خطوات المعركة على ما يألفه المخاطبون بالقرآن أول مرة)) . (في ظلال القرآن) - سيد قطب .

2 - وهذه الصفات تدل على أن ذلك الإنسان الكنود من الملأ أولي النعمة . وجاء ذكرها في سياق كشف حقيقة مواقفهم الرافضة للحق الذي جاء به رسول الله من ربه ، وقد بلغهم بيّناً واضحاً . يعني بيان أن تكذيبهم إنما هو بدافع الحفاظ على مصالحهم الشخصية ؛ أموالهم وسلطانهم .

15- (سورة الكوثر)

ربط السورة بخط السير :

قد ترتبط السورة بأكثر من طور أو مرحلة ، وخاصة في فترات اشتداد المواجهة ، وازدياد قوة الصراع الفكري حول " خطاب النذارة " – أنه " لا إله إلا الله " فاعبدوه ، والمصير – بين المؤمنين حملة الرسالة ، وبين رؤساء الضلال والشرك والنفاق . يعني في نهاية " الطور الثاني " وما بعده . وذلك :

اولاً :

- ✓ من الظاهر أن قوله تعالى : ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾ الكوثر ، هو مقصود السورة ؛ فالخبر أو البشارة في الآية الأولى ، وما ترتّب عليها من تكليف في الآية الثانية ، جاءتا في سياق جوابٍ وردٍّ على مَن طعن في رسول الله أنه أبتر .

والشنآن – أي البغض والتجنّب – لرسول الله ، لم يكن في إطار التنافس والتكاثر والتفاخر في متاع الدنيا ، كما كانت عادة العرب في الجاهلية ، بل في إطار الصد عن سبيل الله :

﴿ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ۝٣٣ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣٤﴾ الأنعام

فشانئوا رسول الله ما كانوا يبغضونه لشخصه ، بل كان محبباً إلى نفوسهم ، وكانوا يصفونه بالصادق الأمين ، ويستودعونه الأمانات حتى قُبيل هجرته .. إنما كانوا يمقتون ما جاء به من الهدى والحكمة ، لأنه سفّه أحلامهم وعاب معبوداتهم ، ونادى بفراق ما ألفوه ونشأوا عليه من الشرك والجهل ..

ومن ثم فهذه السورة شبيهة بسورة الضحى وسورة الشرح ، من حيث أن الله تبارك وتعالى يسري على رسوله فيها ، ويعده بالخير ، ويتوَعّد أعداءه بالبتر ..

- ✓ " فهي تمثّل حلقة من السير بالرسالة ، وصورة من حياة حامل الرسالة .. صورة من كيد وأذى أعداء الله لرسول الله ، ودعوة الله التي يبشّر بها ، ليصرفوا انتباه عامة الناس عن الاستماع للحق الذي جاءهم به محمّد من عند الله ، وتنفيرهم من اتباعه " .. وذلك من خلال العمل على تحويل قضية الصراع ، من الصراع حول " فكرة الرسالة " في إطار " خطاب النذارة " – لا إله إلا الله ، فاعبدوه ، والمصير – إلى صراع شخصي حول شخص حامل الرسالة ..

هذا ، وفي نفس الإطار أو السياق يدخل ، أيضاً ، ما قام به الملأ من وصف رسول الله بأنه مجنون أو شاعر .. وطلبهم الآيات المادية .. في مكّة . وما قام به المنافقون ، ومن ورائهم يهود ، من إرجاف وتشكيك واتهام .. في المدينة .

- ✓ " وتمثّل صورة من رعاية الله تبارك وتعالى المباشرة لعبده والجماعة المؤمنة معه ، ومن تطمين الله تبارك وتعالى وتثبيته وجميل وعده لنبيّه ، وتبكيت شانئيه ومرهوب وعيده لهم ".
- ✓ " وهي كذلك ، تمثّل حقيقة الهدى والخير والإيمان . وحقيقة الضلال والشر والكفران .. الأولى كثرةٌ وفيضٌ وامتدادٌ . والثانية قلةٌ وانحسارٌ وانبتارٌ .. وإن ظن الغافلون غير ذلك " [1] .

ثانياً :

وعلى ما سبق بيانه من دور السورة في " المنهاج ، فلا تأثير للخلاف بين العلماء في كون السورة مكيّة أو مدنيّة ، " بل قد يكون " الفهم المنهاجي " للسورة رافعاً للخلاف وفيه الحل للإشكال . فيبقى الخلاف في إطاره التاريخي .

<u>مناط السورة :</u>

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾ الكوثر ، الاتهامات الموجهة إلى المؤمنين حَمَلة الرسالة ، ممثلين في رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم – مع مراعاة خصوصية مقام النبوّة وعموم مقام الإيمان – ووصفهم بصفات نقص حسب مقاييس الجاهلية ، يعني فيما يتعلق بزينة الحياة الدنيا من مال وجاه وأبناء .. إلخ ، وذلك في سياق الصد عن سبيل الله ودعوته .

<u>المعالجة :</u>

1- ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ الكوثر ، يقول الله جلّ ثناؤه لنبيّه ، إنا أعطيناك الخير الكثير البالغ في الكثرة إلى الغاية ، في الدنيا والآخرة . ومنه ما أعطي من النبوّة والرسالة ، والنهر الذي في الجنة ، والخُلق العظيم ، ورفعة الذكر .. وغير ذلك مما لا يُحصى [2] .

وافتتح – سبحانه – الكلام بحرف التأكيد (إن)، للاهتمام بالخبر، وللإشعار بأن المُعطَى شيء عظيم .. وضمير العظمة (نا) ، لبيان أن مُعطِي ذلك كله : أنا رب العالمين ، أكرم مُعطٍ وأعظم مُنعِم .

2- ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢﴾ الكوثر ، وكان المقتضى أن يقول : (فصلّ لنا ..) ولكنه انتقل من المُضمر إلى المُظهر على سبيل الالتفات اهتماماً بذكر " ربك " وتعظيماً له . وظاهر الآية الأمر له

---

1 - أنظر (في ظلال القرآن) - سيد قطب .

2 - و " الكوثر " : صيغة مبالغة من الكثرة . والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد أو كثير في القدر والخطر : كوثراً أنظر (تفسير البغوي) . و (المعجم الإشتقاقي المؤصّل) - محمّد حسن حسن جبل . ((عن أنس أنه قرأ هذه الآية :{إنا أعطيناك الكوثر} قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أعطيت الكوثر فإذا هو نهر يجري ولم يشق شقا ، وإذا حافتاه قباب اللؤلؤ فضربت بيدي في تربته ، فإذا مسك أذفر ، وإذا حصباؤه اللؤلؤ » (أخرجه الإمام أحمد). وعن أبي عبيدة عن عائشة رضي الله عنها قال : سألتها عن قوله تعالى : {إنا أعطيناك الكوثر} قالت : " نهر أعطيه نبيكم صلى الله عليه وسلم شاطئاه عليه در مجوف آنيته كعدد النجوم " (أخرجه البخاري) . وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الكوثر : هو الخير الذي أعطاه الله إياه ، قال أبو البشر : قلت لسعيد بن جبير : فإن ناسا يزعمون أنه نهر في الجنة ، فقال سعيد : النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه (أخرجه البخاري4966). وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : "الكوثر الخير الكثير" . وهذا التفسير يعم النهر وغيره ، لأن الكوثر من الكثرة وهو الخير الكثير)) . مختصر تفسير ابن كثير - الصابوني .

صلّى الله عليه وسلّم بمطلق الصلاة ومطلق النحر ، وأن يجعلهما لله عزّ وجلّ لا لغيره .

والفاء في (فَصَلِّ) ، لترتيب ما بعدها على ما قبلها . فالخبر المؤكّد الذي ورد في الآية السابقة تعليل للأمر الذي في هذه الآية [1] .. وذلك من باب أن الله تعالى – بوصفه الربّ الحق – هو وحده الذي بيده العطاء والمنع ، وهو وحده القابض الباسط ، فالأمر لله وحده : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ﴾ .. بدلالة حرف التوكيد وضمير العظمة .. فاخلص العبادة له وحده واعتمد عليه وحده ..

فيصبح المعنى الإجمالي : أما وقد أعطاك ربك العظيم القدير ، الخير الكثير في الدنيا والآخرة .. فأخلِصْ لربك العبادة : فافرد له صلاتك ، مراغِماً لقومك الذين يعبدون غير الله . وانْحَر لوجهه وباسمه إذا نحرت ، مخالفاً لهم في النَّحْر للآلهة المدّعاة ، وذِكْر اسم غير الله تعالى . فأول حق لربّك عليك هو أن تعبده وحده ولا تُشرك به شيئاً ، فإنه هو مربيك ومُسبغ نِعَمه عليك دون سواه . كما في قوله تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ الأنعام [2]

3– وبناء على ما سبق تقريره : من أن الله هو الرب الحق ، العظيم القدير ، بيده الأمر كله .. وقد أعطاك يا محمّد من الخير الكثير الكثير ، وأنّك في رعايته وكفالته (ربّك) .. يؤكّد الله تعالى لنبيّه : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ﴾ الكوثر . أي إن مبغضك ، أياً كان ، هو " الأبتر " – وإن كان له أبناء ذكور كثيرون – لأنه بمحل السُّخْط من الله جلّ جلاله ، فهو الأقلّ الأذلّ .. والمنقطع عن عموم الخير ، خيري الدنيا والآخرة . هذا هو الأبتر في ميزان الله ، وهو الميزان .

---

1 - مثل قوله تعالى : (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ{94} إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ{95}) الحجر . فالجملة (إِنَّا كَفَيْنَاكَ ..) تعليل للأمر بإعلان ما أمر به : (فَاصْدَعْ ..) ، فالأمر مترتب على الخبر بدلالة (الفاء) .

2 - أنظر (تفسير جزء عم) - مساعد الطيار ، ولاحظ المنهج الحسن الذي بيّنه وجلّاه الشيخ للنظر في الروايات التفسيرية المختلفة الواردة عن الصحابة والتابعين . نقول : " وتخصيص هاتين العبادتين بالذكر - في ما نحسب - لأن الصلاة والنحر أعظم أشكال العبادة وأقدمها وأرسخها في فطرة الناس . فترى السجود والركوع وتقديم النذور لإظهار التعبد موجودة في كل ملة ونحلة ، وسواءعبدوا الله الواحد أم آلهة متعددة أو روحاً أو صنماً ، أو عظموا إنساناً كإله معبود ".. إلا أن طريقة أدائهما قد تكون هي العلامة الفارقة بين الأديان والمعبودات المختلفة . فتقديمهما لله تعالى كما أمر الله يُعتبر المظهر البارز للدخول في دين الله وتقديم العبادة له سبحانه وتعالى ، مخالفةً للدين السائد في الجاهلية الأولى . فالأمر بالصلاة والنحر لله وحده أمام الناس ، فيه إظهارٌ للتحدي للدين السائد في المجتمع الجاهلي من خلال إظهار التمسّك بما يأمر به الله ، وترك شريعتهم ونظام حياتهم (قانونهم) . كما في قوله تعالى : (أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى{9} عَبْداً إِذَا صَلَّى{10}.. كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ{15}.. فَلْيَدْعُ نَادِيَه{17}سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ{18} كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ{19}) العلق ، فقد صح في أسباب النزول قول أبي جهل : (هل يعفّر محمد وجهه **بين أظهركم**) . حيث كان يصلي في الكعبة على مرأى منهم . وقوله تعالى : (لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا **يُنَازِعُنَّكَ** فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ{67}) الحج . أي ((لكل أمة من الأمم الماضية جعلنا شريعة وعبادة أمرناهم بها ، فهم عاملون بها ، فلا ينازعنّك - أيها الرسول - مشركو قريش في شريعتك ، وما أمرك الله به في المناسك وأنواع العبادات كلها. وادع إلى إخلاص العبادة لربك واتباع أمره، إنك لعلى دين قويم، لا اعوجاج فيه)) التفسير الميسر . وأيضاً قوله تعالى : (وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ{116} ... فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ{118} وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ{119} ... **وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ**{121}) الأنعام .

وفي هذه الآية إبْطَال لِقَوْلِهِم ذَاك ، باسْتِخْدَامِ صيغة الْقصر فِي قَوْله: (هُوَ الْأَبْتَرُ) ليدل على نَفْيُ وَصْفِ الْأَبْتَرِ عَنِ النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وإثباته لشانئِهِ قصراً عليه ، لَكِن بِمَعْنَى غَيْرِ الْمَعْنَى الَّذِي عَنَاهُ شَانِئُهُ ، وَذَلِكَ بِصَرْفِ مُرَادِ الْقَائِلِ عَنِ الْأَبْتَرِ الَّذِي هُوَ عَدِيمُ الِابْنِ الذَّكَرِ ، إِلَى مَا هُوَ الأَجْدَرُ بِالِاعْتِبَارِ وَهُوَ : الذي لا خَيْر فيه [1].

بالنسبة للجماعة المؤمنة :

وما سبق فيه تثبيت لرسول الله – ومن معه – على الحق ، يعني اصبروا ولا تأبهوا لقولهم واستمروا في إظهار الطاعة لله جلّ وعلا . حيث قوبل معنى " الأبتر " بمعنى " الكوثر " لتقرير من هو الأبتر على الحقيقة ، لإبطال قول أئمة الكفر .. وإبطال ما يقومون به من حملات التلبيس والتشويه .. وإزالة أثرها السلبي من نفوس عامة الناس ؛ مؤمنين وغيرهم .. وذلك من خلال التأكيد على أن الفوز والخسران ، على الحقيقة ، لا يكون إلا حسب ميزان الله تعالى ، وهو : الفوز برضاه والجنة ، والنجاة من غضبه والنار ، لا ما يتطاول به الكافرون على المسلمين بالثروة والأبناء .. وهم مغضوب عليهم من الله عزّ وجلّ لأنهم أبغضوا رسوله . وغَضَبُ الله عليهم بترٌ لهم .. فهم بمحل السخط من الله ، فعملهم مقطوع لا خير فيه ومصيرهم النار ، وبئس القرار . كما في قوله تعالى :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ آل عمران .

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾ ابراهيم

فلا قيمة لأي عمل ما لم يستند إلى الله ؛ إخلاصاً واتباعاً .. فمن انقطع عن الله وعن رحمته فقد انقطع ، وفقد حقيقة معناه .. وهذا هو " الأبتر " حقيقةً [2] .

***

1 - أنظر (التحرير والتنوير) - ابن عاشور . نقول : وهذا يذكّرنا بحديث رسول الله في تعريف المفلس في ميزان الله ؛ فالمفلس ليس هو الذي لا يملك الدرهم والمتاع في الدنيا .. إنما هو الذي يأتي يوم القيامة ولا يملك شيئاً من الحسنات ، لظلمه وتعدّيه على حقوق الآخرين .

2 - ((إن مقاييس الله غير مقاييس البشر. ولكن البشر ينخدعون ويغترّون فيحسبون مقاييسهم هي التي تقرر حقائق الأمور! وأمامنا هذا المثل الناطق الخالد.. فأين الذين كانوا يقولون عن محمد- صلى الله عليه وسلم- قولتهم اللئيمة ، وينالون بها من قلوب الجماهير ، ويحسبون حينئذ أنهم قد قضوا على محمد وقطعوا عليه الطريق ؟ أين هم ؟ وأين ذكراهم ، وأين آثارهم ؟ إلى جوار الكوثر من كل شيء ، ذلك الذي أوتيه محمّد وقد كانوا يقولون عنه : أبتر ؟! إن الدعوة الى الله والحق والخير لا يمكن أن تكون بتراء ولا أن يكون صاحبها أبتر ، وكيف وهي موصولة بالله الحي الباقي .. ؟ إنما يُبتَر الكفر والباطل والشر ويُبتر أهله ، مهما بدا في لحظة من اللحظات أنه طويل الأجل ممتد الجذور .. وصدق الله العظيم وكذب الكائدون الماكرون)) . (في ظلال القرآن) - سيد قطب . أنظر (تبيان سوة العصر) .

16- (سورة التكاثر)

ربط السورة بخط السير:

السورة تأتي في " الطور الثاني " وما بعده ، أي بعد البيان الذي كان في " الطور الأول " . وذلك :

أَلْهاكُمْ : أَيْ شَغَلَكُمْ عَمَّا يَجِبُ عَلَيْكُمْ الِاشْتِغَالُ بِهِ ، لِأَنَّ اللَّهْوَ شُغْلٌ يَصْرِفُ عَنْ تَحْصِيلِ أَمْرٍ مُهِمٍّ .
التَّكَاثُرُ وَالْمُكَاثَرَةُ : التَّبَارِي فِي الْإِكْثَارِ مِنْ شَيْءٍ مَرْغُوبٍ فِي كَثْرَتِهِ . فَمِنْهُ تَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ ، وفِي الْعَدَدِ مِنَ الْأَوْلَادِ وَالْأَحْلَافِ لِلِاعْتِزَازِ بِهِمْ .
وَلَمْ يَذْكُرْ الْمُلْهَى عَنْهُ لِظُهُورِ أَنَّهُ **الْقُرْآنُ** وَالتَّدَبُّرُ في ما جاء به من الذكرى والإنذار . وَهَذَا الْإِلْهَاءُ حَصَلَ مِنْهُمْ وَتَحَقَّقَ ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ حِكَايَتُهُ بِالْفِعْلِ الْمَاضِي [1]. وهذا الموقف منهم كان بعد البلاغ والبيان . حيث لم يكترثوا لدعوة رسول الله وبقوا مصرّين على عدم الاستجابة . ومن ظاهر آيات السورة أن السبب هو عدم الاكتراث والإنشغال بأمور الدنيا . فجاءت السورة بأسلوبها القوي المثير لتنبيه الغافلين وبيان خطورة موقفهم .

مناط السورة:

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ [التكاثر] ، حالة تلهّي المجتمع ، وخاصة مَلَئه ، بالتنافس في الازدياد من متاع الدنيا والإكثار منه ، إلى درجة الغفلة حتى يفجأهم الموت [2] ، عن أن يأخذوا بالجدّية اللازمة ، ما يُدعون إليه من عبادة الله عزّ وجلّ ، وما يُنذرون به من مصير أمام الله جلّ وعلا في الحياة الآخرة (خطاب النذارة) .

المعالجة:

1- الْخِطَابُ في السورة – الأصل فيه – لِلْمُشْرِكِينَ بِقَرِينَةِ غِلْظَةِ الْوَعِيدِ بِقَوْلِهِ : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾﴾ [3] إِلَى آخِرِ السُّورَةِ . وَالْمُرَادُ بِالْخِطَابِ سَادَتُهُمْ وَأَهْلُ الثَّرَاءِ مِنْهُمْ ؛ الْمُنَعّمون ، لقَوْله : ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [التكاثر] وَلِأَنَّ سَادَةَ الْمُشْرِكِينَ (الملأ) هم الَّذين آثروا مَا هُمْ فِيهِ مِنْ النِّعْمَةِ عَلَى الاهتمام بتَلَقِّي دَعْوَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَتَصَدَّوْا لِتَكْذِيبِهِ وَإِغْرَاءِ عامة الناس بِعَدَمِ الْإِصْغَاءِ لَهُ . [4].

2- من حيث الأسلوب ؛ التنبيه القوي والزجر الشديد للذين ألهوا أنفسهم بمكاثرة المال والأولاد والجاه .. وقد تمادوا في الغفلة عمّا أنذروا به . (وَأَشَارَ فِي « الْكَشَّافِ » إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ الْمُفْتَتَحَةَ بِقَوْلِهِ :

---

1 - أنظر (التحرير والتنوير) - ابن عاشور . بتصرّف .
2 - ((الآية تصوّر الحياة الدنيا كالومضة الخاطفة في الشريط الطويل.. «أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ» .. وتنتهي ومضة الحياة الدنيا وتنطوي صفحتها الصغيرة.. ثم يمتد الزمن بعد ذلك وتمتد الأثقال)) . (في ظلال القرآن) - سيد قطب.
3 - ورد عن ابن عباس من طريق العوفي أن هذه الآية في أهل الشرك . (تفسير جزء عم) - مساعد الطيار .
4 - (التحرير والتنوير) - ابن عاشور . بتصرّف .

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ﴾ وَالْمُنْتَهِيَة بِقَوْلِهِ: ﴿ عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ﴾[التكاثر] ، اشْتَمَلَتْ عَلَى وُجُوهٍ مِنْ تَقْوِيَةِ الْإِنْذَارِ وَالزَّجْرِ، فَافْتُتِحَتْ بِحَرْفِ الرَّدْعِ وَالتَّنْبِيهِ (كَلَّا) ، وَجِيءَ بَعْدَهُ بِحَرْفِ (ثُمَّ) الدَّالِّ عَلَى أَنَّ الْإِنْذَارَ الثَّانِيَ أَبْلَغُ مِنَ الْأَوَّلِ . وَكُرِّرَ حَرْفُ الرَّدْعِ وَالتَّنْبِيهِ . وَحُذِفَ جَوَابُ (كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ) لِمَا فِي حَذْفِهِ مِنْ مُبَالَغَةِ التَّهْوِيلِ . وَأُتِيَ بِلَامِ الْقَسَمِ لِتَوْكِيدِ الْوَعِيدِ (لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ). وَأُكِّدَ هَذَا الْقَسَمُ بِقَسَمٍ آخَرَ . فَهَذِهِ سِتَّةُ وُجُوهٍ) [1].

3- (1-4) ، التوبيخ للذين ألهاهم التكاثر بالمال وغيره .. عن النظر في ما بلغهم من رسالة الله ودعوته .. وعدم الإقلاع عن ذلك إلى أن يصيروا إلى القبور .. وليعلموا أنهم لن يمكثوا في تلك القبور إلا كالزائر ، فهم سيغادرونها ، لأنهم سيبعثون وسيُحاسَبون على الغفلة عمّا جاءهم من الحق والإنذار .. وعلى ترْكهم شكر المُنعِم العظيم وعبادته .. ثم حثّهم بشدة على التدبّر فيما يُنْجيهم من الجحيم ، فهي مصيرهم في الآخرة إن بقوا غافلين عنها ، مُتلهّين عنها بالتكاثر في أمور الدنيا ، وعند ذلك يندمون ولا ينفع الندم .

4- (5) ، وبعد الزجر المؤكّد (كَلَّا .. ثُمَّ كَلَّا ..) .. لإبطال ما هم عليه من التشاغل ، قيل لهم : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ ﴾ [التكاثر] . أي ، لو أنّكم تعلمون علماً يقينيّاً جازماً لا شك فيه أن الله سيبعثكم وسيحاسبكم ، لما شغلكم هذا التكاثر ، ولَبان لكم شنيع ما أنتم فيه من الغفلة ، ولبادرتم إلى عبادة الله واتباع رسوله (جواب « لو» المحذوف). ولكن عدم العلم الحقيقي ، صيركم إلى ما ترون [2]. والحقيقة هذه سنّة ربّانيّة ، فالإيمان الناتج عن " علم اليقين " بالبعث والحساب ، هو وحده طريق النجاة . فهو الدافع الذي يسوق الإنسان إلى ترك التلهّي بالتافه الزائل والاهتمام بمصيره الرهيب الدائم الذي سيواجهه .

5- (6-8) ، ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ﴾ [التكاثر] ، جواب قسمٍ مضمرٍ أكّدَ بهِ الوعيدُ وشددَ بهِ التهديد – لأنهم ألهاهم التكاثر عن رسالة الله وإجابة دعوته – وأوضحَ بِهِ مَا أُنذروُه بعدَ إبهامِهِ تفخيماً . أي ، أقسم لكم وأؤكد أنّكم ستشاهدون النار الموقدة عياناً.. ثم أقسم وأؤكد أنّكم ستشاهدونها رؤيةً يقينيةً ومعاينة حقيقية حين تذوقون عذابها .. ثم أقسم وأؤكد أنّكم ستحاسبون على ألوان النعيمِ الذي ألهاكُم الالتذاذ به والمكاثرة منه .. عن اتباع هدى الله والحق الذي في رسالته ، وقد بلغكم بلاغاً مبيناً .

***

1 - (التحرير والتنوير) - ابن عاشور . بتصرّف يسير.
2 - أنظر (تبيان سورة الماعون) .

17- (سورة الماعون)

ربط السورة بخط السير :

السورة تأتي في نهاية " الطور الثاني " وما بعده (المواجهة الفكرية) . وذلك :

1- ظاهر السورة بيان بعض خصائص وطبائع الذين يُكذّبون بيوم الجزاء ، وبيان تأثيرهم السيئ على عامة الناس عندما يكونون من الملأ . ثم مواجهة هؤلاء الملأ المكذبين بالحق وبيان أنهم سبب الظلم الإجتماعي الذي يعيشه الناس . وان ذلك ناشيء عن تكذيبهم بيوم الدين أي يوم الحساب والجزاء (كشف الطاغوت) [1] . وبيان ذلك :

- ✓ " الْفَاءُ في ﴿ فَذَٰلِكَ ..﴿٢﴾ ﴾، لِعَطْفِ الصِّفَةِ الثَّانِيَةِ عَلَى الْأُولَى لِإِفَادَةِ تَسَبُّبِ مَجْمُوعِ الصِّفَتَيْنِ فِي الْحُكْمِ الْمَقْصُودِ مِنَ الْكَلَامِ ، وَذَلِكَ شَأْنُهَا فِي عَطْفِ الصِّفَاتِ إِذَا كَانَ مَوْصُوفُهَا وَاحِدًا مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴿٣﴾ ﴾ الصافات

فَمَعْنَى الْآيَةِ عَطْفُ صِفَتَيْ : دَعِّ الْيَتِيمِ ، وَعَدَمِ إِطْعَامِ الْمِسْكِينِ عَلَى جُرْمِ التَّكْذِيبِ بِالدِّينِ .. فجميعها مِنْ صِفَاتِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْجَزَاءِ .. وهذا يكشف عن بشاعة وسوء إِنْكَارِ الْبَعْثِ بسبب مَا يَنْشَأُ عَنْ إِنْكَارِهِ مِنَ الْمَذَامِّ والمساوئ ، وَمِنْ مُخَالَفَةٍ لِلْحَقِّ .. وَجِيءَ فِي يُكَذِّبُ ، ويَدُعُّ ، ويَحُضُّ ، بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ لِإِفَادَةِ تَكَرُّرِ ذَلِكَ مِنْهُ وَدَوَامِهِ .

- ✓ الْفَاءُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ...﴾ ، لِرَبْطِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ بِمَا قَبْلَهَا ، لِأَنَّ اللَّهَ أَرَادَ ارتباط هَذَا الْكَلَامِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ . فمَوْقِعُ الْفَاءِ صَرِيحٌ فِي اتِّصَالِ مَا بَعْدَهَا بِمَا قَبْلَهَا مِنَ الْكَلَامِ عَلَى معنى التَّفْرِيعِ والترتّب وَالتَّسَبُّبِ " .. فالسهو عن الصلاة .. وما بعدها من الصفات .. سببه التكذيب بيوم الحساب .
- ✓ وفي توسّط (وَيْلٌ) لتلك الصفات كلها – من بداية السورة حتى نهايتها – إِشَارَةٌ إِلَى أَن الويل ناشيء عَنْ جَمِيعِ تِلْكَ الصِّفَاتِ الَّتِي هُوَ – أي المكذّب بيوم الحساب – أَهْلُهَا [2].

2- وبناء على ما سبق ، نلاحظ أنه بغض النظر عن اعتبار السورة – كلها أو بعضها – مكيّة أم مدنيّة ، فإن مدار الكلام حول بيان صفات وخصائص الذين يكذّبون بيوم الحساب ، في أي زمان ومكان وبيان الأثر السيء لاتخاذهم قادة متبوعين . فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .. وهذا هو دور السورة في " المنهاج " ، ولا تأثير عليه من تعيين زمن نزولها ، مكيّة أو مدنيّة .

---

1 - وذلك في سياق " النذارة " : من باب أن اتّباع عامة الناس لمن " يُكذّب بالدين " واتخاذهم قادة متبوعين ،هو أصل الشقاء والضنك الذي يعيشونه في حياتهم . فللنجاة عليهم اتّباع مَنْ يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويمثلهم رسول الله ، وما جاء به من الحق من عند الله جلّ ثناؤه .

2 - التحليل اللغوي السابق من تفسير (التحرير والتنوير) - ابن عاشور .

مناط السورة :

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ ..﴾ الماعون ، بيان أن المكذّبين بالله وبيوم الحساب والجزاء ، خاصّة الأغنياء منهم ؛ أصحاب الدثور والمقنيات الكثيرة (الماعون) – وهم من الملأ عادة – هم سبب تفشّي الشرور وانتشار الظلم في المجتمع .. وذلك في إطار " خطاب النذارة " . بمعنى أن قبول الناس بهم أسياداً ومتبوعين ، وعدم اتباع أمر الله ورسوله ، هو سبب " الظلم الإجتماعي " و " المعيشة الضنكى " التي يحيونها في قريتهم وفي مجتمعهم .. كعقوبة وجزاء من الله تعالى لهم .

المعالجة :

1- " أَصْلُ ظَاهِرِ الْكَلَامِ أَنْ يُقَالَ: أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَيَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ .. وَالْإِشَارَةُ إِلَى الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ (ذلك) لِتَمْيِيزِهِ أَكْمَلَ تَمْيِيزٍ حَتَّى يَتَبَصَّرَ السَّامِعُ فِيهِ وَفِي صِفَتِهِ ، فيكون بِمَنْزِلَةَ الظَّاهِرِ الْوَاضِحِ بِحَيْثُ يُشَارُ إِلَيْهِ " . وفي هذا كشف القناع عن حقيقة الذي يكذّب بيوم الجزاء والحساب وبيان طبيعته الفاسدة . فمن أراد أن يعرف الذي يكذّب بيوم الجزاء والحساب ، فسيعرفه من صفاته الظاهرة الواضحة ، فهو ذلك الذي :

- (1-3) ، لا يعطي ضعاف الناس من المساكين والأيتام .. حقّهم ولا يرحمهم ، ويزجرهم بشدة وقسوة .. بل ولا يحثّ على الإحسان إليهم .. حيث لا منفعة من ضعاف الناس تُرتجى ، ولا أذى أو شر منهم يُخشى .

- (4-6) ، يحاول جاهداً إظهار نفسه – أمام الناس – بأنه من الصالحين الفاعلين للخير ، طلباً للثناء عليه : (يراؤون) . فهو قد يؤدي الصلاة .. أو غيرها من أعمال الخير ، مراءاة للناس .. وإذا خلا مع خاصته غفل عنها ولم يبال أأداها أم لم يؤدها .. كما قال تعالى :

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ النساء

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾﴾ النساء

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ ... ﴿٢٦٤﴾﴾ البقرة

- (7) ، وهو الذي يَمنع إعطاء الناس من الأشياء والأمور التي لم تجرِ العادة بمنعها (الماعون) ، ويُنسب مَنْعُها إلى لؤم الطبع وسوء الخلق .. كالعارية التي لا تضر إعارتها ، وذلك ضنّاً بعمل الخير وإن قل ..

فلو أحسنوا عبادة ربهم – إخلاصاً واتباعاً – لأحسنوا إلى خلقه ..

2- إنذار أصحاب الصفات السابقة من المترفين والملأ وغيرهم .. وهي علامة عليهم بأنهم يكذّبون بيوم الدين .. إنذارهم بما ينتظرهم من العذاب الشديد والهلاك (ويل) من الله تعالى إن بقوا على حالهم .

3- وفيما سبق ، تقريرٌ لحقيقة أن إخلاص العبودية لله عزّ وجلّ رغبة فيما عند الله من أجر وثواب ، هو أهم وأكبر دافع لفعل الخير مع عموم الناس ، وخاصة ضعافهم كالمساكين والأيتام . فالذي يتعامل باحسان مع ضعاف الناس بدون مقابل في الحياة الدنيا ، هو مَن ارتجى الثواب والأجر من رب العالمين في الحياة الآخرة [1]. وعليه ، فصلاح المجتمع ورفع الظلم و " المعيشة الضنكى " عنه يكون في العبودية الكاملة والشاملة لله عزّ وجلّ ، أي الدخول في السلم كافة ..

(لاحظ تبيان سور: الحاقة ، الفجر، الضحى، الليل، الأحقاف، الإنسان، البلد، الإسراء) .

ومن هنا ، فإن أول ما يُحمل من الرسالة إلى الناس هو دعوتهم إلى عبادة الله مع بيان المصير (خطاب النذارة) .. فإجابتها أصل كل خير ورفضها أصل كل شر :

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾ النحل

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ الأنبياء

***

1 - ((قال الزمخشري : جَعَل عَلَم التكذيب بالجزاء منْع المعروف والإقدام على إيذاء الضعيف. يعني أنه لو آمن بالجزاء وأيقن بالوعيد، لخشي الله تعالى وعقابه، ولم يقدم على ذلك. فحين أقدم عليه عُلم أنه مكذّب . فما أشده من كلام! وما أخوفه من مقام! وما أبلغه في التحذير من المعصية ، وإنها جديرة بأن يُستدل بها على ضعف الإيمان ورخاوة عقد اليقين)) . محاسن التأويل - القاسمي .كما في قوله تعالى (كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ{5}) التكاثر . أنظر (تبيان سورة التكاثر) . (وَهَذَا إِيذَانٌ بِأَنَّ الْإِيمَانَ بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ هُوَ الْوَازِعُ الْحَقُّ الَّذِي يَغْرِسُ فِي النَّفْسِ جُذُورَ الْإِقْبَالِ عَلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ حَتَّى يَصِيرُ ذَلِكَ لَهَا خُلُقًا ، إِذَا شَبَّتْ عَلَيْهِ ، زَكَتْ وَانْسَاقَتْ إِلَى الْخَيْرِ بِدُونِ كُلْفَةٍ وَلَا احْتِيَاجٍ إِلَى أَمْرٍ وَلَا إِلَى مَخَافَةٍ مِمَّنْ يُقِيمُ عَلَيْهِ الْعُقُوبَاتِ حَتَّى إِذَا اخْتَلَى بِنَفْسِهِ وَأَمِنَ الرُّقَبَاءَ ، جَاءَ بِالْفَحْشَاءِ وَالْأَعْمَالِ النَّكْرَاءِ) . (التحرير والتنوير) - ابن عاشور .

18- (سورة الكافرون)

ربط السورة بخط السير :

السورة تأتي في الطور الرابع حيث أصبح الكفر موقفاً نهائياً للمجتمع ومَلَئه ، وذلك :

1- ورد في سبب النزول أن بعض الملأ من قريش وساداتهم أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا له : (هلمّ يا محمّد فاتبع ديننا ونتبع دينك، ونشركك في أمرنا كله. تعبد آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة.. الخ). وهذه الرواية لم تثبت [1] . وبرغم ذلك ، أغلب المفسرين ذكروا الرواية وجعلوها مؤثرة في توجيه معاني آيات االسورة .

2- هذا ، وقد يكون اعتماد المفسرين للرواية برغم ضعف سندها ، له ما يبرره – في ما يبدو – وهو أن متن الرواية لا يتعارض مع محتوى السورة – أسلوباً ومعنى – بل قد ينسجم معه . ذلك أن ، كلمة (قُلْ) في أول السورة تشير إلى أن السورة نزلت جواباً لطلبٍ من كفّار قريش ، حيث أن أغلب ورود (قُلْ) في آيات القرآن يأتي في سياق جواب سؤال مباشر وُجّه للرسول : (يَسْأَلُونَكَ) ، أو ردّ شبهة أثارها الكفار أو طلب طلبوه [2] . ومعاني آيات السورة (جواب السؤال) – سنبيّنها بعد قليل – يدل على أن موضوع الطلب متعلق بالمهادنة أو المداهنة ، كما في آيات أخرى كثيرة تُبيّن محاولة الملأ للالتقاء مع رسول الله في منتصف الطريق ، أو الوصول معه لـ "حل وسط " بين الشرك والإيمان .. خاصة عندما يكون التحدي – بين الفريقين – في أوجِه ، والخصومة في أشدّها.. كما هو الحال في " الطور الرابع " .

3- أورد ابن كثير – رحمه الله – في تفسيره أربعة أقوال للمفسرين في فهم آيات السورة وتوجيهها ، فقال ما حاصله :

الأول : هذه سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون ، فقوله تعالى :﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ ﴾ *الكافرون* ، يشمل كل كافر على وجه الأرض ، ولكن المواجَهون بهذا الخطاب هم كفّار قريش .. وأمَر اللهُ رسولَه أن يتبرأ من دينهم بالكليّة ، وذلك بإعلان البراءة من المعبود أي الآلهة المطاعة : الآيتان (2-3) . والبراءة من طريقة العبادة ، أي من الشريعة : الآيتان (4-5) . فتبرّأ منهم في جميع ما هم فيه، ولهذا كانت كلمة الإسلام : " لا إله إلا الله محمّد رسول الله " ؛ أي لا معبود إلا الله ، ولا طريق إليه إلا بما جاء به رسوله الخاتم محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم . والمشركون يعبدون غير الله ، عبادةً لم يأذن بها الله . ولذلك قال :﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾ *الكافرون* . وهذا كان اختيار ابن كثير .

---

1 - (أسباب نزول القرآن) - الواحدي . وقال محقق الكتاب عصام الحميدان : ضعّفه الحافظ ابن حجر (فتح الباري : 733/8) .

2 - أنظر (تبيان سور : الإخلاص ، الفلق ، الناس) .

الثاني : ما حكاه البخاري وغيره أن المراد في : ﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣ ﴾ الكافرون ، في الماضي . والمراد في :﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥ ﴾ الكافرون في المستقبل . وهو اختيار الطبري . حيث قال : (فأمر نبيّه صلّى الله عليه وسلّم أن يؤيّسهم من الذي طمعوا فيه ، وحدّثوا به أنفسهم ، وأن ذلك غير كائن منه ولا منهم ، في وقت من الأوقات . وآيس نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم من الطمع في إيمانهم ، ومن أن يفلحوا أبداً . فكانوا كذلك لم يفلحوا ولم ينجحوا ، إلى أن قُتل بعضهم يوم بدر بالسيف ، وهلك بعضهم قبل ذلك كافراً) .

الثالث : أن ذلك تأكيد محض . ونقل ابن جرير عن بعض أهل العربيه أن ذلك تكرار من باب التأكيد ، كقوله : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ۝٦ ﴾ الشرح . وكقوله : ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۝٧ ﴾ التكاثر .

الرابع : نصره ابن تيمية في بعض كتبه ؛ وهو أن المراد بقوله :﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ ﴾ الكافرون نفي الفعل لأنها جملة فعلية . و ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ ﴾ الكافرون . نفي قبوله لذلك بالكليّة . لأن النفي بالجملة الاسميّة آكد ، فكأنّه نفى الفعل ، وكونه قابلاً لذلك . ومعناه نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعي أيضاً [1] .

هذا وبالنظر فيما ورد من أقوال المفسرين – وقد أجملناه في ما سبق – ظهر لنا ما يلي :

1- أنهم متفقون على أن هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون . فهذا هو فحواها ومقصودها: ﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾ الكافرون

2- وعند بحثهم أسلوب السورة وكيفية أدائه لذلك المعنى – البراءة من دين المشركين – فقد اتفقوا أيضاً على أن مقصود الأسلوب ومؤدّاه أن تكون تلك البراءة بشكل علني ، ومؤكّد ، ودائم ، وواضح وضوحاً بيّناً لا لبس فيه .

3- فبقي الخلاف محصوراً في تفاصيل أسلوب التوكيد بين أن يكون عن طريق التكرار مطلقاً ، او عن طريق تكرار الجملة الأسمية بعد الفعلية .. فالجملة الفعليّة دلالتها مرتبطة بالزمن ، فالفعل المضارع (أعبد) يعني الآن ، ويحتمل المستقبل . ولتأكيد النفي بالمستقبل أورد جملة اسميّة (عابد) يعني دائماً وأبداً ، فلا علاقة لدلالتها بالزمن . وإذا دققنا في أساليب التوكيد المذكورة نلاحظ أن بينها نوع من الترابط والتداخل. يعني ؛ إن كان مطلق التكرار توكيد ، فإن تكرار الجملة الاسميّة بعد الفعليّة ، توكيد أقوى يمنع أي احتمال للتغيير في المفهوم ، وعلى مدار الزمان : ﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾ الكافرون

1 - تفسير ابن كثير - باختصار .

وعليه ، فمقصود السورة هو " تأييس الملأ الذين كفروا من قريش من أن يوافقهم رسول الله في شيء مما هم عليه من الكفر ، بالقول الفصل المؤكّد في الحال والإستقبال ، وأن دين الإسلام لا يُخالط شيئاً من دين الشرك " . وهذا هو مدلول كلمة الإسلام وشعاره ، وركنه الأول :
(لا إله إلا الله محمّد رسول الله).

4- هذا ، والجديد في السورة هو :

- ✓ إعلان هذه البراءة من الدين السائد (الآلهة المدّعاة ونظام عبادتها) على عامة الناس .
- ✓ وصف مَن يعتنق ذلك الدين بـ " الكافرون " ومخاطبتهم بها . على اعتبار أن الكفر هو موقفهم النهائي ، كما في سورة يس : ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ ... وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ يس

وهذا الأمر يكون متأخراً في سير رسول الله بالرسالة ؛ في " الطور الرابع " ، حيث بعد إصرارهم على الكفر .. يكون إعلان البراءة من دين الكافرين – الآلهة والشريعة – قُبيل أن يُنْزل الله تعالى بهم عذابه المدمّر ؛ أو " البطشة الكبرى " . كما ورد في سور أخرى متعلّقة بالطور الرابع ، مثل قوله تعالى في سورة الشعراء بعد آية الإنذار بالعذاب :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ﴾ الشعراء

وقوله تعالى في سورة يونس :

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ يونس . [1]

مناط السورة :

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ الكافرون . الملأ الذين اتخذوا الكفر موقفاً نهائياً لهم ، يستميلون المؤمنين العابدين لله عزّ وجلّ والحاملين لدعوته ، لصرفهم عن عبوديتهم لله تبارك وتعالى (حل وسط) .

---

1 - نتمنّى على القاريء الكريم الرجوع إلى تفسير "سورة الكافرون" في كتاب (نظام القرآن) للفراهي الهندي رحمه الله. فهو يستقصي الأدلة والقرائن في بيان أن هذه السورة هي إعلان للبراءة من دين المشركين ، وأن هذا يكون من المواقف الأخيرة للمؤمنين قُبيل إنزال العذاب بالكافرين بسبب إصرارهم على الكفر .
هذا ، ونذكّر هنا أن البراءة من الكفر في هذه المرحلة وهذا الطور - كما نصّت سورة الكافرون وغيرها من الآيات - هو البراءة من كل ما عُبد من دون الله (الطاغوت) ، ومن شريعته المتّبعة ، وليس البراءة من الأشخاص والأعيان : أما في " مرحلة التمكين " للمؤمنين ، فتكون البراءة من الجميع ؛ من الطاغوت، ومن شريعته، ومن الذين يتبعونها (الأفراد).
أنظر مثلاً ، الآيات التي فيها لفظة (بريء) وتصريفاتها ، ولاحظ الفرق الذي ذكرناه ، بين آيات السور المكيّة والمدنيّة.
أنظر أيضاً (الجزء الثالث - " المنهج ") - فصل : كيف يكون السير العملي - ص 131، 136 .

المعالجة :

1- (1) ، إطلاق وصف الكفر على من لا يعبد الله ولا يتّبع شريعته .. وقد جعله موقفاً نهائياً .

2- (2،3) ، بيان أن الكافرين هم الذين لا يتخذون الله وحده إلها معبوداً مطاعاً ؛ فهم إما يعبدون غير الله جلّ وعلا .. أو يشركون معه غيره في الطاعة ، تبارك اسم الله وتعالى جده ..

وأن المؤمنين هم الذين لا يعبدون إلا الله عزّ وجلّ وحده ، فلا يتخذون إلهاً معبوداً إلا الله ، ولا يُطيعون سواه .

3- (4،5) ، ومن ثم ، فإن منهاج حياة الكافر – دينه – من عند غير الله جلّ وعلا . وأما منهاج حياة المؤمن – دينه – فلا يأخذه ولا يتلقاه إلا من الله وحده عزّ وجلّ .

فمفاد الجملتين الأُوليين الاختلاف التام في المعبود بين الفريقين ، ومفاد الجملتين الأُخريين تمام الاختلاف في العبادة ، فلا معبودهما واحد ولا عبادتهما واحدة .. فلا يمكن أن يلتقيان أبداً ..

4- (6) ، إعلان المؤمن براءته التامة والدائمة من آلهة الكفار وشريعتها (الدين السائد) .

عن فروة بن نوفل عن أبيه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قال لنوفل :

((**إقرأ (قل يا أيها الكافرون) ثم نم على خاتمتها ، فإنها براءة من الشرك**)) [1].

***

19- (سورة الفيل)

ربط السورة بخط السير :

تأتي السورة في نهاية " الطور الثالث " وما بعده . وذلك :

1- فيها تهديد لقريش بعذاب الله تعالى في الدنيا .. فكما أفشل الله كيد أصحاب الفيل .. فإنه قادر على إفشال كيدهم لأوليائه ؛ رسول الله والمؤمنين معه : ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ ﴾ الفيل

2- تسمية أعمال المشركين في الصد عن سبيل الله ، خاصة في " الطور الثالث " وبداية الرابع ؛ من إيذاء المسلمين وتعذيبهم وتجويعهم وحصارهم .. بـ " الكيد " . أما وقد فشلت تلك الإجراءات والأساليب (الكيد) في تحقيق مراد قريش في القضاء على الدعوة إلى عبادة الله أو – على الأقل – الحد من انتشارها .. لجأوا ، في " الطور الرابع " ، إلى النظر والبحث عن أساليب وأعمال أخرى أكثر فاعلية في

1 - صححه الحاكم ووافقه الذهبي ، وحسنه الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الأذكار .

القضاء على دعوة الله قضاء مبرماً .. وهذا التخطيط والتفكير وتقليب الأمور سمّاه القرآن " المكر " [1] .. ومنه القضاء على صاحب الدعوة وحامل الرسالة .. ومنه التلبيس على آيات الله وصرفها عن الدلالة على الحق ، والاستهزاء بها : " المكر في آيات الله ".. كما في قوله تعالى :

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ يونس

أي ، وإذا أذقنا كفار مكة مطراً وخصباً – وقد فتح الله عليهم الدنيا إملاء واستدراجاً – من بعد بؤس وجدب مسَّهم ؛ الدخان أو العذاب الأدنى ، إذا لهم مكر في آياتنا ، أي يوهمون عامة الناس أن آيات القرآن غير دالة على صدق الرسول ، ويزعمون أنه لو أنزلت عليه آية أخرى لآمنوا بها ، تكذيباً واستهزاء [2]..

مناط السورة :

﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ ﴾ الفيل ، مواجهة ما يقوم به الكافرون من أعمال وإجراءات (كيد) لصرف الجماعة المؤمنة عن عبادة الله والدعوة إليه .

المعالجة :

معنى آيات السورة واضح ، وهي تُذكّر السامعين بقصة معروفة لديهم ، بما كان من نكال الله تعالى في أصحاب الفيل ، حيث جعل كل ما قاموا به من أعمال وجهود شاقة وإعدادات كبيرة – زَحْف جيش بكامل عتاده وفيلة .. – من أجل تعطيلِ الكعبةِ وتخريبِها.. جعل الله كل ذلك " الكيد " في تضييعٍ وإبطالٍ فلم يدركوا مقصودهم ، بأنْ دمَّرهُم أشنعَ تدميرٍ ، فأرسل الله عليهم جماعات من الطير متتابعة فأحاطت بهم من كل ناحية (أَبَابِيلَ) ، ترميهم بحجارة طينية (سجّيل) ، فجعلتهم كورق الزرع وساقه المتكسّر المتبقّي بعد أن أكلت منه البهائم وداسته بأرجلها (كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ) [3] .. شبّه تقطّع أوصالهم بتفرّق حطام النبات المتكسّر .

---

1 - (المكر) : تدبير أمر في خفاء . فمجاله التخطيط ، ومناقشة الأساليب والأعمال لاختيار الناجع منها .. كما في قوله تعالى في سورة الأنفال : (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ {30}) . وقد يكون المكر في الخير أو في الشر . فجاء وصف " المكر " في القرآن بأنه خير أو سيئ . وقد ذم الله تعالى المكر السيئ ، ولم يذم مطلق المكر ، فقال تعالى في سورة فاطر : (وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ {10}).(اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ..{43}).

أما (الكيد) : مُعَالَجَة الشَيْءِ بشِدَّةٍ . قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ : الْكَيْدُ، الْمُعَالَجَةُ (معجم مقاييس اللغة) . فمجاله الأعمال نفسها والتجهيزات، ومحاولة تنفيذها في الواقع لتحقيق الغاية المرادة ، وإلغاء تأثير (معالجة) المقاومة أو الممانعة التي تحول دون تحقيق الغاية المرادة . فـ " الكيد " هو : القيام بأعمال وإعداد ترتيبات تُلجيء بها غيرك للخضوع لمرادك . كما في قوله تعالى عن إبراهيم الخليل : (وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ{57} فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ{58}) الأنبياء . لذلك وُوصف " الكيد " في القرآن - في إطار تحقيق المراد - بأنه : متين ، أو ضعيف ، أو عظيم ، أو أنه في تضليل أو في ضلال ، أي لم يحقق المراد . للتفصيل أنظر (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزّ وجلّ) - حبنّكة الميداني . وأنظر (مفاهيم ومصطلحات رسالية) - المكر والكيد في القرآن .

2 - أنظر (فصل " الطور الرابع " - بند 10) .

3 - العَصْفُ والعَصِيفَةُ : الذي يُعْصَفُ من الزّرع ، ويقال لحطام النّبت المتكسّر : عَصْفٌ . وعَاصِفَةٌ ومُعْصِفَةٌ : تَكْسِرُ الشيءَ فتجعله كَعَصْفٍ ، وعَصَفَتْ بهم الرّيحُ تشبيهاً بذلك . (مفردات القرآن) - الراغب الأصفهاني .

وبشيء من التفصيل يمكن القول [1] : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١... ﴾ الفيل :

1. الخطابُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والهمزةُ لتقريرِ رؤيتِه عليهِ الصلاةُ والسلامُ .. أيْ ألمْ تعلْم علماً لا شك فيه متاخماً للمشاهدةِ والعَيَانِ ، باستماعِ الأخبارِ المتواترةِ ومعاينةِ الآثارِ الظَّاهرةِ .

2. وتعليق الرؤيةِ بكيفيةِ فعلِه عزّ وجلّ لتهويلِ الحادثةِ ، والإيذانِ بوقوعها عَلَى كيفيةٍ هائلةٍ وهيئةٍ عجيبةٍ دالةٍ عَلَى عظمِ قُدرةِ الله تعالَى وكمالِ علمِه وحكمتِه ، فهي آية من آيات الله تعالى الخارقة للعادة [2].

3. وَجِيء فِي تَعْرِيفِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، بِوَصْفِ (رَبُّ) مُضَافًا إِلَى ضَمِيرِ النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (كَ) إشارة إِلَى أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ التَّذْكِيرِ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ تَكْرِيمُ رسول الله وتسليته وتثبيته.. لما في وصف رب من الإشعار بالولاية والتأييد ولما تؤذن به إضافته إلى ضمير المخاطب من إعزازه وتشريفه .. فهو – سبحانه – الذي ربى نبيه صلى الله عليه وسلم وتعهده بالرعاية ، وهو الكفيل بنصره على أعدائه .. وأَنَّ اللَّهَ قادر على أن يَدْفَعُ عَنْه – والمؤمنين معه – " كَيْدَ " الْمُشْرِكِينَ ؛ أي ما يقومون به من أعمال تعذيب وايذاء وتخويف وتجويع وحصار .. لصدّ المؤمنين عن عبادة الله ومنعهم من الدعوة إليه . فَإِنَّ الَّذِي دَفَعَ " كَيْدَ " الذين كادوا لِبَيْته ، لَأَحقُّ بِأَنْ يَدْفع " كَيْدَ " الذين يَكِيدُون لِرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَدِينِهِ وأوليائه .. ويؤيّد هَذَا قَوْله : ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ ﴾ الفيل . وقد جاء بأسلوب السؤال

1 - أنظر تفاسير (التحرير والتنوير) . (أبو السعود) . (في ظلال القرآن) . (ابن كثير) . (جزء عم) - مساعد الطيّار.

2 - ((إن سنة الله ليست فقط هي ما عهده البشر وما عرفوه . وما يعرف البشر من سنة الله إلا طرفا يسيرا يكشفه الله لهم بمقدار ما يطيقون ، وبمقدار ما يتهيأون له بتجاربهم ومداركهم في الزمن الطويل، فهذه الخوارق - كما يسمونها - هي من سنة الله . ولكنها خوارق بالقياس إلى ما عهدوه وما عرفوه! [ودليل ذلك أن الله تعالى ما خلق شيئاً إلا وجعل له نظامًا خاصًا، وسنة ثابتة : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ القمر: 49، ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ الرعد: 8، ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ الطلاق: 3] .. ومن ثم فنحن لا نقف أمام الخارقة مترددين ولا مؤولين لها - متى صحت الرواية - أو كان في النصوص وفي ملابسات الحادث ما يوحي بأنها جرت خارقة ، ولم تجر على مألوف الناس ومعهودهم . هذا ، وقد شاع في تفسير محمد عبده وفي تفسير تلميذه رشيد رضا .. الرغبة الواضحة في رد الكثير من الخوارق إلى مألوف سنة الله دون الخارق منها ، وإلى تأويل بعضها بحيث يلائم ما يسمونه «المعقول» ! وإلى الحذر والاحتراس الشديد في تقبل الغيبيات .. ذلك أن مواجهة ضغط الخرافة من جهة ، وضغط الفتنة بالعلم من جهة أخرى تركت آثارها في تلك المدرسة، من المبالغة في الاحتياط ، والميل إلى جعل مألوف السنن الكونية هو القاعدة الكلية لسنة الله .

إن هنالك قاعدة مأمونة في مواجهة النصوص القرآنية ، لعل هنا مكان تقريرها : إنه لا يجوز لنا أن نواجه النصوص القرآنية بمقررات عقلية سابقة. لا مقررات عامة ، ولا مقررات في الموضوع الذي تعالجه النصوص. بل ينبغي أن نواجه هذه النصوص لنتلقى منها مقرراتنا. فمنها نتلقى مقرراتنا الإيمانية، ومنها نكوّن قواعد منطقنا وتصوراتنا جميعا، فإذا قرَّرت النصوص لنا أمراً فهو المقرَّر كما قررته! . ذلك أن ما نسميه «العقل» ونريد أن نحاكم إليه مقررات القرآن عن الأحداث الكونية والتاريخية والإنسانية والغيبية .. هو إفراز واقعنا البشري المحدود، وتجاربنا البشرية المحدودة. وهذا العقل وإن يكن في ذاته قوة مطلقة لا تتقيد بمفردات التجارب والوقائع بل تسمو عليها إلى المعنى المجرد وراء ذواتها .. إلا أنه في النهاية محدود بحدود وجودنا البشري . وهذا الوجود لا يمثل المطلق كما هو عند الله . والقرآن صادر عن هذا المطلق ، فهو الذي يحكمنا ، ومقرراته هي التي نستقي منها مقرراتنا العقلية ذاتها . ومن ثم لا يصلح أن يُقال : إن مدلول هذا النص يصطدم مع العقل فلا بد من تأويله - كما يرد كثيراً في مقررات أصحاب هذه المدرسة - وليس معنى هذا هو الاستسلام للخرافة. ولكن معناه أن العقل ليس هو الحَكَم في مقررات القرآن . ومتى كانت المدلولات التعبيرية مستقيمة واضحة فهي التي تقرر كيف تتلقاها عقولنا ، وكيف تصوغ منها قواعد تصورها ومنطقها تجاه مدلولاتها ، وتجاه الحقائق الكونية الأخرى)) . (في ظلال القرآن) - سيد قطب . بتصرف . وبتعبير آخر يمكننا القول : بعد أن يَثبت أصل النص بالعقل، أي بأنه وحي من الله تعالى ، يصبح دور العقل وعمله إدراك دلالة النص (فهم مراد الله) وحسب الأصول المعتبرة ، لغة واصطلاحاً ، ومن ثم التسليم بتلك الدلالة . والإختلاف في الفهم ممكن ما سمح بذلك النص ؛ ثبوتاً ودلالة . وفي كتابه " درء تعارض العقل والنقل " قرر ابن تيمية ما يقرره سيد قطب هنا ، رحمهما الله تعالى .

التقريري في خطاب رسول الله ، والذي يذكرنا باستخدامه في سورتي الضحى والشرح .. في سياق طمأنة رسول الله وتثبيته .

4. وفي إيراد القصّة أيضاً ، تذكير لقريش بنعمة الله تبارك وتعالى عليهم في حماية هذا البيت وصيانته ، بِأَنَّ فَاعِلَ ذَلِكَ هُوَ الله رَبُّ الْبَيْتِ .. الربّ الحق الذي يعبده محمّد : ﴿ .. كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ..﴿١﴾ ﴾ .. وليست الأرباب وِالْأَصْنَامِ التي يعبدونها من دون الله وقد نَصَبُوهَا حَوْلَ البيت ، حيث عجزت – وهم أيضاً عجزوا – عن الوقوف في وجه أصحاب الفيل الأقوياء .. لعلهم بتذكيرهم بإنعام الله عليهم بدفع العدو عنهم ، يستحون من جحود نعمة الله تبارك وتعالى، الذي تقدمت يده عليهم في ضعفهم وعجزهم، فيبادروا إلى أن يعبدوا الله ويشكروه على نعمائه ، كما في قوله تعالى :

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾ قريش

5. ومن جهة أخرى ، إعلامهم بِأَنَّ اللَّهَ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ، لعلّهم يطامنون من اغترارهم بقوتهم وَوَفْرَةُ عَدَدِهِمْ اليوم ، في مواجهة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والقلة المؤمنة معه . فقد حطّم الله الأقوياء حينما شاءوا الاعتداء على بيته وحرمته ، فلعله يحطّم الذين يقفون لرسوله ودعوته ، وهم لا يزالون أقل من أولئك قوة .. فالذي يعادي دين الله وأولياءه ، عدو لله عزّ وجلّ .. فهم في حرب مع الله سبحانه وتعالى، فلمن تكون الغلبة والنصر ؟. فهذا التذكير بالحادث على هذا النحو هو طرف من الحملة عليهم .. وفيه إنذار بالعذاب المدمّر لهم من الله جلّ وعلا في الدنيا قبل الآخرة ..

***

20، 21، 22 – (سور : الفلق ، الناس ، الإخلاص)

ربط السور بخط السير :

1– يأتي دور هذه السور من البداية في " الطور الأول " ، مع الآيات الأولى من سورة العلق .. يعني في سياق البيان بأنه لا إله إلا الله ، تعليماً وتزكيةً ، على اعتبار أن فعل الأمر (قل) في هذه السور يدل على عموم الأمر بالقول والإخبار ، بقراءة وتلاوة ما أنزله الله تعالى ، أي : إقرأ ، أُتلُ .. وعلى هذا تُفهم الأحاديث النبويّة التي فيها توجيه المسلم لتلاوة هذه السور صباحاً ومساءً .. ليبقى مستشعراً آثار إلهية الله تعالى ، مستحضراً عظمته في قلبه ، الأمر الذي يستدعي منه العبودية لله تعالى في قلبه وسلوكه وواقعه [1] ..

1 - وسورتا الفلق والناس تشتركان في أسم واحد ، وهو " المعوذتان " ، ولهما فضائل ؛ منها : معوذتان من السحر والعين، وأنهما تُقرآن في أذكار دبر الصلوات ، وفي أذكار الصباح والمساء ، وعند النوم .
ومن فضل " سورة الإخلاص " : أنها تعدل ثلث القرآن ، وأنها تُقرأ في صلاة الوتر ، وسنة الفجر ، وسنة الطواف ، وفي أذكار الصباح والمساء ، وأذكار دبر الصلوات .

2- هذا ، وبعد الدخول في المواجهة الفكريّة والسياسية مع المجتمع وملئه في " الطور الثاني " .. وبعد ما تشتد المواجهة ويقوى الصراع في الأطوار التالية .. يلجأ المؤمنون ؛ حَمَلة الرسالة ، إلى الله ربهم ومولاهم مستعيذين به من شرور أعدائهم شياطين الإنس والجن .. عندها ، قد يأتي فعل الأمر (قل) في هذه السور كجواب سؤال أو رد على شبهة أثارها الكفار .. في سياق تثبيت قلوب المؤمنين وتبكيت أعدائهم. كما في سبب نزول سورة الإخلاص [1] .. وكما هو الحال في مختلف السور أو الآيات التي ورد فيها الفعل (قل) . وكما هو في الآيات – سنذكرها بعد قليل – التي أمر الله تعالى فيها أولياءه ؛ رسول الله والذين آمنوا معه ، بالاستعاذة بالله السميع العليم من نزغ الشيطان [2]، من الإنس والجن ، والتي وردت ضمن مجموعة أحكام – في سياق تبليغ الرسالة وحمل الدعوة – تضبط العلاقة العامة والتعامل مع الناس وخاصة المشركين : من الإعراض عن الجاهلين ، والرفق والتعامل بالتي هي أحسن من الفعل والقول .. وقد جاءت هذه الأحكام في سور تأتي متأخرة في " الطور الرابع " حيث يكون التوتّر في العلاقة بين الفريقين في أعلى درجاته ، ولا يَحتمل الأمر أدنى إثارة أو استفزاز حتى يتحوّل إلى اقتتال بالسلاح (حرب أهلية). كما في الرواية الثابتة التي ورد فيها وصف عتبة بن ربيعة للحال بين الفريقين عندما أرسله الملأ من قريش ليفاوض رسول الله . حيث قال :

(.. أما والله ما رأينا سخلة أشأم على قومها منك ، فرّقتَ جماعتنا ، وشتّتتَ أمرنا ، وعبت ديننا ، وفضحتنا في العرب ، حتى طار فيهم أنّ في قريش ساحراً ، وأنّ في قريش كاهناً ، ما يُنتظر إلا مثل صيحة الحبلى بأن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف حتى نتفانى ..) [3] ..

في مثل هذه الأجواء المشحونة والمتوتّرة جاءت هذه المجموعات من الأحكام ، وقد قَرُب إنزال العذاب بالكافرين .. فكانت الآيات الكريمة – التي وردت فيها تلك الأحكام – توجيهاً حكيماً من الله جلّ وعلا ، حيث جاء فيها :

- ✓ تنبيه المؤمنين لتخفيف حدّة التوتّر ﴿ ..فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ فصلت. واستيعاب أي عملٍ طائش من جاهل ، أو نزغٍ من شيطان خبيث قد يؤدي إلى تدهور الوضع .
- ✓ تسلية المؤمنين عما أصابهم ويصيبهم من أذى أعداء الله .
- ✓ إعداد المؤمنين وتدريبهم على الصبر على الأذى وتحمُّل الشدائد ، والاستقامة على أمر الله تعالى والتوقف عند حدود الله ، مهما كانت درجة الغضب أو الاسفزاز قوية من الجهلة والشياطين من الإنس والجن .. لأن المؤمنين هم الذين سيحملون رسالة الله والانسياح بمنهج الله في الأرض ، ولا شكَّ أن القيام على منهج الله يحتاج إلى صلابة وقوة وتدريب . والآيات هي :

---

1 - أخرج أحمد والترمذي عن أبي بن كعب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أن المشركين قالوا للنبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يا محمد انسب لنا ربك [يعني اذكر نَسَبه] فأنزل الله تبارك : (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)) . حسن لشواهده ، كما قال إبراهيم العلي في (صحيح أسباب النزول) . وقد ضعّفه بعض أهل العلم .

2 - النَّزْغُ هو : دخولٌ في أمرٍ لإفساده . (المفردات) – الراغب . يعني دخول الشيطان - من الإنس أو الجن - لإفساد الأمر بين الناس .

3 - صحيح السيرة - إبراهيم العلي .

- ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾ المؤمنون

أي ، لما أعلم الله تعالى نبيه صلّى الله عليه وآله وسلّم بأنه منزل عذابه بهؤلاء المشركين الذين لم ينتفعوا بتلك التوجيهات التي تقدمت في الآيات قبل هذه – في سورة المؤمنون – علّمه كيفية الدعاء للنجاة من عذاب الله لهم .. وأكّد له أن العذاب نازل بهم قريباً ، لكن في موعده المقدّر .. ثم أمره ، مرشداً له إلى الترياق النافع : بمقابلة سيئات هؤلاء المشركين الجاهلين ، بالأخلاق والسجايا التي هي أحسن من غيرها .. وبأن يستعيذ بالله ربّه من وساوس الشياطين وحضهم على مخالفة ما أمرهم الله تعالى به من الصبر ودفع السيئة بالحسنة .. كما في قوله تعالى :

- ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ الأعراف

- ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ فصلت

- ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ ﴾ الإسراء

والآيتان استمرار للسياق السابق – من سورة الإسراء – الذي احتوى صوراً لما كان يحتدم بين المسلمين والكفار من جدل محوره " خطاب النذارة " .. ففي الآية الأولى : أمر لرسول الله أن يأمر عباد الله المؤمنين ، أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن ، والكلمة الطيبة ، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم ، وأخرج الكلام إلى الفِعال ، ووقع الشّر والمخاصمة والمقاتلة .. فإنه عدو لآدم وذريته .. وعداوته ظاهرة بينة . وفي الثانية : إخبار من الله ربهم أنه أعلم بمَنْ يستحق العذاب ؛ وهم الكافرون . وأعلم بمَنْ يستحق الرحمة ؛ وهم المؤمنون . فماعليك أيها الرسول الكريم إلا البلاغ والبيان بالتي هي أحسن ، وكل مَنْ استمع يتحمّل مسؤولية اختياره . فجملة : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ زيادة لبيان أن الهداية والضلال من جعْل الله تعالى ، وأن النبيّ غير مسؤول عن استمرار من استمر في

الضلالة ، إزالةً للحرج عنه فيما يجده من عدم اهتداء من يدعوهم ، أي ما أرسلناك لتجبرهم على الإيمان وإنما أرسلناك داعياً [1] . وهذا يشير إلى أن الحرص الزائد من رسول الله والمؤمنين معه على هداية المشركين ، والشفقة عليهم من أن يصيبهم العذاب الشديد وقد قَرُب نزوله .. قد يدفعان – اي الحرص والشفقة – بعض المؤمنين إلى الشدة أو الخشونة في مخاطبة المشركين ، الأمر الذي يستفزهم للقيام بأعمال مادية ضد المؤمنين ، بسب كرههم للحق وأهله ، وإصرارهم على الكفر ..

ويؤيد هذا ، الآية التالية من سورة الجاثية ، وهي قوله تعالى :

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾ الجاثية .

حيث ، يأمر الله تعالى نبيه صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يحض المؤمنين على التجاوز والصفح عما يصدر من المشركين من كلمات بذيئة ، ومن أفعال قبيحة .. حتى يأتى الله بأمره – الذي لا يتوقعه المشركون ولا يخافونه – والذي فيه النصر للمؤمنين ، و العذاب الشديد والخسران للكافرين .. وقد كان يوم بدر ، يوم الفرقان .

هذا ، وتكرار الأمر بالصبر والعفو ، ومقابلة أخلاق المشركين السيئة بالسجايا الحسنة ، والإعراض عن الجاهلين .. ثم الإستعاذة بالله تعالى من شر شياطين الإنس والجن ومحاولتهم التدخّل لإفساد ذات البين (النَّزغ) .. نقول ، تكرار تلك المجموعات من الأحكام يدل على شدة حساسية الموقف وهشاشة الوضع في مجتمع مكة الجاهلي حينئذ ، خوفاً من أن يتحوّل إلى اقتتال داخلي بين الفريقين المؤمنين والكافرين . والله جلّ وعلا لا يريد ذلك ، بل يريد استمرار البلاغ والبيان وإقامة الحجة .. حتى يحكم هو ، عزّ وجلّ بين الفريقين وفي الوقت المقدّر .. بعد الفصل بينهما .. كما قدّر تعالى ذلك بعد الهجرة وفي غزوة بدر ، في أسبابها وأحداثها ونتائجها ، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ..

وبهذا ، تبرز أهمية وضرورة الاستعاذة بالله الأحد الصمد، رب الفلق، ورب الناس، وملك الناس، وإله الناس، السميع العليم .. من شر ما خلق الله ، وخاصة من وساوس ونزغات وهمزات الشياطين من الإنس والجن .. كمعالجات لمثل هذه المواقف والأحداث (المناط) [2] .

ومن هنا ، نرى أن المعنى العام لسورة الناس ، يدخل فيه ما كان يجري بين كلٍ من الكفار والمنافقين واليهود .. إزاء رسالة الله ودعوته – على ما ذكرته آيات كثيرة مكية ومدنية – حيث كان زعماؤهم (شياطين الإنس) يبثون الدعاية والوساوس ضدها ويمكرون بها ويتآمرون عليها ليلا ونهارا :

---

1 - كقوله تعالى : (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ{21} لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ{22} إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ{23} فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ{24}..) الغاشية .

2 - كما روى البخاري ومسلم ؛ قال سليمان بن صرد : كنت جالساً مع رسول الله صلى الله عليه و سلم ورجلان يستبّان ، وأحدهما قد احمرّ وجهه وانتفخت أوداجه . فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : (إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد . لو قال : " أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " ذهب عنه ما يجد) .

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ البقرة

وكذلك ، وساوس شياطين الجن ونزغاتهم وإغراءاتهم للكفار وتزيينهم لهم مواقف الجحود والعناد والبغي .. في مثل ما جاء في الآيات التالية :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ص

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ العنكبوت

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ الأنعام

3- وعلى ما سبق ، فالخلاف في تأريخ نزول هذه السور لا تأثير له على دورها في المنهاج .. فيبقى الأمر في الإطار التاريخي وليس له دلالة شرعية على " المنهاج " . ويؤيّد هذا ، أن القاعدة الشرعية المعتبرة في فهم النصوص الشرعية هي : العبرة بعموم اللفظ (النص) وليس بخصوص السبب.

مناط السورة :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ ﴾ الإخلاص ،

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ ﴾ الفلق ،

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ﴾ الناس .

ما يواجهه المسلمون في سيرهم في عبوديتهم لله جلّ وعلا وحمل رسالته ، من شرور الكائنات جميعها ، وخاصة أعدائهم من شياطين الإنس والجن .

المعالجة :

1- بيان بعض الأسماء الحسنى والصفات الإلهيّة التي ينفرد بها الله ؛ الإله الحق عزّ وجلّ .. فلا إله غيره .. وليس له نظير ولا ندّ .. فهو وحده – جل ثناؤه – الخالق للخلق وربهم وإلههم ، وهو الملِك الصّمد الذي يُلجأ إليه ويُستعاذ به .. وهو وحده الذي تُصرف إليه العبادة ، والتوجُّه والطاعة لحكمه وأمره .. ثم ، توجيه المؤمنين وتعليمهم دعاء الله عزّ وجلّ وحده بأسمائه ، والاستعاذة به وحده واللجوء إليه والاحتماء بجانبه العزيز ، من الشرور المتوقعة أو عند تعرّضهم للشرور ومواجهتها من أعدائهم من شاطين الإنس والجن .. فهو القادر على نُصرتهم وحمايتهم . فأمْر أعدائهم بيده وحده ، فَهُم مِنْ خلقه وعبيده ، ونواصيهم بيده عزّ وجلّ .. وهو القاهر فوق عباده .. ليبقى المؤمنُ متوكّلاً على الله وحده ، مستعيناً به وحده ، قوياً به وحده .

2- وإليك بيان بعض الكلمات الواردة في هذه السُوَر [1] :

(1) أعوذ : أحتمي وألتجئ وأستجير .

(2) الفَلَق : أي المفلوق . والفَلْقُ : شقّ الشيء وإبانة بعضه عن بعض . يقال : فَلَقْتُهُ فَانْفَلَقَ . والفَلَق : الخَلْق كله ، كأنَّه شيءٌ فُلِق عنه شيء حَتَّى أُبرزَ وأُظْهِر . ف المفلوق يعني المخلوق قال تعالى : (فالِقُ الْإِصْباحِ)[الأنعام/96] ، حيث ينفلق من ظلمة الليل . (إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوى) [الأنعام/95]، (فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ) [الشعراء/63] [2] ..

ف (ربُّ الفَلَق) أي " ربُّ كل مخلوق " ، بمعنى أنه الخالق للخلق ، والمالك أمرهم ، وسيّدهم المتصرّف فيهم ، والقاهر لهم ، ونواصيهم بيده .. وذلك هو الله ، جلّ جلاله .

(3) الشّر : ضد الخير . وهو السّوء والمعابة والضُّر ، وما يكرهه الإنسان ويبغضه .

(4) (وَمِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ (3)) الفلق . غاسق : الليل المظلم . وقَبْ : خيّم أو انتشر .. وذلك عبارة عن النائبة بالليل كالطارق . فالاستعاذة ليست من الظرف نفسه ، الليل ، بل مما يتخلله من شرور حاصلة أو مُحتَمَلة .

(5) (النفاثات في العُقَد) : النفث هو النفخ . والعُقَد جمع عقدة . والجملة كناية عن أعمال السحرة حيث يعقدون عُقداً في خيط وينفثون عليها وهم ويتمتمون بتعاويذهم ، حين إرادتهم السحر لأحد .

(6) الوَسواس : الذي من طبعه الوَسوسة وهي : الصوت الهامس جداً ، الخفي . وتكون من الشيطان بالإغراء في الشر وما يصرف عن سبيل الرشاد . الوِسواس : حديث النفس الخفي والأفكار: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيد {16}) ق

(7) الخنّاس : الذي من طبعه أن يخنُس . وهو أن يتأخّر وينقبض ويتوارى بعد ظهور .. فإن العبد إذا غفل عن ذكر الله ، جثم على قلبه الشيطان وانبسط عليه ، وبذر فيه أنواع الوساوس الشريرة التي هي أصل الذنوب . فإذا ذَكَر العبدُ ربَّه واستعاذ به ، تأخّر وانقبض ، كما يخْنس الشيء ليتوارى . فذِكْرُ الله يقمع الشيطان ويؤلمه ويؤذيه ، كالسياط والمقامع التي تؤذي من يُضرب بها . ثم إذا غفل العبد عاوده بالوسوسة [3]. والوَسوسة هي أقصى ما جعل الله تعالى ، للشيطان من كيد أو تأثير وسلطان

---

1 - أنظر (تفسير جزء عم) - مساعد الطيّار . ولاحظ المنهج الحسن الذي بيّنه الشيخ في النظر في الروايات التفسيرية المتعددة والمأثورة عن الصحابة والتابعين .. والتقريب والترجيح في ما بينها .

2 - ووصف " الفلْق " يكاد ينطبق على جميع أشكال الخلْق والإيجاد في الجماد والأحياء : كفلْق الصبح من ظلمة الليل .. وكالولادة عند الثدييات . وتفقيس البيض عند الطيور والأسماك والزواحف والحشرات .. وفلْق الحب والنوى في النبات .. وانقسام (فلْق) الخلايا سواء عند وحيدة الخلية (بكتيريا..) أم متعددة الخلايا أو في نمو الأنسجة .. الخ .

3 - ((روى الإمام أحمد بسنده عن عاصم، سمعت أبا تميمة يحدث عن رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: عثر بالنبي صلى الله عليه وسلم حماره، فقلت: تعس الشيطان. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تقل: تعس الشيطان؛ فإنك إذا قلت: تعس الشيطان، تعاظم، وقال: بقوتي صرعته، وإذا قلت: بسم الله، تصاغر حتى يصير مثل الذباب" . تفرد به أحمد، إسناده جيد قوي، وفيه دلالة على أن القلب متى ذكر الله تصاغر الشيطان وغُلب [خنس]، وإن لم يذكر الله تعاظم وغَلب)) . (تفسير ابن كثير)

على الإنسان . لهذا فالأمر منوط بالإنسان بداية ومآلاً ، وهو وحده مَنْ يتحمّل المسؤولية عن أعماله، فكما أن الشيطان وَسواس فإنّه خَنّاس [1] .

وتأمل حكمة وجلالة القرآن كيف أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه «الوسّواس الخنّاس، الذي يوسوس في صدور الناس». لتعم الاستعاذة شره جميعه. ولم يقل : من شر وسوسته ، فقط . والوسوسة هي بدايات الإرادة : ذلك أن قلب الإنسان يكون فارغا من الشر والمعصية ، فيوسوس إليه، **فيخطر** الذنب بباله. فيصوره لنفسه ويشهيه، فيصير **شهوة** يحبها ويرغبها. ويزينها له ويحسّنها، ويخيّلها له في خياله، حتى **تميل** نفسه إليه فيصير **إرادة** . ثم لا يزال يُخيّل له ويُشهّي حتى يُشغله في صورة المعصية والتذاذه بها عن علمه بضررها وسوء عاقبتها ، فلا يرى إلا لذة المعصية فقط وينسى ما وراء ذلك ، فتصير الإرادة **عزيمة** جازمة . فيشتد الحرص عليها من القلب، فتتحول إلى **فعل** .. حيث يبعث القلبُ الحواسَ وسائر الأعضاء في الطلب . ويبعث الشيطانُ معهم مدداً لهم وعونا ، فإن فتروا حرّكهم .. كما قال تعالى :

---

1 - روى الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إني أُحدّث نفسي بالشيء لأن أَخرّ من السماء أحب إلي من أن أتكلم به . قال : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "الله أكبر الله أكبر، الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة ". (تفسير ابن كثير) . نقول : ولذلك وصف الله تعالى كيد الشيطان بأنه ضعيف فهو لا يجاوز تزيين الباطل والتحريض عليه : (..فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً {76}) [النساء] (كَانَ ضَعِيفاً) لِلتَّأْكِيدِ لِضَعْفِ كَيْدِهِ، يَعْنِي أَنَّهُ مُنْذُ كَانَ كَانَ موصوفا بالضعف والذلة . فهذا وصف لحقيقة قدرته وتأثيره المباشر - سلطانه وكيده - على الإنسان . لذلك فهو عندما يُهزم أولياؤه يتولّى عنهم ويتركهم يواجهون مصيرهم السيء، فهو أعجز من أن ينصرهم ، كما حصل في غزوة بدر مثلاً : { وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ . فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ{48}} الأنفال . ولهذا يوم القيامة لا حجة لأحد على الشيطان ، بأنه سبب معصيته أو كفره .. لأنه ما كان له عليه من قوة يقهره بها على اتباعه، ولا كانت معه حجة .. فليس له إلا الطلب والتزيين بالباطل فمن استجاب له استجاب باختياره اتباعاً لأهوائه وشهواته . ومن ثم فالإنسان وحده يتحمّل مسؤولية عمله : (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ {22}) إبراهيم . (وما كان لي عليكم من سلطان) أي قدرة ومكنة وتسلّط وقهر فأقهركم على الكفر والمعاصي وألجئكم إليها، (إلا أن دَعَوْتكم) أي إلا دعائي إياكم إلى الضلالة بوسوستي وتزييني للباطل ، فاستجبتم لي باختياركم حين دعوتكم بلا حجة ولا دليل . ولم تستجيبوا لربكم إذ دعاكم دعوة الحق المقرونة بالبراهين والحجج . قال النحويون : الدعوة ليس من جنس السلطان . فهو استثناء منقطع . أي لكن دعوتكم .

أما الإنسان - رجلاً كان أو امرأة - وبحكم أنه الخليفة في الأرض فقد أعطاه الله تعالى الفاعلية والقدرة على التأثير في سائر المخلوقات والموجودات ، وقد سخرها الله تعالى له .. ومنها تأثيره على أخيه الإنسان فقد جعل الله له عليه سلطاناً قوياً . فقدرة الإنسان على حمل غيره على عمل من الأعمال ، تارة يكون بالقهر والقسر، وتارة يكون بتقوية الداعية في قلبه بإلقاء الوساوس إليه .. فله مجالات عديدة من التسلط والقدرة والكيد ..

ومن هنا جاء وصف كيد النساء بأنه عظيم : (فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ{28}) يوسف . وذلك بوصفها الإنساني أولاً ، ثم لكونها امرأة ، فعندها القدرة على القيام بأعمال وإعداد ترتيبات تُلجيء بها غيرها - رجلاً أو امرأة - على القيام بما يكره (الكيد) . مثل ما قامت به امرأة العزيز من أعمال وما أعدته من ترتيبات ضد نبيّ الله يوسف عليه السلام لتجبره على المعصية ، إلا أن الله تعالى جعل كيدها في تضليل فعصم نبيّه وكشف أمرها وما عملته وأعدته ضد النسوة في المدينة من أعمال وترتيبات ألجأتهن إلى تقطيع أيديهن . وعلى هذا المعنى يُفهم "الكيد" في القرآن الكريم ، ألا وهو : القيام بأعمال وإعداد ترتيبات تُلجيء بها غيرك للخضوع لمرادك . فالكيد مجاله الأفعال والقيام بها . أنظر (تبيان سورة الفيل) . ولهذا كان كيد الشيطان ضعيفاً لأن الله تعالى لم يعطه قدرة على التأثير في حياة الإنسان - بوصفه الخليفة في الأرض - إلا الوسوسة . بل وقد جعله الله تعالى ، " خنّاس " . فما أن يستعيذ الإنسان بالله رب الناس ، ويذكره بأسمائه الحسنى ، تبارك وتعالى .. حتى يتصاغر ويتوارى .

وحتى في حالة السحر ، فإن تأثيرالشيطان المباشر على المسحور له ، لم يحصل إلا من خلال دائرة تأثير قدرة إنسان آخر وهو الساحر : (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ{1} .. وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ{4}). هذا والله تعالى أعلم وأحكم .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ ﴾ مريم .
فكلما فتروا أو وَنوا أزعجتهم الشياطين وأزّتهم وأثارتهم . فما تزال بالعبد تقوده إلى الذنب .. فقد رضي الشيطان لنفسه أن يصير قوّادا لكل من عصى الله . كما قال بعضهم :

عجبت من إبليس في تيهه ... وقُبْح ما أظهر من نخوته
تاه على آدم في سجدة ... وصار قوّاداً لذريته [1]

فبذرة كل معصية : إنما هي الوَسوسة أو خواطر النفس – وقد يقويها الشيطان بوسوسته ونزغه – فإذا انساق وراءها الإنسان ، خطوة بعد خطوة (خطوات الشيطان) ، اتباعاً لأهوائه وشهواته .. نمت وكبرت وقويت حتى تصبح إرادة جازمة ، فتتحوّل عندها إلى فعل في الواقع . أما إذا ذكر الله تعالى – بعد ورود الخاطر السيء مباشرة – واستعاذ بالله من شرّ الشيطان وشرّ نفسه .. وخاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى .. ذهبت وانتهى أثرها تماماً ..

(8) الجِنّة : مرادفة لكلمة الجن . وأصل معناها : الخفي المستتر غير الظاهر.

(9) الأحد : يعْنِي المتفرِّد . و(أَحَدٌ) على صِيغَة " الصِّفَةِ الْمُشَبَّهَةِ " ، وهي تُفِيدُ تَمَكُّنَ الْوَصْفِ فِي مَوْصُوفِهَا بِأَنَّهُ ذَاتِيٌّ لَهُ . فَوَصْفُ اللَّهِ نفسه بِأَنَّهُ " أَحَدٌ " مَعْنَاهُ : أَنَّهُ الْمُنْفَرِدُ بِالْإِلَٰهِيَّةِ فلا شريك له ، أي في كونه الذي له عبادة كل شيء ، ولا تنبغي العبادة إلا له ، ولا تصلح لشيء سواه [2].

(10) الصَّمد : الذي يقصده الخلائق في قضاء الحوائج والرغائب . فإن كل ما سوى الله محتاج إليه من كل وجه ، فليس أحد يَصْمد إليه كل شيء ولا يَصْمد هو إلى شيء ، إلا الله جلّ ثناؤه .
قال ابن جرير : " الصَّمد " عند العرب هو السيّد الذي يُصمد إليه ، الذي لا أحد فوقه . وكذلك تُسمّي أشرافها .

(11) كفؤ : نظير وندّ .

***

1 - أنظر (التفسير القيم) - ابن القيّم الجوزية
2 - أنظر (تفسير الطبري) . و (التحرير و التنوير) ابن عاشور .

23- (سورة النجم)

ربط السورة بخط السير :

تأتي السورة في نهاية الطور الرابع ، وذلك :

1- وصف " التولّي " دليل على أن الكفر موقف نهائي من بعض الكفار : ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ ﴾ النجم ، ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ﴾ النجم ، وهم الذين برزوا وظهروا في محاربة دين الله تعالى والتلبيس على الحق (كما في سُوَر : العلق ، اللهب ، المدثر..) وهذا يكون في مرحلة متأخرة بعد الدعوة والبيان .

2- إنذارهم بعذاب الاستئصال من الله في الدنيا ، كما هي سنته في الأمم السابقة الظالمة الطاغية مثل عاد وثمود ، ووصف قوم نوح بأنهم أظلم وأطغى :

﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾ النجم .

وهذا إنذار لقريش حتى ينتهوا عن السير على خطى وسنن تلك الأمم ، وإلا سيلاقُون ما لاقَوا .

3- فيها ذكر لحادثة الإسراء والمعراج : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ النجم

وقد حدثت في أواخر " الربع الرابع " في المرحلة الأولى (المكيّة) [1] .

مناط السورة :

﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾ ﴾ النجم

وصْف الكفار بأنهم " سامدون " . والسامد : السائر على هواه بغير دليل ، من سمدت الإبل في سيرها ، إذا جدّت ومضت على رؤوسها . فهو خروج عن الطريق البيّن الواضح الموصل للمقصد ، وسير بلا هدى ولا دليل . ووصْفُهم بـ " السامدون " تشبيه لحالهم بتلك الحال من سير الأبل ، فهم يسيرون في جميع مجالات حياتهم باتباع الظن وما تهوى الأنفس ، في عقائدهم ونظام حياتهم وأقوالهم وأفعالهم .. بلا دليل ولا علم .. تاركين الهدى والصراط المستقيم الذي جاءهم به رسول الله من عند الله تبارك وتعالى .. وليس هذا فحسب ، بل ويستهزؤون بالحق الذي بلغهم وبالمصير الرهيب الذي ينتظرهم ، في الدنيا قبل الآخرة .

---

1 - ((ذهب الأكثرون إلى أن الإسراء كان بعد المبعث ، وأنه قبل الهجرة بسنة . قاله الزهري وابن سعد وغيرهما. وبه جزم النوويّ ، وبالغ ابن حزم فنقل الإجماع فيه)) .(محاسن التأويل) - القاسمي . وانظر أيضاً (الرحيق المختوم) - المباركفوري ، وقد ناقش الأقوال المختلفة ورجّح القول بأن الإسراء متأخر جداً ، حيث قال : ((..غير أن سياق سورة الإسراء يدل على أن الإسراء متأخر جداً ... نرى أن الإسراء إنما وقع إما قُبيل بيعة العقبة الأولى أو بين العقبتين ، والله أعلم)) . والتفصيل أنظره هناك .

المعالجة :

الخط العام في معالجة السورة لمناطها ؛ أي في كون المجتمع ومَلَئه سامدون يضحكون من الحق ، كالتالي:

1- بالنسبة للكافرين ، كانت على ثلاثة محاور رئيسة :

المحور الأول : بيان الحق واليقين الذي يكتنف رسالة الله ؛ القرآن الكريم :

- فمن حيث المصدر: فهو من الله عزّ وجلّ ، والإخبار عن بعض مظاهر القدرة والعظمة والجلال التي لله تبارك وتعالى ، وآثارها في المُلْك والملكوت الأعلى .. فالله هو الربّ الحق ، وقد أوحى لرسوله برسالته للناس ، وفيها بيان مراده منهم ..
- والناقل : هو الملَك جبريل عليه السلام ، من مخلوقات الله العظيمة ، أمين وقوي وحافظ ..
- والمتلقّي : هو محمّد بن عبد الله ، الصادق الأمين الذي يعرفونه .. فهو رسول الله المتيقن تماماً مما تلقى ، فدليله المشاهدة ورأي العين .. فلا مجال للخطأ أو اللبس في الأمر .

المحور الثاني : وعلى النقيض مما هو عليه رسول الله من اليقين وما جاء به من الحق .. بيان أن قريشاً يسيرون في حياتهم باتباع الظن وما تهوى الأنفس بلا دليل ولا علم (سامدون) .. وضَرْب بعض الأمثلة على ذلك من عقائدهم ، ونظام حياتهم ، وأقوالهم ، وأفعالهم .. وبروز أفراد من الملأ منهم – سامدون أيضاً – يعلنون الكفر كموقف نهائي ، ويقومون بالتلبيس على الحق ، وإثارة الشبهات .. كل ذلك بناء على الوهم .. ثُمّ بيان فساد ذلك جميعه ، وإقامة الحجة عليهم . ويستغرق ذلك معظم آيات السورة .

المحور الثالث : إنذارهم بالهلاك والدمار بحادثةٍ تَحُلُّ بهم قَرِيبًا (الآزفة) – كماهي سنة الله تعالى في

مَنْ سبقهم من الأمم التي طغت على أمر الله – إن استمروا على حالهم " سامدون " غير مبالين .
ثم بيان طريق النجاة وهي طريق الحق : اتباع الهدى الذي مصدره العلم اليقين ، المبني على الحس والخبر الصادق . أي ترك تلك الحال (سامدون) التي هم عليها في نظام حياتهم ، بترك الأوثان والآلهة المدّعاة والباطل الذي هم عليه المبني على الوهم وما تهوى الأنفس .. والعودة إلى الجادة والدخول في دين الله والسجود له .

2- بالنسبة لحمَلَة الرسالة بوصفهم جماعة مؤمنة :

- تبليغ وبيان ما سبق ذكره في السورة ..
- ترك دعوة أولئك الأفراد الذين أدبروا وأصروا على الكفر (تولّوا) ، وعدم الاهتمام بهم .. والذين هم أشد كفراً من سائر قومهم .. ومتابعة الاهتمام بمن قد يستجيب [1] .

1 - كما في قوله تعالى في سورة عبس ، في ترك من استغنى عن الحق ، والاهتمام بمن جاء يتعلّم : (أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى{5} فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى{6} وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى{7} وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى{8} وَهُوَ يَخْشَى{9} فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى{10}).

– وأن لا يصفوا أنفسهم بالتزكّي ، لأن ذلك ادّعاء بلا دليل وقول (تسمية) بلا علم .. فالله خالق الإنسان هو وحده الذي يعلم حقيقته :﴿ ..هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾ ﴾ النجم .

والآن ، إلى شيء من التفصيل :

1– (1–12) ، التأكيد بأسلوب القسم [1] ، بأن محمّداً بن عبد الله الصادق الأمين الذي تعرفونه ، هو رسول صلى الله عليه وسلم وأنه راشد ، وتابع للحق ليس بضال [2] . وأن هذا القرآن هو الحق من الله عزّ وجلّ : فمن حيث المصدر فهو من الله تعالى ، والناقل هو المَلَك جبريل عليه السلام أمين وقوي وحافظ لما يُكلَّف به من الوحي . والمتلقّي هو مَن تعرفون حق المعرفة ؛ وهو متيقّن تماماً مما تلقى ، فدليله المشاهدة ، فقد رأى جبريل – عليه السلام – على صورته الحقيقية رأي العين ، له ستمائة جناح وقد سد الأفق بخَلْقه العظيم .. فلا مجال للخطأ أو اللبس في الأمر فهو الحق . ف محمّد رسول الله حقاً ، صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وما ينطق به وحي من الله تبارك وتعالى [3] .

---

1 - قوله تعالى : (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى). قال ابن كثير : وهذه الآية كقوله تعالى : (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (78) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) الواقعة . فالنجم اسم جنس يُراد به جميع النجوم ، ومنها التي تعرفها العرب كالثريا و الشِّعرى . والقسم بـ النجوم لما في خلقها من الدلالة على عظيم قدرة الله تعالى ، ألا ترى إلى قول الله حكاية عن إبراهيم : {فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي} [الأنعام: 76] . وتقييد القسَم بالنجوم بوقت غروبها ، إشارة إلى أن غروب تلك المخلوقات العظيمة بعد أوجها في شرف الارتفاع في الأفق، دليل على أنه تسخير لقدرة الله تعالى ، ولذلك قال إبراهيم : {لا أحب الآفلين} [الأنعام: 76] . فيكون قوله : {إذا هوى} إشعاراً بأن النجوم كلها مسخّرة لقدرة الله ، مسيّرة في نظام أوجدها عليه ولا اختيار لها ، فليست أهلا لأن تُعبد ، فالنجم مهما يكن عظيما هائلا فإنه يهوي ويتغير مقامه. فلا يليق أن يكون معبوداً. فللمعبود الثبات والارتفاع والدوام . فحصل المقصود من القسَم بما فيها من الدلالة على القدرة الإلهية ، مع الاحتراس عن اعتقاد عبادتها ، وحتى لا يتوهّم المشركون أن في القسَم بالنجم - الشِّعرى أو غيره - فيه تعظيم له . فإن حالة الغروب المعبّر عنها بالهوي حالة انخفاض ومغيب ، لأنهم يعدّون طلوع النجم أوجاً لشرفه ، ويعدّون غروبه حضيضاً . أنظر (التحرير والتنوير) - ابن عاشور . و (تفسير السعدي) . و(في ظلال القرآن) - سيد قطب .

2 - (مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى{2} وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى{3}) : الضلال : عدم الاهتداء إلى الطريق الموصل إلى المقصود ، وهو مجاز في سلوك ما ينافي الحق . والغواية : فساد الرأي وتعلقه بالباطل . والسامد : السائر على هواه بغير دليل وقد ترك الطريق الموصل إلى المقصود . ومن ثَمّ ، فـ " السامدون " هم الضالون بسبب تعلّقهم بالباطل ، وينطقون عن الهوى . فنفى الله تعالى ذلك كله عن رسوله وأثبته لهم . وبالتعبير عن رسول الله بوصف (صاحبكم) تعريض بأنهم أهل بهتان ، فمقتضى الصحبة أن يكونوا عارفين به ؛ نسبه وصدقه وأمانته . ومقتضى الصحبة أن يكونوا مصدقين مناصرين له ، لا أن يكونوا أعداء له .

3 - ((فالأمر إذن- أمر الوحي - أمر عيان مشهود. ورؤية محققة. ويقين جازم. واتصال مباشر. ومعرفة مؤكدة. وصحبة محسوسة. ورحلة واقعية. بكل تفصيلاتها ومراجعها.. وعلى هذا اليقين تقوم دعوة « صَاحِبُكُمْ » الذي تنكرون عليه وتكذبونه وتشككون في صدق الوحي إليه. وهو صاحبكم الذي عرفتموه وخبرتموه. وما هو بغريب عنكم فتجهلوه. وربه يصدّقه ويقسم على صدقه. ويقص عليكم كيف أوحى إليه. وفي أي الظروف ، وعلى يد مَنْ وكيف لاقاه. وأين رآه! ذلك هو الأمر المستيقن، الذي يدعوهم إليه محمد- صلى الله عليه وسلم) . (في ظلال القرآن) - سيد قطب . كما في قوله تعالى: (فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ{15} الْجَوَارِ الْكُنَّسِ{16} وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ{17} وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ{18} إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ=> كَرِيمٍ{19} ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ{20} مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ{21} وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ{22} وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ{23} وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ{24} وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ{25} فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ{26} إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ{27}) . أنظر (تبيان سورة التكوير) . ((وتوافُق آيات (النجم) لآيات (التكوير) وتفسير بعضها بعضا، أمر لا خفاء به عند المتدبّر ، وكله رد على المشركين المفترين، وإقسام على حقيقة الوحي والتنزيل، وصدق ما يخبر به ، لا سيما

2- (13–18) ، ولقد رأى من آيات ربه العظيمة ، أي من مظاهر القدرة والعظمة في ملكوت الله في الملأ الأعلى ، منها : سدرة المنتهى التي ما من أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها لحسنها وبهائها.. وجنة المأوى .. وجبريل – عليه السلام – فقد رآه مرة أخرى بخَلْقه العظيم الذي سد الأفق الأعلى [1] ..

3- (19–28) ، ولما بيّن الله سبحانه وتعالى ما رآه النبي صلى الله عليه وآله وسلم من آيات ربه العظيمة في الملكوت الأعلى ، قال : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ النجم، وهذا الاستفهام للتوبيخ وللتحقير وانحطاط رتبة هذه الأصنام التي ذكرها الله عزّ وجلّ . فالمعنى : عُقيب ما سمعتُم من آثارِ كمالِ عظمةِ الله عزّ وجلّ في ملكوتِه وجلالِه وجبروتِه وإحكامِ قدرتِه في الملأ الأَعْلى .. أخبرونا عن شأن هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله، ما قيمتها، وما مرتبتها، وما عزّتها؟!! .. هلْ لَهَا شئ من القدرة والعظمة تُوصَف بها ؟!! هل أوحت لكم بشيء تُبيّن لكم فيه ما يجب فعله وما لا يجب ؟ فقد أوحى الله ذو الجلال والعظمة إلى محمّد الهدى ودين الحق .. أم هي جمادات لا تعقل ولا تنفع ؟!.. إن ما تعبدون من دون الله جلّ جلاله ليست آلهة على الحقيقة ، بل هي مجرد ادعاءات وتسميات من غير حقيقة ، جئتم بها من عند أنفسكم .. وإلّا فأروني دليلاً من الحس والعقل أو من الخبر الصادق ، على صدق دعواكم !! بل هو الظن المبني على الوهم ، واتباع الهوى .

ثم أكّد الله لهم أن الذي جاءهم من ربهم هو الهدى ، بثلاثة مؤكدات : القَسَم المحذوف ، و اللام، و قد . وتقديره : والله لقد جاءهم من ربهم الهدى – أنّه لا إله إلا الله ، وإليه المصير – وربّهم هو خالقهم ومالكهم ومدبّر أمرهم .. وهو الله جلّ جلاله .. فلا يجوز تلقّي الشريعة والعلم إلا من عند الله ، فمنه وحده الهدى ، لأنه سبحانه وتعالى هو الربّ الحق .. وفي هذا التأكيد ، زيادةُ تقبيحٍ لحالِهم في اتباعِ الظنّ وهوى النفسُ ؛ فإنَّ اتباعهما من أيّ شخصٍ ، قبيحٌ ، وممن بيّن الله تعالى لهم الهدى بإرسال الرسول وإنزالِ الكتابِ ، أقبح ..

وكذلك ، بيّن – سبحانه وتعالى – فساد عقائدهم التي يعتقدونها ، وتصوراتهم عن الله عزّ وجلّ (الشفاعة ، الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى ..) ببيان فساد أصلها ، فمصدرها ليس العلم الذي دليله المشاهدة أو الخبر الصادق، وإنما هو اتباع الظن المبني على الوهم، وما تميل إليه أنفسهم (الهوى)

وهو صادق عندهم لا يكذّبونه . فما بقي بعد التعنت والجحود إلا انتظار سنة الله في أمثالهم من الأمم الكافرة الجاحدة ، كما أشار له في آخر السورة)) . (محاسن التأويل) - القاسمي .

1 - وروى البخاري بسنده عن مسروق قال : قلتُ لعائشة : فأين قوله (ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى) ؟ قالت : ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجل ، وإنما أتى هذه المرة في صورته التي هي صورته ، فسد الأفق . صحيح البخاري (361/6-ح3235) ، وصحيح مسلم (160/1 ح177) . قوله تعالى : (عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (15) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى) . روى النسائي بسنده عن عبد الله [ابن مسعود]، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (ولقد رآه نزلة أخرى) قال : {رأيت جبريل -عليه السلام- عند سدرة المنتهى له ستمائة جناح يتناثر منها تهاويل الدر} (التفسير350/2 ح562) ، وابن خزيمة في (التوحيد 500/1 ح291) ، والطبري (التفسير 49/27). وأخرجه أحمد (المسند 460/1). قال ابن كثير عن إسناد أحمد : إسناد جيد قوي . وساق له روايات أخرى عند أحمد وحسنها كلها وجوّدها (التفسير 389/4-390) . ويشهد له ما رواه مسلم بسنده عن أبي هريرة (ولقد رآه نزلة أخرى) قال : رأى جبريل . (الصحيح - 158/1 ح175) . وروى مسلم بسنده عن أبي ذر، قال : سألت رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هل رأيتَ ربك؟ قال : {نور أنى أراه}. (صحيح مسلم 161/1 - ح78) . أنظر (موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور) - حكمت بن بشير بن ياسين . و (تفسير ابن كثير) . و (محاسن التأويل) - القاسمي .

.. وأنّهم متناقضون مع أنفسهم ومنطقهم ؛ فهم يكرهون ولادة البنات لهم ، ومع هذا لم يستحوا أن يجعلوا الملائكة إناثا.. وأن ينسبوا هؤلاء الإناث إلى الله! .. فيسخر الله– سبحانه– منهم بقوله :﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾النجم .. إنها إذن قسمة غير عادلة :﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ ﴾ ، قسمتكم بين أنفسكم وبين الله .. فكيف تنسبون إليه ما لا تحبونه أنتم لأنفسكم !! ..

ثم تحدّاهم أن يأتوا ببرهان من الحس والعقل أو من الخبر الصادق ، على صدق ما يدّعون ، وعلى صدق ما يطلقون من أسماء وتسميات على الأمور والأشياء ، وهي غير مطابقة لواقعها (يُسمّون الأصنام آلهة.. ويُسمّون الملائكة إناثاً.. وينسبونها إلى الله جلّ وعلا) .. " فلكل قول حقيقة .. فأين هي حقيقة قولكم ؟ ".. أَروني .

وبعد بيان فساد أصل تصورات المشركين وعقائدهم ، يبيّن سوء مصيرهم إن بقوا على حالهم " سامدين ".. هكذا ، سائرين بلا دليل متبعين لأهوائهم .. فيقرر حقيقة أنه " ليس للإنسان ما يتمنّى ويتخيّل " ، وخاصة إذا كانت أمانيه مبنيّة على الوهم [1].. فهم يتمنون الأماني ؛ أي يتصوّرون ما لا حقيقة له .. و هُم لا يزالون على كفرهم ، يتمنون أن تشفع لهم الملائكة أو أصنامهم ، عند الله جلّ وعلا !! ، ويتوقعون حصول الخير لهم !!..

كلا ، ليس الأمر أن ما يتمناه الإنسان يتحوّل إلى حقيقة ، وما يهواه ينقلب إلى واقع ! ليس كذلك . فإن الحق حقٌ ، والواقع واقعٌ .. وهوى النفس ومناها لا يغيّران ولا يبدّلان في الحقائق . إنما يضلّ الإنسان بهواه ، ويهلك بمناه . وهو أضعف من أن يغيّر أو يبدل في طبائع الأشياء . وإنما الأمر كله لله – جلّ وعلا – يتصرف فيه كما يشاء وبتقديره وتدبيره ، فهو الذي له مُلْك الآخرة والدنيا ، وهو وحده المتصرّف فيهما ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .. وقد بيّن لهم ما أراده منهم : اتباع الهدى الذي جاءهم به رسوله .. فإن أبوا ، فإنّهم سيرجعون إليه وسيجازيهم على أعمالهم .

فالحقيقة اليقينية المقررة : أنّ الظنّ القائم على الوهم ، لا يقوم مقام شيء من الحق المبني على المشاهدة والعلم .. لا في التصوّر والفهم ، ولا في الأفعال والأعمال ، ولا في المصير والمآل ..

فلا يُفلح إنسان – فرداً وأمة – إذا أسس حياته على الظن والوهم ..

4- (29–31) ، وبعد هذا البيان للحقّ والكشف للباطل ، فمن رفض الحقّ وتولّى ؛ أي أدبر وجعل الكفر موقفاً نهائياً له ، فإن تولّيه ليس عن دليل وعِلْم ، بل رغبة في الحياة الدنيا واتّباعاً للهوى .. " ومتى انتهى الأمر إلى شهوة النفس وهواها فلن يستقيم أمر ، ولن يُجدي هدى ولا يُقنعها الدليل ! ، لأن العلة

---

1 - ((والتَّمَنِّي : تقدير شيء في النّفس وتصويره فيها . وذلك قد يكون عن تخمين وظنّ ، ويكون عن رويّة وبناء على أصل. لكن لمّا كان أكثره عن تخمين صار الكذب له أملك . فأكثر التّمنّي تصوّر ما لا حقيقة له . قال تعالى : (أَمْ لِلْإِنْسانِ ما تَمَنَّى (24) النجم)) . (المفردات) - الراغب الأصفهاني . كما في قوله تعالى : { لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (123) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (124)} النساء . وكما في حديث رسول الله الثابت : (الكَيِّسُ مَن دان نفسَه وعمِل لما بعدَ المَوتِ ، والعاجِزُ مَن أتبَعَ نفسَه هواها وتمنَّى على اللهِ الأمانيَّ) . رواه السيوطي في الجامع الصغير وصححه (6468) والترمذي في السنن وحسنه (2459) . وغيرهما عن شداد ابن أوس .

هنا ليست خفاء الحق ولا ضعف الدليل .. إنما هي الهوى الجامح الذي يريد ، ثم يبحث بعد ذلك عن مبرر لما يريد ! .. وهي شر حالة تُصاب بها النفس " .. فمن كان ذَلِكَ مَبْلَغه مِنَ الْعِلْمِ .. أي أدبر وهو يرفض أن يتعلّم ما جاءه من الهدى ؛ فقَصَر دائرة علمه على الذي هو فيه من الشرك بالله والكفر برسول الله .. وقصر إرادته على الحياة الدُّنيا بحيثُ كانتْ هي مُنتهَى هِمّتِه وقُصارَى سعيِه . فمن كانت تلك حاله ، فعلى حاملي الرسالة الإعراض عنه ؛ أي أن يَدَعوه ويتركوه، فلا يهتموا به ولا ينشغلوا بدعوته أكثر مما فعلوا [1] .. فأمْرُه إلى الله فهو العليم به وهو الذي يتولّى جزاؤه .. وليهتموا بمن هو أولى منه ؛ بمن قد يستجيب .

هذا ، وبعد أن أكّد الله تعالى حقيقة أنه العليم والخبير بمن خلق ، أكّد بعدها حقيقة أخرى ، وهي: أنّ الله هو وحده مالك السماوات والأرض [2]، وقد خلقها بالحقّ ، وجعل الجزاء مُترتّباً على اتّباع الحقّ (الهدى) ، أو التوّلي عنه .. فالذي أساء له العاقبة التي يستحقها ، والذي أحسن فله العاقبة الحسنى؛ بما هو أحسن وأكثر من عملهم ، سواء في الدنيا أم في الآخرة .

1- (وحقيقة الإعراض عدم الالتفات إلى الشيء بقصد التباعد عنه . مشتق من العُرض- بضم العين- وهو الجانب ، أي أن يُظهر جانبه لغيره، ولم يُظهر له وجهه . ثم استعمل استعمالا شائعا في الترك ، والإمساك عن المخالطة والمحادثة . يقول تعالى : (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين (68)) الأنعام . لم يقل : وإذا رأيتهم يخوضون فأعرض عنهم ، فبدل أن يأتي بالضمير أتى بالاسم الظاهر وهو اسم الموصول ، ليدل على أن الذين يخوضون في الآيات فريق خاص من القوم الذين كذبوا بالقرآن .. فعموم القوم أنكروا وكذبوا دون خوض في آيات القرآن ، فأولئك قسم ، والذين يخوضون في الآيات قسم كان أبذى وأقذع ، وأشد كفرا وأشنع ، وهم المتصدّون للطعن في القرآن . وهؤلاء أمر رسول الله بالإعراض عن مجادلتهم وترك مجالسهم حتى يرعووا عن ذلك .. ومعنى (إذا رأيت الذين يخوضون) إذا رأيتهم في حال خوضهم . وجاء تعريف هؤلاء بالموصولية ، دون أن يقال : الخائضين أو قوماً خائضين ، لأن الموصول فيه إيماء إلى وجه (علة) الأمر بالإعراض لأنه أمر غريب ، إذ شأن رسول الله أن يخالط الناس لعرض دعوة الله ، فأمْر الله إياه بالإعراض عن فريق منهم يحتاج إلى توجيه وقرينة . وذلك بالتعليل الذي أفاده الموصول وصلته، أي فأعرض عنهم لأنهم يخوضون في آياتنا) . أنظر (التحرير والتنوير) - ابن عاشور . نقول : والفهم السابق لآية الأنعام ، ينطبق على آية سورة النجم وهي قوله تعالى : (فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا{29}) أي ، اعرض عن الذي هذه صفاته فقط ، بمعنى تركه وعدم الاعتناءُ بشأنِه . وقوله تعالى : {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أعلم بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهتدى}النجم ، فتكريرُ قولِه تعالى (هو أعلمُ) لزيادةِ التَّقريرِ والإيذانِ بكمالِ تباينِ المعلومَينِ ، والمرادُ (بمَنْ ضَلَّ) : مَنْ أصرَّ على الضلال ولم يرجعْ إلى الهُدَى أصلاً (تولّى) . و (بمَنْ اهتدَى) مَن يقبل الاهتداءُ في الجملةِ . أي الله هو الذي يعلم ذلك تمام العلم ولا أحد غيرُه) . أنظر (تفسير أبو السعود) . والمراد من الإخبار بأن الله تعالى يعلم : (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ؟ (14)) الملك ، هو لازم العلم :

- حصول الثواب والعقاب ، ثواب المؤمنين ، وعقاب الكافرين .. فهو عليم بهم وسيجازيهم .
- تسلية رسول الله . أى : أعرض عن هؤلاء المتولين المعاندين ، بعد أن سلكت معهم كل وسيلة تهديهم إلى الحق . فلا تُتعبْ نفسَك في دعوتِهم ، فالله يعلم أنهم من القبيلِ الأولِ ؛ الضالين . فاتركهم وامض في طريقك .
- تأكيد أن الله الربّ الخالق ، هو القادر على بيان سنن الهداية والضلال .. وخصائص وطبائع المهتدين والضالين .. فمن كانت هذه صفاته فاتركه فهو من المصرّين على الضلال.

هذا ، ويمكن أن يكون هذا النوع من الناس: (مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا)، هو الذي عاتب الله تعالى رسوله الكريم محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم ، في سورة عبس على إصراره على التصدي له ودعوته رغم أنه مستغني عن الحق ، وخاصّة أن رسول الله - بسبب ذلك - ترك الذي جاء يسعى مهتماً يريد التعلّم والتزكّي . أنظر (تبيان سورة عبس) . وهذا يعني أن سورة عبس تأتي بعد سورة النجم في تتابع الأحداث . هذا والله تعالى أعلم .أنظر كذلك تبيان آية (32) في ما يلي.

2 - "إيمانك بأن لله ملك السماوات والأرض ، يفيد فائدة عظيمة وهي : أن تلتزم مقتضى كونه له المُلك ، وهو الرضا بقضائه والرضا بشرعه ؛ لأنك عبْده ومُلْكه يتصرّف فيك كما يشاء .. وهذه هي حقيقة المُلْك . فمقتضى إيمانك أنّك عبد لله ومُلْك له ، أن تخضع راغباً لشرعه ودينه ، كما أنك خاضع مكرهاً لقضائه وقدره .. وتلك هي العبودية التامة . وهي الغاية التي من أجلها خلق الله الإنسان وجعله مختاراً مريداً خليفة في الأرض ، فأنزل له الرسالات ، وبعث الرسل" .

فبالتأكيد على أنه سبحانه عالم بالناس ، وقادر عليهم .. يؤكّد حقيقة أنه يملك محاسبتهم ومصيرهم .. فبالعلم وبالقدرة ، تحصل المحاسبة والجزاء ..

- ✓ (32) ، وبعد أن بيّن الله تعالى حقيقة الذين رفضوا الحقّ وتولّوا (..**مَنْ ضَلَّ**) ، ممثلين بالمجتمع وملئه ، وأن مصيرهم بيد الله عزّ وجلّ .. بيّن بعض خصائص وطبائع الفريق الآخر ؛ الذين أحسنوا (..**مَنْ اهتدَى**) ، ممثلين بالمؤمنين حَمَلة الرسالة ، فهُم :
- ✓ الذين يتحاشون الآثام الكبيرة والجرائم الشديدة ، كقتل النفس بغير حق وأكل أموال الناس بالباطل .. ويبتعدون عن ما قَبُح من الأقوال والأفعال ، كالزنا وشرب الخمر .. ولا يقعون بشيء من الذنوب إلا لمَمَاً . واللّمم هو إتيان الذنب الكبير مرة ثم تركه بلا إقامة عليه ، أو هو صغائر الذنوب . واللّمم ، أصله : ما قل قدره من كل شيء . يقال : ألمّ فلان بالمكان ، إذا قلّ مكثه فيه . وألمّ بالطعام : إذا قلّ أكله منه .
- ✓ والذين لا يَصِفون أنفسهم أو أخوتهم بالتزكّي .. وذلك :

– لأنّ الله وحده أعلم بمن اتقى على الحقيقة ، فهو خالقهم وأعلم بذواتهم وأحوالهم منهم بأنفسهم . وما دام أن هذه هي طبيعة علم الله جلّ وعلا بنفس الإنسان ، يكون من اللغو ، بل من سوء الأدب أن يعرّفه – سبحانه– إنسانٌ بنفسه ! . وأن يُعلِمه – سبحانه– إنسانٌ بحقيقته ! .

– وأن يثني إنسان على نفسه أمام الله – سبحانه– يقول : أنا كذا وأنا كذا .. فيه مدح وتفاخر ونوع من إعجاب الإنسان بأعماله أو أعمال غيره ، وكأنهم يَمُنّون على الله عزّ وجلّ ، ويجعلون لأنفسهم منصباً لم يجعله الله تعالى لهم .

– ولأن القول بالتزكّي ، قول بلا دليل من الحس والعقل أو من الخبر الصادق ، على حقيقة النفس المزكّاة ، إنما هو حكم على الظاهر منها الآن ، مع الجهل بالعواقب [1]..

و المقصود من الاستثناء (إِلَّا اللَّمَمَ) :

– حث المخاطبين على ترك الأعمال السيئة و عدم مقارفتها . والتمسّك بالأعمال الحسنة . والحث على التوبة إلى الله جلّ وعلا ، فالله واسع المغفرة .. والمغفرة هي ستر الذنب مع التجاوز عنه [2] .

---

1 - كما في قوله تعالى في سورة الإسراء : (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (36)). القفو: الاتباع ، يقال : قفاه يقفوه إذا اتبعه ، واستعير هذا الفعل هنا للعمل . والمراد بـ (مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) ، أي الوهم الذي لا دليل عليه ، ولا غلبة ظن به. يعنى : ولا تكن في اتّباعك ما لا علم لك به من قول أو فعل ، كمن يتبع مسلكا لا يدرى أنه يوصله إلى مقصده ، فهو ضال. والمراد : النهى عن أن يقول الرجل ما لا يعلم ، وأن يعمل بما لا يعلم . هذا ، وإيراد حكم تزكية النفس هنا في سورة النجم ، نرجّح أن يكون بمناسبة ارتداد ناس عن الإسلام ، بعد إخبار رسول الله عن الإسراء والمعراج وبعض ما رأى فيهما من الآيات الكبرى . أنظر (نظم الدرر) - البقاعي => ومثال عملي آخر على خطأ القول بالتزكي للأفراد ، ما حصل مع المؤمنين في غزوة أحد من هزيمة بسبب مخالفة بعضهم أمر رسول الله ، حيث قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : (ما كنت أرى أن أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا حتى نزل فينا ما نزل يوم أحد : {مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ.. (152)} آل عمران. أنظر تخريج الرواية في (الصحيح المسبور) - حكمت بشير ياسين.

2 - من الثابت أن الله تبارك وتعالى إذا خلا بعبده المؤمن يوم القيامة وقرّره بذنوبه وأقرّ ، قال : «قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم» . أخرجه البخاري، كتاب الأدب (6070) ومسلم، كتاب التوبة، باب قبول القاتل وإن كثر قتله (2768) .

– وكذلك ، أن لا يُعامَل مرتكب الصغائر أو الذي يقع في الفاحشة الفلتة والسقطة دون دوام ، معاملة مرتكب الكبائر والفواحش الغارق فيها ، كما في قوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾ عبس . وقد يكون هذا بيان إضافي لمعرفة الذين أُمرنا بالإعراض عنهم ، والذين نهتم بهم في الدعوة .. أي معرفة المصرّين على الضلالة من الذين يُمكن أن يهتدوا : ﴿ ..لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ ﴾ عبس.

- ✓ (33–55) ، تتكلّم هذه الآيات عن نموذج عملي – يواجهه حملة الرسالة – يُمثّل حال " سامدون " ، وتعجب منه .. فهو يقوم بعمل يتوقف عليه مصيره في الدنيا والآخرة ، بناء على أوهام وبدون علم متيقّن !.. والعمل هو : رفْضُه الحق بعد أن قَبِله (التولّي عن الحق) ، وذلك بناء على توهّمه بأنه يمكن لأحد غيره أن يتحمّل عنه وزر رفضه للحق ، عند الله تعالى . وبيان ذلك :
- ✓ في سياق التعريض بمن لم يوفّ بوعده في طاعة أمر الله فاكدى ، أي فانقطع وتراجع : ﴿ ..ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ ﴾ النجم، ذكر الله تعالى في مقابله نموذجاً لمن استمر في الإستجابة لأمر الله ولم يتراجع ، وهو نبي الله إبراهيم عليه السلام ، الذي يدّعي كفار قريش أنّهم على دينه : ﴿ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾ النجم .. فإبراهيم عليه السلام ، مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِشَيْءٍ إِلَّا وَفَّى بِهِ ، ومَا افْتُرِضَ عَلَيْهِ مِنَ طَّاعَةِ إلا وَفَّاها عَلَى وَجْهِهَا .. فهذا تعريض بـ (ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ) ، فبعد أن بدأ بالاستجابة لدعوة الله ارتدّ وتراجع ، والأصل فيه أن يوفّي ويستمر في الاستجابة لأمر الله . لذلك وصْفه بـ (أكدى) أي ، قطع عمله فلم يستمر فيه حتى يبلغ آخره ، ويأتي هذا الوصف مقابل (وَفَّىٰٓ) أيضاً [1].
- ✓ وفي سياق بيان فساد الدافع للتولّي والإكداء – لدى ذلك الإنسان – فلم يوفّ ، خاصة وأن الأمر مصيريّ ، كفر وإيمان ، يتوقف عليه مصيره في الدنيا والآخرة .. ومثل هذا لا يفعله عاقل بنفسه إلا عن بصيرة ويقين .. يأتي قوله تعالى ، موبّخاً له : ﴿ أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ ﴾ النجم ، أي، هل عنْد هذا الذي تولّى ، عِلْم الغَيْب في تحقُق ما توقّعه وبنى عليه موقفه فهو يَرى ذلك عِيَاناً..؟!. وفيه إنكار عليه لأنه بنى موقفه الخطير ذاك على مجرّد توقّع حصول أمر معين في المستقبل بدون دليل من الحس والعقل أو من الخبر الصادق ! .. أي ، على مجرّد التوهّم والرجم بالغيب ! .
- ✓ أما موضوع ذلك الأمر المتوقَّع وفحواه ، فتفسّره الآيتان التاليتان :

1 - واختيار إبراهيم عليه السلام ووصفه بهذه الصفة : ﴿ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾ ، كما فيه إقامة حجة على المشركين المتولّين عن طاعة الله .. فيه أيضاً ، أسوة حسنة لمن آمن بالله واليوم الآخر لحثّهم على الثبات على أمر الله جلّ وعلا .

﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ النجم ، تقرير أصل عام مُحْكم في ميزان الله : أنه لا أحد يحمل عن الإنسان الآثم إثمه ، إلا هو نفسه ، وأنه لا ينفع الإنسان عمل إلا عمله هو ، وسعيُه هو (المسؤولية الفردية) ، سواء في الدنيا أم في الآخرة [1] .

فما توهّمه ذلك المتولّي فلم يوفّ (أكدى) .. هو نقيض الحقيقة السابقة : أنه يمكن لإنسان آخر أن يحمل عنه تبعات وجزاء تولّيه عن طاعة الله (كَذْبِه) ، بعد أن أقبل وأسلم لله جلّ ثناؤه [2] .

وهذا الأمر المتوَهَّم يمكن أن يستغلّه الملأ الذين كفروا ، في التلبيس على الناس لصرفهم عن اتباع دين الله أو في الردّة عن دين الله ؛ حيث يقولون للناس : ارتدّوا عن دين محمّد أو لا تتّبعوا محمّداً ، ونحن كفلاء لكم ، ونتحمّل عنكم الإثم والعذاب يوم القيامة .. في ما يشبه " صكوك الغفران " .. وهم يقولون هذا استهزاءً لأنهم لا يؤمنون بيوم القيامة ..

من أجل ذلك كانت هذه الحملة – في هذه المجموعة من الآيات – على مَنْ يقوم بهذا العمل [3].

- ✓ (55) ، وبعد بيان تلك الحقائق الدامغة ، يأتي الإنكار على الذي تولّى عن الحق وأكدى :

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ النجم ، فبأي أنعمه الدالة على وحدانيته وقدرته تتشكك أيها المتولّي أو تُكذب ؟!! فكلها آيات بيّنات دالّة على أن الله هو وحده الإله الحق الذي له الخلق والأمر .. فلماذا لا تتبع أمر الله !!.. فحبّ الدّنيا واتّباع الظّن والهوى .. يؤدي إلى الطغيان على الحق وأهله .. وهذا عاقبتة الهلاك والدمار ، في سنن الله عزّ وجلّ .

وهذا مجمل لما تحويه مجموعة الآيات من معاني :

- (33–35) ، الإنكارُ على الذي تولى عن الحق ، وذمُّه .. ومطالبته بالدليل والبرهان – من الحس والعقل أو الخبر الصادق – على ما يقول وليس مجرّد إلقاء الشبهات . وتمنّي الأماني !! .
- (36–49) ، تذكير عامة الناس بالمسؤولية الفردية أمام الله عزّ وجلّ ، وبيان أن الله هو الإله الحق بتلميس آثار إلهيته في الآفاق والأنفس .. وأنه خلق الناس وسيبعثهم بعد الموت ليحاسبهم على أعمالهم ، وأنه لا مفرّ من الله إلا إليه . وأن هذه حقائق معروفة وشائعة ، فهي مقررة في كتب الله المنزّلة منذ فجر البشرية ..
- (50–54) ، وأن الله عزّ وجلّ أنزل العذاب على الأمم الظالمة الطاغية التي من قبلهم فعذبها بكفرها ، فعليهم أن يحذروا فلا يتّبعوا تلك الجهات أو أولئك الأشخاص من الملأ الذين يسيرون على خطى تلك الأمم الطاغية ، لأنه سيؤدي بهم إلى الدمار والزوال مثلهم .

1 - هذا أصل عام مُحْكم ، وأي استثناء منه أو تخصيص له يحتاج إلى دليل شرعي .

2 - ونشير إلى أنه وردت بعض الروايات في سبب نزول الآيات السابقة ، لكنها لم يثبت لها سند ، إلا أن المعنى العام لمتنها يتوافق مع هذا التوجيه الذي أثبتناه للآيات .

3 - وهذا فيه إشارة إلى أن الملأ قد استغلوا فعلاً حالة ارتداد بعض أفراد المسلمين بعد حادثة الإسراء ، ليجعلوها حالة عامة ، بجعلهم قدوة لغيرهم وحافزاً لترك دين الله واتباع رسول الله .

- (55) ، ثم الإنكار على الذي تولّى عن الحق وأكدى .. فالأولى به أن يستمر على طاعة الله تعالى وشكره !.. فنعمه – تبارك وتعالى – دائمة مستمرة لا تنقطع .

✓ (56–62) وبناء على ما تم بيانه وتقريره من الحق – في ما سبق من السورة – وكشف زيف الباطل وأهله .. في ختام السورة توجّه الله تبارك وتعالى في الخطاب إلى الناس (قريش) ، عامتهم وخاصتهم ، وحثهم على الإسراع إلى طاعة الله والعبودية له وتصديق رسوله واتباعه .. وترك ما هم فيه من الاستهزاء والتكبّر والسير بلا هدى ولا دليل (سامدون) ، وأخذ الأمر بالجدية اللائقة به .. قبل أن ينزل بهم ما أُنذروا به من عذاب ، وهي المصيبة الكبيرة وقد أزفت ، ولا يكشفها ويرفعها عنهم إلا أن يؤمنوا بالله ورسوله ، فالله وحده القادر عليها :

﴿ أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ۝٥٧ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨ ﴾ النجم

وحقيقة أنه لا يقدر أحد على كشف تلك المصيبة التي أزفت إلا الله ، حقيقة لا يستطيعون إنكارها ، فقد خَبروها من قبل عندما ابتلاهم الله جلّ وعلا بالقحط والدخان ، فلم تنفعهم آلهتم المزعومة .. ولم يكشفه عنهم إلا الله وبعد أن وعدوا بالإيمان واتباع الرسول ، فدعى لهم رسول الله . كما في قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ۝٥٦ ﴾ الإسراء [1]

و " الآزفة " التي لا يكشفها أحد عنهم إلا الله ، هي عذاب الله لهم في الدنيا ، أي " البطشة الكبرى " التي في سورة الدخان ، لأن عذاب الآخرة إذا نزل بالكافرين لا يُكشف أبداً ، كما في رواية عبد الله بن مسعود : (.. فقرأ : (فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ - إلى قولهِ - إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ۝١٥) الدخان . أفَيُكشفُ عنهمْ عذابُ الآخرةِ إذا جاءَ ، ثمَّ عادوا إلى كفرهِم ؟! ، فذلك قوله تعالى : (يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٦) يومَ بدرٍ ..) [2] .

فلا يَكشف عنهم هذه المصيبة القريبة إلا الله الذي كشف عنهم " العذاب الأدنى " في ما مضى .. والسبيل الوحيد لكشفها ورفعها هو المسارعة إلى الإيمان بالله واتباع رسوله قبل نزولها .. كما ضرب الله تعالى مثلاً في قوم يونس : ﴿ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ۝٩٨ ﴾ يونس

وفي الختام : فالأولى بكم – أيها الناس – أنْ تأخذوا الأمر على مَحمل الجدّ قبل فوات الأوان ، فاسجدوا لله واعبدوه وحده ، مخلصين له الدين : ﴿ فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ وَٱعۡبُدُواْ ۩ ۝٦٢ ﴾ النجم .." فإنه ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ النجم .

1 - أكثر من قرينة وردت في تشابُه أو تقارُب أجواء سورة النجم مع أجواء سورة الإسراء .
2 - البخاري - الصفحة أو الرقم 4774.

وفي ختام " تبيان " سورة النجم ، نلاحظ أن آخر السورة نتيجة أولها ، ومفصلها ثمرة موصلها . والله الهادي [1] .

***

1 - أنظر (نظم الدرر) - البقاعي . لاحظ هنا كيف أن " المناسبة المنهاجيّة " ، واعتبار أن السورة " وحدة منهاجية " ، أصل يجمع سائر أنواع " المناسبة " بين الآيات في السورة . فاعتبار أن "محتوى السورة" قد جاء كمعالجات لـ "مناط السورة"، هو الأصل الجامع لآيات السورة والمُظهِر لوحدتها . وبتعبير آخر : أن النظر إلى جميع ما ورد في السورة موضوعاً وأسلوباً ، كمعالجات لموقف معين ، في طور معين ، وفي مرحلة معينة ، من السير بالرسالة من أجل تحقيق الغاية منها، هو الخيط الناظم لآيات السورة والمُظهر لوحدتها . وهذه هي البصيرة ومفاتيح الهدى للإقتباس من النور الذي في رسالة الله ، لإنارة الطريق أمام مَنْ أراد السير على " منهاج النبوة " لتحقيق الغاية من الرسالة .

24- (سورة عَبَس)

ربط السورة بخط السير :

تأتي السورة في في الطور الرابع ، وذلك :

1- المواجهة المباشرة ووضوح المواقف وتميّزها ، ووصف الرافضين للحق بـ " الكفر" و " الفجور" بعد بيانه لهم ومعرفتهم الكافية به .. ويكون هذا في أواخر المرحلة الأولى .

2- عتاب الله جلّ ثناؤه لرسوله الكريم لمخالفته الأَوْلى يقتضي أمرين: أحدهما ؛ أن يكون ذلك " الأَوْلى " معلوماً لرسول الله وثابتاً بالوحي – القرآن أو السنة – قبل نزول آيات العتاب .. فالعتاب يكون على أمر شرعي قد سبق العلم به ، وإلا كيف يكون العتاب من دون تكليف سابق ؟! . والثاني : أن هذا الأمر أو النهي السابق والذي كان العتاب بخصوصه ، لا يكون إلا من درجة المندوب أو المكروه فقط ، ولا يجاوزهما ، ولا يمكن أن يكون من الأحكام الثلاثة الأخرى : فأمّا المباح ، فهو على التخيير فلا عتاب عليه . وأما الفرْض و الحرام ، فرسول الله لا يفعل حرماً ولا يترك فرضاً ، متعمّداً.

وعليه، في تقديرنا، فإن الآية المرشحة لأن تكون فيها بيان " الأَوْلى " في موضوع دعوة " المستغني" هي آية سورة النجم : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ .. ﴾ .

من هنا ، يمكن اعتبار سورة عبس من السور المتعلقة بالطور الرابع أيضاً [1].

3- وأن رسول الله ما خالف الأَوْلى إلا لشدة حرصه على نصرة الحق وعلى إنقاذ مَنْ يدعوه مِن النار .. وقد ازدادت شدة الحرص وقويت ، عندما تأزمت الأمور بين الفريقين ، المؤمنين والكافرين ، وجَمُد المجتمع الجاهلي في وجه دعوة الله ورسوله ، وقد أُنذروا بالعذاب في الدنيا .. وهي الأجواء نفسها التي نزلت فيها الآيات التي فيها تخفيف معاناة المؤمنين نتيجة رفض المجتمع الجاهلي ومَلَله للإيمان .. كما بيّنا في " الطور الرابع " [2] .. حيث كان بيان **سنن الله** تبارك وتعالى في الرسل والأمم، و بيان **حقيقة مهمة** الرسول ومسؤولياته .. كانا حجر الزاوية في خطاب الله تعالى لرسوله الكريم في تخفيف شدة وقع تكذيب القوم على نفسه ، وفي تثبيته ومن معه .. بأنه غير مسؤول عن هداية الناس ، بمعنى أن يتحوّلوا إلى الإيمان .. و أن كل فرد وكل مجتمع (قرية) يتحمّل **المسؤولية** عن موقفه ، كما جاء في آيات كثيرة ، نذكر منها :

---

1 - أنظر (تبيان سورة النجم) . ومن الآيات القريبة أو المشابهة لها في موضوعها : (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً{28}) الكهف . (وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ{52}) الأنعام .
هذا ، ومن الظاهر أن معرفة ما قررناه ؛ من أن العلم بما هو " أَوْلى " يسبق " العتاب " على مخالفته ، له تأثير على دراسة وفهم " المنهاج " ، من باب العلم بتتابع نزول الأحكام ، والعلم بتتابع خطوات السير بالرسالة .. فهو يشبه العلم بالناسخ والمنسوخ ، من هذه الزاوية .

2 - النقطة أو البند (4) . وأنظر أيضاً الجزء الثالث (المنهج) - القسم الثاني، صفحة (58) .

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ يونس

﴿ طسم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ .. ﴾ الشعراء

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ الأنعام

.. الخ

والسور التي وردت فيها مثل موضوع هذه الآيات هي من السور المرتبطة إما بالطور الثالث أو الرابع .. فإضافة لسور : الأنعام ويونس والشعراء .. هنالك سور : الكهف/آية 6 ، فاطر/آية 8 ، وغيرها .. مما يشير إلى تقارب الأجواء بين " سورة عبس " وهذه السور المرتبطة بالطورين الثالث والرابع .

مناط السورة :

﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ عبس ، ﴿ قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ ﴾ عبس ، حالة الإنسان الذي استغنى بالباطل عن الحق ، وبقي مصرّاً على موقفه ذاك ، برغم أنه قد بلغه الحق بيناً واضحاً . وعادة ما يكون ذلك المستغني من الملأ ، فهو لا بد أن يكون عنده ما يستغني به ، من متاع و شهوات و أهواء .. [1] .

المعالجة :

وقد سارت السورة في معالجة مناطها كالتالي :

1 - يقول تعالى :{ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (14) } آل عمران . { فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (50)} القصص . {(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (23)} الجاثية . هذا وقد جاء في رواية سبب النزول عن عائشة ، قالت : (أُنزلتْ {عَبَسَ وَتَوَلَّى } في ابنِ أمِّ مكتومِ الأعمى . قالت : أتى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فجعَل يقولُ : يا نبيَّ اللهِ أرشِدْني . قالت : وعندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رجُلٌ مِن عُظماءِ المشركينَ فجعَل النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُعرِضُ عنه ويُقبِلُ على الآخَرِ ، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم : { يا فلانُ ترى بما أقولُ بأسًا } . فيقولُ : لا . فنزَلت : { عَبَسَ وَتَوَلَّى }). صحيح ابن حبان - الصفحة أو الرقم 535 . وصححه الألباني في صحيح الترمذي ، الصفحة أو الرقم 3331 .

1- (1-10) ، بيان الموقف الشرعي من ذلك المستغني ، وقد جاء في سياق عتابٍ للمصطفى صلّى الله عليه وآله وسلّم من ربّه . وفيه تذكير لحامل الرسالة ، على أنّ مهمته – في هذا الطور – هي التذكير فقط ، وحسب الطريقة الشرعية للخطاب . وأنه لا يملك هداية الناس وليس مسؤولاً عن عدم استجابتهم. فلا ينشغل المسلم بغير المطلوب منه وليس مسؤولا عنه (أن يتحول الناس إلى الإيمان) ، عن المطلوب منه والداخل في مسؤوليته (بيان الحق وتعليمه) ، فيخرجه ذلك عن خط السير الذي أمر الله به في الدعوة إليه . وقد سمّى الله تعالى ذلك تلهياً : ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾ عبس[1]

وعليه ، فالأَوْلى بحَمَلة الرسالة ، الاهتمام بمَن استجاب – أو أراد الاستجابة – لدعوة ربه عزّ وجلّ والحريص على التزوّد من العلم والتزكية . وأما من استغنى بالباطل عن الحق – وقد بلغه الحق بيناً واضحاً – فالأصل تركه وإهماله . وهذا هو الضابط في مدى الاهتمام بالشخص المدعو أو الإعراض عنه ، سواء كان من الملأ والسادة أم من غيرهم . فوصف " اسْتَغْنَى" ووصف "جَاءَكَ يَسْعَى" وصفان مفيدان للعلية في مَنْ ندعوه ونهتم به ، ومَنْ نتركه ونهمله .. وهما مناط العتاب [2] [3] .

فالتفقّه والتبصّر بما أمر الله به والاستقامة عليه ، هو الطريق الوحيد لنصرة دين الله . فلا يَصرف المسلم عن أمر الله تعالى ومراده صارف ، ولا يشغله عنه شاغل .. مهما كانت وجاهة ذلك الصارف في نظره [4] .

2- (11-16) ، الإنكار على المُستغي تكبّره عن سماع آيات الله التي تلاها النبي صلى الله عليه وسلم عليه في ذلك المجلس ، بردعه وزجره : ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾﴾ عبس ، أي ، إن تلك الآيات موعظة

---

1 - ((اللَّهْوُ : ما يشغل الإنسان عمّا يعنيه ويهمّه. يقال : لَهَوْتُ بكذا ، ولهيت عن كذا : اشتغلت عنه بِلَهْوٍ)) مفردات الراغب

2 - هنا ، قد يرد التساؤل التالي : هل عتاب رسول الله على مخالفة الأولى في أمر معيّن ، يمكن اعتباره قرينة على رفع درجة حكم ذلك الأمر إلى الفرض ، لأن رسول الله لم يَعُد لذلك الأمر بعد المعاتبة مع توفّر الإمكانية ؟ مثال ذلك : (الصلاة على المنافقين) (انفال بدر) (عبس وتولى) .

3 - عن عبدالله بن عمر أن رسول الله قال : ((اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب). قال : وكان أحبهما إليه عمر). صحيح الترمذي - الصفحة أو الرقم 3681 . فرسول الله كان يهتم بدعوة سادة قريش وقادتها (الملأ) ، فهُم إن أسلموا تبعتهم قريش وأسلمت مثلهم . أمّا المأمور به هنا أمران : ترك المستغني عن الحق ، والاهتمام بالساعي أو المحتاج للتعليم والتزكية . بمعنى أن الاهتمام بدعوة الفرد من الملأ مطلوبة بشرط أن لا يكون مستغنياً . وأن لا تُلهي دعوته عن تزكية طالب الهداية كائناً من كان .

((والاستغناء : أن يُعد الشخص نفسه غنياً في أمر ما ، يدل عليه السياق ، قول أو فعل أو علم ، فالسين والتاء للحسبان ، أي حسب نفسه غنياً . وأكثر ما يُستعمل الاستغناء في التكبّر والاعتزاز بالقوة. فالمراد بـ { من استغنى } هنا: من عد نفسه غنيا عن هديك بأن أعرض عن قبوله . لأنه أجاب قول النبي صلى الله عليه وسلم له : « هل ترى بما أقول بأسا» ، بقوله : لا والدماء [أي قرابين الآلهة] . كما في بعض الروايات .. كناية عن أنه لا بأس به .. ولكني غير محتاج إليه . فليس المراد بـ { من استغنى } من استغنى بالمال إذ ليس المقام في إيثار صاحب مال على فقير ، ويدلُّ على ذلك أنه لو كان من الثروة لكان الْمُقابل : وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ فَقِيرًا حَقِيرًا .. فاستغناءه استغناء المتعض من التصدّي له.. فهو مقابل { من جاءك يسعى } ، أي جاءك حريصاً على اللقاء بك ، طلباً للتزكية لأنه يخشى الله من التقصير في الاسترشاد . واختير الفعل المضارع لإفادته التجدد) . أنظر (التحرير و التنوير) ابن عاشور . و (البحر المحيط) - أبو حيان .

4 - كما حصل مع خليفة رسول الله أبي بكر في موقفه من المرتدين ، حيث أكّد على أن الموقف الشرعي منهم هو قتالهم بكل قوة . وأنه يجب الالتزام بأمر رسول الله بإنفاذ بعث أسامة ، وبغض النظر عن الظروف والأحوال الصعبة والخطيرة التي تحصل ، وقد تعذّر بها بعض الصحابة .. الأمر الذي عصم الله تعالى به الأمة من تلك المحنة القاصمة .

حق وخير ، ومن شأنها أن تتعظ بها وتقبلها [1] .. ثم وصف الله تعالى آيات القرآن بأوصاف تدل على عِظَم شأنها وعلو قدرها ورفعة ذكرها .. فلا يُضيرها أو يُنقص من قيمتها أن يُعرض عنها مثل هذا الكافر الفاجر .. بل إن مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ تَكْرِيمٍ وَرِفْعَةٍ وَطُهْرَةٍ وَصِيَانَةٍ .. أَحْرَى بِأَنْ يُسْعَى إِلَيْهَا .. كما فعل ذلك الأعمى ، برغم ضعفه وعجزه ، وكُبْر المشقة عليه [2]..

3- (17-23) ، التقريع الشديد لذلك الإنسان الكافر الذي يستغني عن الحق مُستكبراً – وقد علم أنّه الحق – بالدعاء عليه بالموت والهلاك.. والتعجيب من جحوده وغروره ، برغم أصل خلقه البسيط المَهين ، ومن حاجته وفقره المطلق إلى الله تبارك وتعالى ، وأنه عالة على الله جلّ ثناؤه في خلقه وتسويته واستمراره .. وأن مصيره الموت والرجوع إلى الله ، ثم الحساب.. فكيف يتكبّر عن العبودية لله جلّ وعلا وطاعته ؟!.. ثم زجْره وردْعه مرة أخرى ، لاستمراره في طغيانه وتمرده على أوامر الله ودينه : ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ عبس [3].

4- (24-32) ، ومرة أخرى ، بيان طريق الهداية لذلك الكافر المستغني وإقامة الحجة عليه : بإنه إذا أراد تحصيل ما يُعينه على التوجّه إلى الله ربّه وخالقه ومولاه ، وأن يَقْضي ويؤدّي ما أمره به من العبودية والطاعة في حياته الدنيا .. فلينظر إلى فعل الله جل وعلا وتقديره في خلق طعامه ، وتهيئة الماء لإنمائه ، وشق الأرض وإنباته ، وإلى انتفاعه به وانتفاع أنعامه في بقاء حياتهم .. إلى حين ..

---

1 - { كلا إنها تذكرة } استئناف ابتدائي موجه إلى ذلك المستغني ، {إنها تذكرة} إشارة للآيات التي كان رسول الله يتلوها عليه أثناء لقائه به . و{كلا} ردع وزجر له عن عدم إيمانه بها رغم أنها موعظة وهدى . فهذه الآية من سورة عبس وما بعدها لا تدخل في آيات عتاب المصطفى ، وذلك :

- لأن (كلا) لا تستعمل في اسلوب العتاب ، كما هو أغلب استعمالها في الأداء القرآني . بل تأتي في سياق أشد من ذلك ؛ للردع والزجر والإبطال . وهذا ليس من العتاب .
- لأن الله تعالى قد استعملها هنا في الكلام عن الكافر المستغني لردعه وزجره : (كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (23)) عبس ، فلا يستقيم أن يخاطب الله تعالى بها أيضاً رسوله الكريم في نفس السورة ونفس السياق .
- لأن (كلا) يمكن أن تأتي استئنافية في البداية ، مع أن الأصل فيها أن تأتي بعد الكلام ، وقد وردت في الأداء القرآني استئنافية ، كما في سورة العلق : {كلا إن الإنسان ليطغى (6)} . أنظر (التحرير و التنوير) ابن عاشور . وقد فصّل في القول في بيان ورود (كلا) في لغة العرب ، عند تفسير آية العلق وآية عبس {كلا لما يقض ما أمره (23)}.

2 - { فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (12) } عبس ، وهذا تعريض بالمستغني ، بأن موعظة القرآن بينة ظاهرة ، فكل أحد تجرّد عن العناد والمكابرة، يستطيع أن يتدبرها، ويتفهم معناها، ويتعظ بها، فمن لم يتعظ بها فلأنه لم يشأ ذلك عنادا واستكبارا. كقوله تعالى : { لمن شاء منكم أن يستقيم (28)} التكوير .. ومن ثم ، فهَذَا ليس من باب التَّخْيِيرِ بل من باب التَّهْدِيدِ ، بِدَلِيلِ مَا بَعْدَهُ : { قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17)} عبس ، «قُتِلَ الْإِنْسَانُ» : دُعَاءُ عَلَيْهِ بأشنع الدعواتِ ، وَالْإِنْسَانُ : لِلْجِنْسِ الْكَافِرِ، وَ «مَا أَكْفَرَهُ» : أَيْ مَا أَشَدَّ كُفْرَهُ بالقرآن ، بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ مِنْ عُلُوِّ مَنْزِلَتِهِ ونعوته الجليلة الموجبة للإقبال عليه والإيمان به. أنظر (أضواء البيان) - الشنقيطي . و (التحرير والتنوير) - ابن عاشور .

3 - ((وَقَوْلُهُ : {ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ} قِيلَ: «السَّبِيلُ» إِلَى خُرُوجِهِ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ، حَيْثُ أَدَارَ رَأْسَهُ إِلَى جِهَةِ الْخُرُوجِ ... وَقِيلَ: «السَّبِيلُ» : أَيِ الدِّينُ فِي وُضُوحِهِ، وَيُسْرِ الْعَمَلِ بِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : { إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (3)} [الانسان] ، .. وَلَعَلَّ هذا هُوَ الْأَرْجَحُ ؛ لِأَنَّ تَيْسِيرَ الْوِلَادَةِ أَمْرٌ عَامٌّ فِي كُلِّ حَيَوَانٍ، وَهُوَ مُشَاهَدٌ مَلْمُوسٌ، فَلَا مَزِيَّةَ لِلْإِنْسَانِ فِيهِ عَلَى غَيْرِهِ، كَمَا أَنَّ مَا قَبْلَهُ دَالٌّ عَلَيْهِ أَوْ عَلَى مَدْلُولِهِ وَهُوَ الْقُدْرَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : { مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ } . وَقَدْ => يَكُون تَيْسِيرُ الْوِلَادَةِ دَاخِلًا تَحْتَ قَوْلِهِ: «فَقَدَّرَهُ» . أَيْ: قَدَّرَ تَخَلُّقَهُ وَزَمَنَ وُجُودِهِ وَزَمَنَ خُرُوجِهِ، وَتَقْدِيرَاتِ جِسْمِهِ وَقَدْرَ حَيَاتِهِ، وَقَدْرَ مَمَاتِهِ، كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ . أَمَّا تَيْسِيرُ سَبِيلِ الدِّينِ ، فَهُوَ الْخَاصُّ بِالْإِنْسَانِ. وَهُوَ الْمَطْلُوبُ التَّوَجُّهُ إِلَيْهِ. وَهُوَ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بتغيّره مَا بَيْنَ تَخَلُّقِهِ مِنْ نُطْفَةٍ وَتَقْدِيرِهِ. وَبَيْنَ إِمَاتَتِهِ وَإِقْبَارِهِ. أَيْ: فَتْرَةُ حَيَاتِهِ فِي الدُّنْيَا. أَيْ: خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ وَقَدَّرَ مَجِيئَهُ إِلَى الدُّنْيَا وَيَسَّرَ لَهُ الدِّينَ فِي التَّكَالِيفِ. ثُمَّ أَمَاتَهُ لِيَرَى مَاذَا عَمِلَ: ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ. وَلِذَا جَاءَ فِي النِّهَايَةِ بِقَوْلِهِ : «كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ» . وَلَيْسَ هُنَا مَا يَدُلُّ عَلَى الْأَمْرِ إِلَّا (السَّبِيلَ يَسَّرَهُ). وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ)) . أنظر (أضواء البيان) - الشنقيطي .

ينتهي فيه هذا المتاع الذي قدّره الله حين قدر الحياة .. فلينظر إليه فهل له من يدٍ فيه ؟ هل له من تدبير لأمره ؟ بل إن قدرة الله التي أخرجته إلى الحياة وأبدعت قصة خلقه ، هي التي أخرجت طعامه وأبدعت قصته ، فهو عالة على الله ربه ومولاه في استمرار حياته ، وفي وجوده بدايةً .. فإنه لو يعتبر بنِعَم الله تعالى عليه وآياته البينات ، لترك كفره [1].. أمّا إن لم يعتبر ويتعظ – ذلك المستغني عن الحق ، المتكبّر على طاعة ربه وخالقه – بعد كل ما سمعه من القول ولم يتبع أحسنه ، فلينتظر ما يجيؤه :

5- (33–42) ، ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ ﴾ عبس ؛ إنها الصيحة الشديدة العظيمة التي تصخُّ الآذانَ أي تصمَّها لشدةِ وقعِها في بدء يوم القيامة .. والتي يصخُّ لها الخلائقُ ، أي يسمعون لها رغماً عنهم ، مِن صخَّ لحديثِه إذا أصاخَ له واستمع .. ويأتي هنا هذا الوصف ليوم القيامة ليتناسب مع تكبّر الكافر عن سماع كلام الله واهتمامه به ، فعندما تأتيه الصاخّة .. سيصيخ سمعه لها رغماً عنه .. عندها ، فلن يغني عنه شيئاً – مما استغنى به عن الله وعن دعوة الله – لا ماله ولا أقرباؤه ولا عشيرته ، فماله سيذهب عنه .. وأمّا أقرباؤه فلكل واحد منهم يومئذ أمر جلل عظيم يُشغله لا يَدَع له فضلةً من وعي أو جهد تكفي للاهتمام بأهله أو بأقرب الناس إليه ، فكيف بسائر عشيرته !! [2] ..

وبعد ذلك ، يصبح الناس فريقين : الذي خشي الله جلّ وعلا ، فتزكّى . والذي تكبّر عن الهدى مستغنياً بمتاع الدنيا . ثم هذان هما في ميزان الله (جواب إذا) ؛ الأول : ﴿ وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٣٩﴾ ﴾ عبس. أي وجوههم متهللة فرحاً وعليها أثر النعيم ، فلا همّ ولا غمّ ولا عُبوس .. نتيجةً للرضى والنعيم . والثاني :﴿ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ ﴾عبس ، على النقيض تماماً.. نتيجةً للغضب والعذاب [3].. والعياذ بالله .. فالجزاء من جنس العمل ..

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾ عبس ، أي ، الذين لا يؤمنون بالله وبرسالاته . والذين خرجوا عن

---

1 - {فلينظر الإنسان إلى طعامه (24)..} إذ التقدير: إن أراد الإنسان أن يقضي ما أمره الله ، فلينظر إلى خلق الله لطعامه.. كما في قوله تعالى : (إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (4) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5)..) الطارق ، أي إن أراد الإنسان الخلاص من تبعات ما يكتبه عليه الحافظ ، فلينظر مم خُلق ليهتدي بالنظر فيؤمن فينجو .

2 - ((والصاخة لفظ ذو جِرْس عنيف نافذ، يكاد يخرق صماخ الأذن، وهو يشق الهواء شقاً، حتى يصل إلى الأذن صاخا ملحا! ((وهو يمهد بهذا الجرس العنيف للمشهد الذي يليه : مشهد المرء يفر وينسلخ من ألصق الناس به: «يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ» .. أولئك الذين تربطهم به وشائج وروابط لا تنفصم ولكن هذه الصاخة تمزّق هذه الروابط تمزيقاً، وتقطع تلك الوشائج تقطيعاً) . (في ظلال القرآن) - سيد قطب .

3 - ((وقدّم هنا ذكر وجوه أهل النعيم على وجوه أهل الجحيم خلاف قوله في سورة النازعات [37] (فأما من طغى) ثم قوله : (وأما من خاف مقام ربه) [النازعات: 40] إلى آخره ، لأن هذه السورة [عبس] أقيمت على عماد التنويه بشأن رجل من أفاضل المؤمنين والتحقير لشأن عظيم من صناديد المشركين ، فكان حظ الفريقين مقصوداً مسوقاً إليه الكلام ، وكان حظ المؤمنين هو الملتفت إليه ابتداء، وذلك من قوله : (وما يدريك لعله يزكى) [عبس: 3] إلى آخره، ثم قوله : (أما من استغنى ، فأنت له تصدى) [عبس: 5، 6] . وأما سورة النازعات فقد بُنيت على تهديد المنكرين للبعث ابتداء من قوله: (يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذ واجفة) [النازعات: 6- 8] فكان السياق للتهديد والوعيد وتهويل ما يلقونه يوم الحشر، وأما ذكر حظ المؤمنين يومئذ فقد دعا إلى ذكره الاستطراد على عادة القرآن من تعقيب الترهيب بالترغيب)) (التحرير والتنوير) - ابن عاشور .

حدوده وانتهكوا حرماته .. " والإشارة إليهم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ ، زيادة في تشهير حالهم الفظيع للسامعين . وأُتْبع وصف الكَفَرة بوصف الفَجَرة مع أن وصف الكُفر أعظم من وصف الفُجور ، لما في معنى الفجور من خساسة العمل ، فذُكِر وَصْفاهم الدالان على مجموع فساد الاعتقاد وفساد العمل . وذِكْر وصف الفجرة بدون عاطف يفيد أنهم جمعوا بين الكفر والفجور" [1] .. ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ٢٣﴾ عبس .

***

1 - ((فَجَرَ : أصل واحد هو انشقاق مع ظهور الشيء . ومن مصاديقه : انشقاق الظلمة وطلوع نور وضياء . وانشقاق في الجبل ونُبوع الماء . وانشقاق حالة الإعتدال وخروج أمر مخالف يوجب فسقاً وطغياناً . وانشقاق حالة الإمساك بظهور الكرم)) . أنظر (التحقيق في كلمات القرآن) - حسن المصطفوي . و(معجم المقاييس) - ابن فارس . نقول : فالفجور ليس مطلق معصية بل هو خروجها بعد هتك الستر عنها . وظهورها بعد أن كانت بالخفاء .

هذا ، و وَصْف الإنسان الكافر بالفجور ورد في عدة آيات من سور مختلفة ، وقد ورد في مقابل وصف التقوى للمؤمن . وفي هذا إشارة إلى تقارب أجواء تلك السور . والآيات هي :

{ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا } الشمس 8

{ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ } ص 28

{ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ } الانفطار 14

{ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ } المطففين 7

{ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ } عبس 42

{ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً } نوح 27

{ بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ } القيامة 5 . (أنظر تبيان سورة القيامة)

25- (سورة القَدْر)

ربط السورة بخط السير :

1- يأتي دور هذه السور من البداية في " الطور الأول " في إطار الحث على اتّباع القرآن – تعليماً وتزكيةً ودعوة – ببيان أهميّة القرآن بالنسبة للإنسان ، وأن مصيره منوط بموقفه منه ، ليتّخذه وحده المنهج لحياته ، والهدى الذي يسير عليه وينبذ كلّ ما سواه ..

2- وبعد الدخول في مواجهة الباطل ، يكون دورها في إطار الرد على من رفض رسالة الله تعالى وكفر بها ، مثل ما جاء في السورة السابقة "عبس " و سورة الدخان .. فالرسالة عظيمة من عظمة مُرسِلها جلّ جلاله : ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ .. ﴾ (بدلالة " ن " العظمة) ، وتُشرّف مَنْ صدّقها واتّبع الحق الذي جاء فيها ، فلا يغيضها ولا يُغيّر من حقيقتها أن يَكفر بها أولئك الجاحدون من أهل الباطل و عبدة الطاغوت .

مناط السورة :

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١ ﴾ ، تقرير حقيقة : أن القرآن عظيم من عظمة مرسله ، الله جلّ جلاله .

المعالجة :

جاءت المعالجة تتمحور حول إبراز أهميّة القرآن الكريم ومكانته العظيمة عند الله عزّ وجلّ ، وذلك ببيان عظمة ومكانة الليلة المباركة التي شاء الله عزّ وجلّ أن ينزله فيها (ليلة القدر) :

1- فهذه الليلة – إحدى ليالي رمضان – هي ليلة الشرف والفضل . ليلة وفيرة الخيرات ، كثيرة البركات ، فَضْلُها خير من فضل ألف شهر ليس فيها ليلة القدر . " والاستفهام (ما أدراك) فيه تفخيم لشأنها حتى كأنها خارجة عن دراية الخلق لا يدريها إلا الله سبحانه " .

2- يكثر فيها نزول الملائكة وجبريل عليه الســـلام إلى الأرض ، بإذن ربهم ، من أجل كل أمر أراده الله عزّ وجلّ ..

3- هي أمن كلها ، لا شرَّ فيها إلى مطلع الفجر ..

4- وفي هذه الليلة المباركة يُفَصّل ويُبيّن كل أمر مُحْكم وحكيم ، والقرآن رأس الحكمة ، وهو الفرقان بين الحق والباطل ، ولذا كان إنزاله فيها :

﴿ حمٓ ١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ٥ ﴾ الدخان .

***

26- (سورة الشمس)

ربط السورة بخط السير :

تأتي السورة في الطور الرابع ؛ حيث ورد فيها ذكر سُنّة الله تعالى في الأمم التي تطغى على أمره وتكذّب رسـله . وفي هذا إنذار لقريش بدنو نزول " العذاب الأكبر " بهم في الدنيا – كما هي سـنة الله – إن استمروا في اتباع الملأ منهم (أشقاهم) في طغيانهم على أمر الله وتكذيبهم رسول الله .

هذا ، وقد استوفت قريش استحقاقات هذه السنة الربّانية ، فاستحقت "العذاب الأكبر" بتكذيبها ، وذلك يوم أن اتبعت أبا جهل – فرعون هذه الأمة – ومعه أئمة الكفر ، في طغيانهم حين عزموا على قتال رسـول الله في غزوة بدر [1] .. بالرغم من أن قافلة أبو سـفيان قد نجت ولم تقع في أيدي المؤمنين .. فكان من المفروض أن يعودوا إلى مكة ، إلا أن أبا جهل بطغيانه وتكبّره منعهم من ذلك واسـتفزّهم لقتال رسـول الله والمؤمنين .. وقبل ذلك ، كانوا قد تخلّوا عن الأمانَـين من العذاب الذَّين أعطاهما الله تعالى لهم : عدم إخراج رسول الله من مكة ، والإستغفار والتوبة إلى الله [2] .

مناط السورة :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ ﴾ الشمس ، استحقاق القرية للعذاب حين وصولها إلى الغاية في تكذيب رسالة الله تعالى ووعيده (الطغيان) ، وذلك حين اتّبعوا أشقاهم في معاداة الله ورسول الله والحق الذي جاء به .

المعالجة :

السورة متميزة بأسلوبها ، وهي من باب التنويع في " خطاب النذارة " وتصريف الآيات :

1- (1-8) ، التأكيد بالقَسَم بعظيم تقدير الله تعالى وجلال حكمته في الآفاق والأنفس .. في خلق السموات وبناءها ، وبسط الأرض وتمهيدها وتهيئتها لحياة الإنسان .. وأن الله عزّ وجلّ كما أتقن خلق السموات والأرض وهيأها لأداء مهمتها ، كذلك أتقن خلق الأنفس وأكمل خلقها لأداء مهمتها ؛ الخلافة في الأرض ، وتحمّل مسؤولية التكليف .. ففطرها على معرفة ما هو من الخير والمعروف ، وما هو من الشر والمنكر . وجعل فيها القابليّة للهُدى والصلاح ، وللضلال والمعصية .. وكل ذلك من بديع صنع الله تعالى الذي لا يشاركه فيه غيره ، فهو دليل على أنه المنفرد بالإلهية ؛ الذي لا يستحق أحد غيره العبادة والطاعة [3] .

---

1 - كما وصف الله تعالى حال قريش عند خروجهم لقتال رسول الله : (وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَاللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ {47}) الأنفال .

2 - (وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ{33}) الأنفال .

3 - { ونفس وما سواها (7) فألهمها فجورها وتقواها (8)} أي : إن الله تعالى قد أحكم خلقَ النفسَ الإنسانية ، وجعل من تمام تسويتها وإحكام خلقها أن ألقى فيها عِلْماً من غيرِ تعليمٍ، ألقى فيها ما ينبغي لها أن تأتي من خيرٍ وتَدَعَ من شرٍّ . والإلهامُ يُطلقُ إطلاقاً خاصاً على حدوثِ علمٍ في النفسِ بدونِ تعليمٍ ولا تجربةٍ ولا تفكير، فهو علمٌ يحصلُ من غيرِ دليل، قال=>

2- (9-10) ، و "جواب القَسَم " أي الخبر المقصود بالتأكيد ، وهو أن مسؤوليّة الإنسان أمام الله جلّ وعلا – في الدنيا قبل الآخرة – تتمثّل في **توجيه** نفسه بما فيها من ملكات ، للهدى أو للضلال :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ الشمس

والمعنى : يقسم الله تبارك وتعالى بأمور عديدة من آثار قدرته في خلقه .. حتى وصل إلى رَفْعه السماء ، وطَحْوه الأرض ، وتَسْويته نفس الإنسان فجعلها متمكنة من معرفة الخير والشر .. على أنّه قد فاز وظفر بالمطلوب ، ونجا من المكروه (أفلح) ، كلّ مَنْ طهّر نفسه وأصلَحَها بازدياده من الخير والأعمالِ الصالحة (زكّاها)، وباتّباعه ما ألهمه الله من التقوى والهدى الذي جاء به رسوله ..

وقد خسر نفسه وأوقعها في التهلكة (خاب) ، كلّ مَنْ نَقَّصها وأخفاها وأخملها بفعلِ المعاصي وحال بينها وبين فعل الخير (دسّاها) ، بعد أن ألهمه الله تعالى التمييز بين الأمرين ؛ بالفطرة ، وبالوحي الذي ارسل به رسوله [(1)] ..

وليس الخيبة والخسران للأفراد فقط ، بل للقرية وللقوم أيضاً ، إن هم اتبعوا أئمة الضلال منهم (أشقياءهم) في باطلهم ولم ينكروا عليهم .. وفي هذا تحميلُ كلِّ فرد في المجتمع مسؤوليته الفردية عن أعماله ومواقفه إن اتبع أئمة الضلال .. وأن هذه سنة لله تعالى دائمة [(2)]..

3- (11-15) ، وقد ضرب الله جلّ وعلا ، مثالاً لسنته تلك بـ ثمود وقد كذَّبت نبيّها صالحاً ، حيث بلغت الغاية في العصيان والطغيان وقت اتّبعوا " أشقاهم " ؛ والذي يكون عادة من الملأ أو من أعوانهم

الراغب : الإلهام ؛ إيقاعُ الشيء في الرُّوْع، ويختصُ ذلك بما كان من جهةِ الله تعالى وجِهَةِ الملأ الأعلى اهـ . ولذلك، فهذا اللفظ إنْ لم يكن من مبتكراتِ القرآن، فهو مما أحْيَاهُ القرآن؛ لأنه اسمٌ دقيقُ الدلالةِ على المعاني النفسية، وقليلٌ رواجُ أمثالِ ذلك في اللغة قبلَ الإسلام، لقلَّةِ خطورِ مثل تلك المعاني في مخاطَبات عامَّة العرب. (انظر: التحرير والتنوير). وقد عبَّر علماء الصحابة والتابعين عن معاني الإلهام بمعانٍ متقاربةٍ ، وهي : بيَّن ، وأعلَمَ .. وفسَّروا الفجورَ والتقوى بالخير والشرّ ، أو المعصية والطاعة ، وهما سواء ، والله أعلم . أنظر (تفسير جزء عم) - مساعد الطيار .

1 - قال بعض المفسرين أن جواب القسم محذوف للعلم به ، وتقديره : ليدمدمنّ الله عليهم ، أى : على أهل مكة ، لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . ودليله ، قوله تعالى بعد ذلك :{ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا } . لأن هذه الآية الكريمة وما بعدها تدل على أن الله تعالى قد اقتضت سنته أن يحاسب من فسق عن أمره، وأصر على تكذيب رسله. كما دمدم على قبيلة ثمود لأنهم كذبوا صالحاً عليه السلام . فكأنه- سبحانه- قد قال : وحق الشمس وضحاها ، وحق القمر إذا تلاها... لتحاسبن على أعمالكم . وأما قوله : { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها..} فكلام تابع لقوله : { فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها}، على سبيل الاستطراد ، وليس من جواب القسم في شيء . أنظر (الكشاف) - الزمخشري . نقول : وفي المحصلة ، ليس هنالك فارق معتبر بين القولين ؛ فقوله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا{9} وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا{10}) ، يتضمّن معنى : " لتحاسبنّ على أعمالكم " وقصة ثمود مثال تطبيقي على سنة الله هذه ، بقومٍ خابوا بتَدْسِيَتِهم أنفسَهم بمعصية الله ورسوله واتباعهم أشقاهم . وقد جاءت الآية بصيغة المفرد للتأكيد على أن المسؤولية ، في النهاية ، مسؤولية فردية . فكل إنسان مسؤول عن نفسه، ويتحمّل عاقبة اختياراته ومواقفه وأعماله . وفي هذا حث لعامة الناس على أن لا يتبعوا "أشقياءهم " الذين يكذبون بالرسل وبالحق الذي جاؤوا به ، فيهلكوا معهم .

2 - كما في قوله تعالى : (فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ{116}وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ {117}) هود . وكما في حديث رسول الله الذي رواه البخاري :(مثلُ القائمِ على حدودِ اللَّهِ والواقعِ فيها كمثلِ قومٍ استَهموا على سفينةٍ فأصابَ بعضُهم أعلاَها وبعضُهم أسفلَها ، فَكانَ الَّذينَ في أسفلِها إذا استقوا منَ الماءِ مرُّوا على من فوقَهم فقالوا : لو أنَّا خرقنا في نصيبِنا خرقًا ولم نؤذِ من فوقَنا . فإن يترُكوهم وما أرادوا هلَكوا جميعًا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا) . الصفحة أو الرقم 2493 .

وأدواتهم .. وقد برز في إضلال الناس ، وفي التكذيب برسالة الله تعالى وبوعيده لهم بالعذاب .. فاتبعوه على ذلك [1] .

ومن هنا نُسِبَ التكذيبُ والعَقْرُ إلى جميعِهم ، فقال جلَّ ثناؤه : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ..﴿١٤﴾ ﴾الشمس فاستحقوا جميعاً ؛ أتباعاً ومتبوعين ، إنزال العقاب الشديد بهم .. ودون أن يحسب الله عزّ وجلّ حساب أحد من العالمين في النتائج المترتّبة على ذلك : ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾ ﴾الشمس .

فالله – جلّ جلاله – لا يخاف أحداً تبعةَ عقابه الشديد لهم ، لأنّه لن يقدر أحد أن ينصرهم من دون الله ، فهو وحده صاحب الأمر ، ومالك الملك ، والعزيز الذي لا يُغالَب .. جلّ جلاله .

***

1 - (خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الناقة ، وذكر الذي عقرها ، فقال : «{إذ انبعث أشقاها} انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه ، **مثل** أبي زَمعة ») (أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما) . قَوْلُهُ عَزِيزٌ أَيْ قَلِيلُ الْمِثْلِ . وعَارِمٌ أَيْ صَعْبٌ عَلَى مَنْ يَرُومُهُ كَثِيرُ الشَّرِّ . ومَنِيعٌ أَيْ قَوِيٌّ ذُو مَنَعَةٍ أَيْ رَهْطٍ يَمْنَعُونَهُ مِنَ الضَّيْمِ . وأبو زمعة هو الْأَسْوَدُ وكان أَحَدُ الْمُسْتَهْزِئِينَ ، وَمَاتَ عَلَى كُفْرِهِ بِمَكَّةَ ، وَقُتِلَ ابْنُهُ زَمْعَةُ يَوْمَ بدر كَافِرًا أَيْضاً . أنظر فتح الباري لابن حجر . نقول : وضرب المثل لـ " أشقاها " بواحد من ملأ قريش الكافرين ، هو من باب تنزيل آيات القرآن على الواقع بقصد معالجته .. وبأسلوب القصص .

27- (سورة البروج)

ربط السورة بخط السير :

تأتي السورة في الطور الثالث ؛ فالسورة تعالج تعرّض المؤمنين للفتنة (الكيد) وبشكل شامل ، حيث يَجمع أهل الباطل – ممثلين بالملأ منهم – قواهم وكيدهم (الجنود) [1] ، ويبالغون في اســتخدام القوة (حفر الأخدود ، والنار الشديدة) ضد جميع المؤمنين بالله ؛ أهل الحق وحملة الرسالة ، دون التفريق بين الكبير والصغير والقوي والضعيف .

وقد بدأ هذا مع رســولنا محمّد صــلّى الله عليه وآله وســلّم ، والذين آمنوا معه ، في الطور الثالث ، واشتدّت الأحوال بعد ذلك .. يعني الأجواء التي أدت إلى الهجرة إلى الحبشة ، ثم اشتدت أكثر متمثلة في حصــار رســول الله والذين آمنوا معه ومن ناصــره من بني هاشــم ، في الشِّــعب .. وهي أجواء ليســت متباعدة.

مناط السورة:

﴿ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ ﴾، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا .. ﴿١٠﴾ ﴾ البروج

حالة تعدي المجتمع وملَئه ، على من يعبد الله ويحمل دعوته بالإيذاء المادي والتعذيب (الفتنة) [2] بشكل شامل ، مبالغين في إظهار قوتهم وجبروتهم .

---

1 - حقيقة الجند : هو التجمّع بقصد النصرة والتقوية . وهذا يقتضي القوة والغلظة . والجَنَد : الأرض الغليظة التي فيها حجارة . ويقال للعسكر الجُنْد باعتبار التجمّع والغلظة . ويقال هم جُنده ، أي أعوانه ونُصّاره . ويقال لكلّ مجتمع على صفة من الخلق جُند ، نحو : «الأرواح جُنُودٌ مُجَنَّدَة فما تعارف منها ائتلف» من حديث رسول الله . قال تعالى : (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) الفتح . وأما الجند : المدينة ، والجمع أجناد، فإن كثيراً من المدن نشأت في الأصل معسكرات لجيوش الفاتحين كالفسطاط والكوفة . أنظر (معجم المقاييس) – ابن فارس. و(المفردات) - الراغب الأصفهاني . و(المعجم الإشتقاقي المؤصل) – محمد حسن جبل . الحديث أخرجه ابن حبان برقم (1618) وصححه ، والحاكم 2 / 81 ووافقه الذهبي ، وصححه النووي أيضا في رياض الصالحين .

2 - أصل الفَتْنِ : إدخال الذّهب النار لتظهر جودته من رداءته ، واستعمل في إدخال الإنسان النار. قال تعالى : (يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ) [الذاريات/13] ، (ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ) [الذاريات/14] ، أي : عذابكم . وتارة يسمّون ما يحصل عنه العذاب فيستعمل فيه. نحو قوله : (أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا) [التوبة / 49] ، وتارة في الاختبار نحو : (وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً) [طه/40] ، وجُعلت الفتنة كالبلاء في أنهما يستعملان فيما يُدفع إليه الإنسان من شدّة ورخاء ، وهما في الشّدّة أظهر معنى وأكثر استعمالا ، وقد قال فيهما : (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً) [الأنبياء/35]. وقال في الشّدّة : (فَما آمَنَ لِمُوسى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ) [يونس/83] ، أي : يبتليهم ويعذّبهم ، وقال : (وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ) [المائدة/49] ، (وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ) [الإسراء/73] ، أي : يوقعونك في بليّة وشدّة في صرفهم إيّاك عمّا أوحي إليك ، وقوله : (فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ) [الحديد/14] ، أي : أوقعتموها في بليّة وعذاب .. وقوله : (الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ) [العنكبوت/1- 2] ، أي : لا يُختبرون فيميّز خبيثهم من طيّبهم ، كما قال : (لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ) [الأنفال/37] ، والْفِتْنَةُ من الأفعال التي تكون من الله تعالى ومن العبد ، كالبليّة والمصيبة والقتل والعذاب وغير ذلك من الأفعال الكريهة ، ومتى كان من الله يكون على وجه الحكمة ، ومتى كان من الإنسان بغير أمر الله يكون بضدّ ذلك ، ولهذا يذّم الله الإنسان بأنواع الفتنة في كلّ مكان نحو قوله : (وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ) [البقرة/191] ، (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ) [البروج/10] .. وقوله : (وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ) [المائدة/49] ، فقد عدّي ذلك بـ (عن) يعني خدعوك ، لمّا أشار بمعناه إليه . أنظر (مفردات ألفاظ القرآن) - الراغب الأصفهاني .

المعالجة :

السورة في مجملها : حملة على الكفار ، من قريش وملَئها ، لاضطهادهم ضعاف المؤمنين والمؤمنات وفتنتهم إياهم عن عبادة الله ، وتثبيت للمؤمنين وتشجيع لهم على تحمّلهم أذى الكافرين من قومهم . وفيها إشارة إنذارية إلى حادث مماثل (أصحاب الأخدود) ، وتذكير بسنة الله في مصائر الطغاة كفرعون وثمود. وتنويه بقدر القرآن وحفظه ، لكونه محور الصراع .

وقد سارت السورة في معالجة مناطها كالتالي :

1- (1-7) ، التأكيد بأسلوب القَسَم على أن من يفتن المؤمنين – أصحاب الأخدود مثالاً – ملعونون ولهم يوم سَيرَوْن فيه العذاب الأليم والهلاك ﴿ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢ ﴾ البروج ، في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة [1] وأن هذا اليوم آتٍ لا محالة ، فالزمن يتقدّم و يسير حثيثاً ، ليل نهار .. فهاهما الشمس والقمر يمران بمنازلهما في السماء ، وينتقلان من منزلة إلى التي تليها (البروج) .. وسوف يأتي هذا اليوم الموعود .. والعبرة الحقيقية ستكون بما يحدث هناك – وليس بما يحدث الآن من فتنة للمؤمنين – فالعبرة بالعاقبة وبمن سيضحك في النهاية .. والعبرة بمن سيكون الشاهد وبمن سيكون المشهود في ذلك اليوم .. حيث سيكون المؤمنون هم الشاهدون على الكافرين وأعمالهم السيئة ، وشهوداً لما سيلاقونه من عذاب أليم [2] ، في مقابل ما كان يفعله الكافرون – ويفعلونه دائماً – يعذّبون المؤمنين ، والملأ منهم يتابعون ذلك عن كثب ، ويتشَفَّون بآلام المؤمنين.

2- (8-9) ، كشف الدافع الحقيقي لموقف الكافرين ، من أهل الحق ؛ فهم ما أخذوهم بمثل هذا العقاب الشديد إلا أنهم مؤمنون بالله الذي له أسماء الجلال والكمال :

فهو " العزيز " الذي لا يُغالَب ، الذي ينبغي أن يُخشى عقابُه ..

وهو " الحميد " ، أي المحمود في أقواله وأفعاله وأسمائه ، في كل حال ، الكريم الذي يُرجَى ثوابُه ..

والذي له ملك السماوات والأرض خلقًا وعبيدًا ، يتصرف فيهم تصرّف المالك بملكه ..

والذي هو على كل شيء شهيد علمًا وسمعًا وبصرًا ، لا يخفى عليه شيء .. جلّ جلاله .

فهل الإيمان بالله الذي هذه أسماؤه ، جريمة تستحق هذه العقوبة الشنيعة ..؟!!

وما سبق ذكره ، فيه المعاني التالية :

---

1 - { إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12) ... هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (18) } إشارة إلى أن هنالك عذاب في الدنيا أيضاً قبل الآخرة . كما في قوله تعالى : (قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضْعَفُ جُنداً {75}) مريم . وقوله تعالى : (فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ{83}) الزخرف. أنظر الآيات التي جاءت فيها كلمة (يوعدون) في المعجم المفهرس.

2 - كما في قوله تعالى : (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ{14}) التوبة . هذا في الحياة الدنيا . أما في الآخرة : (فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ{34} عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ{35} هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ{36}) المطففين . وكما جاء في آيات كثيرة تبيّن أن من أشكال نعيم أهل الجنة ، رؤية الكفار وهم يتعذبون ويعانون الحسرة والندم .

- ✓ وعدٌ أكيد للمؤمنين ووعيدٌ شديدٌ لمعذبيهمْ ، ذلك أنَّ قدرة الله عزّ وجلّ وقهره لخلقه.. وعِلْمه تعالى بجميعِ الأشياءِ – ومن جُملتِها أعمال الفريقينِ – يستدعي توفيرَ جزاءِ كُلٍّ منهمَا حَتْماً.. فبالقدرة والعلم يحصل الجزاء .. أفلا خاف هؤلاء الطغاة من الله العزيز المقتدر ، أن يبطش بهم . أوَ ما علموا أنهم جميعهم مماليك لله ، وليس لأحد على أحد سلطة ، من دون إذن المالك ؟! أَوَ خفي عليهم أن الله محيط بأعمالهم ، مجاز لهم على فعالهم ؟! ..
- ✓ تأكيد على أن قضية الصراع بين أهل الحق ؛ حَملة الرسالة .. وأهل الباطل ؛ الملأ وأعوانهم ، هي دائما : لمن تكون الطاعة والاتباع (العبودية) ؟ لله أم للطاغوت ؟ فهذه هي فكرة الدعوة ، وفحوى " خطاب النذارة " الذي جاء به رسول الله من ربّه .. فالمؤمنون في السابق – وكما هو الحال دائماً – مثل أصحاب الأخدود قد حُرّقوا وعُذّبوا من أجل أنهم تركوا عبادة الطاغوت ويعبدون الله الإله الحق وحده [1]..

3- (10–11) ، ثم تقرير مَنْ هو الفائز على الحقيقة في هذا الصراع – والفوز : النجاةُ منَ الشرِّ والظفر بالخير– ومتى يكون ذلكَ الفوز الحقيقي ، الفوز العظيمُ الشأنِ الذي تصغر عندَهُ الدُّنيا بكل مَا فِيْهَا من فنون الرغائب .. حيث يقرر الله تبارك وتعالى أن ذلك الفوز العظيم سيكون، فقط للمؤمنين بالله والمتبعين لرسوله .. برغم أنّهم المستضعفون الآن .. وأن العذاب سيكون على الكافرين المستكبرين الذين فتنوا وآذوا المؤمنين والمؤمنات ليصرفوهم عن دين الله ، ثم لم يتوبوا .. وإن لم يكن العذاب في هذه الحياة الدنيا ، فسيكون حتماً في يوم القيامة ..

فهذا إنذار للكافرين ، وحث لهم على الإسراع في التوبة والدخول في العبودية لله واتباع الرسول مع المؤمنين قبل فوات الأوان .. " فانظروا إلى هذا الكرم والجود ، هم يقتلون أولياءه وأهل طاعته ، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة ! فما أعظم فضل الله ! " ..

وفيه – أيضاً – طمأنة للمؤمنين وتعليم لهم ، أنّهم في معيّة الله عزّ وجلّ ورعايته وكفالته ، وحتى لو أدّت بهم الفتنة و الابتلاء إلى درجة هلاكهم وموتهم كلهم ، كأصحاب الأخدود .. فإنهم هم الفائزون المنتصرون في الدنيا والآخرة ؛ إذ أنهم صبروا وثبتوا على الحق وطاعة الله جلّ وعزّ وماتوا وهم على الإيمان ، فلم يستطع الكفّار أن يغيروا فيهم شيئا .. وأن لهم عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار ؛ ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾ البروج [2].. **(صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة)** ..

---

1 - وهذه هي تهمتهم دائماً ، كما في موقف فرعون من السحرة : (لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ{124} قَالُواْ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ{125} وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ{126}) الأعراف . وكما في موقف الرجل المؤمن : (وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ {28}) غافر .. فتهمة حَمَلة الرسالة الوحيدة هي أنهم يقولون : " ربنا الله ". هذا ، ومن أهم عوامل نجاح الدعوة إلى الله ، بل العامل الأهم ، هوالحرص الشديد من حَمَلة الرسالة - قبل التمكين - على بقاء تلك " التهمة " ؛ أنهم لا يطيعون إلا الله وحده ، هي وحدها قضية الصراع مع الباطل وأهله . وعلى بقائها واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار ، لا شيء يشوش عليها مهما حاول أهل الباطل التغمية عليها بقضايا أخرى وبمسائل جانبية ، وتُهَم أخرى .. لصرف انتباه الناس عنها .

2 - (وَإِمَّا **نُرِيَنَّكَ** بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ **نَتَوَفَّيَنَّكَ** فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ{46}) يونس <=

4- (12-18) :

- ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾ البروج ، استئنافٌ خُوطب بهِ النبيُّ صلى الله عليه وسلم (رَبِّكَ) ، مع التأكيد على الحقيقة المقررة في الآيتين السابقتين ؛ من أن الله تعالى هو الذي حكم بها وهو الذي يتكفّل بتحقيقها، وهي من سننه في خلقه ..

والبطشُ الأخذُ بعُنْفٍ وقسوة .. وحيثُ وُصفَ بالشدةِ فقدْ تضاعفَ وتفاقمَ . وهو بطشُه – سبحانه – بالطغاة الظلمةَ وَأخذُه إيَّاهُم بالعذابِ والانتقام ، كقولِه تعالَى :

﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ الدخان .. وكانت يوم بدر .. يوم الفرقان ..

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ هود ..

- ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ ﴾ البروج ، وأنه يبدىءُ البطشَ بالكفرةِ في الدُّنيا وَيعيدُه فِي الآخرةِ .. وفيهِ مزيد تقرير لشدة بطشِه ، أيْ هُو – سبحانه – يُبدؤه وهو يعيده من غيرِ دخلٍ لأحدٍ في شيءٍ منْهُمَا.. يعني لا ناصر لهم من الله جلّ جلاله [(1)] ..

- ثم أضاف إلى الإستئناف والتأكيد ، بيان خمسة من أسماء وأوصاف الرحمةِ والجَلال لله تبارك وتعالى.. وذلك من باب الزيادة في التأكيد بإيراد البينات والحيثيات ، على صدق وقوع ما قرره الله جلّ وعلا ، من أن العذاب للذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ولم يتوبوا ، وأن الفوز الكبير للمؤمنين.. وأسماء الرحمة والجلال هي :

✓ ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ﴾ البروج ؛ (الغفور) كثير المغفرة – أي كثير ســـتر الذنوب مع التجاوز عنها – لمن تاب وآمن من عباده .. (الودود) أي كثير المَوَدّة والمحبة لمَنْ أطاعَ واتّبع .. والمَودّة هي المحبة الصـــافية المجرّدة .. وهو تعالى " الودود " ، أي الذي يحبه أحبابه محبة لا يشـــبهها شيء .. والتي هي أصل العبودية .. فهي المحبة التي تتقدم جميع المحاب وتغلبها ، وكلّها تبع لها .. كما قال تعالى : ﴿ ..يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ.. ﴿٥٤﴾ ﴾ المائدة

(وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ{40}) الرعد

(فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ{77}) غافر

(فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ{41} أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ{42} فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{43}) الزخرف

1 - وهذا اختيار الطبري : ((وأولى التأويلين في ذلك عندي بالصواب، وأشبههما بظاهر ما دلّ عليه التنزيل القولُ الذي ذكرناه عن ابن عباس، وهو أنه يُبْدِئُ العذاب لأهل الكفر به ويعيد، كما قال جلّ ثناؤه: (فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ) في الدنيا، فأبدأ ذلك لهم في الدنيا، وهو يعيده لهم في الآخرة. وإنما قلت: هذا أولى التأويلين بالصواب؛ لأن الله أتبع ذلك قوله: (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ) فكان للبيان عن معنى شدّة بطشه الذي قد ذكره قبله، أشبه به بالبيان عما لم يَجْرِ له ذكر، ومما يؤيد ما قلنا من ذلك وضوحًا وصحة قوله : (وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ) فبيَّن ذلك عن أن الذي قبله من ذكر خبره عن عذابه وشدّة عقابه)) .

وإيراد اسم " الودود " مقروناً باسم " الغفور " ، ليدل على أن الذين عصوا الله إذا تابوا إليه وأنابوا ، غَفر الله لهم ذنوبهم .. وليس ذلك فحسب بل وأحبهم كذلك .. فليفرّوا إلى مغفرته ووُدّه من بطشه الشديد [1] ..

وفيه توجيه للمؤمنين : بأن أعداء الله هم أعداؤكم ما داموا كافرين ، فإن تابوا إلى الله أصبحوا إخوانكم وأحباءكم . فالعداء إنما هو في الله ولله ، أي ليس للشخص نفسه ، بل بوصفه عدواً لله عزّ وجلّ ، فإن تاب وآمن فهو أخ لكم في الله ، وإن كان عدواً لكم وآذاكم وعذبكم فيما مضى .. فلا حَظّ للنفس في هذا العداء والصراع [2].

✓ ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ البروج ؛ صاحب العرش ؛ أي المَلِك ، لأن العرش يدل على أن صاحبه من الملوك .. أي أنه جلّ وعلا صاحبُ المُلك والعَظَمة ، والسُّلطان القاهر، وله الأَمْر الذي لا يُرَدّ [3].

---

1 - يعني بشارة ونذارة ، ترغيب وترهيب .. لدفع عباد الله المذنبين للجوء إلى رحمة الله فراراً من عذابه . ويأتي هذا حين اقتراب نزول العذاب بالكافرين . كما في أمثلة أخرى لإسمَيْن لله جلّ وعزّ ، قُرنا معاً : (العزيز الرحيم) وقد وردا في سورة الروم ، السجدة ، يس ، الدخان ، الشعراء وقد تكررا فيها تسع مرات.. وأيضاً : (العزيز الغفّار) وقد وردا في سورة ص ، الزمر ، غافر .. و(العزيز الغفور) في سورة المُلك .. والسور السابقة من السور المكية المتعلقة إما بالطور الثالث أو الرابع . أنظر الجزء الثالث (المنهج) ، القسم الثالث - فقرة (ب) .

2 - وهذا ينسجم مع أحكام الولاء والبراء في هذه المرحلة (قبل التمكين) ، بل ويؤيّدها ، من أنها مُناطة بالطاغوت وبدينه وشريعته فقط - يعني بالأفكار والمُعتَقد (لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ .. لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) - وليس بالأشخاص ، فالأشخاص هدف للدعوة الآن . أما بعد " التمكين " للمؤمنين ، فالبراءة تكون من الأفكار والأشخاص معاً ..
ومن المعالجات التي - أيضاً - تنسجم مع أحكام " الولاء والبراء " وتؤيدها في مرحلة " ما قبل التمكين " : أن الأصل في الموقف ممن يستهزيء بآيات الله من الكافرين - خاصة في أواخر المرحلة - هو الإعراض عنهم ، أي تركهم وعدم القعود معهم . وهو "الإنكار السلبي" على مواقفهم ، وهو الحد الأدنى من الإنكار، كما في قوله تعالى : (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ {68}) الأنعام . ومفهوم (حتى) هنا ، أن القعود معهم جائز ما لم يخوضوا في آيات الله عزّ وجلّ . وهو الحكم الشرعي نفسه الذي كان في بدايات مرحلة " التمكين " ، كما في قوله تعالى في سورة النساء : (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً {140}) . ثم نزل الأمر بالبراءة منهم .. حتى نزل حكم الله تعالى النهائي بحقهم ..
هذا ، والآيات السابقة - في الموقف من المستهزئين - حجة بيّنة في عدم جواز المشاركة في جلسات " السلطة التشريعية " (البرلمان) ، وهي تمارس عملها في سن الأحكام والتشريعات من غير شريعة الله ، نابذة لشريعة الله جلّ جلاله وراء ظهرها . فعملها هذا من أبيَن أشكال الاستهزاء بآيات الله والكفر بها .

3 - هذا بالنظر في ما يحمله ألفاظ وصف (ذو العرش) من دلالات في السياق . والعرش في اللغة : سرير المُلك ، وصاحب العرش هو الملك . كما في قوله : (إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ {23}) النمل . وقوله تعالى : (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً ..{100}) يوسف . والقول : أنه (قائم على العرش) : يعني أنه مَلِك فعلاً . والقول : أنه (مستوٍ على العرش) : يعني يتولّى المُلك متمكّناً منه ، فهو وحده الحاكم على المُلْكِ بلا منازع . ذلك أن (استوى على الشيء) : يعني علاه وتمكّن منه . كما في قوله تعالى : (.. وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ..{44}) هود .أي ورست السفينة واستقرّت على جبل الجوديّ بعد أن كانت تتلاطمها أمواج كالجبال . وقوله تعالى : (وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ {12} **لِتَسْتَوُوا** عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا **نِعْمَةَ** رَبِّكُمْ **إِذَا اسْتَوَيْتُمْ** عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ{13}) الزخرف . أي ، فإذا (اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ) يعني متمكّنين منه ، خاضع لإرادتكم ، تذكّروا أن هذا من نعمة الله عليكم ، فما كنتم بقادرين أو بمطيقين لتذليل هذا المركوب الصعب - كالسفن والأنعام وغيرها - لولا أن الله تبارك وتعالى قد جعلها مُنقادة لكم ، ومُسخرة لخدمتكم . وعليه ، فقوله تعالى : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى{ 5}) طه ، يخبرنا الله تعالى أنه وحده الحاكم على المُلْكِ بلا منازع .. هكذا .. دون النظر - مطلقاً - لحقيقة فعل الإستواء أو تصوّر كيفيته ، لا حقيقة ولا مجازاً، ولا نفياً ولا إثباتاً.. إنما بالنظر - فقط - في دلالة جملة (استوى على العرش) في معهود اللسان والقرآن . والآية السابقة لها نظائر كثيرة في معناها ، منها قوله تعالى : (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ، وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ ، وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً{111}) الإسراء . وقوله تعالى : (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{1})=>

(ٱلْمَجِيدُ) ؛ أي هو سبحانه المُمَجَّد ، العالي على جميع الخلائق ، الذي بلغ المنتهى في العظمة والكرم والفضل .. المتصف بجميع صفات الجلال والكمال.. فالمجدُ : سعة الأوصاف وعظمتها .. تنبيهاً للعباد إلى وجوب عبادته لاستحقاقه العبادة لجلاله وعظمته ، كما يعبدونه لاتقاء عقابه ورجاء نواله وعطائه ..

- ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾[1] ؛ لا مُكْرِه له سبحانه .. ولا يمتنع عليه شيء يريده ولا يعترض عليه معترض ولا يغلبه غالب .. ولا معقّب لحُكمه ولا رادَّ لقضائه ..
وفي العموم ، والتنكير ، من التفخيم ما لا يخفى .

- ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ ﴾ البروج ؛ استئناف آخر ، فيه تحقيق لكونه تعالى ذا العرش وفعالاً لما يريد ، وذلك بضرب مثال لشدة بطشه – سبحانه – بالظَّلمة العصاة ، والكفرة العتاة من الأمم السابقة. وفيه تسلية له صلّى الله عليه وآله وسلم ، ومن معه من المؤمنين بالإشعار بأن الله ناصرهم ، وأنه

المُلك . وقوله تعالى : (ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ{15} فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ{16}) البروج . وقوله : (إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ{3}) يونس . أي : إن ربّكم الحق هو الذي انفرد بخلق السماوات والأرض، ثم هو وحده يدبّر أمور خلقه ، تدبير المَلِك أمور مملكته ، وقاضيًا فيهم - على مقتضى الحكمة - بما يريد ، وبغير شريك ولا ظهيرٍ ، ولا يضادُّه في قضائه أحدٌ. فإن خالق العوالم بغاية الإتقان والمَقْدِرة ، ومالك أمرها ومدبر شؤونها والمتصرف المطلق فيها ، هو وحده الربّ الحق والمستحق للعبادة .. كما في قوله تعالى : (إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{54}) الأعراف .. إلخ .

فلا يمكن عقلاً البحث في كيفيات أسماء الله تعالى وأفعاله ، أو النظر في كيفية تعلقها بذات الله سبحانه .. لأن ذلك بحث في ذات الله جلّ وعلا .. والله عزّ وجلّ (لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ{103}) الأنعام . و(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ{11}) الشورى .. فذات الله وكيفيات أفعاله ، سبحانه وتعالى ، من " الغيب المطلق " الذي لا سبيل لأحد من البشر العلم به عن طريق الحس . ويدخل فيه - كذلك - البحث في أن ذلك الفعل لله أو تلك الصفة ، على الحقيقية أو على المجاز ..لأن القول بأي منهما يقتضي قطعاً أن تكون الذات الموصوفة أو الفاعلة مُحسّة مُدركة ، ذلك أن القرائن المُثْبتة للحقيقة أو الصارفة للمجاز مردّها جميعاً إلى الحسّ ، أي إلى أمر يقع تحت الحسّ . فالبحث في ذات الله تعالى وأسمائه وأفعاله ، على الشكل السابق ، قول على الله بغير علم .. وهذا لا يجوز شرعاً ويَدخل في النهي الوارد في قوله تعالى : (وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً{36}) الإسراء . وعليه ، فالبحث والنظر في مثل هذه الأمور ، لا يكون إلا في دلالة الألفاظ والتراكيب الدالة على ذلك الفعل أو الوصف ، في سياقها لا غير ، وكما هي في معهود كلام العرب وفي معهود القرآن .

وعرش الرحمن ، من "الغيب المطلق" ، فلا يجوز القول فيه إلا بنص شرعي . ومُجمل ما يُفهم من الروايات : أنه اسم لعالَم عظيم يُحيط بجميع السماوات وما فيهن .. والعرش العظيم يدُلّ عِظَم مُلك الله جلّ وعلا ، وعلى عَظَمة الله المَلِك . والله جلّ وعلا ، لا يُقاس على غيره ، ولا يُقاس غيره عليه ، فهو(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ).. فهو - سبحانه - ليس كسائر الملوك بل هو مالك الملوك وما يملكون وما لا يملكون (مَالِكَ الْمُلْكِ) جلّ جلاله : (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{26}) آل عمران . هذا والله تعالى أعلم وأحكم . أنظر (تفسير الطبري) . و(تفسير القرطبي). و(التحرير والتنوير)- ابن عاشور . و (مفردات القرآن) - الفراهي. و(مفردات القرآن)- الراغب. و(معجم المقاييس) - ابن فارس . و(المعجم الإشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم) - محمد حسن حسن جبل . وللتفصيل في تحقيق المنهج الحق في النظر إلى أسماء الله جلّ ثناؤه ، والأمور التي من " الغيب " ، أنظر بحث (وعنده مفاتح الغيب) - مفاهيم ومصطلحات رسالية (الجزء السادس) .

1 - (يرى الزمخشري بأن حمل (فَعَّالٌ) على أنه خَبر لمبتدأ جديد محذوف أي "هو فعّال" ، فيه إضافة جديدة للمعنى ؛ يجعل من قوله سبحانه (فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ) تحقيق للصفتين البطش بالأعداء والغفر والوُدّ للأولياء ، وحمْله على أنه خبر للمبتدأ السابق (هو) في قوله تعالى (هُوَ الْغَفُورُ) يُفوّت هذه النكتة . وهو تدقيق لطيف). (تفسير الألوسي) بتصرّف.
نقول : إن وصفه تعالى (فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ) إلى كونه (ذُو العَرْش) تعني : كما أن الله هو المَلِك صاحب السلطان في تدبير ملكه ، فهو لا يُشرك في حكمه أحد ، وله وحده الأمر النافذ الذي لا يُرَد : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى{ 5}) طـه .

سيصيب كفرة قومهم ما أصاب أولئك الجنود . أي : قد بلغك أيها الرسول ، خبر الجموع (الجنود) الكافرة المكذبة لأنبيائها ، فرعون وثمود ، وما حلَّ بهم من العذاب والنكال .. فذكِّر قومكَ بشؤونِ الله تعالَى وشدة بطشه ، وأنذرهم ان يصبهم مثل ما أصاب أمثالهم .. فلا ملجأ لهم من الله إلا إليه .. وأن هنالك فرصة للنجاة من البطش الشديد ، ما تزال أمامهم ؛ وهي التوبة إلى ربهم الغفور الودود .. وهو جلّ جلاله ذو المُلك والسلطان ، ولا يمنعه شيء عمّا يريد ..

5- (19-22) ، هذا ، وبرغم البيان للحق والبشارة والنذارة .. ما يزال الذين كفروا من قريش ، لا يتّعظون ولا يأخذون العبرة .. بل هم في تكذيب متواصـــل بالقرآن والحق الذي جاء به .. كدأب مَنْ قبلهم يكذبون بآيات الله البيّنات ..

فإذا بقوا مصـــرّين على موقفهم ، ألا فليعلموا أن الله تعالى قد أحاط بهم علماً وقدرة ، ولا يخفى عليه منهم ومن أعمالهم شـــيء .. فلا نجاة لهم ولا فوت منْ بطش الله تعالَى .. كما لا يفوت المُحاط المحيط : ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾﴾ البروج .. إنما هي سنته الدائمة في الذين كذبوا وطغوا من قبل، مثل : فرعون وثمود ، أصحاب القوة والجنود ..

فهذا تهديد شـــديد ، وإنذار مؤكّد لمَن يفتن المؤمنين ويعذّبهم ، في كل زمان ومكان ، بأن مصـــيرهم الدمار والهلاك ، إن لم يتوبوا .. وإن لم يكن في الدنيا فهو في الآخرة حتماً .

هذا ، ولا يضير القرآن تكذيبهم بما فيه وبأنه من عند الله .. لأنه كتابٌ مجيد ؛ أي شريف كريم ، وســـيع المعاني عظيمها ، كثير الخير والعلم .. في لوح محفوظ ، لا يناله تبديل ولا تحريف .. وهو حق وأُنزِل بالحق .. وما أخبر به هو الحق ، وسوف يَرى المكذّبون به تأويله .

***

28- (سورة التين)

ربط السورة بخط السير :

تأتي السورة في الطور الثاني ؛ فترة الحوار والمجادلة ، وما بعده . ذلك أن أسلوب السورة فيه إجمال لتفصيل سبق بيانه في سور نزلت من قبل ، فالأصل هو البيان والتفصيل . وتأتي أفكارها في إطار الحث على طاعة الله واتباع رسوله ، من خلال التنويع في " خطاب النذارة " ، وتصريف الآيات .

مناط السورة :

﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ ﴾ التين ، حالة من لا يزال يُكذّب بالحق والجزاء .. وقد سبق أن بلغته الآيات البيّنات في هذا الأمر الواضح البيّن ؛ (سؤال استنكاري) .

المعالجة :

1- (1-3) ، التأكيد ، بالقَسَم بالتين الذي هو من أحسن الثمار ، صورة وطعما وفائدة .. وبالزيتون الذي يكفى الناس حوائج طعامهم وإضاءتهم .. وبهذا البلد الأمين ، وهو مكة المكرمة . وبطور سنين الذي كلّم الله سبحانه وتعالى ، عليه نبيّه موسى تكليما [1] .

2- (4-6) ، جواب القسم (المقسم عليه) ؛ على عظيم حكمة الله الإله الحق ، أحكم الحاكمين .. في خلق الإنسان في أبدع خِلقة وأحسن صورة ، ففضّله على سائر المخلوقات وكرّمه عليها .. كما فضّل بعض الأماكن على غيرها أو بعض الثمار على بعضها ، فالأمر إليه وحده تبارك وتعالى [2].

وهذا التكريم للإنسان لحكمة عظيمة وجليلة ؛ ألا وهي : أن يُحقق العبودية لله وحده ، مختاراً عن رضى وحب ، في جميع ما أعطاه الله إياه وفي جميع مناحي حياته .. فإذا حقق الإنسان – فرداً ومجتمعاً – ذلك فقد زكى وسمى وبقي مرتفعاً في المكانة التي خلقه الله تعالى ليكون فيها .. فكان متوافقاً مع

---

1 - اتفق المفسرون على أن المراد بطور سينين : الجبل الذي كلم الله سبحانه تعالى، عليه موسى- عليه السلام- وسينين، وسيناء، وسينا، اسم للبقعة التي فيها هذا الجبل . وأن المراد بالبلد الأمين : مكة المكرمة، وسمى بالأمين لأن من دخله كان آمنا، وقد حرمها- تعالى- على جميع خلقه، وحرم شجرها وحيوانها، كما في الحديث الصحيح ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال بعد فتحها: «إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهي حرام إلى أن تقوم الساعة، لم تحل لأحد قبلي، ولن تحل لأحد بعدي، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار، فلا يُعضد [يُقطع] شجرها، ولا يُنفّر صيدها، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد ... » . إلا أنهم اختلفوا في المراد بقوله تعالى : (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ)، وقد اختار الإمام القرطبي القول بأنهما : تينكم الذي تأكلون، وزيتونكم الذي تعصرون منه الزيت ، لأنه الحقيقة ، ولا يُعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا بدليل . وهو اختيار الإمام ابن جرير أيضاً حيث قال : والصواب من القول في ذلك عندنا، قول من قال : التين : هو التين الذي يؤكل. والزيتون : هو الزيتون الذي يُعصر منه الزيت، لأن ذلك هو المعروف عند العرب، ولا يُعرف جبل يُسمى تينا، ولا جبل يُقال له زيتون . إلا أن يقول قائل : المراد من الكلام ، القَسَم بمنابت التين ومنابت الزيتون ، فيكون ذلك مذهباً ، وإن لم يكن على صحة ذلك أنه كذلك ، دلالة في ظاهر التنزيل .

2 - أي ، وحق هذه الأشياء .. لقد خلقنا الإنسان في أعدل قامة ، وأجمل صورة ، وأحسن هيئة ، ومنحناه بعد ذلك ما لم نمنحه لغيره ، من بيان فصيح ، ومن عقل راجح ، ومن علم واسع ، ومن إرادة وقدرة على تحقيق ما يبتغيه في هذه الحياة ، بإذننا ومشيئتنا . والتقويم في الأصل : تصيير الشيء على الصورة التي ينبغي أن يكون عليها في التعديل والتركيب . تقول : قوّمت الشيء تقويماً، إذا جعلته على أحسن الوجوه التي ينبغي أن يكون عليها ، وذلك من منظور الغاية (الوظيفة) التي خُلق من أجلها .. وهذا الحُسْن يشمل الظاهر والباطن للإنسان . وهذا التقويم الحَسَن هو من مقومات أو مقتضيات كونه الخليفة في الأرض ، أي السيّد المتصرّف فيها .

الفطرة ؛ باقياً في أحسن تقويم .. فلا يضلّ ولا يشقى .. هذا في الحياة الدنيا . أما في الحياة الآخرة فله الأجر المستمر غير المنقطع عند الله تبارك وتعالى . أما إذا تكبّر الإنسان على طاعة أمر الله ؛ ربه وخالقه الحكيم ، وأنكر فضله ولم يشكره ، فلم يستعمل ما خصّه الله به من المزايا في طاعته ، سقط بالضرورة في عبادة آلهة أخرى (الطاغوت) – فالإنسان إما أن يكون عبداً لله أو عبداً لغير الله – عندها ، انتكس وذلّ فهو في أسفل سافلين ، في الدنيا والآخرة .. وذلك لعدم قيامه بموجب ما خلقه الله عليه . فقد خلقه الله ليكون هو السيّد على المخلوقات في الأرض ، وكلّها مسخرة له .. فليس فوقه أحد إلا الله جلّ وعلا ؛ خالقه ومالكه . فإذا قبل الإنسان أن يكون عبداً لغير الله – سبحانه – فقد انحطّ عن تلك المكانة السامقة التي خلقه الله تعالى لها .. وحينئذ ، فلا ينتظر إلا المعيشة الضنكى في الحياة الدنيا ، والعذاب المهين الأليم المقيم في الحياة الآخرة .. وهذه هي قضيّة الإنسان الكبرى والأولى ، فلا يجعل أية قضية أخرى تشغله عنها ، فمصيره – في الدنيا والآخرة – منوط بموقفه منها .

3– (7–8) ، ثم الإلتفات في الخطاب إلى مَن لا يزال مصرّاً على التكذيب بالدّين والجزاء ، والإنكار عليه .. فالله عزّ وجلّ هو أحكم الحاكمين ، فهو لم يخلق الإنسان بهذا المستوى الراقي الرفيع من الخلق والتكريم عبثاً ولم يتركه هكذا هملاً .. بل خلقه لحكمة عظيمة جليلة ؛ من أجل أن يحقق العبودية لله تبارك وتعالى ، باختياره ورضاه .. فخلْقُ الإنسان من نطفة من ماء مهين ، وجعْلهُ في أجمل شكل وأبدع صورة .. لَمِن أوضح الدلائل على قدرة الله عزّ وجلّ وحكمته ، وعلى الجديّة والقصد في خلقه الإنسان ، فهو مخلوق بالحق .. فيجب أن يكون هنالك عودة إلى الله للحساب والجزاء [1] ..

***

---

1 - كما في قوله تعالى : (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ{115} فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ{116} وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ{117} وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ{118}) المؤمنون .. وآيات سورة القيامة (36- 40) .. الخ . فالعظمة في الخلق .. والتعقيد الشديد في الخلق .. يدلان يقيناً على الجديّة والقصد والحكمة .. مثلما تلمس الجديّة والقصد حينما تُقارن بين المركبة (السيارة) الحقيقية الفارهة والمصنّعة من المواد غالية الثمن وذات التصميم الجذاب والمُعقّد .. وبين المركبة اللّعبة ، التي يلعب بها الأطفال ، والمصنوعة من مواد رخيصة وليس فيها من المركبة الحقيقية إلا شكلها .. تدرك يقينا أن صانع السيارة الحقيقية لم يكن ليقصد أن يلهو ويلعب حين صنعها . أو حينما تقارن بين البيت الحقيقي المُعد للسكن من حيث الحجم وجودة التصميم ومتانة المواد ، ومن حيث التكلفة المالية والجهد المبذول .. وبين البيت من الرمل الذي يبنيه الأطفال للّهو به على رمال شواطيء البحار .. فالجديّة والقصد والحكمة تلمسها وتدركها يقيناً عندما ترى العظمة والتعقيد الشديد في الخلق .. وعندما ترى المركبة الفضائية وهي صاعدة تخترق الفضاء ، أو تدور في فلكها حول الأرض ، أو تهبط على سطح القمر .. تدرك يقيناً أن ذلك ليس عبثاً ، وأن صانعها لم يكن ليقصد بذلك اللّهو واللّعب .. فهذه العظمة وهذا التعقيد الشديد ، يدلان قطعاً على الجديّة والقصد ، والحكمة الغاية . فكيف بك في خلق هذا الكون الشاسع وما فيه من المجرات العظيمة والكواكب والنجوم الرائعة التي لا تُعد ولا تُحصى!!.. والأرض وما فيها من حياة متنوعة وجميلة ، وتوازن بيئي غاية في الدقة !!.. وخَلْق الإنسان وما أدراك ما خَلْق الإنسان !!.. ألا يدل ذلك كله على الجديّة والقصد ، والحكمة الغاية !!.. ولله المثل الأعلى ، وتبارك الله أحسن الخالقين ، وأحسن القائلين : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ{190} الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ{191} ..) آل عمران . وقوله جلّ وعلا : (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ{38} مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ{39} إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ{40}..) الدخان . وصدق الله العظيم

29- (سورة قريش)

ربط السورة بخط السير :

السورة مرتبطة بالطور الثالث وما بعده ، وذلك :

1- ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١﴾ قريش ، إن هذه اللام للتعجب . فمعنى الكلام : اعجبوا أيها الناس لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف ، وتركهم – رغم ذلك – عبادة ربّ هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف [1] . وأسلوب التعجّب في السورة ، يُشعر بأنها أتت بعد البيان والتذكير الصريح ، وأن قريشاً ما تزال لم تستجب لرسول الله رغم ذلك البيان ..

و يؤيد هذا ما أورده ابن كثير في تفسيره ، من قول النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم في خطابه لقريش ، بما فيه من قوة :

✓ ({ لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف } . ويحكم يا معشر قريش ، اعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمكم من جوع وآمنكم من خوف ") [2] .

✓ (" ويل أمكم ، قريش ، { لإيلاف قريش } ") [3] .

2- السور التي ورد فيها تذكير مجموع قريش – أي " القرية " – بما في بيت الله الحرام من نعمة عليهم وبركة ، والإنكار عليهم لعدم عبادة الله وشكره ، وإنذارهم بعذابه .. من السور المرتبطة بالطورين الثالث أو الرابع :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ۝١١٢ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ۝١١٣ ﴾ النحل

﴿ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩١ ﴾ النمل

﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ ۝٦٧ ﴾ العنكبوت

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٥٧ ﴾ القصص

---

1 - يقول الإمام الطبري : ((والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال : إن هذه اللام بمعنى التعجب. وأن معنى الكلام : اعجبوا لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف ، وتركهم عبادة ربّ هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف .. والعرب إذا جاءت بهذه اللام فأدخلوها في الكلام للتعجب ، اكتفوا بها دليلاً على التعجب من إظهار الفعل الذي يجلبها)).

2 - رواه ابن أبي حاتم . والإمام أحمد في المسند (460/6) .

3 - رواه ابن أبي حاتم . والطبراني في المعجم الكبير (177،178/24) .

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ إبراهيم

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾... فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾ الفيل

مما يعني أن خطاب الله تعالى قريش بوصفهم " قرية " (المجتمع) ، كان بعد أن وحّدوا موقفهم وأجمعو أمرهم على محاربة الله ورسوله ، وقد بدا ذلك واضحاً ، بعد إجماعهم على حصار رسول الله ومن آمن معه أو ناصره في شعب بني هاشم .. ومن ثم استمر وازداد بعد ذلك .

3- وعند النظر في سياق الآيات السابقة في سورها التي وردت فيها ، يتأكّد هذا التوجيه :

✓ سورة النحل آية (112-113) :

جمهور المفسرين على أن هذا المثل مضروب في مكة وكفارها : فمكة بلدة قد أنعم الله عليها بالأمن والطمأنينة ، وبسّر لها أسباب الرزق يأتيها من كلّ مكان بسهولة وسعة. ولمّا جاءهم رسول الله يدعوهم إلى عبادة الله وشكره ، لم يرع أهلها حقّ الله تبارك وتعالى ولم يشكروا نعمه وأفضاله ، ووقفوا منه موقف المكذّب الباغي . ولما أصرّوا على موقفهم أخذهم الله بـ " العذاب الأدنى" – مجاعة أدت إلى خوفهم واضطرابهم (الدخان) – بكفرهم وبغيهم ، وبدّل أمنهم بالخوف ، وسِعة رزقهم بالتقتير والجوع ، وجعلهم مثلاً يُتمثّل به وعبرة للمعتبرين . وهو ما تُذكّر به هذه الآيات وتُشير إليه في تعليل ما أصابهم بموقفهم الباغي الظالم . فتكون صلة هذه الآيات بسابقاتها – في سورة النحل – واضحة ، حيث احتوت سابقاتها حملة على الكفار ، وزعمائهم بخاصة ، لمواقفهم المناوئة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتكذيبهم له وتشويشهم عليه وإكراه من استطاعوا على الارتداد عن الإسلام، فجاءت الآيات تُعلمهم بأن ما هم فيه من بلاء – قحط ومجاعة – بعض جزائهم العاجل من الله، وتجعل أهل مكة في ذلك مضرب المثل والعبرة [(1)].

✓ سورة العنكبوت آية (67) :

في الآية سؤال استنكاري في معرض التنديد ، موجّه إلى الكفار عمّا إذا كانوا لا يَرون أن من نعمة الله عليهم أن جعل لهم حَرماً آمنا يتمتعون فيه بالأمن والسلامة ، بينما الناس الذين حولهم والذين يقطنون خارجه معرضون للمهالك والأخطار.. فهل يُعقل أن يكفروا بنعمة الله ويشركوا معه غيره ، ويؤمنوا بما هو باطل وضلال ؟!! . والآية متصلة بسابقاتها – في سورة العنكبوت – واستمرار على موقف الحِجاج أو بسببه . وروحها يلهم أن مشركي قريش الذين يقوم الجدل بينهم وبين رسول الله ، يعترفون أنهم في حرم الله وأن أمنه المحترم من الناس جميعا هو متصل بدين إبراهيم عليه السلام وملّته ، ومن جعل الله له مثابة للناس .. ومن هنا استحكم التنديد بهم [(2)] .

1 - أنظر (التحرير والتنوير) - ابن عاشور . و(التفسير الحديث) - محمد دروزة .

2 - أنظر المرجعين السابقين . وحتى لا نُطيل على القارئ الكريم ، نُحيله - إلى (تفسير ابن كثير) ، أو غيره من كتب التفسير ، في تفسير سائر الآيات الأخرى التي أشرنا إليها .

4- وكذلك خاطب أنبياءُ الله ورسلُه أقوامَهم بتذكيرهم بنعم الله عليهم كـ " أمّة " أو " قرية " ، فهو سنة جارية ، كما في سورة الأعراف الآيات (69، 74، 86) .. وهي من السور المرتبطة بأواخر المرحلة الأولى .

5- وعليه فسورة قريش متعلقة بالأجواء نفسها التي تكلّمت عنها السور الأخرى التي ذكرناها سابقاً. إلا أنها تميزت عن تلك السور بأن جعلها الله تعالى مقتصرة على ذكر تلكما النّعمتين العظيمتين على قريش اللتين خصهم الله بهما في جزيرة العرب : الأمن من الخوف والإطعام من الجوع ، مذكّراً لهم بهما ، متعجباً منهم أو منكراً عليهم استمرارهم على كفرهم .

مناط السورة :

﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾قريش ،

بيان حيثيات دعوة المجتمع (القرية) إلى عبادة الله تعالى وحده ، وتحقيق " المجتمع " عبوديته لله تعالى وحده (إخلاص الدين لله) بوصـــــفه مجتمعاً .. أي ، تحقيق العبوديّة المجتمعيّة أو عبوديّة المجتمع .. والتي تقوم على ركنين :

الأول : المرجعية الوحيدة لقيادة المجتمع في تنظيم العلاقات المجتمعية ، هي دين الله وشريعته فقط .

الثاني : لا يُطبّق على الفرد من المجتمع إلا أوامر الله تعالى وحده وأحكامه وحده ، في جميع مجالات حياته ، وفي علاقاته وتعاملاته كلها ؛ الفكرية والإجتماعية والإقتصادية والسياسية [1] .

فلا طاعة في المجتمع إلا لله وحده ، وبذلك – فقط – يكون المجتمع مســـلماً لله .. ويكون " مجتمعاً إسلامياً " ، ويخرج عن كونه " مجتمعاً جاهلياً " .

البيان :

الطلب المباشر إلى المجتمع (القرية) – قريش مثالاً – عبادة الله تعالى فهو وحده الإله الحق المستحق للعبادة .. يعني في سياق خطاب النذارة .. من خلال التذكير بأبرز وأكبر نِعَم الله تبارك وتعالى عليهم، فما هم فيه – كمجتمع – من نعمة الأمن من عموم الخوف ، ونعمة الإطعام من عموم الجوع .. إنما هو

1 - المجتمع هو : " منظومة مكونة من الناس ، والأفكار ، والمشاعر ، والقوانين ، التي تتفاعل فيما بينها، وتوجهها القيادة المجتمعية في ضوء وجهة النظر في الحياة ، نحو غاية كلية تحددها وجهة النظر ". هذا ، والعامل الذي يُضفي على المجتمع المعيّن صبغته وصفته هو : القوانين والتشريعات التي تضبط حركة المجتمع وعلاقاته ، فإن كانت من الدّين الإسلامي ومنبثقة عن العقيدة الإسلامية ، كان المجتمع إسلامياً . وإن كانت من المصدر الآخر - الجاهلية - كان المجتمع جاهلياً ، ويأخذ صبغته واسمه من ذلك المصدر ، كالديمقراطية أو الرأسمالية أو الليبيرالية.. إلخ ، من عقائد وشرائع الجاهلية المختلفة . أنظر "النظرية الإسلامية في فلسفة الدراسات الإجتماعية والتربوية " د عبد القادر هاشم رمزي . وللتفصيل أنظر " مفاهيم ومصطلحات رسالية " (الجزء السادس) – (الأمة والمجتع والدولة) .
ملاحظة : في الآيات القرآنية التي وردت فيها لفظة " الجاهلية " نرى أن الله تعالى جعلها في مقابل "الحق " و "دين الله" .. (({أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ؟!! وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} المائدة. أي : أفيطلبون بتوليهم وإعراضهم عنك حكم الجاهلية ، وهو كل حكم خالف ما أنزل الله على رسوله . فلا ثَمّ إلا حكم الله ورسوله أو حكم الجاهلية . فمن أعرض عن الأول ابتُلي بالثاني المبني على الجهل والظلم والغي ، ولهذا أضافه الله للجاهلية ، وأما حكم الله تعالى فمبني على العلم ، والعدل والقسط ، والنور والهدى)) . تفسير السعدي . فالإنسان أثناء سيره في حياته ، إما أن يكون عبداً لله أو عبداً لغير الله . وفي الصحيحين عن رسول الله : (مَنْ أحدثَ في أمْرِنَا هذا ما ليسَ منه فهو رَدٌّ) .

من الله وحده فهو ربهم الحق .. فليخلصوا له العبادة والطاعة لأمره وحده لا شريك له ، في علاقاتهم المجتمعية كلها ، ويخلعوا ويكفروا بما دونه من الأنداد .. وغير ذلك سيواجهون مصيرهم السيّئ في الدنيا قبل الآخرة ..

وفي حالة قريش ، فالله هو ربّ البيت الذي هو أصل نِعَمهم ، فما هم فيه من غنى وعزّ وأمان فمن بركة بيت الله الحرام ، فقد جعله الله – تعالى – مثابة للناس وحماه وجعله آمناً تُجبى إليه ثمرات كل شيء ..

وتقدير الكلام : لماذا أهْلُ مكة لا يخلصون العبادة والطاعة لله تعالى ؟! وهو– سبحانه– الذي هيأ لهم رحلتي الشتاء والصيف إلى اليمن والشام ، وفيهما ما فيهما من النفع والأمن [1] . ولم يتخلّف ذلك عنهم إلا حين دعا عليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بدعوته : « اللهم أعنّي عليهم بسنين كسنين يوسف » فأصابتهم مجاعة وقحط شديدين [2] ، وهو " العذاب الأدنى " (الدخان) .

هذا ، وتنكير كلمتي « جوع » و « خوف » يدل على التعظيم ، أى : أطعَمَهم بدلاً من جوع شديدٍ ، وآمنهم بدلاً من خوف عظيمٍ ، كانوا معرضين لهما ، إشارة إلى تلك الحال التي عرفوها ، من الجوع الشديد عندما أصابهم الجفاف والقحط الذي أكلُوا فيه الجيف والعظام .. ومن الخوف العظيم ، الذي أصابهم من توقّعهم الهلاك والموت بسبب تلك المجاعة ..

ولا مانع من أن يشمل أيضاً خوفهم من أصحاب الفيلِ وقد ردّ الله جلّ وعزّ كيدهم إلى نحورهم ، بقرينة ما ذكرناه في " تبيان سورة الفيل " أنها من السور المتعلقة بالطور الثالث ، وهو نفس الطور الذي ترتبط به سورة قريش . وذكرنا أيضاً ، أن في إيراد القصّة ، تذكير لقريش بنعمة الله تبارك وتعالى عليهم في حماية هذا البيت وصيانته ، بِأَنَّ فَاعِلَ ذَلِكَ هُوَ الله رَبُّ الْبَيْتِ .. في الوقت الذي عجزوا هم وْأَصْنَامهم الَّتِي نَصَبُوهَا حَوْلَهُ ، لعلهم بتذكيرهم بإنعام الله عليهم ، يستحون من جحود نِعمة الله الذي تقدمت يده عليهم في ضعفهم وعجزهم ، فيبادروا إلى أن يعبدوا الله ويشكروه على نعمائه .. فأجواء سورتي الفيل وقريش متقاربة.

وقريبة كذلك من خطاب الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة – التي أوردناها في أول تبيان السورة – التي يذكّر الله تعالى فيها قريشاً بعظيم نعمة بيت الله الحرام عليهم ، وينذرهم عاقبة كفرهم ..

هذا ، والتذكير بنعم الله ، من حُجّة الله تعالى على خلقه (الحجة الرسالية) ، فما يَنعُمون به – أفراداً ومجتمعاً (القرية) – من نِعَم وآلاء إنما هي من الله الخالق الرازق ، الربّ الحق ، فليعبدوه وحده بتنفيذ أحكامه في جميع نعمه عليهم في جميع شؤون حياتهم ومعاشهم .. ولينبذوا كل ما سواه من الآلهة المدعاة (الطاغوت) التي تُعبد وتُطاع من دون الله جلّ جلاله ، ولم تَخْلق ولم تَرْزق !! .. فلا طاعة إلا لله الربّ الخالق الرّازق .. أو من أمر الله بطاعته ، فيُطاع طاعة لله جلّ وعلا :

---

1 - وزيدت الفاء في قوله تعالى : (فليعبدوا) ، لما في الكلام من معنى الشرط ، فكأنه- سبحانه- يقول لهم : إن لَمْ تعبدونى من أجل نِعمي التي لا تُحصى ، فاعبدوني من أجل هذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة ، بأنى جعلتكم تألفون هاتين الرحلتين النافعتين في أمان واطمئنان .

2. أنظر التحرير والتنوير - ابن عاشور . و فصل (الطور الرابع) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣ ﴾ فاطر

***

30- (سورة القارعة)

ربط السورة بخط السير :

﴿ ٱلۡقَارِعَةُ ١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٣ ... ﴾ ، تأتي السورة في إطار عموم " خطاب النذارة ".. للناس ، والتعليم والتزكية للمؤمنين .. منذ البداية في الطور الأول ويستمر إلى ما بعده .. فالسورة مثال لطريقة القرآن في تنويع الخطاب و " تصريف الآيات " بالتذكير بيوم القيامة وبيان أهواله وما يدور فيه من خطورة المصير ..

البيان :

لفظ «القارعة» اسم فاعل من القرع ، وهو الضرب بشدة بحيث يحصل منه صوت شديد .

والمراد بها هنا : القيامة ، ومبدؤها النفخة الأولى ، ونهايتها : قضاء الله- تعالى- بين خلقه ، بحكمه العادل ، وجزائه لكل فريق بما يستحقه من جنة أو نار..

والاستفهام في قوله سبحانه :﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٣ ﴾ ، استفهام عن حقيقتها ، والمقصود به التهويل من أمرها ، والتفظيع من حالها ، وتنبيه النفوس إلى ما يكون فيها من شدائد تَفزع لها القلوبُ فزَعاً لا تُحيط العبارة بتصويره ، ولا تستطيع العقول أن تدرك كنهه ، يجعل الولدان الصغار شيباً .

وسُمّيت القيامة بذلك ، كما سميت بالطّامة ، والصاخّة ، والحاقّة ، والغاشية ، والساعة .. وسُمّي يوم القيامة ، بيوم البعث ، واليوم الآخر ، واليوم الحق ، ويوم الدين ، ويوم الفصل .. وذلك من باب " التعييش " ليوم القيامة ، وكأن المخاطَب يراه رأي العين ، حتى يسارع الذين لا يؤمنون بالله إلى الاستجابة لدعوة الله وعبادته سبحانه وتعالى وحده ، والكفر بما دونه من الأنداد .. وحتى يزداد الذين آمنوا إيماناً ، وثباتاً على الحق .. فالله عزّ وجلّ هو وحده الذي يملك حياة الإنسان ومصير الإنسان .. ومن ثمّ ، فلا يحسبنّ أحد لمصيره حساباً عند غير الله عزّ وجلّ .. وأن مصيره عند الله سيكون على أساس موقفه من رسالة الله ورسوله ودعوته .. فليستعد ويهيّء نفسه للقاء الله جلّ في علاه .

والمتأمل في آيات هذه السورة الكريمة ، يراها قد اشتملت على أقوى الأساليب وأبلغها في التحذير من أهوال يوم القيامة ، وفي الحض على الاستعداد له بالإيمان والعمل الصالح .. لأنها قد ابتدأت بلفظ القارعة ، المؤذن بأمر عظيم ، ثم ثنت بالاستفهام المستعمل في التهويل ، ثم أعادت اللفظ بذاته بدون إضمار له زيادة في تعظيم أمره ، ثم جعلت الخطاب لكل من يصلح له ، ثم شبهت الناس فيه تشبيها تقشعر منه

الجلود [1] . ثم أشارت إلى تبدّل نظام الكون ، بذكر حال الجبال– وهي المعروفة بصلابتها ورسوخها– بأنها ستكون في هذا اليوم كالصوف المندوف المتخلخل المتناثر الذي يسهل تطايره . ثم انتقلت السورة إلى ذكر موقف الحساب والجزاء ، فبيّنت أحوال السعداء والأشقياء في هذا اليوم : فالسعيد هو الذي **ثقلت** موازين حسناته ورجحت أعماله الصالحة على غيرها ، فهو في عيشة مَرْضيّة هنيّة كَريمة . والشقيّ هو الذي **خفت** موازين حسناته ، وثقلت موازين سيئاته لكثْرتها وعِظَمها ، فمرجعه ومأواه الذي يأوى إليه ، نار سحيقة يهوى إليها بدون رحمة أو شفقة ، بسبب كفره وعصيانه [2] .. وما أدراك ما تلك النار السحيقة ،

---

1 - {كالفراش المبثوث} ،الفراش ؛ جمع فراشة التي تطير وتتهافت على النار ، وقال الفراءُ : وهو غوغاءُ الجراد ، سُمي فراشًا لتفرشه وانتشاره . المبثوث ؛ أصل البثّ التفريق وإثارة الشيء . كبثّ الريح التراب . وسبب انتثار الناس وانتشارهم في كل اتجاه هو فزعهم ورعبهم الشديد من هول القارعة التي تقرعهم وتصكهم وتصخّ آذانهم . ومن رحمة الله تعالى بالمؤمنين - والحمد لله - أنهم آمنون يوم القيامة كما قال الله تعالى : (لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ) [الأنبياء : 103] . وكما ثبت في الحديث الشريف ، أن الساعة لا تقوم إلا على شرار الناس .

2 - ورد تعبير الموازين وثقلها وخفتها في الآخرة ، في سور أخرى منها : آيات سورة الأعراف هذه : (وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (8) وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ (9)). وآية سورة الأنبياء هذه : (وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَكَفى بِنا حاسِبِينَ (47)). وآيات سورة المؤمنون هذه : (فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ (101) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (102) وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ (103)). كما روي في صددها أحاديث عديدة. ومنها : حديث رواه الشيخان عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة ، وقال اقرؤوا : {فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا} [الكهف105] » . وحديث رواه الإمام أحمد جاء فيه : «إنّ ابن مسعود كان يجني سواكا من أراك وكان دقيق الساقين فجعلت الريح تكفؤه فضحك القوم منه فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ممّ تضحكون؟ . قالوا يا نبيّ الله من دقة ساقيه. فقال : والذي نفسي بيده إنّهما أثقل في الميزان من أحد » .

وقد اختلف أهل التأويل في حقيقة " الميزان " وكيفية " وزن الأعمال " . فبعضهم قال : إنه يُنصَب موازين بكفتين فتوضع الأعمال الحسنة في كفة والسيئة في كفة ، أو إن الذي يوضع في الكفتين كتب الأعمال . ومنهم من قال : إن الأعمال ذاتها تتجسد . وبعضهم قال بالجمع بين هذه الآثار وبأن يكون ذلك كله صحيحا، فتارة توزن الأعمال، وتارة توزن محالها، وتارة يوزن فاعلها ، أنظر تفسير ابن كثير(سورة الأعراف ، آية 8،9) . وهناك من قال إن الميزان في الجملة القرآنية تمثيلي - من باب المجاز - ويعني القضاء السوي والحكم العادل ، وأن استعمال الميزان بهذا المعنى شائع في اللغة .. الخ .

نقول : إن المعنى الأصل المُراد من الإخبار بـ " وزن الأعمال " ، كما دلت على ذلك النصوص السابقة وغيرها ، هو : إعلام الناس أنهم محاسبون على أعمالهم مهما كانت صغيرة أو كبيرة . وأنه سوف يُقايَس ويوازَن بين الحسنات والسيئات منها ، ولا ينجو إلّا من كانت حسناته غالبة على سيئاته . وأنه لا ظلم يوم القيامة ولو مثقال ذرة . فهذا هو المعنى الحق واليقين الذي يجب الإيمان به : {إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً (40)} النساء ، {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8)} الزلزلة . وليس لنا أن نبحث فيما وراء ذلك من أوصافٍ للميزان أو كيفية وزن الأعمال .. ما لم يثبت بالوحي ، قرآناً أو سنة . ذلك أن حقيقة "الميزان" و كيفية "وزن الأعمال" من "الغيب المطلق" الذي لا سبيل لأحد من البشر العلم به بدون نص أو خبر صحيح ، وعليه : فإن محاولة قياس ما هو من "الغيب المطلق" على المُشَاهَد بدون دليل ، بل لمجرّد التشابه بالاسم ، فهذا من الرَّجم بالغيب ، والتكلّم والقَفو لما ليس لنا به علم .. وكل ذلك منهيّ عنه . وكذلك القول بالحقيقة أو بالمجاز في طبيعة "الميزان " وكيفية "وزن الأعمال" فإنه لا يجوز ، لأن القول به يقتضي - بالقطع - أن تكون ذات الميزان مما يقع تحت الحس ، ذلك أن القرائن المُثبِتة للحقيقة أو الصارفة للمجاز مردّها جميعها إلى الحسّ ، أي إلى أمر يقع تحت الحسّ .. وهذا غير وارد هنا. لذلك اقتضت حكمة التنزيل - كما في آيات لا تكاد تحصى كثرة - أن تكون أوصاف الأمور التي من "الغيب المطلق" ، مثل مشاهد الآخرة من وزن الأعمال ونعيم وعذاب وحساب .. مُستمَدة من مألوفات الناس في الحياة الدنيا ومتساوقة معها، فالله تعالى يُخاطب الناس بلسانهم ، ويُخاطبهم على قدر ما يُطيقون فهمه ، حتى يعقلوا عن الله مراده منهم لأنه سيُحاسبهم بناء عليه . ولذلك عندما يُرسل الله رسولاً فإنه يرسله بلسان قومه .. أي بمعهودهم من الخطاب .. ومن ذلك أن الناس في الحياة الدنيا قد اعتادوا على وزن الأشياء لمعرفة مقاديرها وقيمها واستيفاء حقوقهم فيها حسب نتيجة الوزن واعتبار ذلك هو مقتضى العدل : {وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (9)}الرحمن . واعتبار الشذوذ عنه ظلماً وغبناً =>

وأي شيءٍ تكون ؟! ولا أحد سيُخبرك بكنه تلك النار .. سوى الله – سبحانه وتعالى – وحده الذي يُخبرك بذلك ، خالقها وربّها .. فيقول لك : إنها نار حارّة شديدة الحرارة ، قوية اللَّهب والسَّعير ، قد بلغت النهاية في شدة حرارتها . وللتقريب ، حتى تستطيع أن تتخيّل شدتها ، فقد زادت حرارتها على حرارة نار الدنيا سبعين ضعفًا ..!! ، فاحذر من العمل الذي يؤدى إليها [1]..

اللهم أجرنا من النار .. ونعوذ بك من كل عملٍ يُقرّبنا إليها .

***

وإجحافاً (التطفيف) : {وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ{1} الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ{2} وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ{3} أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ{4} لِيَوْمٍ عَظِيمٍ{5}يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ{6}} المطففين . للتفصيل أنظر أيضاً الآيات التي ورد فيها ألفاظ : موازين ، ميزان ، وزن .

ومن هنا ، فإنه في مثل هذه الأمور الغيبـيّة يكون النظر فقط ، في معاني الألفاظ الدالّة عليها في سياقها ، لا غير ، كما هي في معهود كلام العرب وكما هي في معهود القرآن الكريم ، دون الدخول - مطلقاً - في النظر إلى حقيقتها أو صفاتها أو تصوّر كيفيتها - لا حقيقة ولا مجازاً - ما لم يكن هنالك خبر من الوحي صحيح . وعليه فنحن نؤمن بوزن الأعمال وأنه من آثار عدل الله المطلق ، أما أداة الوزن (الميزان) ، وكيفية وزن الأعمال .. فهذا من " الغيب المطلق " الذي لا سبيل لأحد العلم به إلا بالخبر الصحيح ، فلا يجوز الخوض فيه بغير علم .

ومن جهة أخرى ، فإن البحث في الكيفيات والقول بالحقيقة أو بالمجاز .. لا يقدّم جديداً في المسألة ، بل على العكس قد يصرف اهتمام المُخَاطَب عن الحكمة المرادة من أن يخبرنا الله تعالى بوزن الأعمال ، وهي : الحث والتشجيع على العمل الصالح والإزدياد من الحسنات ، والعلم بأن ميزان الله تبارك وتعالى هو التقييم الحق وأنه العدل المطلق ، وأن مصير الإنسان متوقف على أن تكون أعماله مُتقبّلة عند الله تعالى ، وحسناته راجحة على سيئاته ، كما دلت النصوص السابقة وغيرها .. وأيضاً قد يصرف اهتمام المُخَاطَب عن معرفة الشروط الواجب توفرها في الأعمال حتى يكون لها وزن وقيمة عند الله تبارك وتعالى ، وأيها أكثر وزناً وأعلى قيمة عند الله جلّ وعلا .. حتى لا يأتي الإنسان يوم القيامة فإذا بأعماله لا وزن لها عند الله ؛ هباءً منثوراً . نعوذ بالله الرحمن الرحيم من ذلك . هذا والله تعالى أعلم وأحكم .

للتفصيل في تحقيق مفهوم " الغيب " ، وبيان المنهج الحق في النظر إلى قضاياه وأموره ، أنظر بحث : (مفاهيم ومصطلحات رسالية) - وعنده مفاتح الغيب .

1 - ((عن أَبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " نَارُ بَنِي آدَمَ الَّتِي تُوقِدُونَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ ". قالوا : يا رسول الله إن كانت لكافية ، فقال : " إِنَّها فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا ")) رواه البخاري ، وروى مثله مسلم مع المخالفة في بعض الالفاظ . أنظر (تفسير ابن كثير) .

31- (سورة القيامة)

ربط السورة بخط السير :

تأتي السورة في نهاية الطور الثالث وما بعده ، وذلك :

1- ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ﴾ القيامة ، " التولّي" هنا يعني أن تكذيب الملأ بالحق موقف نهائي لهم [1] .. أو على الأقل عندهم إصرار واضح على الكفر والتكذيب .

2- ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ القيامة ،

الظاهر أن استعجال رسول الله في تحفّظ وقراءة ما يُلقى إليه من القرآن خشية تفلته منه ونسيانه ، كان في فترة معينة من سيره بالرسالة ، وليس حالة عامة . ونحن نرجّح أنها في فترة اشتداد المواجهة وتأزّم العلاقات مع المجتمع الجاهلي (قريش) ، حيث زاد الضغط النفسي على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، بسبب شفقته بقومه وخوفه من إنزال العذاب عليهم ، بعد إصرارهم على البقاء على كفرهم . وقد بدأ يظهر هذا واضحاً في المنتصف الثاني من الطور الثالث .. يعني في أجواء الحصار والمقاطعة ، الأمر الذي استدعى أن تُنزَّل الآيات والسور من القرآن بكثافة أعلى مما كانت عليه قبل ذلك ، لمعالجة ما يواجهه رسول الله والمؤمنون من أحوال صعبة وعسيرة .. تثبيتاً لهم وبصيرة .

ويؤيد هذا أن السور الأخرى – طه و الأعلى – التي ورد فيها طمأنة رسول الله على حفظه للقرآن ، متعلّقة في نفس الأجواء والأحوال . ونميل إلى أن آيات سورة الأعلى كانت أولها نزولاً نظراً لأنها جاءت بالبشرى والطمأنة فقط : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ الأعلى

وأن النهي جاء – فيما يبدو – بعد أن حدث فعل الإستعجال من رسول الله مرة أخرى :

﴿ ...وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ طه

هذا ، ونظراً لازدياد عدد الآيات والسور المنزّلة في أوقات متقاربة – بسبب تعسّر أحوال السير بالرسالة – علم رسول الله أنه سيحتاج إلى جهد أكبر في حفظ ما يتنزّل من القرآن وضبطه .. فازدادت خشيته صلّى الله عليه وآله وسلّم من تفلّت القرآن منه ، لذلك جاءت آيات سورة القيامة مؤكّدة له ومطمئنة بأن الله تعالى سيكفيه مشقة جمع القرآن الكريم في صدره الشريف ، أي أن يحفظه ويضبطه ، وسيكفيه مؤونة بيانه إذا أُشكل عليه شيء منه ، والحمد لله [2] .

---

1 - أنظر تبيان سورة العلق .

2 - أخرج البخاري ومسلم وأحمد والترمذي والنَّسائي عن ابن عبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - في قوله : (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ) قال: كان رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إذا نزل جبريل بالوحي، وكان مما يحرك به لسانه وشفتيه، فيشتد عليه ، وكان يُعرف منه ، فأنزل الله الآية التي في : (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) : (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ) فإن علينا أن نجمعه في صدرك (وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ) : فإذا أنزلناه فاستمع . (ثُمَّ إِنَّ => عَلَيْنَا

مناط السورة :

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ ﴾ القيامة ، إنكار الكفّار ليوم القيامة والبعث ، بحجة أنه – في مقياسهم – يستحيل جمع عظام الإنسان مرة أخرى وقد أصبحت رميماً وتراباً . هذا وقد تبنّى الملأ الذين كفروا من قريش هذا الأمر وأشاعوا به بين الناس للتلبيس عليهم لصرفهم عن الحق ، ولمحاربة دعوة رسول الله إلى عبادة الله وحده ، حفاظاً على مصالحهم وملذّاتهم ، من نفوذ وأموال وترف .

المعالجة :

تعتبر السورة واحدة من جولات القرآن الكريم الكثيرة لبيان الحق وإقامة الحجة على الكافرين في إنكارهم يوم القيامة ، وخاصة الملأ منهم الذين تولّوا كِبَر الإنكار والتكذيب (1) .

وهي متميزة بأسلوبها في استعمال وسائل البيان والتأثير المختلفة ، مثل القَسَم كأسلوب توكيد ، والسؤال الإنكاري ، وإقامة الدليل الحسي اليقيني بتلميس آثار قدرة الله تعالى ، والزجر والتوبيخ بـ (كلّا).. الخ (2).

هذا ، والخط العام في معالجة السورة لمناطها ، أن السورة تتكلّم عن ذلك المُنكِر الذي يُجاهِر بالإنكار – ويكون عادة من المترفين في المجتمع أو من الملأ – لبيان الحق وإقامة الحجة عليه . وفي سياق تهديده بعذاب الله ، يأتي الكلام على شكل خطاب مباشر له ، تقبيحا له وتهجينا . وبيانه فيما يلي :

- ✓ الآيات (1–25) ، لها سياق واحد هو : كشف الدوافع الحقيقة للمكذّب في إصراره على إنكار يوم القيامة ، من أنها رغبتة الشديدة في الولوغ في الملذّات المحرمة (الفجور) وليس نقص الدليل أو عدم صحته .. وذلك في عدة جولات ، وكانت البداية بالقَسَم بقصد تقرير وتوكيد حصول البعث ، ثم بالجُمَل التي تلت حرف (بل) الذي يُفيد الإضراب الانتقالي من أسلوب لآخر، أو من حجة لأخرى . مع استعراض صور مختلفة من أهوال يوم القيامة ، بشكل مجمل وإيقاع سريع .

بَيَانَهُ) قال: إن علينا أن نُبَيِّنَه. قال: وكان إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله . (المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة دراسة الأسباب رواية ودراية) - خالد بن سليمان المزيني . أنظر (تبيان سورة الأعلى) .

1 - وتصلح كذلك - هذه السورة ومثيلاتها - لمعالجة نفس المؤمن الذي يعصي الله عزّ وجل (النفس اللوامة) ، فالمؤمن لحظة وقوعه في المعصية يكون قد نسي إيمانه بالله وباليوم الآخر وغفل عن مقام ربه ، فهو عند اقترافه للمعصية يكون غير مؤمن ، ليس بمعنى الكفر طبعاً ، بل يكون إيمانه ناقصاً ، كما ثبت في حديث رسول الله : (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ..) أنظر (الموسوعة الحديثية) - موقع الدرر السنيّة . وصح في أحاديث أخرى : (إذا زنى العبد خرج منه الإيمان ، فكان فوق رأسه كالظلّة ، فإذا خرج من ذلك العمل ؛ رجع إليه الإيمان). أنظر (الموسوعة الحديثية) - موقع الدرر السنيّة . فمثل هذه السور عندما يتلوها المؤمن تهز كيانه وتذكّره بمقام ربه جلّ وعز وبالخشية من عذابه ، وبوجوب الرجوع إليه .. فيتذكّر وتزول الغشاوة عن عينيه - غشاوة تزيين نفسه وشيطانه للمعصية - فيبصر الحق ، فيعود باكياً تائباً لربه ومولاه .. (وخير الخطّائين التوّابون) ، كما قال نبينا محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم . للتفصيل أنظر (تبيان سور الإخلاص، الفلق، الناس) .

2 - ((هذه السورة الصغيرة تحشد على القلب البشري من الحقائق والمؤثرات والصور والمشاهد، والإيقاعات واللمسات، ما لا قبل له بمواجهته ولا التفلت منه.. تحشدها بقوة، في أسلوب خاص، يجعل لها طابعا قرآنيا مميزا، سواء في أسلوب الأداء التعبيري، أو أسلوب الأداء الموسيقي، حيث يجتمع هذا وذاك على إيقاع تأثير شعوري قوي، تصعب مواجهته ويصعب التفلت منه أيضا! ... وهكذا تُعالج السورة عناد هذا القلب وإعراضه وإصراره ولهوه . وتشعره بالجد الصارم الحازم في هذا الشأن، شأن القيامة، وشأن النفس، وشأن الحياة المقدّرة بحساب دقيق . ثم شأن هذا القرآن الذي لا يُخرَم منه حرف ، لأنه من كلام العظيم الجليل ، الذي تتجاوب جنبات الوجود بكلماته ، وتثبت في سجل الكون الثابت ، وفي صلب هذا الكتاب الكريم)) (في ظلال القرآن) – سيد قطب .

✓ الآيات (26–35) ، تذكير المكذّب بلحظة احتضاره الموت ، والتي سيفارق بعدها مراداته ومحبوباته تلك وأنه لن يجد مهرباً من الفراق ، وأنه سيُحشَر إلى الله لمحاسبته على أعماله التي ليس فيها إلا التكذيب والإستهزاء بالحق .

✓ الآيات (36–40) ، إقامة الحجة عليه – مرة أخرى – بتذكيره بأن الله عزّ وجلّ هو الذي خلقه من نطفة وسَوّاه بشراً وجعل منه الزوجين الذكر والأنثى .. ليؤدّي الوظيفة التي خُلق لها . فهذا دليل على أن الله جلّ وعلا عندما خلَق الإنسان بهذا النظام الدقيق ، إنما خلقه لحكمة جليلة وليس عبثاً . ودليل على أن الذي خلقه أول مرة قادر على أن يحييه مرة أخرى بعد موته ، فأنّى له التكذيب .

وبشيء من التفصيل نقول :

1- (1–4) ، التأكيد بأسلوب القَسَم على حقيقة أن الله عزّ وجلّ قادر على بعث الناس مرة أخرى يوم القيامة ومحاسبتهم [1] .. ثم يأتي الاستفهام بقصد الإنكار والتوبيخ على إنكاره البعث .. فالله جلّ وعلا قادر تمام القدرة على جمع عظام الإنسان وإعادته يوم القيامة بشراً سويّا كاملا كما كان ، حتى أدق العظام وألطفها ، كما خلقه وسوّاه بأحسن تقويم أول مرة : ﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ ﴾ القيامة .. فالله عزّ وجلّ ، الذي خلق الكون والإنسان والحياة ، قادر على بعث الناس مرة أخرى .

2- (5–13) ، ثم كَشَف حقيقة المترفين المكذّبين ؛ عن طريق بيان سنّة من سنن الله في الإنسان الذي يكذّب بالحق البيّن ، وهي : أن حبّهم وإرادتهم الفجور واللهو في مستقبل أيامهم هو سبب تكذيبهم ، وليس عدم كفاية الأدلة والبينات . فأحدهم عند **إرادته** الفجور [2] – أي ارتكاب المعاصي وأن يرتع في الملذّات المحرمة من الزنا وشرب الخمور .. – في حياته وأيامه القادمة ، ورغبته الشديدة في ذلك وإعداده العدة له .. يجعله يستبعد كل ما يتعارض مع **رغبته** وإرادته في البقاء على الفجور ، وينغّص عليه ولوغه في ملذّاته المحرّمة : مثل تذكيره بالموت .. وأنّ هناك بعث ومحاسبة وعذاب .. فهو يُنكر الحق لأنه يحول دون اتباعه الشهوات .

---

1 - يُقسِم الله تعالى بيوم القيامة و(بالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ{2}) القيامة ، وهي التي تؤمن بيوم القيامة وتؤمن بأنه لا بد من حساب وجزاء ، فتُصبح لوّامة لصاحبها على تركه طاعة الله تعالى ، وتندم على فعل المحرمات .. يُقسِم الله تعالى بهما على صدق وقوع يوم القيامة ، وأنه حق (جواب القَسَم) . وفي مقابل النفس المؤمنة اللّوامة ، تأتي النفس الكافرة المستهترة التي تريد الفجور فتكذّب بيوم القيامة .. وليس ذلك فحسب ، بل ويذهب صاحبها إلى أهله متبختراً متباهياً بإصراره على كفره وفجوره : (.. ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى {33}) القيامة . والنفس المؤمنة اللّوامة تعتبر حجة على النفس المكذّبة الفاجرة ، وذلك بسبب إيمانها بالحق البيّن ، وحرصها على البعد عن الشهوات المحرمة ، مضحية برغباتها إحقاقاً للحق .. بينما النفس الأخرى ترفض الحق - رغم بيانه ووضوحه - بسبب رغبتها بالخنا والفجور ، وحبها للنزوات العاجلة . لذلك أقسم الله تعالى بالنفس اللّوامة على أن يوم القيامة حق . فهي شاهدت الحق وآمنت به وضحّت من أجله .

2 - ((فَجَرَ : أصل واحد هو انشقاق مع ظهور الشيء . ومن مصاديقه : انشقاق الظلمة وطلوع نور وضياء . وانشقاق في الجبل ونُبوع الماء . وانشقاق حالة الإعتدال وخروج أمر مخالف يوجب فسقاً وطغياناً . وانشقاق حالة الإمساك بظهور الكرم)) . أنظر (التحقيق في كلمات القرآن) - حسن المصطفوي . و(معجم المقاييس) - ابن فارس . نقول : فالفجور ليس مطلق معصية بل هو خروجها بعد هتك الستر عنها . وظهورها بعد أن كانت بالخفاء .

ثم ، إنذارهم من خلال تعريفهم ببعض أهوال يوم القيامة .. حيث يُدَهش البَصَر ويتحيّر ويُبهَت فلا يعد يُبصر [1] ، ويُخَسْف القمر ، ويُجْمَع الشمس والقمر معاً .. حتى يقول الواحد منهم مستنجداً – من شدة الفزع – أين المفرّ ؟! عندها يُدرك أن لا مفر من قهر الله وأخذه ، وأنّ المستقرّ عنده عزّ وجلّ ، ليواجه نتيجة ما قدّمه ، حاصداً ما زرع .

3- (14–15)، ثم التذكير ببدهيّة (مُسَلّمة) وهي : أن الإنسان – أي إنسان – هو أعلم بحقيقة نفسه ودوافعه ومشاعره ، وأنها – أي حقيقة نفسه – ستظهر على سلوكه وجوارحه مهما حاول إخفاءها . وذلك في سياق التأكيد – مرة أخرى – على أن الإنسان المُنكِر للقيامة والبعث يعلم حقيقة دوافعه ، والتي أثبتها الله سبحانه في الآيات السابقة ، وأنه مهما حاول تغطيتها وسترها عن الناس بما يعلنه من شبهات ، فهي ظاهرة في تصرفاته وأحواله (فجوره) .. يعني ، في مثل قول الشاعر زهير ابن أبي سلمى :

ومهما تكن عند امرئ من خَليقة وإن خالها تُخفى على الناس تُعلم [2]

4- (20–25)، ثم التأكيد مرة أخرى على حقيقة أنفسهم التي كشفها الله في الآيات السابقة ، فخاطبتهم الآيات قائلة لهم – توبيخاً وتقريعاً – : ليس الأمر كما تدّعون من عدم إمكان البعث والجزاء ، كلّا ارتدعوا عن هذه الأقوال ، فأنتم أيها المنكِرون للبعث لم تكذبوا الوحى إحقاقا للحق بل أنتم قوم تعكفون على الحياة العاجلة الفانية وما فيها من ملذّات وشهوات زائلة ، وتتخلَّون عن الحياة الآخرة الباقية وما فيها من نعيم مقيم .. وسلوك هذا المسلك ، يدل على قصر النظر، وضعف التفكير ، فكيف يُقبِل العاقل على اللّذة القليلة الفانية التي عاقبتها العذاب الأليم الدائم المقيم [3] .

ثم إنذارهم من خلال تعريفهم بأُمور أخرى من أمور يوم القيامة ، على أساس أن الجزاء من جنس العمل : حيث أن الناس في الآخرة فريقان : الأول ، هُم الذين كانت نفوسهم في الحياة الدنيا مشرقة بنور الإيمان بالله وباليوم الآخر ونور الأعمال الصالحة ، وكانت وجوههم يظهر عليها أثار شظف العيش وقساوة الحياة .. فهؤلاء ستصبح وجوههم يومئذ حسنة مضيئة مشرقة بالنعيم في الجنة ، جميلة

1- (بَرِقَ الْبَصَرُ) : بفتح الراءِ وكسرها : دُهش وتحيّر فزعًا من عظم ما يشاهده من أهوال يوم القيامة . فأهوال يوم القيامة تأخذ شدتُها بسمع الإنسان فتصخّه وتَقرعه ، فلا يعد يسمع .. وببصره فتبرقه وتبهته ، فلا يعد يرى .. وبكيانه كله ، فترى الناس (كالفراش المبثوث) و (ترى الناس سكارى وما هم بسكارى) ، (لكل امرء منهم يومئذ شأن يُغنيه) .. نسأل الله العفو والعافية ، ونسأله تبارك وتعالى الأمن من فزع يومئذ ومن كل فزع .

2 - أنظر (محاسن التأويل) - القاسمي . و(التحرير والتنوير) - ابن عاشور . و(فتح القدير) - الشوكاني . وقال السُّدِّي والضحاك : المعاذير الستور ، بلُغة أهل اليمن واحدها مِعْذار، وحكى ذلك عن الزجاج . فيكون قوله تعالى : (وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ) أي : ولو أرخي ستوره فلن يستطيع إخفاء حقيقة نفسه .. فحبّه للملذّات المحرمة واتباعه للشهوات واضحان للعيان ، يعني فجوره ظاهر عليه لا يمكنه إخفاؤه .. وأنه السبب الحقيقي لإنكاره ليوم القيامة .

3 - كما في قوله تعالى في سورة الأنعام : (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ{32}) . وقد ورد هذا المعنى في آيات عديدة في سور مختلفة : [الأعراف : 169] ، [يوسف : 109] ، [الإسراء : 18] ، [القصص : 60] ، [الإنسان : 27] ، [الأعلى : 16-17] وهي جميعها من السور المتعلقة إما بالطور الرابع أو بأواخرالطور الثالث .

بإكرام الله لها ، وهي إلى ربها ناظرة سعيدة بلقاء ربها ، مكرَّمة بالنظر إليه سبحانه وتعالى [1] .

والفريق الآخر ، هُم الذين كانت نفوسهم في الدنيا تعيش في ظلمة الكفر وعفن الذنوب ودخان المعاصي (الفجور) ، فوجوههم – رغم أنها كانت في الدنيا نضرة وناعمة منبسطة – فهي يومئذ كالحة مُسودّة منقبضة عابسة ، ويوقن أصحابها أنه لا بد أن ينزل بها مصيبة فادحة وداهية عظمى تقصم الظهر .. بسبب كفرهم وفجورهم في الدنيا .

5- (26–35)، ثم ردْعهم وزجْرهم عن الاستمرار على تكذيبهم بالحق البيّن وكذبهم على الناس ، وتذكيرهم بحقيقة أنهم سيفارقون الدنيا وملذاتها عندما يدركهم الموتُ ، هاذم اللذات ، فلا يملكون له دفعاً ولا تأجيلاً .. وكيف أن الواحد منهم عندما يُحْتَضَر وتبدأ روحه بالخروج من جسده يُصبح لاحول له ولا قوة ، وكل مَنْ حوله كذلك .. عندها يوقن أنه مفارق كل محبوباته وملذاته التي عاش حياته كلها من أجلها .. وأنه سيُساق ويُحشر إلى الله عزّ وجلّ ليوافي جزاءه .. في حين أنه كان كافراً بالله تعالى ورافضاً لطاعته، وكان يظن أن لا نهاية لحياته وكأنه خُلق ليتمتّع فقط .. بل وكان يذهب إلى أهله متبختراً متفاخراً ، متباهياً بإصراره على كفره وفجوره .. فهلاك لك – أيها المكذِّب المنكِر – فهلاك ، ثم هلاك دائم لك ، فهلاك .

6- (36–40)، إن النظر والتفكّر في خلْق الإنسان من نطفة ثم من علقة .. إلى أن يكون في أحسن تقويم ، يؤدي إلى حقيقتين يقينيّتين :

الأولى : إنه ما خُلق إلا لحكمة ، فالدقة في الخَلْق والعظمة في الخَلْق يدلان على أن الإنسان – وكل موجود – مخلوق لحكمة ، وموجود ليؤدي مهمة ووظيفة ، وليس هكذا سدى وعبثاً . كما في قوله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾ المؤمنون .. كما أكّد الله تعالى على هذه الحقيقة في سورة التين ، أنظر (تبيان سورة التين) .

1 - الجمهور على إثبات الرؤية مستدلاً بقوله تعالى هنا : (إلى رَبِّها ناظِرَةٌ) وبالأحاديث عن رسول الله ، مثل الرواية عن أبي هريرة : أن الناس قالوا : يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : هل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ قالوا : لا يا رسول الله . قال : فهل تمارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا . قال : فإنكم ترونه كذلك} . (صحيح البخاري 341/2-342- ك الآذان، ب فضل السجود ح 806) ، و(صحيح مسلم - الإيمان، ب إثبات رؤية المؤمنين ربهم سبحانه 136/1- 164 ح 182) . قال ابن كثير: ((وهذا بحمد الله مُجمَع عليه من الصحابة والتابعين .. كما هو متفَق عليه بين أئمة الإسلام وهداة الأنام)) .

نقول : والأصل أن لا يحصل خلاف في مثل هذه الأمور ، وإن حصل فيبقى في إطار الخلاف المحمود . ذلك أن أمور الآخرة من عالَم الغيب ، من " الغيب المطلق " ، وقد قدّر الله لها سننها الخاصة بها ، والتي تختلف عن السنن التي جعلها لعالَم الشهادة في الحياة الدنيا ، فلا يجوز أن نقيس إحداهما على الأخرى . ومن ثَمّ ، نحن نقول بثبوت رؤية الله - سبحانه - في الآخرة لثبوتها بالآية وبالحديث الصحيح . أما كيفية حدوثها ، فالله أعلم بها، ولا نخوض فيها بدون برهان . هذا والله تعالى أعلم وأحكم .

للتفصيل في تحقيق مفهوم " الغيب " ، وبيان المنهج الحق في النظر إلى قضاياه وأموره ، أنظر بحث (وعنده مفاتح الغيب) - مفاهيم ومصطلحات رسالية (الجزء السادس) .

الحقيقة الثانية : إن القادر على خلق الإنسان من عدم ، ومن شيء لا قيمة له ولا وزن ، ثم سوّاه فجعله إنساناً كاملاً في أحسن خِلْقة وتقويم ، وفضّله على سائر المخلوقات .. قادر أيضاً على إعادة خلقه مرة أخرى . كما في قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ الروم

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ العنكبوت

وبالتالي فإن للإنسان مصير عند الله تبارك وتعالى ، وهو وحده المسؤول أمام الله تعالى عن أعماله، وليس له عذر في تركه الحق واتباعه الباطل بعد البلاغ المبين . وفي هذا تأكيد على " المسؤولية الفردية " أمام الله عزّ وجلّ ، سواء كان الإنسان من الملأ أم من الاتباع :

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ﴾ القيامة .

- استطراد في بيان مناسبة قوله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ القيامة .. مع سائر آيات السورة ، وقد وردت هذه الآيات – فيما يبدو – كجملة معترضة في سياق كشف السورة لحقيقة دوافع المكذّب بيوم القيامة . وهذه بعض الإضاءات :

الأولى : يُلحظ التناسق في التسمية بـ " العاجلة " في هذا الموضع : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ ﴾ لما يحبه الكافر المكذّب بيوم القيامة وبالحساب والجزاء ، وما تَحْرص عليه نفسه الخبيثة من فجور ونزوات ، فيستعجلها في الساعة الحاضرة (العاجلة) ولا يؤجّلها ، فالحياة قصيرة !!..

وبين استعجال رسول الله في تحفّظ وقراءة ما يُلقى إليه من القرآن خشية تفلته منه ، ولحرصه الشديد على عدم نسيانه : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ ﴾ ، مع التباين والتناقض في الموضوع والغاية . فهو التناقض الواضح بين " النفس المؤمنة " وبين " النفس الكافرة " ، في جميع خصائصها واهتماماتها وسلوكاتها [1]..

الثانية : في الآيات نهي لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم عن الانشغال بما **لم يُكلف** به ، من **تعجُل** حفظ القرآن من قبل أن يُقضى إليه وحيه ، مخافة أن يتفلّت منه . وفيها طمأنة له أن الله تبارك وتعالى سيكفيه مؤونة جمْع القرآن الكريم وحفْظه في صدره الشريف ، وسيكفيه بيانه إذا أُشكل عليه شيء منه . ويَنْبَني على النهي والبشارة أمور :

1 - العجلة: طلب الشيء وتحرّيه قبل أوانه ، وهو من مقتضى الشهوة ، فلذلك صارت مذمومة في عامة القرآن . {وعجلت إليك ربي لترضى} [طه/84] ، فذكر أن عجلته - وإن كانت مذمومة - فالذي دعا إليها أمر محمود، وهو طلب رضا الله تعالى . أنظر (المفردات) - الراغب . والعاجل ضد الآجل ، ويقال للدنيا العاجلة ، فهي دار ممر وتنقضي سريعاً . وللآخرة الآجلة فهي الباقية الدائمة .

1- بالنسبة للكافرين : تأكيد وبيان للناس أن القرآن كلام الله تبارك وتعالى ، وأن محمّداً ما هو إلا رسول الله ومبلّغ عن الله تعالى . وليس له من أمر القرآن شيء حتى حِفْظه القرآن في صدره فمن الله تعالى وبقدرته ، وكذلك قراءته وبيانه .. فالقرآن رسالة الله إليهم ، وهو المتكفّل بجمعها وحفظها وبيانها .. فلماذا لا يؤمنون بها ويتبعون رسول الله ؟! .. يأتي الجواب من الله عالم الغيب والشهادة :
﴿ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ ﴾ القيامة .. ﴿ كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ۝٢٠ ﴾ القيامة .

2- بالنسبة للمؤمنين : مع ملاحظة خصوصية مقام النبوّة وعموم مقام الإيمان ، لفت انتباه الجماعة المؤمنة إلى عدم التأثّر السلبي بالواقع السيّء الذي تسير فيه الدعوة إلى الله – كما ذكرنا عند ربط السورة بخط السير – حتى لا يؤدي بهم ذلك إلى الخروج عن المنهاج . ففي ظِلّ **أجواء** الإنكار وإصرار المجتمع ومَلَئِه على الكفر بدون حجة ولا دليل ، واستخدام قوتهم وسلطانهم للتعدّي على أهل الحق وإيذائهم .. يجد المسلم نفسه أنّه بحاجة إلى نُصْرة دين الله ودعوته ، **فيستعجل الأمر** . فيُقال له : لا تستعجل ! إنّما عليك الاتباع لأمر الله والاستقامة عليه ، فالرسالة رسالته وهو الذي يتولاها ، والنتائج بِيَدِ الله وحده .

***

32- (سورة الهُمزة)

ربط السورة بخط السير :

قد ترتبط السورة بأكثر من طور أو مرحلة ، وخاصة في فترات اشتداد المواجهة الفكرية ، وازدياد قوة الصراع الفكري حول " خطاب النذارة " – أنه " لا إله إلا الله " فاعبدوه ، والمصير – بين المؤمنين حملة الرسالة ، وبين رؤساء الضلال والشرك والنفاق . يعني في نهاية " الطور الثاني " وما بعده .

مناط السورة:

﴿ وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ۝١ ﴾ [1] ، بعض الأشخاص في المجتمع ، من الملأ والمترفين أو ممن تبعهم الذين يبالغون بالاستهزاء بعبادة الله عزّ وجلّ ، وبمَنْ يعبد الله عزّ وجلّ ويحمل رسالته [2] .

1 - والهَمْز: هو عيبُ الناس بالإشارة، سواءٌ أكانت باليد، أم بغيرها، وسواءٌ أكان بحضرة المهْموز، أم بغَيْبته، واللَّمْز: الطعنُ على الناس؛ كقوله تعالى: {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ} [التوبة: 79]؛ أي: يَعيبون عليهم صَدَقَتُهم، والله أعلم . (تفسير جزء عم) - مساعد الطيار . وَهُمَزَةٌ وَلُمَزَةٌ : بِوَزْنِ فُعَلَةٍ ، وهي صِيغَةٌ تَدُلُّ عَلَى كَثْرَةِ صُدُورِ الْفِعْلِ الْمُصَاغِ مِنْهُ. وَأَنَّهُ صَارَ عَادَةً لِصَاحِبِهِ كَقَوْلِهِمْ : ضُحَكَةٌ لِكَثِيرِ الضَّحِكِ، وَلُعَنَةٌ لِكَثِيرِ اللَّعْنِ ... فالصِيغَة دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الْوَصْفَ مَلَكَةٌ لِصَاحِبِهِ . ومن الجدير ملاحظة أن اسم النار التي سيُلقى فيها هذا الهُمَزة اللمَزة هو الحُطَمَة ، وهي على نفس صيغة الإشتقاق ، فهي مُعدّة له . فهي من شأنها ومن طبيعتها أن تُحطّم كل ما يُلقى فيها من أمثال ذلك المستهزيء المتكبّر .

2 - أنظر (تبيان سورة الكوثر) .

المعالجة :

وسنقتبس هنا مما جاء في كتاب (في ظلال القرآن) ، وبشيء من التصرّف والاختصار :

" تعكس هذه السورة صورة من الصور الواقعية في حياة الدعوة في عهدها الأول .. وتُعتبر نموذج يتكرر في كل بيئة .. صورة اللئيم الصغير النفس ، الذي يؤتى المال فتُسيطر نفسه به ، حتى ما يطيق نفسه! ويروح يشعر أن المال هو القيمة العليا في الحياة . القيمة التي تهون أمامها جميع القيم وجميع الأقدار: أقدار الناس ، وأقدار المعاني ، وأقدار الحقائق ، وأنه – وقد ملك المال – فقد ملك كرامات الناس وأقدارهم بلا حساب! ، كما يروح يحسب أن هذا المال إلهٌ قادرٌ على كل شيء لا يَعْجز عن فعل شيء! ، حتى دفع الموت وتخليد الحياة [1] ، ودفع قضاء الله وحسابه وجزائه إن كان هناك في نظره حساب وجزاء!. ومن ثَمّ ينطلق في هَوَسٍ بهذا المال يَعُدّه ويستلذّ تَعداده ، وتنطلق في كيانه نفخة فاجرة ، تدفعه إلى الاستهانة بأقدار الناس وكراماتهم ، ولمزهم وهمزهم.. يعيبهم بلسانه ويسخر منهم بحركاته [2] .. سواء بحكاية حركاتهم وأصواتهم ، أو بتحقير صفاتهم وسماتهم .. بالقول والإشارة ، باللفتة الساخرة والحركة الهازئة! ، وهي صورة لئيمة حقيرة من صور النفوس البشرية حين تخلو من المروءة وتعرى من الإيمان .

والتهديد يجيء في صورة مشهد من مشاهد القيامة يمثل صورة للعذاب مادية ونفسية، وصورة للنار حسية ومعنوية . وقد لوحظ فيها التقابل بين الجُرم وطريقة الجزاء وجَو العقاب . فصورة الهُمزة اللُّمزة ، الذي يدأب على الهزء بالحق وأهله ، وهو يجمع المال فيظنه كفيلا بالخلود! صورة هذا المتعالي الساخر المستقوي بالمال ، تقابلها صورة « المنبوذ » المُهْمَل المُتردّي في ﴿ٱلۡحُطَمَةِ ۝٤﴾ التي من شأنها أن تُحطّم كل ما يُلقى إليها ، فتُحطّم كيانه وكبرياءه . وهي ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦﴾ ، وإضافتها لله وتخصيصها هكذا يوحي بأنها نار فذة ، غير معهودة ، ويخلع عليها رهبة مفزعة رعيبة . وهي ﴿تَطَّلِعُ﴾ على فؤاده الذي ينبعث منه الهمز واللمز، وتكمن فيه السخرية والكبرياء والغرور.

---

1 - ((وجملة : (يحسب أن ماله أخلده) يجوز أن تكون حالاً من (هُمَزة) فيكون مستعملاً في التهكم عليه في حرصه على جمع المال وتعديده ، لأنه لا يوجد من يحسب أن ماله يخلده ، فيكون الكلام من قبيل التمثيل . أو تكون الحال مراداً بها التشبيه وهو تشبيه بليغ . ويجوز أن تكون الجملة مستأنفة والخبر مستعملا في الإنكار ، أو على تقدير همزة استفهام محذوفة [أيحسب] مستعملاً في التهكم أو التعجيب . وجيء بصيغة الماضي في (أخلده) لتنزيل المستقبل منزلة الماضي لتحققه عنده ، وذلك زيادة في التهكم به بأنه موقن بأن ماله يخلده حتى كأنه حصل إخلاده وثبت)) . (التحرير والتنوير) – ابن عاشور .

2 - (الذي جمع مالا وعدده) . هذا الوصف يُشعر بالعِليّة ، إذ الموصول هنا بدل من (كل) المتقدمة . بمعنى أن سبب هَمزه ولَمزه هو إعجابه بما جمع من المال وظنه أنه الفضل ، وأنه لا عزّ إلا به ، ولا شرف بغيره ، فهو كلما نظر إلى كثرة ما عنده ظن أنه بذلك قد ارتفعت مكانته ، وهزأ بكل ذى فضل ومزية دونه . أنظر (فتح القدير) - الشوكاني => و(أضواء البيان) - الشنقيطي . نقول : ومن ثَمّ ، فذلك المستهزيء لا بد وأن يكون من المترفين في المجتمع ، أو من الملأ وقد دفعه حبه لأمواله وكثرتها وشعوره بالإستغناء بها ، إلى الإستهزاء بالحق وأهله .. برسالة الله ورسول الله والمؤمنين .. "ويؤيّد ذلك ، ذِكْره هنا بهذا التشنيع والتقبيح مع الوعيد ، والرد عليه في صورة الردع الشديد ، والتهديد الرعيب . فسياق السورة ليس في النهي عن عموم السخرية واللمز والعيب ، فقد ورد النهي عنها في مواضع شتى غير هذه السورة . بل إن ذِكْره هنا بهذا التشنيع والتقبيح مع الوعيد والتهديد ، يوحي بأن السورة تواجه حالة واقعية من بعض الملأ من المشركين مارسوا سخريتهم تجاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وتجاه المؤمنين . وقد وردت روايات بتعيين بعض الشخصيات ، ولكنها ليست وثيقة ، فنكتفي نحن بما قررناه عنها " . أنظر (في ظلال القرآن) - سيد قطب .

وتكملةً لصـورة المحطم المنبوذ المهمل ، هذه النار مغلقة عليه ، لا ينقذه منها أحد ، ولا يَسـأل عنه فيها أحد! ، وهو موثَق فيها إلى عمود كما توثق البهائم بلا احترام! .

وفي جرس الألفاظ تشـديد :﴿وَعَدَّدَهُۥ ، كَلَّا ، لَيُنۢبَذَنَّ ، تَطَّلِعُ ، مُّمَدَّدَةِۭ ﴾ ، وفي معاني العبارات توكيد بشـتى أسـاليب التوكيد : ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦ .. ﴾ ، فهذا الإجمال والإبهام ، ثم سؤال الاستهوال ، ثم الإجابة والبيان .. كلها من أساليب التوكيد والتضخيم .

وفي التعبير تهديد : ﴿ وَيۡلٌ ، لَيُنۢبَذَنَّ ، ٱلۡحُطَمَةِ .. نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ۝٨ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ۝٩ ﴾ ..

وفي ذلك كله لون من التناسق التصويري والشعوري يتفق مع فعلة ﴿هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ۝١ ﴾ ! ..

إن الله جلّ وعلا يتابع أحداث حَمْل الرسالة والدعوة ، ويقودها ويوجهها بالوحي وبالقرآن ، وكان القرآن – كلام الله وآياته – هو السلاح البتّار الصاعق الذي يُدمّر كيد الكائدين ، ويُزلزل قلوب الأعداء ، ويُثبّت أرواح المؤمنين . كما في هذه السورة ، فالقرآن إضافة إلى ما واجه به موقف ذلك المستهزيء بالتشنيع والتقبيح مع الوعيد والتهديد ، فهو في الوقت ذاته ينافح عن المؤمنين ويحفظ نفوسهم من أن تتسرب إليها مهانة الإهانة ، وإشعارهم بأن الله يرى ما يقع لهم، ويكرهه، ويعاقب عليه .. ﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦ ﴾ طه .. وفي هذا كفاية لرفع أرواحهم واستعلائها على الكيد اللئيم ".

***

33 – (سورة المرسلات)

ربط السورة بخط السير :

تأتي السورة في الطور الرابع ، وذلك :

﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ ۝٤٦ ﴾ المرسلات ، حيث جاء تهديد الملأ ومن اتبعهم على الضلال والكفر بعذاب الله القريب، حيث دخلوا – حسب سنة الله تعالى – في حالة انتظار العذاب الأكبر في الدنيا (التمتّع قليلاً) ، وذلك بعد أن ذاقوا العذاب الأدنى [1] ..

وما استحق الكافرون المكذبون العذاب إلا لأنهم أصبحوا " **مجرمين** " ، وذلك بسب إصرارهم على التكذيب بالحق والتكبّر على طاعة الله تعالى وعبادته ، ومحاربتهم للإيمان وأهله .. رغم وضوح الآيات والدلائل

[1] ـ أنظر " الطور الثالث " وما بعده ، في ما سبق هذا الجزء .

والبينات . فالمجرم هو الذي لا يزال مصرّاً على الذنب الكبير (الشرك بالله) فاستحق نزول العذاب به من الله جلّ وعلا . كما في قوله تعالى عندما جاءت الملائكة بالبشرى لإبراهيم عليه السلام :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨) ﴾ الحجر ، أي أُرسلنا بالعذاب . وكذلك قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾ الروم

﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦) ﴾ التوبة [1]

مناط السورة :

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨) ﴾ المرسلات ، إصرار الملأ ومن تبعهم على التكذيب بالحق ؛ بأن الله عزّ وجلّ هو وحده الإله الحق وبيوم الحساب والجزاء ، وعلى الرفض لعبادة الله تبارك وتعالى ، برغم البلاغ المبين ومشاهدة آيات الله البينات ، وقد اقترب نزول " العذاب الأكبر " بهم .

المعالجة :

السورة متميزة بأسلوبها . وقد عالجت موقف أولئك المكذبين من خلال جولات عدة ، جاءت مختومة بتعقيب تكرر عشر مرات في السورة : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ لعلهم يرتدعون أو يتعظون . وباستعمال أساليب تأثير وبيان مختلفة .. وذلك في إطار " تصريف الآيات " : بداية بالقسم ، ثم بالسؤال الإنكاري مرات عديدة [2] .. وتخلل ذلك عرض مشاهد من أهوال يوم القيامة ، وذكر إهلاك الله تعالى المجرمين في الدنيا وأنها سنة ثابتة لله تبارك وتعالى ، إلى تلميسهم آثار قدرة الله تعالى وحكمته في تحقق ما يوعدون من العذاب ، بداية بإهلاكهم في الدنيا بوصفهم مجرمين استحقوا العذاب ، ثم العذاب الأليم الدائم يوم الفصل ، مع التركيز على مشاهد من يوم الفصل .

وبشيء من التفصيل ، نقول :

1- (1-7)، التأكيد بأسلوب القسم على وقوع اليوم الآخر لا محالة بإذن الله تعالى ، وذلك :

بالقَسَم بأنواع من الرياح أو الملائكة :﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) .. ﴾، كمثال لبيان عظيم قدرة الله وحكمته في تقديره وتدبيره لمخلوقاته ، وسرعة نفاذ أمره – جلّ وعلا – فيهم : ﴿ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) ﴾ ..

1 - انظر (تبيان سورة القلم) .

2 - ((بعدالقسم ، كل مقطع من مقاطع السورة هو هزة ، كالذي يمسك بخناق أحد فيهزه هزاً ، وهو يستجوبه عن ذنب ، أو عن آية ظاهرة ينكرها ، ثم يطلقه على الوعيد والتهديد : «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ» .. وهو دعاء بالهلاك ، ووعيد بالثبور)) أنظر في ظلال القرآن - سيد قطب .

و بالقَسَم بطوائف من الملائكة : ﴿ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴿٥﴾ .. ﴾ ، وهي مثال لبيان قدرة الله عزّ وجلّ في تقديره وتدبيره لدينه وشريعته ، فهو الإله الحق صاحب الأمر ؛ قدراً وشرعاً ..
و(جواب القسم) تأكيد صدق ما يوعدون من العذاب في الدنيا ثم في الآخرة ، فهو متحتم وقوعه :
﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ﴿٧﴾ ﴾ المرسلات [1] .

2- (8-15) ، ثم مواجهتهم مباشرة مع أحداث يوم الفصل ، بالبيان بشكل قوي وملفت للإنتباه للإنقلاب الكوني الهائل العظيم الذي سيحدث يوم القيامة ليعلموا أن ما يتمتّعون فيه من عيش مُتْرف لن يستمر.

3- (16-19) ، إنذار المُكذِّبين المجرمين ومن اتّبعهم على ضـلالهم ، بتذكيرهم بسُـنَّة الله عزّ وجلّ في مَنْ كذّب وأجرم من الأمم السـابقة وقد حلّ بهم وبدارهم الدمار . فحياتهم قصـيرة ومتاعهم قليل ، فسيتركونها ويواجهون مصيرهم الأبدي عند الله عزّ وجلّ .

4- (20-28) ، إقامة الحجة الدامغة والبرهان الساطع على قدرة الله عزّ وجلّ على إحداث اليوم الآخر وإيقاعه ، وذلك من خلال تلميسهم آثار قدرة الله جلّ وعلا في أنفسهم وفي الكون الذي يعيشون فيه ، فالله تعالى كما خلقهم أوّل مرّة قادر أن يخلقهم مرّة أُخرى ، وأنّه خلقهم لحكمة .

5- (29-45) ، ذِكْر مشـاهد من يوم الفصـل وأحوال العذاب الذي ينتظر المُكذِّبين الرافضـين لطاعة الله عزّ وجلّ ، حيث لا حُجَّة لأحد منهم حتى يعتذر ، وقد جاءهم النذير . وفي المُقابل بيان جزاء المُحسنين العابدين الراكعين ، بأن لهم الظلال والنعيم والجنان عند الله عزّ وجلّ .

6- (46-49) ، تهديدهم بعذاب الله القريب لهم بإهلاكهم لأنهم مجرمون ، فهم مصـرّون على التكبّر على طاعة الله – سبحانه – والخضوع لأمره : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ المرسلات .

7- (50) ، فهذه هي **حُجّة الله** على الإنسان مُبيّنة في القرآن ، رسالة الله إليهم ، فبأيّ حديث بعد القرآن يُؤمنون ؟! وكيف يكفرون بهذه الحُجَّة البيّنة ويتّبعون أهواءَهم وأواهمَهم ؟! : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ

1 - قال ابن جرير الطبري : ((والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال : إن الله - تعالى ذكره - أقسم بالمرسلات عُرفاً ، وقد ترسل عرفاً الملائكة ، وترسل كذلك الرياح ، ولا دلالة تدل على أن المعني بذلك أحد الحزبين دون الآخر، وقد عمّ - جلّ ثناؤه - بإقسامه بكل ما كانت صفته ما وصف ، فكل من كانت صفته كذلك ، فداخل في قسمه ذلك ، ملكاً أو ريحاً أو رسولاً من بني آدم مرسلاً)) . نقول : ويؤيّد هذا ما ذكره ابن عرفة في تفسيره : من أن الله سبحانه أقسم بصفات خمسة ، موصوفها محذوف ، مما يعني أن الصفة هي المقصودة ، فلذلك اعتنى بذكرها دون الموصوف . وأضاف أنه : لا يصح حذف الموصوف ، وإبقاء صفته إلا بدليل ، إما اشتهار الأسماء أو معلومية الموصوف ، أو نحو ذلك ..
هذا ، والواقع أن بين كل قَسَم ومُقسَم عليه مناسبة ارتباط في الجملة غالباً . فاختيار ما يُقسِم به الله تعالى هنا أو هناك يكون متعلق بمعالجة مناط السورة . والمقسم عليه هنا : وجوب تحقق وعيد الله تعالى للكافرين في الدنيا والآخرة ، وهُم مكذبون به ؛ فأقسم سبحانه لهم بما فيه إثبات صدق وعده وتحقق أمره . فكان الإقسام بالصفة دون الموصوف ، لأن تلك " الصفات " هي في الحقيقة أعمال وأحداث نفذت في الواقع والوجود لأن الله تعالى أمر بها ، فهي نتيجة لأمر الله تعالى ، فما يأمر الله تعالى به ينفذ ويقع .. بغض النظر عن المخلوق (العبد) الذي من خلاله أو به نفذ أمر الله .. من الإرسال والعصف والنشر والفرق أو التفريق وإلقاء الذكر .. فهكذا ، كل ما يأمر الله به واقع وحاصل حتماً ، سواء ما تعلّق بتدبير شؤون خلقه وقيّوميّته عليهم .. أم بتدبير شؤون شرعه ودينه ؛ إنزال الذكر وبعث الرسل .. { إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (7)} فوعد الله ووعيده متحتم وقوعه ، من غير شك ولا ارتياب .

﴿٥٠﴾ المرسلات ، أي : (فبأي كتاب وكلام بعده يؤمنون؟ وهو المبيّن لكل شيء ، الواضح في حكمه وأحكامه وأخباره ، المعجز في ألفاظه ومعانيه) .

فآيات الرسالة هي **الأصل** في خطاب الناس ودعوتهم .

***

34- (سورة ق)

ربط السورة بخط السير :

السورة تأتي في الطور الرابع وما بعده ، وذلك :

1- إنذارهم بالعذاب الأكبر في الدنيا ، وقد استحقوه حسب سنن الله مثل الأمم السابقة :

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ ق

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ ق

2- وصف الرافضين للرسالة والدعوة بالكافرين ، ويكون هذا متأخراً : ﴿ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ ﴾ ق ، أنظر تبيان سورة الكافرون .

ووصف الملأ منهم الذين تولوا كِبَر التكذيب ، بالكفّار العنيد :

﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ﴾ ق ، و هو المُصرّ على التكذيب بالقرآن وما فيه من الحق البيّن الواضح – أنه لا إله إلا الله ، فاعبدوه ، والمصير – وعدم اتباعه ، بالرغم من تكرار البلاغ المبين ورؤية الآيات البيّنات . ((فالعنيد هو الذي يردّ الحق مع العلم به)) [1] . و كفّار ، عنيد .. من صيغ المبالغة ، فهي ليست المرة الأولى التي يكفر فيها بالحق ، ويُعاند الحق .. فهو مُصرّ على الكفر عناداً في كل مرة يَبْلغه الحق المبين [2] .

3- اغترارهم بقوتهم وبقدرتهم على البطش :

1 - (المعجم الإشتقاقي المؤصّل) - محمّد حسن حسن جبل .

2 - في الآيات الأخرى التي ورد فيها وصف بعض الملأ بـ " العنيد " ، جاء هذا الوصف لبيان أن كفرهم هو موقف نهائي، وأنهم استحقوا العذاب . وهي :
(وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ {59})هود
(وَاسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ {15}) إبراهيم
(كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً {16}) المدثر .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ ق

وكان هذا بعد أن فتح الله عليهم الدنيا ، قُبيل إنزال العذاب بهم . إشارة إلى بطش قريش بالمسلمين .

مناط السورة :

﴿ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾ ق

إصرار الكافرين على كفرهم بالقرآن وما فيه من الحق عن يوم القيامة ، إلى درجة العناد أو المعاندة – رغم وضوح البيّنات – يعني أصبح الإنكار موقفاً نهائياً لهم : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ ق .

وصيغة المفرد للإشارة إلى بعض الملأ الذين تولّوا كبر هذا التكذيب والعناد .

المعالجة :

والسورة متميزة بأسلوبها [1] .

أولاً : بالنسبة لموقف الكافرين :

1- (1-11) ، الكافرون يكذبون بلقاء الله ويعجبون اســتعجاب اســتخفاف وإنكار .. فأنزل الله عزّ وجلّ الآيات لكشف واقعهم وأقام الحجة عليهم بأن الله هو الإله الحق وأنه سيبعث الناس ليحاسبهم ، على أســـاس الحقيقة التالية : إنه **بالعلم وبالقدرة يحصـــل الجزاء** . بمعنى أن محاســـبة الله تعالى لهم ومجازاتهم بما يستحقون حقيقة واقعة ، ذلك ان الله عليم تمام العلم بهم وبأحوالهم ، وقادر على بعثهم مرة أخرى كما خلقهم أول مرة :

- ✓ (1-3) ، التأكيد بالقَسَم بالقرآن ذي المجد ؛ أي ذي السعة والكرم ، لكثرة ما يتضمن من المكارم الدنيوية والأُخروية .. لأنه الحق من الله عزّ وجلّ ، وجواب القسم مقدر يدل عليه المقام ، وتقديره : إنّا نـــــــزّلناه عليك لتنذر به الناس ، بالبعث وبالجزاء .. فلم يؤمنوا ، بل جعلوا كلاً من النذير والمنذَر به عرضة للتنكير والتعجب ، مع كونهما أقرب شيء إلى العقول والقبول .
- ✓ (4-5) ، التأكيد على علم الله تبارك وتعالى التام بهم وبما تُنقص الأرض وتُفني من أجسامهم بعد موتهم وتحوّلهم إلى تراب ، وأن كل تغيير وتبديل مكتوب ومحفوظ .. ثم كشَـف حقيقة موقفهم أنه

1 - ((إنها سورة رهيبة، شديدة الوقع بحقائقها، شديدة الإيقاع ببنائها التعبيري .. تأخذ على النفس أقطارها، وتلاحقها في خطراتها وحركاتها .. تتعقبها برقابة الله ، التي لا تدعها لحظة واحدة من المَولد إلى الممات، إلى البعث، إلى الحشر، إلى الحساب . وهي رقابة شديدة دقيقة رهيبة. تطبق على هذا المخلوق الإنساني الضعيف إطباقا كاملا شاملا .. ولا حجاب ولا ستار دون هذه الرقابة النافذة ، المطلعة على السر والنجوى اطلاعها على العمل والحركة ، في كل وقت وفي كل حال . وكل هذه حقائق معلومة ، ولكنها تُعرض في الأسلوب الذي يبديها وكأنها جديدة ، تروع الحس روعة المفاجأة)) . (في ظلال القرآن) - سيد قطب ، باختصار .

الإصــرار على التكذيب بالقرآن وما فيه من الحق البيّن الواضــح ، لذلك فهم مضــطربون تائهون لاتباعهم الظن والهوى وتركهم الحق الذي عليه الدلائل الواضحة [1] .

- ✓ (6–11) ، ثم ذكّرهم ببعض تلك الدلائل والآيات ، بذكر بعض آثار قدرة الله تعالى في خلق السماء وقوة بنيانها .. وإنزال المطر وكيف أن الله تعالى يحي به الأرض بعد موتها .. وفي ذلك نور وبصيرة لمن أراد الإنابة إلى الله تبارك وتعالى واتباع الحق ..

2- (12–14) ، بيان سـنة الله تعالى الثابتة في اسـتحقاق الأمم السـابقة العذاب وقد كذبت الرسـل وما جاؤوا به من الحق ، بقصد إنذار قريش – ومن هو على شاكلتهم – بأنه سيصيبهم ما أصاب الله به الأمم التي سبقتهم إذا أصروا على التكذيب مثلهم .

3- (15–35) ، ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ۝١٥ ﴾ ق ، ثم التأكيد مرة أخرى على حقيقة أنه بالعلم والقدرة يحصـل الجزاء ، وذلك : بالتذكير بحقيقة أن الله هو خالق الإنسـان ، وعليه فهو – جلّ وعلا – عليم بما خلق ، حتى خواطر العبد وهواجســه التي في نفســه يعلمها ، بل وكل أقواله وأفعاله مكتوبة ومحفوظة في صحيفته .. وهو تعالى أيضاً القادر على خلقه مرة أخرى كما خلقه أول مرة (باسلوب الإنكار عليهم والتوبيخ لهم) [2] . ثم سَرَد – بشكل مجمل وسريع – رحلة العودة إلى الله للحساب في محطات بارزة :

من بداية مواجهة الإنسان لغمرة الموت وشدته .. ثم نفخة البعث الثانية ، مؤذنة ببدء اليوم الذي سيقع فيه ما توعَّد الله به الكافرون .. وبعد ذلك ، مواجهة موقف القضاء العادل للحساب ، حيث يُساق الكافر ومعه صحيفة أعماله والشهود عليه .. ثم موقف الجزاء ، وسيكون الكفّار العنيد – الذي هو ﴿ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ ۝٢٥ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ... ۝٢٦ ﴾ ق – وجهاً لوجه أمام مصيره ، حيث سيشاهد الآن بأم عينه كل ما كان ينكره في الدنيا من الحساب والجزاء بحجة أنه غيب لا يراه !!.. ثم يُلقى في جهنّم إلقاءاً في العذاب الشديد، كالحطب وقود النار : ﴿ .. فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ۝٢٦ ﴾ ق، وبهذا يتحقق وعيد الله تعالى بالكافرين ، وبالحق والعدل.. فلا عذر لهم وقد أُقيمت الحُجة عليهم .

وفي الجهة المقابلة هناك الفريق الآخر وهم المتقون – والذين هم على النقيض من الكفّار العنيد سواء محياهم أم مماتهم ومصيرهم – وقد قُرّبت إليهم الجنة فيرَوْنها ، وهم الذين آمنوا بالله ولم يروه سبحانه، بل لمجرّد أنهم شاهدوا الدلائل والبيّنات الواضحات التي ذُكر بعضها في أول السورة : ﴿ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ

---

1 - (.. بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (5)..) ق .. التوصيف الوارد لحقيقة موقفهم في هذه الآية ، يشبه ما ورد في سورة الذاريات : (.. إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ{8} يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ{9} قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ{10} الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ{11} يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ{12} يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ{13}..) .

2 - كما في قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {33}) الأحقاف . وقوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {27}) الروم .

﴿لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ۝٨﴾ ق .. وكانوا يَخشون الله تبارك وتعالى ، ومجتهدين في الحفاظ على حدود الله ، وإذا أخطأوا كانوا سريعي العودة والأوب إلى الله ربهم ومولاهم .. وفي هذا تعريضٌ بالكافرين وحثٌ لهم على التصديق بالحق والإنابة إلى الله .. ثم يُقال للمتقين بتكريم وتشريف : ادخلوا الجنة مصحوبين بالسلامة خالدين فيها .. و ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ۝٣٥﴾ ق ... في مقابل أن الكفّار العنيد المكذّب بالغيب ، يُلقى في النار إلقاءً كما يُلقى فيها الحطب .. والعياذ بالله الرحيم .

4- (36-38) ، وبعد ذلك الإستعراض المجمل لمصير كِلا الفريقين في اليوم في الآخر ، ومافيه من إنذار للكفّار العنيد ، وحثّ له ليكون من المتقين . يأتي التأكيد مرة أخرى على سنّة الله الدائمة الجارية في الحياة الدنيا ، والتي لا تتخلّف أبداً ، في إهلاك القرى المكذّبة بالحق البيّن ، مع إضافة ملحظ جديد هو القوة . فتلك الأمم المكذّبة التي أهلكها الله تعالى من قَبل في الدنيا ، كانت أشد قوة وسطوة من قريش ، فطوَّفوا في البلاد وعمَّروا ودمَّروا فيها .. فلم تُغنِ عنهم قوتهم وسطوتهم شيئاً من عذاب الله حين جاءهم . حتى تعلم قريش – ومن هم على شاكلتها – أن مصيرهم ، في الدنيا والآخرة ، عذاب وهلاك لا مهرب منه إن اتبعوا أمر كل كفّار عنيد ، وأنهم لن يُعجزوا الله عزّ وجلّ [1] .

وفي ما سبق ذكره ، ذِكرى لِمَنْ له قلب حيّ يقظ يتدبّر الحقائق ويُريد الهداية .

ثم استئناف جديد – في ختام هذه المجموعة، آية(38) – للتأكيد مرة أخرى على حقيقة قدرة الله سبحانه وتعالى على إحياء الموتى ، فقد خلق جميع الخلق من عدم : السموات السبع والأرض وما بينهما من أصناف المخلوقات .. في ستة أطوار مختلفة ، وما أصاب الله – جلّ وعلا – من ذلك الخَلْق تَعب ولا نَصَب ، فهو جلّ وعلا لا يثقله حفظ السموات والأرض ، بدليل أنها لا تزال محفوظة وتسير بنظام دقيق .. بل في منتهى الدقة ، وستبقى كذلك حتى يشاء الله غير ذلك :

﴿ ..وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٢٥٥﴾ البقرة

وهذه القدرة العظيمة على إيجاد جميع الخلق من عَدم ، والقيومية عليهم .. دليل قاطع على قدرته سبحانه وتعالى على إحياء الموتى [2] .

ومن جهة أخرى ، فهم بعد موتهم أصبحوا تراباً ، فإعادة إحيائهم أهون من خلقهم من عدم أول مرة :

---

1 - كما في قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (44)) فاطر . وقد ورد هذا المعنى في آيات أخرى في سور عدة : القصص78 ، الروم9 ، غافر21 ، فصلت15 ، الزخرف8 ، محمد13 . وتكرار معالجة اغترار قريش بقوتها يُشير إلى أنه كان يُشغل حيزاً كبيراً في عقليتهم وتفكيرهم ، ويشكّل شبهة قوية تحول دون إيمانهم بالحق، فالاغترار بالقوة من طبائع الكفّار العنيد .. مثل فرعون .

2- هذه المجموعة من الآيات تشبه قوله تعالى عن فرعون وقد ضربه الله مثلاً لقريش : (.. فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى{20} فَكَذَّبَ وَعَصَى{21} ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى{22} فَحَشَرَ فَنَادَى{23} فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى{24}فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى{25} إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى{26}أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا{27} رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا{28} وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا {29} وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا{30} أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا{31} وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا{32} مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ{33}) النازعات .. فهذه السور : ق ، الذاريات ، النازعات .. أجواؤها متقاربة ، وتعالج مناطات متشابهة ، فهي مثال على " تصريف الآيات " ، أي التنويع في تقليب الآيات والحجج ، لعل الكافرين يؤمنون بالحق ويعودون إلى الله ، و تثبيتاً للمؤمنين على الحق .

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ..﴿١٥﴾﴾ ق ؟!! ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ..﴿٢٧﴾﴾ الروم

ثانياً : بالنسبة للذين آمنوا بالحق واتبعوا رسول الله (المتقين) :

(39–45) ، تثبيت الجماعة المؤمنة وتسليتهم لما يجدونه في المجتمع من كفر ومعاندة للحق البيّن :

وبناء على ما جاء في السورة من حقائق وبيّنات على عمق علم الله تعالى بالإنسان وسعته وإحاطته به ، وعلى عظيم قدرة الله تعالى في إيجاد الخلق ، وقدرته على بعث الناس ومجازاتهم على أعمالهم .. ومن بشارةٍ للمؤمنين المتقين بالجنة والسلام والخلود فيها ، بل وبالمزيد من الله تبارك وتعالى .. ووعيد الله عزّ وجلّ للكافرين بإهلاكهم وتعذيبهم .. فبناء على ما سبق ذكره من السورة من حقائق وبيّنات ، أمَرَ الله تبارك وتعالى رسوله والمؤمنين – في خاتمة السورة – بالصبر على ما يقوله المكذّبون المعاندون من الأباطيل . وتنزيه الله جلّ وعلا عن كلّ ما يدّعيه هؤلاء من العجز عن وقوع وعده ووعيده .. حامدًا له ما أنعم به عليه من إصابة الحق ، آناء الليل وأطراف النهار [1] . فها هو ذا قد اقترب يوم البعث والنشور، وسُمع صوت الداعي لذلك بعد النفخ في الصور ، وتشققت الأرض سراعا وخرج الناس من القبور ، وما ذلك بالصعب على رب العالمين ، خالق السموات والأرضين ، المُحيي المُميت .

ثم يؤكّد الله تعالى لنبيّه الكريم ، مواساةً له فيما يلقى من أذى قومه : إنا لنعلم ما يقول المشركون فى البعث والنشور فدعهم فى غيّهم يعمهون ، فما أنت بمسلّط عليهم لتقسرهم على الإيمان بالحق ، إن أنت إلا نذير .. وأَمَره بالاستمرار بجعل القرآن هو **مادة** الذّكر وإعادة التذكير بالحق ، فهو الأصل في خطاب الناس ودعوتهم : ﴿..فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ..﴿٤٥﴾﴾ ق .. فمن سنة الله تعالى أن يتذكّر بالقرآن مَن يخاف وعيد الله ويخشى عقابه .. فلا تبتئس يا رسول الله إن لم يؤمنوا [2] .

كان قتادة يقول : " اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ، ويرجو موعودك ، يا برّ يا رحيم " .

قال ابن كثير في تفسيره : ((وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ : .. عَنِ ابْنَةِ الْحَارِثِ بْنِ النُّعْمَانِ قَالَتْ : مَا حَفِظْتُ " ق" إِلَّا مِنْ فِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يَخْطُبُ بِهَا كُلَّ جُمُعَةٍ . قَالَتْ : وَكَانَ تَنُّورُنَا وَتَنُّورُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاحِدًا . وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ ، مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ ، بِهِ . وَالْقَصْدُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ

1 - التسبيح هنا ليس المقصود به الصلاة ، بل هو على الحقيقة ، أي ذكر الله تعالى وتسبيحه وحمده ، كالقول : (سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم). بقرينة أن الله تعالى أمر به بعد السجود أي بعد الصلاة، فهو غير الصلاة . ((وأمْره له بالتسبيح بعد أمْره له بالصبر على أذى الكفار فيه دليل على أن التسبيح يعينه الله به على الصبر المأمور به)) أنظر (أضواء البيان) - الشنقيطي . ((فإن ذِكْر الله تعالى ، مسلٍّ للنفس ، مؤنسٍ لها ، مهوّنٍ للصبر)). أنظر (تفسير السعدي).

2 - حجة القرآن كما هي قائمة في أفكاره وحقائقه ، فهي قائمة أيضاً في أسلوب عرضها الربانيّ البديع الفريد . والتنويع في أسلوب عرض الحقائق ودلائلها هو معنى " تصريف الآيات ". فما جعل الله تعالى القرآن هكذا في أوجهه المختلفة - فكرة وأسلوباً - إلا بقصد إحقاق الحق وإبطال الباطل ، أي لتحقيق الغاية منه في الواقع الإنساني . ومن ثم ، فالتأثير - على الحقيقة - إنما هو لآيات الله البيّنات ، وما الرسول إلا مبلّغ ومبيّن لآيات الله كما يريد الله تعالى ، بمعنى أنه المفعّل للآيات البيّنات في واقع الناس ، وهو المعلّم لنا لكيفية تفعيّلها لتؤدي دورها وأثرها في حياة الناس . وهذا هو حقيقة معنى " تلاوة الآيات " ، أي قراءتها بقصد تنزيلها على الواقع كمعالجات له ، لجعله كما يحب الله ويرضى . وعليه ، فلا يُجْزِء أن تُعرض أفكار القرآن وحقائقه بأسلوبنا ، بل لا بد من جعل كلمات القرآن وآياته وسوره هي الأصل في خطاب الناس ، مع ما يلزم من " التبيان " .

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقْرَأُ بِهَذِهِ السُّورَةِ فِي الْمَجَامِعِ الْكِبَارِ ، كَالْعِيدِ وَالْجُمَعِ ، لِاشْتِمَالِهَا عَلَى ابْتِدَاءِ الْخَلْقِ وَالْبَعْثِ وَالنُّشُورِ وَالْمَعَادِ وَالْقِيَامِ ، وَالْحِسَابِ ، وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ ، وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ)).

***

35- (سورة البلد)

ربط السورة بخط السير:

قد تأتي السورة في أواخر الطور الثالث ، وذلك :

1- المواجهة المباشرة لبعض الملأ – الكفّار العنيد – الذين تصدّوا لدعوة الله تعالى (كشف الطاغوت) ، كما في سور أخرى : (القلم ، المدثر ، الهمزة ، الماعون ، القيامة ، الآيات الأخيرة من سورة يس ..) .. مع إنذارهم بعذاب الله في اليوم الآخر .

2- ذكر حال (الكَبَد) في سير الإنسان في حياته ، تفسيراً لما يجده رسول الله من خصومة شديدة ومشقة من الملأ من قريش .

3- الآيات : ﴿ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ ﴾ يبدو فيها إشارة إلى ظلم قريش لقرابتهم من بني هاشم ولمن آمن واتبع رسول الله ، وعدم رحمتهم يوم حصارهم وتجويعهم في الشِعب "يوم تقاسموا على الكفر" .

مناط السورة :

﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ ﴾ ، ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾ ، حالة بروز أفراد في المجتمع من الملأ أصحاب الأموال ، يجاهرون بالتكذيب بآيات الله تعالى ؛ في القرآن و في الأنفس والآفاق .. الدالة على أن الله تعالى هو الإله الحق وأن البعث والجزاء حق .. وقد وصل الأمر بين أهل الحق وأهل الباطل إلى " المكابدة " بسبب المخاصمة الشديدة بين الفريقين [1] .

المعالجة :

يُخاطب الله تعالى رسوله خطاباً مباشراً في السورة تثبيتاً له وللمؤمنين معه . وعند ذكره لذلك المتكبّر المجادل بالباطل ، يكون بصيغة الغائب دون الالتفات إليه تحقيراً لشأنه . وكانت المعالجة على النحو التالي :

1 - كما في قوله تعالى : (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً {97}) مريم ، جمع ألـدّ أي جَدِلٌ بالباطل وهم كفار مكة (الجلالين) . وأصل الألدّ : الشّديد اللَّدَدُ ، أي : صفحة العنق ، وذلك إذا لم يُمكن صرفه عمّا يريده ، وفلان يَتَلَدَّدُ ، أي : يتلفّت (المفردات) .

1- (1-4) ، أقسم الله سبحانه قسماً مؤكداً بالبلد الحرام . وبالوالد والولد ، فبهما يكون حفظ النوع الإنساني وبقاء العمران .. (جواب القَسَم) على أن الإنسان خُلق مغموراً في المشاق ومعالجة الشدائد ، منذ نشأته إلى منتهى أمره .. فهو يتحمّل المشاق والمتاعب في فعله في جميع مراحل حياته الدنيا ، من مولده حتى وفاته ، فهي دار ابتلاء ..

وأشد ما تكون المكابدة ، عندما تكون الغاية التي يسعى إليها الإنسان مصيرية ، ويكون السير لتحقيقها في جو من الصراع .. كما كان عليه حال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين ، مع الملأ من قريش في البلد الحرام ، مكابدة كل منهما الآخر .. وهو ما يمكن أن يُفهم من الجملة المعترضة :

﴿ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ ﴾ البلد ، يعنى : ومن المكابدة أن مثلك – على عِظم حُرمتك – يُستحل بهذا البلد الحرام كما يُستحل الصيد في غير الحَرَم . فقريش وملؤها يُحرّمون أن يَقتلوا بها صيداً ويَعضدوا بها شجرةً ، ويَستحلّون إخراجك وقتلك [1] ..

فجاء تقرير سنة " المكابدة " بهذا الشكل الجازم – من ناحية – تفسيراً لحقيقة ما كان يجده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مشقة وعناء (مكابدة) في حمل رسالة الله للناس ، طمأنةً لنفسه وحثاً له على الصبر وتثبيتاً لقلبه ، فالأمور بيد الله عزّ وجلّ وحده ، وحسب تقديره وسننه .. يصرّفها كيف يشاء. ومن ناحية أخرى ، تعجيباً من حال أهل البلد الحرام في عداوتهم ، وكشفاً للملأ وأئمة الكفر منهم ولحقيقة موقفهم من الرسالة وحَمَلتها ، وبياناً لفساد حججهم في تكذيبهم بالحق .. والآيات التالية تتضمّن مُحاججة لواحد منهم :

2- (5-20) ، وسنتناولها بشيء من التفصيل :

- (5-7) ، والاستفهام هنا ، للإنكار والتوبيخ لأولئك الملأ من المشركين الذين اغترّوا بقوتهم ، فآذوا حَمَلة الرسالة ؛ نبي الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إيذاء شديداً .. أي ، كيف يظن ذلك الإنسان المغرور بسلطانه وأمواله .. أن الله عزّ وجلّ لن يقدر عليه وعلى حسابه ؟! والله هو الذي خلقه ابتداء وقدّر عليه المشقة – سنّة المكابدة – في شؤون حياته كلها ، وقهَره عليها .. ويقول مشككاً : أنفقت أموالاً

1 - الأصل في " المقسم عليه " (جواب القسم) أن يُلقي ظلاله على " المقسم به " فلا بد من مناسبة بينهما .. فـ " المقسم عليه " : بيان أن من سنة الله في خلْق الإنسان ، أن جَعَله مغموراً في تعب ومشقة ؛ في كَبَد.. فما مناسبة ذلك للمقسم به؟ الجواب : (البلد) هي مكة ، وأهم خصائصها أنها حرام . و (حِلّ) بمعنى حلال ، وعلاقته الظاهرة والمباشرة بكل من البلد الحرام ، ورسول الله ، وخلْق الإنسان في كبد ، أن قريشاً وملأها يُحرّمون أن يَقتلوا بالبلد الحرام صيداً ويقطعوا بها شجرةً ، بينما هم يَستحلّون رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.. سبَّه وشتمَه ، وأطلقوا ألسنتهم بكل قالة سوء فيه ، بل وتجاوزوا هذا إلى التعرض له بالأذى المادي حتى لكادوا يرجمونه .. فالمشركون لم يرعوا فيه حرمة القرابة ، ولا حرمة البلد الحرام الذي يأوى إليه . (وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ{3}) البلد ، من المناسب لـ "جواب القسم" أن يبقى الوالد وما ولد على عمومه - وهو اختيار ابن جرير - أي هذا التوالد الذي يقع بين الناس .. فكل والد ، هو مولود ، وكل مولود ، سيكون والداً ، وبهذا ، يتصل النسل ، وتكثر المخلوقات ، وتُعمّر الأرض .. وهذا كله مصبوغ بصبغة المكابدة ، من نزول آدم وحواء عليهما السلام .. حتى نهاية الحياة الدنيا . وفي الحياة الآخرة يواجه كل إنسان ثمرة مكابدته .. إن خيراً فخير ، وإنْ غير ذلك فعكسه .

وفي المحصّلة ، فإن أهل الحق وأهل الباطل يكابد كلٍ منهما الآخر . فالأول يكابد في سبيل الله الإله الحق ، والآخر في سبيل " الطاغوت " بأشكاله وأنواعه .. هوى النفس وشهواتها ، والملأ ، وسدنة الأوثان .. فالكل يجاهد ويكابد ويتعب ، من أجل بلوغ الغاية التي يبتغيها . كما في قوله تعالى : {وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً (104)}النساء

كثيرةً فيما أهوى وأشتهي فمن يستطيع أن يحصيها عليّ ويحاسبني ؟ فكيف يظن أن أعماله وإنفاقه الأموال كانت بلا رقيب ، ولم يحصها عليه أحد ؟! ألا فليعلم أن الله تبارك وتعالى الذي خلقه وركبّه على هذه الصورة البديعة اللطيفة .. قادر على كل شيء وعليم بما خلق ، وعِلْمه محيط بجميع خلقه ، وسيحاسبه على الصغيرة والكبيرة ، فبالقدرة والعلم يحصل الجزاء .

- (8–10) ، وهذه بعض آثار علم الله المحيط بهذا الإنسان ، وقدرته – عزّ وجلّ – الغالبة ، وحكمته في خلقه لذلك الإنسان ، فخالقه عليم به وقادر عليه . وقد وردت باسلوب الإستفهام التقريري زيادة في إلزامه الحجة :

✓ ألم نخلقه ونجعل له عينين ينظر بهما ويبصر؟ ..

✓ ألم نخلقه ونجعل له لساناً وشفتين ليقدر على النطق والإبانة عما في نفسه ؟ ..

✓ ألم نخلقه ونجعل له هداية ، أي قدرة على التمييز بين طريقي الخير والشر ، بين ما ينفعه وما يضرّه ؟ [1]..

فهذه النّعم التي يتمتّع ذلك المنكر للحساب والجزاء ، إنما هي من عملنا .. فكيف يكون خالق الناس وواهبهم حواسّهم وملكاتهم .. وواهبهم العقل والعلم (الهداية) .. غير قادر عليهم وغير عالم بأحوالهم ؟!! [2]

- (11–18) ، وبعد ما سبق من التذكير والبيان ، جاء الحث المباشر لذلك الإنسان على فعل الخير بدل الشر . فالفاء في قوله تعالى : ﴿ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝١١ ﴾ البلد ، للتفريع (للبناء) على ما تقدم . والمقصود بهذه الآية الحض على اقتحام العقبة التي في نفسه ، والتي تحول بينه وبين أن يكون من أصحاب

---

1 - والهداية هنا عامة : الخَلقية والشرعية ، أي هداية الفطرة ، وهداية العقل ، وهداية الوحي والشرع . وبمجموع أنواع الهداية يستطيع الإنسان التفريق بين طريقي الخير والشر ، وبوضوح تام كتبيّن الطريقين العاليتين ، لا لبس بينهما، وقد هيَّأ الله جلّ وعلا الإنسان للاختيار .. كما في قوله تعالى في سورة الإنسان : (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً{1} إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً{2} إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً{3}..الخ) . ((أخرج الطبري بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : (وهديناه النجدين) قال : الهدى والضلالة . قال الحافظ ابن حجر: أخرج الطبراني بإسناد حسن عن ابن مسعود قال : (النجدين) سبيل الخير والشر . وصححه الحاكم ، (فتح الباري 704/8))) . أنظر (موسوعة الصحيح المسبور) - حكمت ياسين .
((النَّجدُ: ما خالف الغور .. وكل شرفٍ من الأرضِ استوى ظهره فهو نجدٌ، ويُجمع على أنجاد،.. ويقال: هاهنا الطريقُ الواضحُ، والطريقُ الواضح يُسمى نجداً، وقوله تعالى : (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) [البلد/10] أي طريق الخير وطريق الشرّ. وأمر نجدٌ : واضحٌ ، وطريقٌ نَجدٌ هادٍ ، ونَجَدَ الأمرُ ينجُدُ نجودا ، أي استبان ووضح فهو ناجِدٌ)). (كتاب العين) - الخليل الفراهيدي . ((وإنما سماهما الله نجدين ، للإشارة إلى أنهما واضحان كطريقين عاليين يراهما ذوو الأبصار ، وإلى أن فى كل منهما وعورة يشق معها السلوك ، ولا يصبر عليها إلا من جاهد نفسه وراضها . وفى ذلك إيماء إلى أن طريق الشر ليست بأهون من طريق الخير ، بل الغالب أن طريق الشر أصعب وأشق وأحوج إلى بذل الجهد حتى تُقطع إلى النهاية وتوصّل إلى الغاية)) . أنظر (تفسير جزء عم) للشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد . نقول : وهذا يتوافق مع قوله تعالى : (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ{4}) البلد .

2 - كما في قوله تعالى في سورة الملك :(أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ{14}). وسورة فصلت: (وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاء اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ... وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{21} وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ => كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ{22} وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنْ الْخَاسِرِينَ{23}) . وهذا التكريم للإنسان بالخلق وبالعقل دليل على أن الله - جلّ ثناؤه - لم يخلقه عبثاً .. لذلك أنزل الله الكتب وبعث الرسل ، هداية للناس . أنظر (" تبيان" سورة التين) .

الميمنة .. أي ، فهلا انتفع بما هيَّأناه له ، دون تأخير أو تردد – وقد سمع آيات الله ورسالته تُتلى عليه – وتخطّى من غير روية (اقتَحَم) العقبة التي تحول بينه وبين اتباع الحق النجاة من النار ؟!. والمعنى ، أفلا يكون نجد (طريق) الخير أحبّ إليه من طريق الشر [1] ..

ثم قال تعالى : ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢﴾ البلد ، والاستفهام لتفخيم شأنها ، والتهويل من أمرها ، والتشويق إلى معرفتها .. ثم بينها بأنها الإيمان والعمل الصالح ، فالعقبة بالنسبة للكافر هي النجد الأخرى ؛ نجد الخير ، أي الإيمان والعمل الصالح ، لأنه سالك لنجد الشر ، بل جادّ السير فيها .. وقد استمرأ المعاصي والآثام ، وزيّنت له نفسُه – ومعها شيطانُه – مكابدة سلوكها فلم تعد عقبة في نفسه وقد انتكست فطرته [2] ..

فالحثّ هنا ، حثّ على اقتحام نجد الخير التي أصبحت صعبة على نفسه ، صعوبة صعود العقبة في الجبل . أي فليكن نجد الخير ومكابدتها أحب إليه من الأخرى ، فليقتحمها ويبادر إلى الدخول فيها بقوة وبدون رويّة أو تردد ، ودون تأثر بهوى النفس وشهواتها : فليكن ممن يعتقوا الرقاب ، ويطعموا الطعام لليتامى والمساكين .. ثم ليكن– فضلا عن كل ذلك – من الذين آمنوا بأنه لا إله إلا الله ، وممن أوصى بعضهم بعضاً بفضيلة الصبر على مكابدة طاعة الله وحمل رسالته ، وبفضيلة التراحم بعباد الله ومواساتهم [3] .

---

1 - قال الجمل في حاشيته على الجلالين : (فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَة) أى : فهلا اقتحم العقبة ، فلا بمعنى هلّا التي للتحضيض . أى : الذي أنفق ماله في معصية الله تعالى وفي عداوة النبي صلى الله عليه وسلم ، هلا أنفقه في اقتحام العقبة فيأمن . نقول : هذا هو الراجح في معنى (فلا) فهي ليست حرف النفي ، بقرينة عطف قوله : (ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ..) على ما سبق . وكذلك اسم الإشارة في قوله : (أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ{18}) البلد ، فهو يشير إلى الذين يقومون بتلك الأعمال الصالحة وأنهم من أهل اليمين ، لا إلى الذين لم يقوموا بها .

واقتحام الشيء ، أي دخوله بشدة وبدون رويّة . يقال : اقتحم الجنود أرض العدو ، إذا دخلوها بقوة وسرعة ، وبدون مبالاة بارتكاب المخاطر . والعقبة في الأصل : الطريق الوعر في الجبل يُرْتَقَى بمَشقةٍ .

2 - فالعقبة هي **الطبائع المكروهة** التي في نفوسهم وقد بيّنتها آيات سورة الفجر هذه : {..كَلَّا بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (17) وَلا تَحَاضُّونَ عَلى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (18) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (19) وَتُحِبُّونَ الْمالَ حُبًّا جَمًّا (20)} . فالتساؤل {وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12)} يأتي هنا في سياق المبالغة في التعجب من نفسية هذا المكذّب المنكوس الفطرة المتبع لهواه ، فلا يأتي بخير أبداً . ومن جهة أخرى فيه تحقير له من أن يكون سيداً مطاعاً ، فكيف يقبل الناس بمثله سيداً عليهم ، كما في آيات سورة الماعون : {أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ(3)} . وفي آيات سورة الليل : { فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى (14) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (15) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (16) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (17) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (18) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى (19) إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (20) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (21)} . وفي سورة القيامة : {أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ(3) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ (4) بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (6)} .. الخ ، وكل ذلك في سياق كشف واقع الملأ (كشف الطاغوت) من حيث فسادهم وإفسادهم ، وامتناعهم عن رحمة الضعاف من الناس ، وبيان سبب رفضهم للهداية واتباع الحق .. فكيف يُتّبعون ويُطاع أمرهم ! ويُترك رسول الله ، ودين الله ! . هذا ، وكثيراً ما وصف الله تعالى الملأ الكافرين بأنهم غلاظ القلوب قساتها ، ولا يرحمون الضعفاء ويقسون عليهم ، بل ولا يحثّون الناس على فعل الخير إليهم كما في الآيات السابقة .

3 - و « ثم » هنا للتراخي الرُتَبيّ ، للدلالة على أن ما بعدها (الإيمان) أصل لقبول ما قبلها (الأعمال الصالحة). وإنما اشترط الإيمان مع فعل أعمال الخير لأن مَن فَعَلها دون أن يكون مؤمنا لم ينتفع بها ، ولم يكن له ثواب عليها ، إذ لا ينفع مع الكفر بِـرّ ، فأعمال البرّ إنما تنفع مع الإيمان ، ولا يقوم بها إلا أهل الإيمان .. فالإحسان إلى ضعاف الناس وإتباع الحق ، أمران ثقيلان جداً على نفس الكافر المنكر ليوم الحساب ، كالذي يتكلف صعود العقبة ، لأنه منكوس الفطرة متّبع لهواه ، فلا يأتي بخير .. كما بيّن - سبحانه - صعوبة وشدة الإيمان على من لم يرد الدخول فيه ، فكرهه . في قوله تعالى : { فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ (125) } الأنعام . ((وقد قال حكيم بن حزام بعد ما أسلم : يا رسول الله ، إنا كنا نتحنّث

وهؤلاء الذين آمنوا بالله واليوم الآخر وقاموا بأعمال الخير تلك طاعة لله ، اي الذين اختاروا أن يكابدوا في صعود طريق الخير وسلكوها .. أولئك هم السعداء أصحاب الكرامة عند الله .. الذين يؤخذ بهم يوم الحساب ذات اليمين إلى الجنة .

- (19-20) ، أما الذين كفروا بآيات الله البيّنات ، سواء التي في القرآن أم في الأنفس والآفاق – وقد نصبها الله تعالى دليلاً على الحق ؛ على نجد الخير : الإيمان والعمل الصالح – أي الذين أصرّوا على مكابدة صعود نجد الشر وسلوكها .. أولئك هم الأشقياء أهل الإهانة والغضب والعذاب ، الذين يؤخذ بهم يوم الحساب ذات الشمال إلى النار ، والتي ستكون عليهم مُطبَقة مُغلّقة أبوابها ، فلا محيد لهم عنها ولا فرج ، ولا خروج لهم منها آخر الأبد .. والعياذ بالله .

***

36- (سورة الطارق)

ربط السورة بخط السير :

السورة تأتي في " الطور الرابع " ، في إطار التهيئة للفصل بين الفريقين وإنزال العذاب الأكبر بالكافرين : ﴿ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴿١٧﴾ ﴾ الطارق ، ((يقول : أمهلهم آنًا قليلا غَيْرَ مُسْتَعْجِلٍ لَهُمُ الْعَذَابَ . وأنظرهم للموعد الذي هو وقت حلول النقمة بهم . كَمَا قَالَ: ﴿ نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٢٤﴾ ﴾ [لُقْمَانَ])) [1] .. فقد استحقت قريش وملؤها العذاب لكنّه آتيهم في موعده المقرر ..

((كأنما يقول له ربه : إنك مأذون فيهم . ولكن أمهلهم ، أمهلهم رويدا.. فهو الوُد العطوف والإيناس اللطيف يمسح على الكرب والشدة والعناء والكيد ، فتنمحي كلها وتذوب.. ويبقى العطف الودود..)) [2].

مناط السورة :

﴿ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٥﴾ ﴾ ، ما يقوم به الكفر من أعمال وترتيبات (كيد) لصدّ الناس عن العبودية لله جلّ وعلا ، كإثارة الشبهات والتلبيس بين الحق والباطل ، وإيذاء من يعبد الله تبارك وتعالى ويحمل دعوته [3].

بأعمال في الجاهلية ، فهل لنا منها شيء ؟ فقال عليه السلام : { أسلمت على ما أسلفت من الخير })) => تفسيرالقرطبي .. أي أن حبك للخير وقيامك به كان سبب إسلامك .. بمعنى ، أن مَن كان في نفسه بقية خير وفطرة سليمة أدى به ذلك إلى اتباع الحق حين يراه ..

1 - أنظر تفسير الطبري ، وابن كثير .

2 - في ظلال القرآن - سيد قطب .

3 - " الكيد " هو : القيام بأعمال وإعداد ترتيبات تُلجيء بها غيرك للخضوع لمرادك . أنظر (تبيان سورة الفيل) و (تبيان سور الإخلاص والفلق والناس) . وأنظر (مفاهيم ومصطلحات رسالية) - المكر والكيد في القرآن .

المعالجة :

1- (1-3)، القَسَم بآيات الله عزّ وجلّ في الكون – تنبيهاً إلى القُدْرة والعلم – على أنه ما من نفس إلا وقد أُوكل بها مَلَك رقيب يحفظ عليها أعمالها لتحاسب عليها يوم القيامة .. ذلك أن الإنسان لم يُخلق عبثاً وله مصير عند الله تعالى .

2- (4-10)، ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ...﴾ الطارق ، الفاء تفيد الترتيب على ما سبق [1] .. لإقامة الحجة على منكِر البعث بأن إعادة خلق الإنسان ليست أصعب من خلقه أوّل مرة ، فالله الذي خلق الإنسان من هذا الماء البسيط .. لَقادر على رجعه إلى الحياة بعد الموت .. فبالعلم والقدرة يكون الجزاء .. ومن ثم إنذاره بيوم الرجوع إلى الله تعالى ، يوم تُكشف خبايا الصدور ويُعرف أنّها كانت تُبطن وتُخفي علمها بأن رسالة الله هي الحق وتُظهر وتعلن الكفر بها . وأنه لن يكون للإنسان يومئذ من قوة يمتنع بها من دون الله جلّ وعلا ، أو يدفع بها عذابه ، لا قوة في ذاته ولا من ناصرٍ خارج ذاته .. ﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴿٩٥﴾﴾ مريم

3- (11-14)، التأكيد بالقَسَم [2]، على أن القرآن أرسله الله تبارك وتعالى إلى الناس بالحق وأن ما فيه هو الحق ، لا عوج فيه ولا مزاح .. بل هو قول فصل بَيْنَ الحق والباطل ، ومصير الإنسان عند الله عزّ وجلّ سيكون حسب موقفه منه ، فهو منهج العبادة الذي يجب أن يُتّبع ، وعليه يكون السؤال والحساب.

4- (15-17)، إن المكذبين بالرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم وبالقرآن ، برغم تبليغهم الحُجّة بيّنة واضحة ، يُدبّرون بكل ما أوتوا من قدرة (يكيدون) ليدفعوا الحق ويؤيدوا الباطل ، والله تبارك وتعالى يُدبّر (يكيد) لنصرة الحق وإظهاره ولو كره الكافرون ، وإنزال العذاب والهلاك القريب بهم وقد أصرّوا على الكفر .

5- فيكون خطاب السورة (المعالجة) فيه تسلية وتثبيت لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم والجماعة المؤمنة معه ، من خلال التأكيد على أن " كيد " الكفر سوف يُهزم ، ذلك أن كل ما يقومون به ، الله يعلمه وتحت سمعه وبصره جلّ وعلا .. فمعركتهم مع الله عزّ وجلّ وليس مع أهل الرسالة وحملتها ، فكيد الله جلّ جلاله ضد كيدهم ؛ فمن الذي سينتصر ؟!! . وكما أن النجم الثاقب – أي المضيء

---

1 - {..إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (4) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5)..} الطارق ، أي إن أراد الإنسان الخلاص من تبعات ما يكتبه عليه الحافظ ، فلينظر مم خُلق ، ليهتدي بالنظر في آيات الله فيؤمن ، فينجو . كما في قوله تعالى :{كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (23) فلينظر الإنسان إلى طعامه (24)..} عبس ، إذ التقدير : إن أراد الإنسان أن يقضي ما أمره الله ، فلينظر إلى خلق الله لطعامه..

2 - (وَالسَّمَاء ذَاتِ الرَّجْعِ {11} وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ {12}) أي ، أقسم بالسماء ذات المطر المتكرر، وبالأرض ذات الشق عن النبات .. تنبيهاً إلى قدرة الله تعالى على بعث الحياة ، ومن ثم بعث الناس يوم القيامة لمحاسبتهم على موقفهم من رسالته لهم . كما في قوله تعالى : (يا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ{5} ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{6}وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ{7}) الحج .

المتوهج – يأتي به الله طارقاً في الليل مبدداً ظلمته ووحشته ، كذلك سيأتي الحق والنور من الله ليضيء حياة الناس مزيلاً ظلمة الكفر والشرك . وهذه بشارة لأهل الإيمان بقرب النصر وإعلاء كلمة الله جلّ وعلا ، ونذارة للكافرين بالعذاب ..

وقد حقق الله عزّ وجلّ وعده ، حيث مكّن للمؤمنين في المدينة .. وأخذ الكافرين يومَ بدر ، يوم الفرقان .. قتلاً وأسراً .

***

37- (سورة القمر)

<u>ربط السورة بخط السير :</u>

السورة تأتي في " الطور الرابع " ، في إطار التهيئة للفصل بين الفريقين وإنزال العذاب الأكبر بالكافرين ، وذلك :

1- السورة إنذار نهائي للمصرّين على التكذيب بالحق ، حيث شبّه كفار قريش بالمكذبين من الأمم السابقة وقد دخلوا في سنة العذاب مثلهم : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ القمر ، ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ القمر ، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ القمر [16، 18، 21، 30، 37، 39] ، وأن العذاب آتيهم في زمانه ومكانه الذي يقدّره الله جلّ وعلا له ، وقد أصبح قريباً :

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ ﴾ القمر

2- أمر الله تعالى رسوله بتركهم والإبتعاد عنهم وقد اصبح الكفر موقفاً نهائياً لهم ، وهم يكذّبون بالعذاب : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾ **فَتَوَلَّ عَنْهُمْ** يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ ﴾ القمر [1] .. أي ، إنهم لن يؤمنوا مهما سمعوا من الآيات .. فاتركهم حتى يأتيهم العذاب ..

1- من المهم أن نذكّر أنه في عرف القرآن الكريم : " الإعراض عن " أمر ما ، ، يختلف عن " التولّي عن " أمر ما . ((فعدم الإستجابة لدعوة الداعي لها مراتب ، يُعبّر عنها بالكلمات التالية في الآيات القرآنية ؛ وهي مرتبة تصاعدياً ؛ من الأدنى إلى الأعلى ، في درجة (مستوى) شدة الرفض للدعوة : (اللّيّ - الإعراض - النأي بالجانب أو (ثَني العِطْف) - الإدبار - التولّي - العداء - الغيبة والنميمة - مواقف الهزء والسخرية والشتائم - المكر في الخفاء - الكيد - المواجهة بالقتال) . وتفسير بعض هذه المستويات ببعض ، فيه تسامحٌ ونقصٌ في التدبّر لكلام الله عزّ وجلّ ، ولدلالات الكلمات في أوضاعها اللّغوية والإصطلاحية)) . أنظر كتاب (قواعد التدبّر الأمثل لكتاب الله عزّ وجلّ) (ص439) - للشيخ الميداني .

وقد جاء استعمال بعض هذه الكلمات (المصطلحات) في نص واحد إشارة إلى اختلاف مفهومها . ويمكن أيضاً ملاحظة ورودها في سياقات مختلفة في القرآن الكريم : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ... فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن **تَلْوُواْ** أَوْ **تُعْرِضُواْ** فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً } النساء135 . { وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ **أَعْرَضَ** وَ **نَأَى بِجَانِبِهِ** وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً } الإسراء83 . { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوْتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ **يَتَوَلَّى** فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم **مُّعْرِضُونَ** } آل عمران23 . وفي المقابل ، أمر الله رسوله باتخاذ مواقف من المشركين المكذّبين ، كمعالجات لمواقفهم من الحق الذي بلغهم ، حيث أمره بـ : الانتظار ، أو الصبر الجميل ، أو الهجر الجميل لهم ، أو الإعرض عنهم، أو التولّي عنهم .. =>

مناط السورة :

﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ ﴾ القمر ، ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧ ﴾ القمر ، استمرار تكذيب المجتمع ومَلَئه اتّباعاً لأهوائهم ، وهم معرضون عن الآيات الكثيرة المتواترة ، في القرآن والآفاق – ومنها سنة الله في إهلاك الكافرين في الدنيا وعذابهم في الآخرة – الدالّة على أن الرسول صادق وأن الرسالة حق من ربّ العالمين [1] .

هذا ، وحقيقة الإعراض عدم الالتفات إلى الشيء بقصد التباعد عنه . مشتق من العُرض- بضم العين- وهو الجانب ، أي أن يُظهر جانبه لغيره ، ولم يُظهر له وجهه .. ثم استعمل استعمالا شائعا في الترك (عدم الإهتمام) ، والإمساك عن المخالطة والمحادثة .

بينما "التولّي عن" هو أن يجعل ظهره أو وراءه أو دبره جهة الشيء الذي يتولّى عنه ، أي يذهب عنه و يبتعد وقد جعل وجهه للجهة المقابلة (ولّى مدبرا) .

فـــ " التولّي " درجة تأتي بعد " الإعراض " ، ففيها معنى الانفصال والبعد ، وتحول الذات عن مكانها . وكما يُفهم من ظاهر استعمال لفظة (**تولّى أو تولّوا**) في أغلب ورودها في الآيات القرآنية حيث ترد بمعنى : انصرف الشخص على الحال التي هو عليها - حسب السياق - ولم يرجع . يعني أنه موقف نهائي . كما في قوله تعالى : (هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن **تَتَوَلَّوْا** يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ {38}) محمّد . (.. وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ **تَوَلَّواْ** وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ {92}) التوبة . (.. فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَإِن **تَوَلَّوْاْ** فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتَّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً {89}) النساء . (سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا **وَلاَّهُمْ عَن** قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا .. {142}) البقرة . أنظر بحث (الإعراض عن ، والتولّي عن ، في القرآن الكريم) - مفاهيم ومصطلحات رسالية (الجزء السادس) .

1 - {وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ(2)}، ((إن وقوع كلمة آية - وهي نكرة - في سياق الشرط يفيد العموم . وجيء بهذا الخبر في صورة الشرط للدلالة على أن هذا ديدنهم ودأبهم)) . (التحرير والتنوير) - ابن عاشور .

هذا ، ونحن نقول بثبوت آية انشقاق القمر ، لدلالة النص القرآني وللروايات الثابتة . ونتوقف في تعليلها الذي ذكرته بعض الروايات أنها جاءت في سياق التحدّي للمشركين لإثبات نبوة محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وذلك :

- من المعلوم أن القرآن هو الآية المادية (المعجزة) الوحيدة التي كان بها التحدي لعموم قريش ، بل ولعموم البشرية ، بأنه من عند الله سبحانه وتعالى ، وفي سبيل إثبات نبوة محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم . أما سائر الآيات المادية (المعجزات) التي ثبتت لرسول الله وحصلت معه - ومن أكبرها الإسراء والمعراج - فكانت إكراما من الله لعبده ورسوله ، وتثبيتاً لقلبه ومن معه من المؤمنين .. لا على سبيل التحدي بناء على طلب المشركين ..

- من سنة الله تعالى في الآيات المادية أنه إذا طلبها الكافرون دليلاً على صدق الرسول ، وكذّبوا بها ، أهلكهم الله لا محالة. لذلك لم يرسل الله تعالى رسوله الخاتم محمد بآيات من نوع الآيات التي جاءت مع الرسل قبله بناء على طلب الكافرين ، كما بيّنه قوله تعالى : { وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ، وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا، وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً (59)} الإسراء . فحكمة الله اقتضت منع تحقيق الآيات المادية التي كانوا يطلبونها ، لِما كان من تكذيب الأولين بها حتى لا يُهلك القرى . لهذا في كل مناسبة طلب المشركون آية من رسول الله على سبيل التحدي واثبات صدقه ، كان الرد القرآني يفيد أن هذا الأمر خارج عن حدود وظيفته ، وأنه ليس إلا بشراً رسولاً . وكان يردّهم إلى القرآن نفسه يتحداهم به بوصفه الآية المادية (المعجزة) الوحيدة لهذا الدين : { قُلْ : لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً . وَلَقَدْ صَرَّفْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّاكُفُوراً . وَقالُوا : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً . أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ- كَما زَعَمْتَ- عَلَيْنا كِسَفاً ، أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلًا . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ ، وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ. قُلْ : سُبْحانَ رَبِّي! هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا؟} [الإسراء\88-93] . ومن هنا ، كان اتجاه هذه الرسالة الأخيرة هو مخاطبة القلب البشري بالقرآن وحده ، وما فيه من إعجاز ظاهر ثم توجيه هذا القلب - عن طريق القرآن - إلى آيات الله القائمة في الأنفس والآفاق ، وفي أحداث التاريخ سواء.=>

المعالجة :

السورة متميزة بأسلوبها ، وبعتبر " التميّز بالأسلوب " من خصائص السورة التي تعالج الطور الرابع إجمالاً وخاصة قبيل نزول العذاب ، حيث المفاهيم هي نفسها .. خطاب النذارة .. إلا أن أسلوب عرضها يأتي قوياً ومؤثراً ، وكأنها تُسمع لأول مرة (تصريف الآيات) ..﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۝ ﴾ القمر :

1- التأكيد – في مختلف مناسبات السورة وفقراتها – على أن القرآن الكريم فيه الكفاية والدلالة الواضحة والحجة القاطعة على الحق ، لمن أراد الهداية ، وقد يسّره الله تعالى للعظة والإعتبار :
﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ القمر [17، 22، 32، 40] .

2- (3-5)، كشـــف حقيقة موقف المكذبين من الملأ ومن تبعهم ، ببيان أن الدافع للتكذيب هو اتباع الهوى لا عدم وجود الأدلة الواضحة : ﴿ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ...۝ ﴾ القمر [(1)] ، لذلك فإن السؤال عن أدلة وآيات غير القرآن الكريم وآياته ، إنما هي محاولة لصـرف الجماعة المؤمنة عن الآسـتمرار في طرح الحق (خطاب النذارة) في المجتمع .. ولصرف عامة الناس عن سماع آيات الرسالة حتى لا يتأثرون بها فيتبعون الرسول .
وتقريع المكذبين على عدم ارعوائهم ، بينما جاءهم القرآن بالحكمة البالغة المقنعة لمن يريد أن يقتـنع وينجو من المصـير الرهيب .. وبأنباء الأولين ومصـائر المكذبين ، ما فيه العبرة التي تحمل على الازدجار والارعواء .. فإذا هم لم يزدجروا بتلك الحكمة بأدلتها وبيّناتها .. فلن يزدجروا بالإنذار

– هذا ، والرواية التي تقول : إن المشركين سألوا نبي الله آية ، فانشق القمر .. تتعارض مع ما بيّناه في ما سبق ، مما هو ثابت بالقطع من سنة الله في الرسالة الخاتمة والرسول الخاتم في ما يتعلّق بمنع الآيات المادية . مع العلم أن روايات أخرى ثابتة ليس فيها إشارة إلى أن انشقاق القمر كان استجابة لطلب المشركين على سبيل التحدي .

– ومن ثَم ، نثبت آية انشقاق القمر .. ونتوقف في تعليلها الذي ذكرته بعض الروايات . ونكتفي بإشارة القرآن إليه مع الإشارة إلى اقتراب الساعة . باعتبار هذه الإشارة لمسة للقلب البشري ليستيقظ ويستجيب .. فانشقاق القمر إذن كان آية كونية يوجه القرآنُ القلوبَ والأنظار إليها ، كما يوجهها دائما إلى الآيات الكونية الأخرى ويعجب من أمرهم وموقفهم إزاءها ، كما يعجب من مواقفهم تجاه آيات الله الكونية الأخرى. أنظر تفاسير – ابن كثير ، الألوسي ، الشوكاني ، القاسمي ، ابن عاشور ، سيد قطب ، رحمهم الله .

– وعلى العموم ، آية شق القمر هي آية مادية حصلت ، فهي حجة على من رآها فقط ، كما هي طبيعة سائر الآيات المادية (المعجزات) . فهي بالنسبة للمؤمنين الآن خبر يصدّقون به بالغيب ، ولا حجة فيها على الكافرين ، إلا في حالة توفّر الآن دليل حسي على القمر نفسه ، كأن يوجد لذلك الإنقسام أثر على سطح القمر ، عندها تعود لتلك الآية حجيتها لثبوت أثرها . مع التأكيد على أن القرآن الكريم هو آية الله الخالدة وحجته القاطعة على كل الناس في كل العصور، والحمد لله .

1- ((وعطْف "اتبعوا أهواءهم" عطف العلة على المعلول لأن تكذيبهم لا دافع لهم إليه إلا اتباع ما تهواه أنفسهم من بقاء حالهم على ما ألفوه وعهدوه واشتهر دوامه. وجمع الأهواء دون أن يقول : واتبعوا الهوى كما قال : {إن يتبعون إلا الظن} [الأنعام:116] ، حيث إن الهوى اسم جنس يصدق بالواحد والمتعدد ، فعدل عن الإفراد إلى الجمع لمزاوجة ضمير الجمع المضاف إليه ، وللإشارة إلى أن لهم أصنافا متعددة من الأهواء : من حب الرئاسة ، ومن حسد المؤمنين على ما آتاهم الله ، ومن حب اتباع ملة آبائهم ، ومن محبة أصنامهم ، وإلف لعوائدهم ، وحفاظ على أنفتهم)) . (التحرير والتنوير) - ابن عاشور

والتخويف .. لأنه بالنسبة لهم ، مجرّد خبر [1].

3- (6-8)، بيان أنهم لن يؤمنوا بالحق مهما سمعوا من الآيات .. وتكليف رسول الله بتركهم :﴿ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ..۝٦﴾ .. فقد اقترب عذاب يوم القيامة ، الذي سيكون يوماً عسيراً عليهم .. وأنهم سيواجهون – قبل ذلك – عذاب الله لهم في الدنيا ، كما بيّن ذلك في المجموعة التالية من الآيات .

4- (9-42)، حيث ضرب لهم أمثلة – بشكل موجز ومكثّف – على سُنّة الله تعالى في الأمم المصرّة على التكذيب بالنُّذر – مثلهم – وقد وقع عليهم عذاب الله جلّ وعلا .. كقوم نوح ، عاد ، ثمود ، قوم لوط ، وفرعون .. الذين كذّبوا بما أنذرهم به رسلهم من العذاب والخزي في الدنيا والآخرة .. وكان التعقيب على كل مَثَل ، بقوله تعالى :

﴿ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٢١ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝٢٢﴾ القمر

للتأكيد على الحقيقتين البارزتين في معالجة السورة لمناطها ، وهما :

- أن سُنّة الله تعالى في تعذيب المكذّبين بالنُّذُر .. مستمرة ، وستطول المكذّبين في كل زمان ومكان .. وقريش منهم .
- أن النجاة لا تكون إلا بالعودة إلى القرآن والاعتبار بما فيه من البيّنات الدالّة على الحكمة والهدى .

5- (43-53)، إعادة تحذيرهم وإنذارهم مرة تلو المرة بأسلوب مؤثر وقوي – أسلوب السورة – بمصيرهم في الدنيا بالتأكيد على ســـنة الله في عذاب المكذبين ، وأنها واحدة لا تتبدل ولا تتغير (43-45) ، وأنها ستطولهم حتماً ، ولن يفلتوا من عذاب الله عزّ وجلّ ، وذلك :

- أنهم ليسوا بأفضل مِمَّنْ سبقوهم بالكفر ..
- وليس لديهم عهد من الله تعالى أن لا يعذّبهم ..
- وقوتهم وجمعهم لن يُغنيان عنهم من الله شيئاً ..
- أنّهم تحت رقابة الله عزّ وجلّ وعلمه وهيمنته ، وكل أعمالهم مَحْصيّة عليهم.. فسيحاسبهم عليها.. فبالعلم والقدرة يكون الجزاء ..
- وقد أهلك الله تعالى مِن قبلهم الأمم الســابقة الشـبيه بهم ، وهي التي جعلت موقف التكذيب بالحق البيّن موقفاً أخيراً لها ..

وكذلك إنذارهم بمصـــيرهم عند الله جلّ وعلا في اليوم الآخر ، والذي هو أعظم بلية وأشــدّ مرارة من عذاب الدنيا .

6- بالنسبة للفئة المؤمنة : طمأنتهم وتثبيتهم في مواجهة هذا التكذيب ، وذلك :

1 - مثل قوله تعالى في سورة يونس : (قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ{101} فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ{102} ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ{103}) .. وهذا يشير إلى " تقارب أجواء السورتين " .

– إضافة لما سلف من بيان سُنّة الله ، والجزاء للمكذبين .. طمأنتهم وتبشيرهم بمصيرهم عند الله تعالى ؛ بجنة ونَهَر في مكانةٍ عُليا عند مليك مقتدر تبارك وتعالى (54–55) ..

– أَمَرهم بأنْ يستمرّوا في سيرهم ويتركوا أمر الكافرين إلى الله عزّ وجلّ ، فمن لم يُرِد الهداية منهم فليتركوه ولا يعودوا إليه مرة خرى ، فعذاب يوم القيامة آتيهم : ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦﴾ القمر .. وقد قرُب – أيضاً – نزول عذاب الدنيا بهم (23–53) .

– توجيه المؤمنين لجعل القرآن الكريم دائماً ، هو مادة الخطاب ؛ تذكيراً و إنذاراً : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ القمر [17، 22، 32، 40] .

***

38– (سورة ص)

<u>ربط السورة بخط السير</u> :

تأتي السورة في الطور الرابع ، وذلك :

1– نزول الآيات (4–8) في مرض موت أبو طالب ، وكان بُعيد الحصار والمقاطعة في الشِّعب.. في نهاية الطور الثالث [1].

2– دخول قريش في حالة التحزّب وجمع القوة (الجند) ، في إشارة إلى إجتماعهم وتحالفهم (تقاسمهم) على مواجهة دعوة الله والذي تجلى في حصار المؤمنين في الشعب ومقاطعتهم .

3– وصف قريش بالكافرين بشكل صريح ومباشر ، وبالمفسدين ، والفجّار .. وهذا نتيجة تطور

---

1 - كما عند الإمام أحمد : [لمّا مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش منهم أبو جهل فقالوا : يا أبا طالب ابن أخيك يشتم آلهتنا يقول ويقول ويفعل ويفعل فأرسل إليه فانهه . قال : فأرسل إليه أبو طالب وكان قرب أبي طالب موضع رجل فخشي إن دخل النبي صلى الله عليه وسلم على عمه أن يكون أرقّ له عليه ، فوثب فجلس في ذلك المجلس فلما دخل النبي صلى الله عليه وسلم لم يجد مجلسا إلا عند الباب فجلس فقال أبو طالب : يا ابن أخي إن قومك يشكونك ، يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول وتفعل وتفعل فقال : (يا عم إني <u>إنما أريدهم</u> على كلمة واحدة <u>تدين لهم</u> بها العرب <u>وتؤدي إليهم</u> بها العجم الجزية) قالوا : وما هي ؟ نعم ، وأبيك عشراً ، قال : (لا إله إلا الله) قال : فقاموا وهم ينفضون ثيابهم وهم يقولون : { أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب } قال : ثم قرأ حتى بلغ { لمّا يذوقوا عذاب}] . أنظر (صحيح أسباب النزول) إبراهيم العلي . فهذا نص في أن نزولها في آخر حياة أبي طالب وهذا المرض مرض موته ، كما في ابن عطية . فتكون هذه السورة قد نزلت في سنة ثلاث قبل الهجرة . أنظر (التحرير والتنوير) - ابن عاشور . وقول رسول الله لهم : (<u>تدين لهم</u> بها العرب <u>وتؤدي إليهم</u> بها العجم الجزية) يشبه قوله تعالى في وصف القرآن : (لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ **ذِكْرُكُمْ** أَفَلَا تَعْقِلُونَ{10}) الأنبياء . (وَإِنَّهُ **لَذِكْرٌ** لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ {44}) الزخرف... (ص وَالْقُرْآنِ ذِي **الذِّكْرِ** (1)) ص : ((ووصف بـ ذي الذكر لأن ذي تضاف إلى الأشياء الرفيعة فتجري على متّصف مقصود التنويه به. والذكر: التذكير، أي تذكير الناس بما هم عنه غافلون ... أو { فيه ذكركم} [الأنبياء: 10] أي شرفكم)) أنظر (التحرير والتنوير) - ابن عاشور . نقول : والمعنيان متلازمان ولا ينفصلان ، فبتذكّرهم بالقرآن وأخذهم له بقوة ، يحصل لهم الشرف والرفعة، في الدنيا والآخرة .. كما قال لهم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .

مواقفهم في الزيادة في الكفر .. ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ ص، فإطلاق وصف الفجور على الكفار يأتي في طور متأخّر ، لتماديهم واستمرارهم على معاصيهم [1] .

4- اقتراب الفصل بين الفريقين – حسب سنن الله في المكذّبين – بإنزال العذاب بقريش ونصر المؤمنين .. بإمارة استعجالهم العذاب في الدنيا إستهزاءً : ﴿ .. إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾ ص ، ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾ ﴾ ص ،
ويكون هذا بعد إنذارهم بالعذاب في بداية " الطور الرابع " .. كما في سورة الشعراء وغيرها ..

5- ورود اسْمَي الله تبارك وتعالى : ﴿ .. الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ ﴾ ص ، في سياق النذارة والبشارة ، الترهيب والترغيب .. لدفع عباد الله المذنبين للجوء إلى رحمة الله الغفّار فراراً من عذاب الله العزيز .. كما في قوله تعالى : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ الذاريات ، وقوله تعالى : ﴿ .. وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ طه .. ويأتي هذا حين دُنوّ نزول العذاب الأكبر بالكافرين ، لإعطائهم فرصة أخيرة قبل نزول العذاب بهم ليدمّرهم .
وفي نفس السياق – النذارة والبشارة – ورد الاسمان الأحسنان نفسُهما أيضاً في سورتي الزمر وغافر .. وكذلك أتى اسمان آخران لله جلّ وعزّ ، قُرنا معاً لنفس الغرض هما : (العزيز الرحيم) وقد وردا في سور:

---

1 - ((فَجَرَ : أصل واحد هو انشقاق مع ظهور الشيء . ومن مصاديقه : انشقاق الظلمة وطلوع نور وضياء . وانشقاق في الجبل ونُبوع الماء . وانشقاق حالة الإعتدال وخروج أمر مخالف يوجب فسقاً وطغياناً . وانشقاق حالة الإمساك بظهور الكرم)) . أنظر (التحقيق في كلمات القرآن) - حسن المصطفوي . و(معجم المقاييس) - ابن فارس . نقول : فالفجور ليس مطلق معصية بل هو خروجها بعد هتك الستر عنها . وظهورها بعد أن كانت بالخفاء ، وهذا فيه قدر من التحدّي . وأيضاً ، أن يرد الفجور في مقابل التقوى ، التي هي أن تجعل وقاية وستر بينك وبين غضب الله ، وهي فعل إرادي وعن وعي .. يعني أن الفجور هو إظهار للمعصية عن إرادة وقصد وفيه تحدي لله جلّ وعزّ .. ومن هنا كان استعجالهم لعذاب الله : (وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ {16}) ص . وأساس فجورهم واستعجالهم هو التكذيب بوعيد الله جلّ وعلا، والذي أصله اتباع الهوى . هذا ، وقد جاءت سور عديدة تعالج موقف التكذيب : بأن ما يوعدون لواقع .. وأنه لصادق .. وويل للمكذبين .. وكيف كان عذابي ونُذر .. إلخ .
ووَصْف الإنسان الكافر بالفجور ورد في عدة آيات من سور مختلفة ، غير سورة ص ، و يُعد هذا إشارة إلى تقارب أجواء تلك السور . والآيات هي :
{ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ } عبس 42
{ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ } الانفطار 14
{ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ } المطففين 7
{ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً } نوح 27
{ بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ } القيامة 5 . (أنظر تبيان سورة القيامة)
{ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا } الشمس 8 .

الروم ، السجدة ، يس ، الدخان ، والشعراء وقد تكررا فيها تسع مرات .. وأيضاً ، ورد (العزيز الغفور) في سورة المُلك .. والسور السابقة من السور المكية المتعلقة إما بنهاية الطور الثالث أو بالرابع [1] .

مناط السورة :

﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ﴿٢﴾ ﴾ص [2] ، ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ﴿٦﴾ ﴾ ص ، ﴿ جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿١١﴾ ﴾ ص [3] . حالة استكبار الملأ عن اتباع الحق (عزة) ، ومخالفتهم ومنازعتهم لأهل الحق الذين لا يتفقون معهم في ما هم عليه من عبادة للأصنام ، وعادات باطلة (شقاق).. فأخذوا بجمع الناس وحشدهم خلفهم (الأحزاب) ، وحَثّهم على الاستمرار في التكذيب والبقاء على دينهم ونظام حياتهم (العبودية لطاغوتهم) والصبر على ذلك . وعلى هذا الأساس أخذوا بإثارة الشبهات إستهزاءً بالحق وأهله لصرف الناس عنهم .

المعالجة :

1- (1-3)، كشف واقع الملأ وبيان حقيقة الدافع لتكذيبهم ، وذلك : بالتأكيد بأسلوب القسم على أَن القرآن حقٌّ ، وفيه الهداية للخير والشرف والرفعة لمن أخذ به [4] .. وليس كما يدّعي الكفار.. بل هم في موقف تكبّر وأنفة عن اتباع الحق ومخالفة ومنازعة لأهله .. وما ذلك إلا لاتّباعهم أهوائهم ورفضهم الحجج الدالة على الحق ، وأن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم حق . أي تقرير أن الدافع الوحيد لرفضهم للحق ، هو إرادتهم المخالفة والمشاقّة لرسول الله .. فكل ما يأتي به رسول الله مرفوض مردود بالنسبة لهم.. بالرغم من أن ما جاء به رسول الله فيه هدايتهم للخير وشرفهم وعزهم . ومن ثم ، إنذارهم إن لم يتركوا المشاقّة (المخالفة) ويعودوا إلى الحق وأهله ، بعذاب الله في الدنيا كما حصل مع الأمم

---

1 - أنظر الجزء الثالث (المنهج) ، القسم الثالث - فقرة (ب) . و " الطور الرابع " ، في بداية هذا الجزء . وتبيان سورة البروج .

2 - أصل الشِّقاق : إظهار المخالفة على وجه المساواة للمُخالِف، أو على وجه الفضيلة عليه ، وهو مأخوذ من الشِّق أي : كأَنه في شِق غير شِق صاحبه، فهو يترفَّع عليه بأَن يكون معه في شِق واحد، ومثله المعاداة، وهو أَن يكون أَحدهما في عُدْوَة والآخر في عُدْوَة . أنظر (المفردات - الراغب) . والتعبير بـ (في) في قوله تعالى : {فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ} للدلالة على استغراقهم فيهما ، كما يحيط الظرف بالمظروف . والتنكير في (عزة وشقاق) لشدتهما . نقول : " في شقاق " تعني أن الكافرين تجمعوا كفريق واحد (حزب) في شق ، مخالفين للمؤمنين ، متبعين للباطل . وفي الجهة (الشق) المقابلة الفريق الآخر ؛ رسول الله والذين آمنوا معه ، المتبعين للحق . فالحق وأهله هم الأصل الثابت ، وإن كانوا هم القلة والباطل وأهله هم الخارجون المخالفون المنشقون ، وإن كانوا هم الكثرة .

3 - حقيقة الجند : هو التجمّع بقصد النصرة والتقوية . وهذا يقتضي القوة والغلظة . والجَنَد : الأرض الغليظة التي فيها حجارة . ويقال للعسكر الجُنْد باعتبار التجمّع والغلظة . ويقال هم جُنده ، أي أعوانه ونُصّاره .

4 - (ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ{1}) : جواب القسم محذوف يدل عليه ما بعده ؛ الإضراب الذي في الآية الثانية . والمعنى : وحق القرآن ذي الشرف العظيم ، وذي التذكير الحكيم المشتمل على ما ينفع الناس في دنياهم وآخرتهم ..إنه لحق يجب الإيمان به وأخذه بقوة ، (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ{2}) لكن الكافرين لم يؤمنوا به ، لا لخَلَل وجدوه فيه ، بل لأَنَّهم في استكبار شديد عن أتباع الحق ، ومخالفة لله ومنازعة لرسوله ، ولذلك كفروا به . فحرْف (بل) حرف إضراب وهو هنا ، بمنزلة حرف الإستدراك ، والمقصود منه تحقيق أن في القرآن الهداية والشرف لمن آمن به ، وإزالة الشبهة التي قد تعرض في ذلك . ومثله قوله تعالى : {ق والقرآن المجيد ، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم} ق . أنظر (التحرير والتنوير) - ابن عاشور .

السابقة ، حسب سنة الله في الأمم المكذّبة . فعليهم أن يتداركوا أنفسم فيتوبوا ويدخلوا في صف المؤمنين قبل نزول العذاب بهم ، لأنه إذا نزل بهم فاتتهم فرصة أن يقبل الله تعالى توبتهم ، فلا ينفعهم حينئذ إيمانهم ، فيكون مصيرهم كمصير المكذبين السابقين ؛ الدمار والهلاك [1] .

2- (4-10)، حكايةٌ لأباطيلِ الملأ المتفرعةِ عَلى ما حُكي من استكبارِهم وشقاقِهم ؛ فهم لفقدانهم الحجة والبيّنة على باطلهم ، وإفحامهم ببيّنات الحق وصدق رسول الله .. فلا يستطيعون مقارعة الحجة بالحجة .. لجأوا إلى أساليب التهويل والإثارة النفسية من التعجّب والإنكار، ورد الأمور إلى اعتبارات غيبية غير مفهومة ، كالقول : بأن ما يصيبنا من دعوة محمّد ، لِشَيء من نوائب الدهر يُراد بنا ، فلا حيلة معه إلا الصبر والمثابرة عليه حتى يزول . كل ذلك ليُحافظوا على انقياد عامة الناس لهم ، وليَحُولوا بينهم وبين اتّباع رسول الله وما جاء به من الحق :

﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ٦ ﴾ ص

فكشف الله تعالى دوافعهم الحقيقية لكونهم في " عزة وشقاق " : بأنه التشكيك في البيّنات اتباعاً للهوى .. فلن يؤمنوا – إذاً – حتى يعاينوا عذاب الله تعالى ويذوقوه [2] ..

ثم ، وفي سياق الإنكار عليهم – يقرر الله تبارك وتعالى لهم حقيقة أن اختيار مَن يستحق النبوّة إنما هو من شأن الله وحده الذي له مُلك السموات والأرض وما بينهما .. الذي يتصرف في ملكه كيف يشاء هو وحده ، فهو العزيز – أي القوي المنيع الذي لا يُقهر – الوهّاب ، فهو جلّ وعلا ، يَهَب ما يشاء لمَنْ يريد ، وكما يشاء هو وحده عزّ وجلّ ، ولا معقّب لحكمه .. كما وهب الأنبياء من قبل ؛ داود وسليمان وأيوب .. وغيرهم .. فالرسالة من شأن الله رب العالمين ، وهو يختار مَن يشاء من عباده رسولاً ليبلغ رسالته : ﴿ ...ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ ...١٢٤ ﴾ الأنعام [3] .. فإذا أراد الملأ من قريش أن يختاروا واحداً منهم للنبوّة ، فعليهم بداية أن يملكوا السموات والأرض !!

---

1 - {فَنادَوْا ، وَلاتَ حِينَ مَناصٍ}، أي جأروا إلى الله لينجيهم في وقت أو ظرف ليس فيه مهرب ولا خلاص . كما في قوله تعالى :

-{ حَتَّى إذا أَخَذْنا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذابِ إذا هُمْ يَجْأَرُونَ . لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُونَ } [المؤمنون \ 64- 65] .

-{ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ، وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا ، سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ} [غافر \84-85] .

- كما حصل مع فرعون : (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ{90}آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ{91} فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ{92}) يونس .

2 - وهذا الوصف لقريش : بأنهم لن يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، تناوله الله تعالى في سورة يونس بشكل مفصّل في الآيات (88- 98) وضرب الله تعالى لهم مثلاً بفرعون ، ومثلاً آخراً مقابلاً له في قوم يونس ، عليه السلام .

وهذا يُعد من القرائن على تقارب أجواء السورتين .

3 - وقريب من معاني هذه المجموعة من الآيات - الشبهات والردود - تناولها القرآن الكريم في سور أخرى : =>

- (وَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ{30} وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ{31} أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ{32}) الزخرف .

3- (11-16)، وبعد ذلك ، إنذارهم – مرة أخرى – بالعذاب والهزيمة المُرّة ، خاصة الملأ منهم ، كما هي سنّة الله تعالى في الأمم (القرى) التي كذّبت رسله والحق الذي جاؤا به ، وتحزّبت (الأحزاب) وجمعت قوتها (الجند) في عداء رسله وتعذيبهم وإيذائهم .. وأن قريشاً قد دخلوا في تلك السُنّة وأن عقابهم سيكون شديداً مدمراً ، وفي ضربة واحدة فقط :

﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ﴿١٥﴾ ﴾ ص

وبالرغم مما سبق ، أصرّوا على تكذيبهم ، وقالوا بكل استهزاء وفجور : ربنا عجّل لنا نصيبنا من العذاب في الدينا قبل يوم القيامة .

4- (17-48)، وفي سياق معالجة أثر موقف قريش – التكذيب والأذى والتضييق .. (عزة وشقاق) – على رسول الله والمؤمنين معه ، أمر الله تعالى رسوله والمؤمنين أن يصبروا ويعتبروا بمن سبقهم من أهل الإيمان وعباد الله الصالحين الأخيار ، فجاءت هذه المجموعة من الآيات على شكل قَصص مع التعقيب عليها ، وبيانٍ لسنة الله لأخذ العبرة : تذكيراً ونذارة للكافرين ، وبشرى وتثبيتاً للمؤمنين (والجانب المتعلق بالمؤمنين سنؤجله للفقرة المخصَّصة له) . وتتلخص الذكرى للكافرين – المتضمنة في القَصَص – بدعوتهم ليعودوا إلى الله ويُسْلموا له تبارك وتعالى ويتّبعوا رسوله ، وأن يتراجعوا عن موقفهم – العزّة بالإثم والشقاق للحق وأهله – وحينها سيعطيهم ربهم ، العزيز الوهّاب ، أكثر مما عندهم ، فقد أعطى عباده داود وسليمان وأيوب .. عليهم السلام .. عندما استغفروا وأنابوا إلى الله عزّ وجلّ (على النقيض من "عزة وشقاق") أضعاف ما كان عندهم ، فهذا هو موقف عباد الله الأخيار المُخلَصين .. فليكونوا مثلهم ، ففي مواقفهم عبرة وعظة لأولي الألباب .. وهذا فيه تأكيد لدعوتهم لِأَن يأخذوا القرآن بقوة ، ففيه ذكرهم ، أي : هدايتهم للحق وشرفهم وعزّهم .

وفي الآيات (27–29)، في التعقيب على قصة داود عليه السلام ، يأتي تقرير حقيقة أن الله جلّ وعلا قد خلق السموات والأرض بالحق ، فلا بد من الحساب والجزاء للمحسنين وللمسيئين على السواء ، لأن الله تعالى – كما هو مُستقِر في نفوس ذوي الألباب والبصيرة والفِطَر السليمة – لا يمكن أن يُساوي في الجزاء بين الصالح والطالح ، أو المحسن والمسيئ ، أو المتقين والفجّار ..

وهذا تعريض بمشركي قريش ، وردّ على تكذيبهم بيوم الحساب .

- (فَقَالُوا أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ {24} أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ {25} سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ {26}) القمر .. (كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ {42} أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ {43} أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ {44} سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ {45} بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ {46}) القمر

- (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ {1} بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ {2}) ق

- (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَـذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ {2}) يونس .

5- (55-64)، إنذار الكفّار المكذبين – أتباعاً ومتبوعون – بمصيرهم عند الله عزّ وجلّ يوم القيامة إنْ استمروا بالطغيان ، فالجميع مسؤولون عن مواقفهم من الرسالة ، ومصيرهم نفسه . فعلى الاتباع عدم طاعة سادتهم (الملأ) في حشدهم ضد الحق وأهله ، لأنهم سيواجهون نفس مصيرهم [1] ..

6- (65-68)، تلخيص وإجمال لخطاب رسول الله لهم ، وإبراز لأهمية وخطورة الرسالة التي جاء بها من الله جلّ وعلا :

قُلْ يا محمّد لمشركي مكة : ما أنا إلا رسول الله وأنذركم عذابه ، وأقول لكم : إنّ الدين الحق هو الطاعة لله وحده ، فلا إله إلا الله الْواحِدُ بلا ندّ ولا شريك ، الْقَهَّارُ لكل شيء ، وهو الْعَزِيزُ الذي لا يُغلب إذا عاقب العصاة ، وهو مع ذلك الْغَفَّارُ لذنوب من التجأ إليه .. فأنا أنذركم عقوبة الله الذي هذه صفاته وأسماؤه ، فهو الحقيق بأن يُخاف عقابه والحقيق بأن يُرجى ثوابه .

وهذا الذي جئتكم به من الرسالة والنذارة من الله تعالى ، أمر شديد الأهمية والنفع لكم وعظيم الخطورة عليكم ؛ فهو نبأ عظيم .. (**ذِي الذِّكْرِ**) ، لا يُعرِض عن مثله إلا غافل شديد الغفلة ..

7- (69-85)، ثم عزز ذلك بذكر بعض الأنباء عن الملأ الأعلى والمتعلقة بعصيان إبليس لأمر الله تعالى ، وعدائه لآدم وجميع ذريته ، وإرادته إغواءهم ..

ففي ذكرها حجة ودليل على صحة نبوّة محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم ؛ ذلك أنّ ما يُنبّئ به عن الملإ الأعلى واختصامهم ، أمر ما كان لبَشَر العلم به إلا بالوحي من الله .. فـ محمّد رسول الله وصادق فيما يبلّغ عن الله تعالى ، ولا يفرّط في بلاغ ما يُوحَى إليه .

وأيضاً ، في ذكر قصة عداوة إبليس لآدم وذريته : تحذيرٌ لقريش – ولجميع ذرية آدم – من اتّباع إبليس فهو عدوهم اللّدود ، وهدفه إغواءهم ليتركوا صراط الله المستقيم فيضلوا ويشقوا في الدنيا ، ويكون مصيرهم النار في الآخرة . وفيها إنذارٌ لقريش لئلا يكونوا مثل إبليس في تعاليه عن طاعة أمر الله تعالى وتكبّره عن العبودية له جلّ وعلا ، لأنهم سيلاقون نفس مصيره ؛ اللعن والطرد من رحمة الله تبارك وتعالى . حيث عصى إبليس أمر الله عزّ وجلّ بتكريم آدم – عليه السلام – بالسجود له ، تكبّراً وتعالياً (عزة) ، ومخالفة ومنازعة (شقاق) لـ آدم بدافع الحسد له ، كيف يكّرمه الله عليه ، فناصبه العداء هو وذريته . تماماً كما هو موقف قريش من رسول الله (عزة وشقاق) حسداً له كيف يكرّمه الله عليهم بالنبوة ، فناصبوه العداء .

ولم يكتف إبليس بذلك بل تمادى في تكبّره وتعاليه ، فرفض – نهائياً – التوبة إلى الله تبارك وتعالى والعبودية له ، فقطع على نفسه خط الرجوع إلى الله تبارك وتعالى ، وضيّع على نفسه فرصة التوبة – { وَلاتَ حِينَ مَناصٍ } – نتيجة موقفه ذاك .. فكان جزاؤه اللعن والطرد أبداً من رحمة الله تعالى في

1 - وقد يكون في الآية إشارة إلى تجاذب الرأي والمواقف بين القيادات (الملأ) أنفسهم ، وليس بين الأتباع والمتبوعين ، فمن اتخذ موقف (عزة وشقاق) ومن وافقه سيكون مصيرهم واحد . وذلك ، كما حصل عند اختلاف الملأ في غزوة بدر ، في موقفهم من المسلمين : قتالهم أم العودة إلى مكة وقد نجت قافلة أبي سفيان . ولما رجح رأي من يريد القتال - رأسهم أبو جهل - جاءهم العذاب (القتل) جميعهم ، المؤيدين والمعارضين - ورأسهم عتبة بن ربيعة - من الملأ .. بل إن الذين كانوا معارضين - ثم وافقوا - كانوا هم أول القتلى .. عتبة وأخيه وابنه .

الدنيا والآخرة . وقد واجه الملأ من قريش نفس المصير يوم بدر ، يوم الفرقان ، حيث بقوا مصرين على موقفهم (عزة وشقاق) .

8- (86-88)، قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين من قومك ، كإنذار نهائي لهم – مرة بعد مرة ، حرصاً على هدايتهم وعدم تعرضهم لغضب الله وعذابه – قل لهم : لا أطلب منكم أجرًا أو جزاءً على دعوتي لكم وهدايتكم ، ولا أدَّعي أمرًا ليس لي ، بل أتبع ما يوحى إليَّ فقط ، ولا أتكلف تخرُّصًا وافتراءً .. وما هذا القرآن إلا تذكير للعالمين بما ينفعهم من مصالح دينهم ودنياهم.. ولتعلمُنّ– أيها المشركون– خبر هذا القرآن وصدقه ، حين يظهر دين الله ، ويقع عليكم العذاب وتنقطع عنكم الأسباب . وقد علموا ذلك في غزوة بدر ، بعد فوات الأوان .

<u>بالنسبة **للجماعة المسلمة** ، إضافة لما سبق :</u>

وفي سياق معالجة أثر موقف قريش – التكذيب والأذى والمنازعة والاستضعاف .. (عزة وشقاق) – على رسول الله والمؤمنين معه .. ورد ذِكْر ما يلي :

1- بيان مصير المؤمنين عند الله عزّ وجلّ – تثبيتاً وطمأنة لهم – : في الدنيا عزة وشرف ، وفي الآخرة رضوان من الله وجنات النعيم جزاءاً لهم على موقفهم من الرسالة ؛ الإيمان والاتباع . وتذكيرهم بحقيقة أن الله تعالى ما خلق السموات والأرض إلا بالحق ، ومن ثم ، فلا بد من الحساب والجزاء .. وعليه ، فليس هناك مساواة بين المتقين وبين الفجّار ، سواء في محياهم في الحياة الدنيا أم في المصير والجزاء في الحياة الآخرة : (26-28)،(49-64) [1] .

2- وفي قصص الأنبياء أيضاً ذكرى لرسول الله وللمؤمنين ، وهي المقصد الأصل للقصص [2] :
﴿<u>ٱصۡبِرۡ</u> عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ **وَٱذۡكُرۡ** <u>عَبۡدَنَا</u> دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ ص، ﴿**وَٱذۡكُرۡ** <u>عَبۡدَنَآ</u> أَيُّوبَ...﴿٤١﴾﴾ ص،
﴿**وَٱذۡكُرۡ** <u>عِبَٰدَنَآ</u> إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ ص ..

– حيث ضرب الله تعالى لهم أمثلة وقُدوات من عباده المتقين المخلصين على الاستقامة على أمر الله تعالى ، و<u>الصبر</u> على ما يترتّب عليها من ابتلاء أو فتنة (اختبار) .. مع الإنتباه إلى خصوصية مقام النبوة وعموم مقام الإيمان .. كـ عدم الاستعجال بسب التأثر بالواقع (داود) ، وعدم الإنشغال

1 - وفي التعقيب على قصص الأنبياء قال الله تعالى : (هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ{49}) ص ، أي هذا القرآن ذكر جميل في الدنيا لمن أخذه ، وشرف يُذكر فيه أبداً بالثناء والتكريم ، وإن لكل من اتقى ربّه وأطاع رسله ، حُسن جزاء ومرجع في الآخرة .. ثم فسّر الله تعالى هذا الجزاء في الآيات التي تلت . نقول : وهذا يذكّرنا بقوله تعالى : (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ{44}) الزخرف .

2 - من الملاحظ على القصص في السورة أنها لم تأتِ في سياق ما يواجهه الرسل من أقوامهم أثناء تبليغهم الرسالة ، بل جاءت في سياق علاقة النبي مع ربه ، وتحديداً في أن الله تعالى قد يبتلي عباده الأنبياء - وللمؤمنين نصيب كلٍ بحسب إيمانه - تزكية لهم وتطهيراً ، مثل الفتنة في الغنى والنعيم ، أو في الضر والاحتياج ، أو في الحكم والسلطان .. بمعنى أنه مهما كان نوع الفتنة (الإختبار ، الابتلاء) من الله ، فموقف عباد الله المصطفين الأخيار هو الصبر والأوب إلى الله: (إِنَّا وَجَدْنَاهُ <u>صَابِراً</u> نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ **أَوَّابٌ** {44}) ص .. ومع الصبر يأتي الفرج والنصر .

بالأمور المهمة عن الأمور الأهم (سليمان) ، والصبر الجميل على نقصٍ في العافية أو الأموال والأولاد (أيوب) .. فقد يؤدي بهم ذلك إلى " مخالفة " أمر الله تعالى ، كما حصل مع أنبياء الله الكرام .. ولكنهم بعد تلك " الفتنة " والإختبار عادوا وآبوا إلى الله ربهم ، فجازاهم بسبب ذلك خيراً كثيراً وعميماً .

وبقصد الاقتداء بهؤلاء الأنبياء الكرام ، عليهم السلام – أيضاً – ورد ذِكْر أوصاف : " أوّاب " [1] ، " كان صابراً " ، " نعم العبد " .. كذلك ، وصف بعض الأنبياء بـ " ذي الأيد " ، " أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ " .. أي أولو البصيرة والقوة والأعمال العظيمة في طاعة الله . ليقتدي النبي صلى الله عليه وسلم بهم ، ومعه المؤمنون ، في القوة في إقامة الدين والبصيرة في حقائق الأمور .

– وجملة { إنّا أخلصناهم } علة للأمر بذكرهم ، لأن ذكرهم يُكسب الذاكر الاقتداء بهم في إخلاصهم ورجاء الفوز بما فازوا به من الاصطفاء والأفضلية في الخير .

و{ أخلصناهم } جعلناهم خالصين ، أي طهرناهم من درن النفوس فصارت نفوسهم نقية من العيوب العارضة للبشر ، وهذا الإخلاص هو معنى العصمة اللازمة للنبوّة [2].

والباء في { بخالصة } للسببية تنبيها على سبب عصمتهم .. ثم بُيّنت هذه الخالصة – الخصلة الحميدة – بأقصى ما تُعبِّر عنه اللغة وهي أنها { ذكرى الدار } .. والذّكرى : اسم مصدر يدل على قوة معنى المصدر (التذكّر) مثل الرُجعى والبُقيا .. والدار المعهودة لأمثالهم هي الدار الآخرة ، أي يتذكّرون الآخرة بحيث لا ينسونها ولا يقبلون على الدنيا ، فالدار التي هي محل عنايتهم هي الدار الآخرة . قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « ما لي وللدنيا » [3] .

– وفي القصص بشارة بتغيير الله لحال رسول الله ، إلى العزّ والتمكين وسعة المُلك والخلافة في الأرض [4] ..

1 - " والأوّاب : الكثير الأوب ، أي الرجوع . والمراد : الرجوع إلى ما أمر الله به والوقوف عند حدوده وتدارك ما فرط فيه (يعني على العكس من عزة شقاق) . والتائب يطلق عليه الأوّاب ، وهو غالب استعمال القرآن ، وهو مجاز ولا تسمى التوبة أوباً " .

2 - ((وإسناد الإخلاص إلى الله تعالى لأنه أمر لا يحصل للنفس البشرية إلا بجعل خاص من الله تعالى وعناية لدنيّة بحيث تنزع من النفس غلبة الهوى في كل حال وتصرف النفس إلى الخير المحض فلا تبقى في النفس إلا نزعات خفيفة تقلع النفس عنها سريعا بمجرد خطورها . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إني ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة » صحيح مسلم (2702) ... وأشار قوله تعالى : (بخالصة ذكرى الدار) إلى أن مبدأ العصمة هو الوحي الإلهي بالتحذير مما لا يُرضي الله وتخويف عذاب الآخرة وتحبيب نعيمها فتُحدِث في نفس النبي صلى الله عليه وسلم ، شدة الحذر من المعصية وحب الطاعة ، ثم لا يزال الوحي يتعهده ويوقظه ويجنبه الوقوع فيما نُهي عنه ، فلا يلبث أن تصير العصمة ملكة للنبي يكره بها المعاصي . فأصل العصمة هي منتهى التقوى التي هي ثمرة التكليف ، وبهذا يمكن الجمع بين قول أصحابنا : العصمة عدم خلق المعصية مع بقاء القدرة على المعصية ، وقول المعتزلة : إنها ملكة تمنع عن إرادة المعاصي . فالأولون نظروا إلى المبدأ والأخيرون نظروا إلى الغاية ، وبه يظهر أيضا أن العصمة لا تنافي التكليف وترتّب المدح على الطاعات)) . أنظر (التحرير والتنوير- ابن عاشور) .

3 - حسن صحيح ، رواه الترمذي . والحاكم على شرط البخاري . قالها لعمر ابن الخطاب عندما دعاه لاتخاذ فراش أَوْثَر من ذلك الحصير الذي علّم بجنبه الشريف .

4 - ((وابتُدِئ بذكر داود لأن الله أعطاه مُلكا وسلطانا لم يكن لآبائه ، ففي ذكره إيماء إلى أن شأن محمد صلى الله عليه وسلم سيصير إلى العزة والسلطان ، ولم يكن له سلف ولا جند ، فقد كان حال النبيء صلى الله عليه وسلم أشبه بحال داود=>

– ذَكَر اسمَيْ الله : الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ.. العزيز الذي لا يُغالَب ، والوهّاب بغير حساب ، الكثير العطاء .. وضرب أمثلة لعطاء الله الجزيل بغير حساب لأنبيائه الذين ورد خبرهم في السورة .. وضرب أمثلة لرحمة الله تعالى بعباده الأنبياء وفَضْله عليهم ، وذلك تنبيها لذوى العقول الرشيدة والبصائر النافذة والقلوب السليمة ، على أن مَنْ صبر ظفر ونال الجزاء الحسن .. وما بعد العسر إلا اليسر .. قدراً وشرعاً .. إذ سلّط الله عليهم البلاءَ فتنةً واختباراً فصبروا ، ثم أزال عنهم ما نزل بهم ووَصَلهم بالآلاء والنعماء ، وليس ذلك فحسب ، بل جعَل الله تبارك وتعالى " مخرجاً شرعياً " لعبده الصابر أيوب عليه السلام من قسَمه ، بأن يتحلل منه بضرب زوجه بأهون شيءٍ عليه وعليها ، بأن يعمد إلى حزمة من مائة عود طرية ، فيضربها بها ضربة واحدة . كما قال تعالى : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ ص . فالجملة الاسمية : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ ﴾ علة لجملة : ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ..﴿٤٢﴾ ﴾ ص، وجملة : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ..﴿٤٣﴾ ﴾ ص، وجملة : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا...﴿٤٤﴾ ﴾ ص، (إنّ) مُغنية عن فاء التفريع (السببية) .. أي أنعمنا عليه بجَبْر حاله قدراً ، وبالتخفيف عنه شرعاً .. لأنه لم يكن إلا صابراً على ما أصابه . فلا بد من الصبر أولاً ، ثم يأتي الفرج والتخفيف.. قدراً وشرعاً .. فهُما كانا مكافأة على الصبر على البلاء احتساباً لله تعالى[1] ..

***

عليه السلام . وأدمج في خلال ذلك الإيماء إلى التحذير من الضجر في ذات الله تعالى [يعني بسبب موقف المشركين، وتكبرهم ومنازعتهم (عزة وشقاق)] ، واتقاء مراعاة حظوظ النفس في سياسة الأمة ، **إبعادا** لرسوله صلى الله عليه وسلم عن مهاوي الخطأ والزلل ، **وتأديبا** له في أول أمره وآخره مما أن يُتلقى بالعذل)) يعني تذكيراً له - عليه الصلاة والسلام - حتى لا يقع بما وقع به الأنبياء السابقين ، مما اضطرهم للتوبة والإستغفار . وهذا يشبه ما ذكره الله تعالى عن يونس عليه السلام في سورة القلم : (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ{48}).
(({ واذكر عبدنا داود } .. أي التذكّر ، وليس هو ذكر اللسان ، لأنه إنما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك لتسليته وحفظ كماله ، لا ليَعْلمه المشركين ولا ليَعْلمه المسلمين ، على أن كلا الأمرين حاصل تبعا حين إبلاغ المنزل في شأن داود إليهم وقراءته عليهم . ومعنى الأمر بتذكّر ذلك ، تذكّر ما سبق إعلام النبي صلى الله عليه وسلم به من فضائله ، وتذكير ما عسى أن يكون لم يعلمه مما يُعلم به في هذه الآية)) أنظر (التحرير والتنوير- ابن عاشور) . هذا ، وقد وصف الله تعالى داود - في هذه السورة وغيرها - بأوصاف كاملة فاضلة .. بينما في التوراة الموجودة الآن فقد وصفته - عليه السلام - بأقبح النعوت ؛ كالظلم والفسق والغدر واغتصاب النساء من الأزواج .. حتى قال المُسهمون في وضع قاموس الكتاب المقدّس صفحة 365 طبعة 15 آذار 1967 ما نصّه بالحرف الواحد : (ارتكب داود في بعض الأحيان خطايا يندى لها الجبين خجلاً) . وقد برّأ الله تعالى داود وجميع أنبيائه - عليهم السلام - مما ألصق بهم أولئك الكذبة الفجرة . والحمد لله رب العالمين .

1 - نقول : هذا المخرج الشرعي ، الأصل أن لا يُقاس عليه إلا في سياقه ، ودون تعميم . فهو بمثابة تصريح أو سماح بالأخذ بالرُّخص الشرعية وبالتخفيف في تنفيذ الأحكام الشرعية في مثل هذه الظروف الصعبة على حَمَلة الرسالة ، وعدم تَحْميلهم فوق طاقتهم ، رحمة بهم . ويؤيد هذا قول رسول الله : (إن عادوا فَعُدْ) لـ عمّار بن ياسر - رضي الله عنه - بعد أن أظهر الكفر بسبب شدة تعذيب الكفار له وقتل أبويه أمامه .. للتفصيل أنظرمثلاً (التحرير والتنوير- ابن عاشور) . ((وقوله : (نعم العبد إنه أواب) [ص:44] في أيوب ، مثل قوله في سليمان : (نعم العبد إنه أواب) [ص:30] ، فكان سليمان أوّابا لله من فتنة الغنى والنعيم، وأيوب أوّابا لله من فتنة الضر والاحتياج ، وكان الثناء عليهما متماثلا لاستوائهما في الأوبة وإن اختلفت الدواعي . قال سفيان : أثنى الله على عبدين ابتُليا : أحدهما صابر ، والآخر شاكر ، ثناءً واحداً . فقال لأيوب ولسليمان {نعم العبد إنه أواب})) .

هذا والله تعالى أعلم ، وأجلّ وأحكم ..

" والحمد لله الذي جعل كتابه كافياً عن كل ما سواه ..

شافياً من كل داء ..

هادياً إلى كل خير " ..

وهذا ما يسّره الله تعالى ..

وأما باقي السور فتبيانها يحتاج إلى مراجعة وإعادة تدقيق ..

ونسأل الله تبارك و تعالى أن ييسّر أمر إخراجها ..

ونسأله، سبحانه، الهدى والسداد والرشاد .

قائمة بأهم المراجع

- القرآن الكريم
- كتب السنة الشريفة

ملاحظة مهمة :

غير كتاب الله وسنة رسوله ، ليس هنالك مرجعاً محدداً لما قدمناه في هذا الجزء ، بل كانت عملية مسح ومراجعة واسعة لكتب التفسير ، وأسباب النزول ، والمفردات ، وقواميس اللغة .. وغيرها ، لإنتقاء أطايب الكلمات والجُمَل والتعابير .. ووضْعها بين يدي القارئ الكريم . وكان ذلك في الأعم الأغلب ، ليس بنصها وإنما بتصرّف فيها ، وقد يكون يسيراً أو غير يسير .. فالمقصود أن تصبح الجملة معبرة عمّا ترجّح عندنا من معاني وأفكار نريد إيصالها . لذلك ، في كثير من الأحيان لم نُشر إلى مرجع محدد لتعسّر ذلك الأمر علينا ..

ومن هنا ، فالمعاني والأفكار التي اعتمدناها وأوردناها فهي إما استقيناها من ذلك المورد العذب ، وقطفناها من تلك الحدائق الغنّاء .. أو مما فتح الله به علينا من فَهْم .. والحمد لله أولاً وآخراً ..

والمصدران الرئيسان لتلك المراجع هما :

- " المكتبة الشاملة " الإلكترونية .
- موقع " الدّرر السنيّة " على الشبكة .

الفهرس

48- سورة النمل		72- سورة		
49- سورة القصص		73- سورة		
50- سورة الإسراء		74- سورة		
51- سورة يونس		75- سورة		
52- سورة هود		76- سورة		
53- سورة يوسف		77- سورة		
54- سورة الحجر		78- سورة		
55- سورة الأنعام		79- سورة		
56- سورة الصافات		80- سورة		
57- سورة لقمان		81- سورة		
58- سورة سبأ		82- سورة		
59- سورة الزمر		83- سورة		
60- سورة غافر		84- سورة		
61- سورة فصلت		85- سورة		
62- سورة الشورى		86- سورة		
63- سورة الزخرف		87- سورة		
64- سورة الدخان		88- سورة		
65- سورة الجاثية		89- سورة		
66- سورة الأحقاف		90- سورة		
67- سورة الذاريات		91- سورة		
68- سورة الغاشية		92- سورة		
69- سورةالكهف		93- سورة		
70- سورة النحل		94- سورة		
71- سورة		95- سورة		

لإبـداء الرأي والنصيحة.. يمكن التواصل على البريد الإلكتروني التالي :

jawadrah1@gmail.com